

قدم له العماد أول

مصطفى طلاس

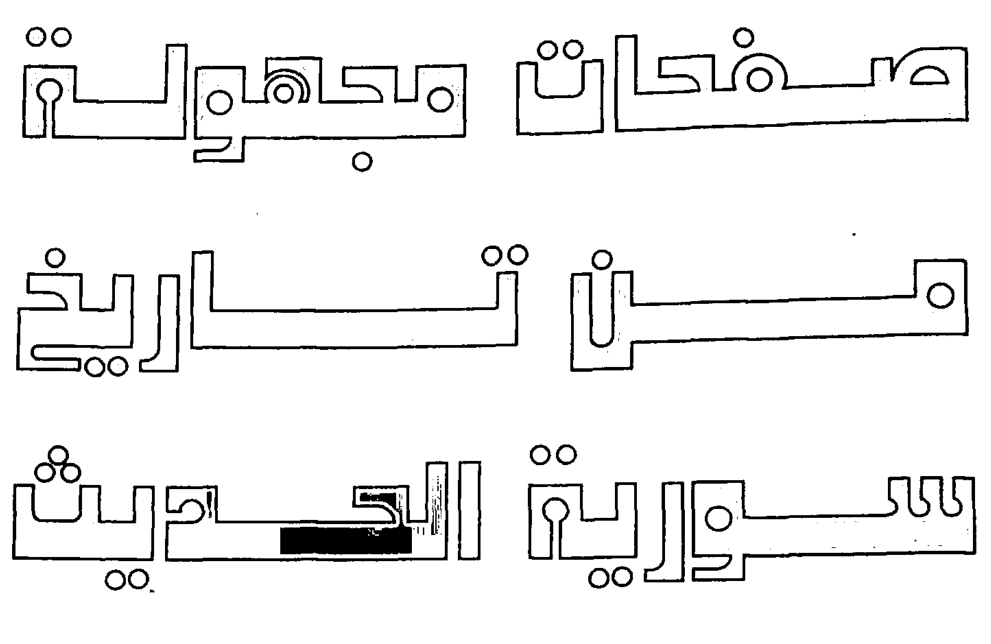
عبد الهادي البكار

صفحات مجهولة من تاريخ سورية الحديث

(ذكريات . معلومات . صور)

تصوير أبو محمد تنسيق جمال حتمل

عبد الهادي البكار



«ذكريات. معلومات. صور»

قدم له

العماد أول مصطفى طلاس

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن
فكـــر مؤلفيهـــا
ولا تعبـر بالضـــرورة عن رأي الدار

الطبعة الأولى ـ 2003 م

الإهـــداء

إلى الصديق الشهم الأكرم من الضروع، أبي فراس...
إلى الصديق الذي لم ألقه بعد، وقد ألقاه يوماً،
وقد لا ألقاه...
إلى شريك حافظ الأسد في الحركة التصحيحية التي
أعادت إلى الوطن السوري الغالي رَوْنَقَهُ وبَسْمَتَهُ
بعد سنوات الاكتئاب، وغسلت ملامح وجهه
المُغْبَرَّة بماءٍ كماءِ الكوثر الزلال..
إلى مصطفى طلاس الذي يعطي وكأنما هو الآخذ،
ويَسْقي غيرَهُ وكأنما هو الشارب؛ دون تمنين
ودون تفاخر، ولا إحراج...
إلى المدافع، مثلي، عن المظلوم ولو بعد حين،
الزارع الآمال في أنفس المحبطين اليائسين..
وإلى وطن العراقة والإبداع الأغلى من
حدقة العين: سوريا...

[توقيع]

القاهرة
ربيع العام 2003

تقديــم

العمــاد أول مصطفــى طــلاس

مؤلف هذا الكتاب، الإعلامي البارز الأخ عبد الهادي البكار، الذي لم ألتق به شخصياً، لكن أواصر الصداقة توطدت بيننا بمحض الصدفة عبر المراسلات والفاكسات المتعلقة بمخطوطة الكتاب شبه اليومية، والتي قرأتها قبل دفعها للطباعة، حيث لمست الجهد الكبير الذي بذله الأخ «أبو صخر» في ترتيب وتبويب ما تكدّس لديه من مقالات، منها ما نشر في الصحف ومنها لم يُنشر كما قال لي، وهو يعمل بشكل دؤوب متواصل ليطلع القارئ العربي على مكنونات صدره التي احتفظ بها على مرّ السنين في غربته التي دامت سنوات وهو يكافح ويناضل بقلمه في سبيل قيام وحدة عربية شاملة خالصة من الشوائب والثغرات التي واكبت تجربة الوحدة بين مصر وسورية، وقد تبلورت لديه أفكار وآراء آمن بها وهي خلاصة تجارب ومعاناة مكّنته من أن يضع يده على الجرح الدامي في جسد الأمة العربية وهو تباين المصالح وتباين الأمزجة في المجتمعات العربية التي اجتهد في تقسيمها إلى أربعة مجتمعات أسهب في وصفها وتحليلها. لقد تأثر المؤلف بحادثة إعدام أنطون سعادة، واغتيال العقيد عدنان المالكي، وكذلك فشل تجربة الوحدة بين مصر وسورية.

ولاشك أن تجربة لجوئه السياسي إلى مصر، وعمله في عدد من دول المغرب والخليج العربية، كل ذلك أكسبه تجربة عملية مع الواقع العربي، وانعكس ذلك بوضوح في آرائه الواردة في فصول الكتاب.

إن واقع التجزئة يفرض على المفكرين وأصحاب القلم أكثر من أي وقت مضى أن يستخلصوا الفكرة الخلاقة الأصيلة، بعد أن تراكمت الأحداث وتوالت بشكل دراماتيكي. فمنذ منتصف القرن العشرين المنصرم تضخمت الطروحات وكبرت الخلافات وتنوعت التجاذبات حول موضوع الوحدة ويجب ألا ننسى أن حركة القومية العربية نشأت في ظروف القهر الاستعماري، فكرست نضالها ضد الاحتلال إلى أن تشكلت الكيانات السياسية الحالية مما أدّى إلى تعاظم قطرية حركة (القومية العربية) التي انقسمت وتشتتت إلى أحزاب ومنظمات تلتقي في أفكارها أحياناً وتتباين في أكثر الأحيان.

لقد كان القوميون وبعض المثقفين يعتقدون أن الوحدة شيء يسمو على الجانب المادي وهي وإن تغلفت بغلاف سياسي، لا تتعدى الجانب الثقافي وبقيت تؤكد على الجوانب الحضارية واللغوية والتاريخية المشتركة، وهكذا كان العاملان السياسي والاقتصادي بعيدين عن فكرهم وبقيت الوحدة حبراً على ورق، ثم أصبحت مسألة سياسية قابلة للأخذ والردّ بعد سقوط أول وحدة عربية في العصر الحديث.

عقب الانتصار السياسي لعبد الناصر في حرب السويس، بدأ المشروع (العروبي) يأخذ مداه وأبعاده لقيام دولة مؤهلة لأن تكون دولة عظمى بكل المقاييس، ليس بسبب مساحة الوطن العربي وعدد سكانه الكبيرين أو تعدّد موارده ومواقعه الاستراتيجية، بل لأن مثل هذه الدولة إذا قامت، كان مقدّرا لها أن تلعب دوراً سياسياً واقتصادياً وحضارياً وثقافياً. ولأن موضوع الوحدة لا يمكن دراسته بعيداً أو بمعزل عن الصراعات الدولية على المنطقة أصبحت قضية الوحدة قضية مركبة ومعقدة ذات أبعاد مختلفة تتعلق بالبنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العربي على المستويين الرسمي والشعبي. وبعد أن أصبحت الوحدة العربية مطلباً جماهيرياً، ينبع من إيمان الجماهير تلبية لحاجاتها العميقة وتحقيقاً لتطلعاتها رغم أخطاء

الأفراد، والحكومات التي جهلت وضلّت طريق الوحدة، إلا أن الجماهير بقيت تعلق كل آمالها بالوحدة العربية ولا ترضى عنها بديلاً، وحتى لا يقف بعض رجال السياسة موقفاً معادياً للجماهير، ركبوا قطار الوحدة. وهنا سرّ ومكمن الخطأ في فهم أحداث التاريخ، فالنية الحسنة والإيمان بالقضايا الشخصية لا يصنعان أمجاداً ودولاً، خاصة إذا ما أضفنا إلى ذلك كله أن صورة الوحدة في أذهان ذلك الجيل هي صورة عقلية مجردة وليست حسية ملموسة، فقد كانت الوحدة مفهوماً، وليست نضالاً يومياً، وهذا بطبيعة الحال يعود بنا إلى واقع التجزئة الذي عاشته الأمة العربية بُعيد الحرب العالمية الأولى، مرغمة بفعل إرادة غاشمة، بالإضافة إلى صراعنا مع العدو الصهيوني والقوى الدولية المؤيدة له فأصبح كل تأخير في تحقيق الوحدة. إنما هو ترسيخ للقطرية ودعوة صريحة للتشرذم العربي.. وهكذا كبرت الأحلام وكبر معها الصراع والمؤامرات.

ومن الطبيعي أن أختلف أو أتفق مع بعض أو كل ما جاء في هذا الكتاب، لكنني أدعو القرّاء والباحثين والدارسين أن يستمعوا إلى الأخ البكّار كصديق للتاريخ، كتب ما كتب مدفوعاً بعواطف جياشة مليئة بالأحزان والمآسي الشخصية والهزائم على المستويين، الذاتي والقومي. وعندما ماتت الأحلام باغتيال الوحدة، كان لابدّ للسفر نحو بلاد بعيدة، فأخذ العالم يضيق من حوله، إلى أن أصاب الحصار من الأحلام مقتلاً، فاستكانت الروح وبدأ القلم يخّط حروفه بعيداً عن سحر الكلمات، واكتفى المؤلف بقدر قليل من فلسفة الأحداث وتصوير المشاهد، مستفيداً من أدقّ التفاصيل التي كان قريباً منها مباشرة أو من وراء الكواليس. لقد قدّم عبد الهادي البكار أحداثه غير المتسلسلة على شكل صور تاريخية كإعلاميّ نشيط يدرك قيمة الأشياء بعد حدوثها، لذا حاول الأخ البكّار أخذ مكان المؤرخ والباحث، بلغة نشتمّ منها رائحة العبرة حيناً والموعظة أحياناً أخرى، عن حقبة لا يزال يكتنفها الغموض، خاصة وأن منطق التاريخ يختلف عن مفاهيمنا المليئة بالفضيلة والأخلاق.

ختاماً لابد لي من ذكر هذه الحادثة التي جرت معي في صيف العام 1974 عندما قلت لكسينجر: أنتم ترغبون في تطويق الاتحاد السوفييتي بأحلاف عسكرية في الغرب والشرق.. لماذا لا تعطون الضوء الأخضر للدول العربية الدائرة في فلككم من أجل الانخراط بوحدة عربية من المحيط إلى الخليج وبهذا سوف يغفر لكم العرب من ذنوبكم سابقاً ولاحقاً.. فأجابني: في هذه الحالة تصبحون أنتم عدونا الأول.. وليس الاتحاد السوفييتي... صديقي الجنرال طلاس يجب أن تعلم أن الدول العظمى لاتريد أن ترى أبداً تجمعات وحدوية وإنما تريد أن يظل العالم على صورة دول مهمشة مثل الفسيفساء، واللاعبون الكبار يلعبون بها مثل بيادق الشطرنج.

والله من وراء القصد

الشآم في الثالث والعشرين من أيلول/ سبتمبر 2003

مقدمة المؤلف

فصول كتابي هذا جميعها، خَطَطتُها في فترات متباعدة، وفي مواقع ومواضع وأماكن مختلفة في القارتين الآسيوية والأوروبية ما بين العامين 1985 و 1994؛ ثم حدث ما دفعني إلى التفكير بنشرها في كتاب مطبوع، وبعد حوار طال أمده مع الصديق العماد أول مصطفى طلاس؛ أرسلت المخطوطة إليه صيف العام 1996، وبعد إطلاعه المفترض عليها، أحالها إلى الجهة الرقابية في وزارة الإعلام السورية التي مهرت المخطوطة بخاتم الموافقة على طبعها ونشرها، وكان المفترض إصدار الكتاب في العام 1996، إلا أن إصداره لم يحدث، «لأسباب خاصة لا مجال لذكرها، وتمّ تخزين المخطوطة إلى جانب عشرين مخطوطة بقلمي، لم أدفع بها للنشر».

جميع تلك الوقائع، حدثت في فترة عهد الرئيس الراحل حافظ الأسد، تأكد خلالها يوماً بعد آخر، اعتلال الفكرة العربية القومية، وربما اضمحلالها في العالم العربي، كما تأكد خلالها احتياج دول بلاد الشام إلى استنهاض قوتها الذاتية الإقليمية، وهي القوة التي دعا أنطون سعادة، مؤسس الحزب القومي السوري الاجتماعي، بل سعى إلى إنشائها، ضمن إطار العقيدة المنمحورة حول فلسفة وجوب العودة إلى مفهوم وحدة الأراضي الطبيعية التاريخية؛ وبخاصة أن إقدام الرئيس المصري الراحل محمد أنور السادات على توقيع معاهدة كامب ديفيد، وياسر عرفات على توقيع معاهدة أوسلو، والملك حسين على توقيع معاهدة (وادي عربة)، قد أسس البرهان المحسوس على أن قومية الموقف العربي إزاء العدو الصهيوني وحليفاته، ليست سوى أناشيد وشعارات وأغنيات، وعلى أن دعوة أنطون سعادة إلى توحيد الأشلاء والأجزاء السورية المبعثرة في الأراضي الطبيعية السورية التاريخية الموحدة حتى تفعيل معاهدة سايكس ـ بيكو في العام 1920، لم تكن هي الخطأ أو الانحراف، بل كانت هي الصَّواب الذي تجلى وما يزال يتجلى في وحدة الموقف السوري ـ اللبناني، النضالي التحرري النهضوي.

من هنا تحديداً، بدأت العودة في بلاد الشام، إلى أطروحة انطون سعادة، وبخاصة بعد سقوط التجربة الوحدوية السورية ـ المصرية؛ وعجز الأحزاب والتنظيمات العربية القومية عن تجسيد الشعارات التي انضوت تحت ألويتها، في واقع جغرافي محسوس. وإذا كانت أية (دولة قطرية) في الأقاليم السورية لم تتمكن

حتى اليوم، رغم توافر جميع هذه المعطيات المستجدات، اختراق الحاجز الغامض الذي فصمها منذ وقوع عملية اغتيال عدنان المالكي في منتصف عقد الخمسينيات من القرن العشرين الذاهب، وما أعقبها من سلسلة عمليات التدمير المحكم التي مني بها الحزب القومي السوري الاجتماعي في الوطن العربي، وبخاصة في سورية ولبنان، عن أطروحة أنطون سعادة ومشروعه المجهض، فإن المؤكد أن الوجدان الشعبي الجمعي في جميع الأقاليم الشامية المجزأة بسكين (سايكس – بيكو)، قد راح يمتلئ بالاقتناع العميق بنجاعة العودة إلى مشروع أنطون سعادة؛ وبالشوق الساخن إلى استنهاجه، ورد الاعتبار علانية لا مواربة، إليه.

بالنسبة إليّ كشخص، فقد مضت حتى هذا العام أربعون سنة على تنقُّلي بين الأقطار العربية خارج منطقة بلاد الشام، كمقيم في هذا القطر أو ذاك، لا كزائر أو سائح عابر؛ وقد حاولت خلالها ولا أزال أن أبحث جاداً مجتهداً، عن هذه العروبة القومية التي كرست لها سنوات صباي وشبابي كلها، دون جدوى... وغاية ما عثرتُ حتى الآن عليها منها، هو كونها (حالة ثقافية) عربية قومية، لا أكثر. ثم كان علي أن أطرح هذا السؤال العسير على وجداني وعقلي: هل تُجدي المكابرة؟ وهل ينفع الاستمرار العنيد بمعاقرة أحلام وأمان وتطلعات لا يبدو منذ حين وحتى إشعار آخر غير محدد لا في الزمان ولا في المكان العربيين أنها قابلة للتجسيد؟ وإذا كانت الغالبية العربية قد استمرأت وتعودت واستطابت ذائقتها طعم هذه الأوهام الطوبائية، فهل الخضوع إلى هذه الغالبية، هو الحل؟ أم أن الواجب والفضيلة والحصافة في آن، تقضي بأن تجيز لنفسك فك ارتباطك بهذه الغالبية، لتكرس قدراتك فيما هو أنفع للأمة التي تنتسب إليها؟

هذا السؤال، وتداعياته، هو الذي أنعش رغبتي الكامنة بدفع فصول كتابي إلى النشر.. لكن، كيف ومتى ستتاح لي فرصة تحقيق هذه الرغبة؟

المصادفة وحدها هي التي يَّسرت لي أن أحظى بفرصة طارئة، لنشر هذه الفصول، في هذا الكتاب المطبوع الذي آمل أن يصل إلى جمهور القراء في بلاد الشام، وخارج حدودها أيضاً. وعلى الله وحده الاتكال..

ع.ب

قبل أن تقرأ هذه الفصول ...

منذ أكثر من خمسة عشر عاماً مضت؛ اخترت لنفسي الاعتكاف في منزلي لا أخرج منه إلا اضطراراً. أبلغت القاصي والدّاني أنني اتخذت قراري بألاَّ أَزوْرَ، وبألاَّ أُزار؛ فقد أرْهَقَ أعصابي هذا التسارعُ المضطرد في إيقاع الحياة اليومية العربية، وهدَّني أن أكتشف أن كل شيء في عالمنا العربي قد أصابه الانقلاب؛ حيث أمست الأرض فضاءً، والفضاء أرضاً، والبريء مذنباً، والجاهل محسوباً على فصيل العلماء....

- في مناخ الاعتكاف غير القسري هذا، كان صديقي وعشيقي هو الكتاب؛ وكانت لغة صمتي هو التأمل. أصبح الغوص في قيعان التاريخ هوايتي وغوايتي ورياضتي الذهنية اليومية.
- قرأت عشرات الألوف من الصفحات المطبوعات في كتب جليلة، وما أزال أحس بعدم الارتواء وبعدم الاكتفاء... إنه العطش الذي لا ارتواء ولا اكتفاء معه وبعده.
- غصت ولا أزال في عمق تاريخ منطقة الشرق الأدنى الموصوفة اليوم بالشرق الأوسط، بخاصة تاريخ مصر القديم، وتاريخ فينيقيا وآرام وأرض كنعان. وفي رحلة الغوص هذه المبهجة للعقل والنفس والوجدان في آنْ، عثرت على كنوزي الفينيقية الآرامية السورية العربية القابعة في قاع التاريخ؛ ورأيتُني في مراياها مثلما رأت هي ملامحها في مرآتي القابعة تحت جلدي. وبمقدار ما تقاربت منها بكل التلهف والفرح والاندهاش، تقاربت هي مني. عانقتها وعانقتني، ثم تحوّل العناق هذا إلى تلاحم لا انفصام بعده.

في عالم الاعتكاف كنتُ وما أزال أمتص أكثر مما أفرِز.

قرأت بإمعانٍ، باستمرار في الليل والنهار، وما أزال؛ وكلما داهمني الفيضان، أفرغته عبر القلم في الصفحات البيض المحايدة الطيّعة. هكذا، سنةً بعد أخرى، زاد عدد الصفحات المخطوطات إلى أن تجاوز عشرين مخطوطةً مخزونة في غرفة نومي في صناديق كرتونية بقياسات وأحجام

مختلفة، كلما داهمتني الرغبة بنشرها على الناس في كتب مطبوعة، رَدَعْتُها وخنقتها وهي في مهدها، وآثرت عدم نشرها لسبب لا أدركه.

قبل أشهر قليلة؛ عثرت وأنا أحاول استكشاف ما هو مكنوز من أوراقي في واحد من الصناديق الكرتونية، على فصولٍ ربما أكون بدأت بكتابتها وأنا مقيم في بلجيكا عام 1985، عن سورية والقضيتين الفلسطينية واللبنانية؛ وعن موقف أنطون سعادة من مسألة الوحدة الطبيعية؛ لكنني لسبب لا أدركه كنت آثرت عدم نشرها، وتحنيطها لوأدها إلى جانب أخواتها الموءودات في الصناديق الكرتونية الكثيرة.

كنت يومئذ فرغت للتو من قراءتي نص الخطاب الذي ألقاه الرئيس حافظ الأسد في مجلس الشعب السوري في مناسبة افتتاح الدور التشريعي السادس، والذي أثار إعجابي إلى حد الانبهار؛ فحافظ الأسد قارئ للتاريخ قراءة ممتازة، ومن لا يقرأ التاريخ لا يدرك ثوابته وقوانينه وحتمياته، ولا يكون مؤهلاً لصنع أمجادٍ لوطنه وأمته، باقية خالدة.

وأنا بعيدٌ عن جغرافية الوطن طيلة الأعوام الأربعين الماضية، بقي الوطن السوري العريق الغالي كعبتي التي يسافر إليها الشوق، ثم يرتد ليسافر إليها، ومن ثم يرتد مرة أخرى جديدة ليُسافر إليها من جديد..

حين رحلتُ خياراً عن الوطن عام 1962، كان يحدوني شعور بأنني إنما أرحل عن الوطن الصغير لأُوَثِّق انتمائي إلى الوطن الأكبر. إلا أن غربةَ عن الوطن امتدت حتى اليوم حوالي أربعين عاماً قد ذهبت؛ جعلتني أكتشف استحالة أن تكون قومياً مفيداً ما لم تكن أولاً وطنياً مفيداً؛ وإن أنت خاصمت وطنك، خاصمتك في نهاية الشوط قوميتك ونفسك؛ ولم تعد مفيداً لا لوطنك ولا لشخصك، ولا لقومك أيضاً.

حين هجرت الوطن إلى الرحاب العربي الأشمل؛ كنت أفصِل فيما بين الوطن، وقائد الوطن، ونظام الوطن السياسي. غير أن تجربة الاغتراب المريرة هدتني إلى ما كنت في حاجة إلى اكتشافه: إن الوطن ليس هو الجغرافيا. إنه الجغرافيا والشعب والنظام الوطني والقائد، والتاريخ، والمستقبل، والحاضر، في آن، مختلطة.

من موقعي، بعيداً عن جغرافية الوطن، كنت وما أزال أرى الوطن على نحوٍ أكثر وضوحاً. ومن موقعي هذا البعيد عن جغرافية الوطن، شهدت كيف أنتقل الوطن مذ قام الرئيس حافظ الأسد بالحركة التصحيحية عام 1970، من حال الاضطراب إلى حال الاستقرار، ومن نجمةٍ إلى قمر، ومن قمر إلى شمس ساطعة..

خلال تلك الأعوام التي أعقبت قيام الحركة التصحيحية، كبُر حجم الوطن، وعظِمَ شأنه في نظر الأصدقاء وجميع الأعداء، وعلا قدره في الساحات العربية والدولية، اشتد عوده، وتحولّت عيدان القصب في حقوله إلى أشجار دُلبٍ وسنديان. ارتدى الوطن ثوب الجلال، ثم أصبح صوته الهامس هو المسموع أكثر، وبوضوح أشد. كل هذه التحولات نحو الأحسن الأفضل الأعظم شهدناها بوضوحٍ شديد ونحن خارج حدود جغرافية الوطن؛ ربما أكثر ممن هم داخل الوطن «فأنت في الغابة لا تراها؛ فانظر إليها وأنت بعيد عنها حتى تراها كاملة». كما يقول مثل شعبي فرنسي.

من موقعنا خارج حدود الوطن، استحال علينا أن نرى حدوداً تفصل الوطني الكلي الجغرافي الطبيعي التاريخي عن بقية أجزائه السليبة: لواء إسكندرون، لبنان، الأردن، فلسطين. فإن شئت، أو شاء غيرك أن يرى ما رأيناه؛ فليمتط طائرةً تُحلق به فوق جميع هذه المواقع، الأقاليم، فإن الوطن السوري الكلّيَّ من منظور البعد، أفقياً، وعمودياً؛ يبدو جغرافيةً متجانسة موحدة تغفو على وسادة التاريخ الواحد المشترك الذي تنمُّ عنه شواهده الآثارية.

من هنا يمكن اكتشاف الدوافع الغريزية التي تحرِّض الوطن الشامي الجغرافي الواحد على رفض تجزئته ببتر أطرافٍ منه عنه؛ وبخاصة وأن التاريخ يحمي جغرافيا الوطن، وخميرة وحدته الاجتماعية. لا يملك أحد استعادة التاريخ مرة أخرى ليعيد صوغه على نحو مغاير لما كان أو ما يزال عليه. إن للتاريخ حصانتهِ الذاتية. وتاريخ سورية الطبيعية الكلية يُحصِّن جغرافيتها المتجانسة. كلُّ ما هو خارج عن إطار الجغرافيا والتاريخ، ليس سوى زبدٍ وفقاعات عارضة غير مرشحة للبقاء الخالد.

ومن هنا بالتحديد، يمكن اكتشاف المسوّغات التي جعلت وتجعل من سورية وطناً معنيّاً بالمسائل والقضايا والهموم اللبنانية والفلسطينية والأردنية على سبيل المثال. إن آلام هذه الأطراف تنعكس تلقائياً وغريزياً على عَجُزها وجِذْعها بعد أن تنعكس بالسرعة الفائقة الفورية على دماغها وعمودها الفقري في دمشق، حيث العقل المركزي لإدارة الصراع مع الأعداء، إنْ بالحرب أو بالسلم الذي تتغير فيه أساليب وأدوات الاستمرار بالصراع.

من هنا أيضاً، يمكننا اكتشاف الخطأ الفادح الذي مارسته القيادتان الفلسطينية والأردنية الرسميتان حين آثرتا التفاوض مع العدو التاريخي للأمة التي ننتسب إليها، في معزل عن التنسيق الذي كان متاحاً لكل منهما مع (عقل) التاريخ والجغرافيا لمنطقة بلاد الشام، وهو العقل الساكن دمشق.

من هنا أيضاً تبرز أهمية ووحدة الموقف السوري واللبناني من قضية الصراع مع إسرائيل.

بعد هذا الإيضاح يصبح مفهوماً بيُسرٍ كما أقدر، لماذا أطلق اليوم سراح هذه الفصول التي خَطَطْتُ بعضها منذ حوالي نيّف وعشرين سنة مضت؛ لتطبع في كتاب ينشر على الناس، في هذا التوقيت المحسوب المقصود. الذي ما تزال فيه قضيتا الحرب والسلام تتصارعان محوّمتين فوق جميع أقاليم الأراضي الطبيعية الجغرافية التاريخية الشامية الكلية، وهي ذات صفة جغرافية طبيعية تاريخية واحدة مشتركة، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، ومصيراً، بصفةٍ نهائية...

الفصـــل الأول 1

- هل نحن حقاً مجتمع عربي واحد، أم نحن أربعة مجتمعات على المستوى الجغرا ـ مزاجي؟
- من الكاسب من وراء محاولة اغتيال عبد الناصر في (منشية الإسكندرية) عام 1954، ومن الكاسب من وراء اغتيال عدنان المالكي في (الملعب البلدي) في دمشق عام 1955، ومن الذي اغتال عام 1966 عبد السلام عارف في العراق؟
- هل نحن نعيش عصر بلورة المجتمعات الجغرافية الطبيعية الإقليمية المتجانسة: كمجلس التعاون الخليجي، ومجلس التعاون المغاربي؟ لماذا ولمصلحة من ينكر إذا بعض العرب الآخرين على مجتمع بلاد الشام المتجانس الممزق المجزأ؛ أن يحاول استعادة وحدته الطبيعية السياسية التاريخية الطبيعية مرة أخرى؟
- من ذا الذي رسم الحدود الفاصلة اليوم بين سورية، وفلسطين، والأردن، ولبنان؟ وعلى من تقع مهمة إزالة هذه الحدود، وهي مهمة تحررية وحدوية، سورية شامية بالمقام الأول، عربية قومية في نهاية المطاف؟

حين أطلت الشهيدة اللبنانية سناء محيدلي عبر شاشة التلفزيون الأوروبية ذات مساء من شهر نيسان/ أبريل 1985 لتتحدث عن عزمها على التضحية بذاتها كشخص، بسيارة مفخخة أبادت بانفجارها عدداً من الجنود الإسرائيليين فوق أرض لبنان بهدف بعث الروح ولو جزئياً في الكرامة العربية الميتة، وحضّها حضّاً على الاستيقاظ من غفلتها الحضارية وكبوتها التاريخية وهي تحت ركام الماضي وعفونة الحاضر، لاحظ الكثيرون وهم يشاهدونها ويستمعون إليها محدّقين بإعجابٍ في وجهها الفتيّ المتفجر بملامح الصبا النّضرة، ما كان معلقاً وراءها على الجدار الذي لُصِقت عليه رموز وأشكال تعني الكثير لمن يعرفها: شكل (الزوبعة) القريب من شكل نجمة معقوفة الرؤوس، وصورة جانبية لوجه رجل قد يكون الذي كانوا عرفوا من هو يومئذ، وما كان في تاريخ الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات في كل من سورية ولبنان، هم القلة القليلة لا في أوروبا وحدها، بل وعلى شمول الأرض العربية كلها بصورة عامة أيضاً، باستثناء بلاد الشام.

تلك الصورة الفوتوغرافية التي كانت لصيقةً بالجدار وراء سناء محيدلي وهي تتحدث، كان المصور السوري المعروف (نوفل) [1] وهو من الجنوب اللبناني أصلاً ــ التقطها في الاستديو الخاص به في منطقة السنجقدار في دمشق في العام 1949 لمؤسس الحزب القومي السوري الاجتماعي أنطون سعادة الذي كاد حزبه أن يسيطر على مؤسسات السلطة في لبنان أكثر من مرة في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين.

ولقد قام أنطون سعادة اللبناني المسيحي الأرثوذكسي الشاب بتأسيس الحزب في أواسط الثلاثينيات في الوقت الذي كان فيه لبنان رازحاً تحت وطأة الاستعمار الفرنسي المباشر، وفي الوقت الذي أقدم فيه شاب مسيحي لبناني ماروني آخر وهو بيير الجميل على تأسيس حزب الكتائب الذي حاول منذ البداية ــ شأنه في ذلك شأن الحزب القومي السوري الاجتماعي ــ

إحداث توازن بين البرامج والأفكار التي طرحها، والقوة المادية المسلحة الذاتية التي من مهماتها حماية هذه الأفكار وأصحابها، وشق الطريق أمامهم بالقوة المسلحة نحو مرابع السلطة، لكن حزب الكتائب بدأ بعد سنوات كثيرة من إنشاء الحزب القومي السورية، وعلى أساس أن الكتائب نادٍ رياضي للعبة كرة القدم.

قام حزب الكتائب برفع شعار (لبنان للبنانيين)، وناضل باستمرار لتحقيق واحد من أهم أهدافه الوطنية هو إنجاز هدف فصل لبنان عن سورية الأم فصلاً تاماً، وفك هذا الارتباط الاستثنائي القائم فيما بينهما، أي (تحرير) لبنان الأصغر من سورية الأكبر الأقوى، وهو الهدف الذي سعى إليه الفرنسيون خلال احتلالهم كلاً من سورية ولبنان مع نهاية الحرب العالمية الأولى. تنفيذاً لمعاهدة (سايكس ــ بيكو).

أما الحزب القومي السوري الاجتماعي بزعامة مؤسسه أنطون سعادة فقد قام ليدعو لا إلى إلغاء فكرة فصل لبنان عن سورية ومناهضة فكرة تحرير لبنان من الهيمنة السورية غير المباشرة، بل إلى توحيد الأمة السورية التي كانت تفترش في أحقاب سالفة رقعة جغرافية من أرض الشرق الأدنى القديم، تشمل كلاً من سورية بحدودها الحالية، ولبنان وفلسطين بما فيها سيناء والأردن، وجزءاً من الأراضي الغربية العراقية.

قام الحزب القومي السوري يدعو إلى تحقيق نهضة حضارية للأمة السورية بداية من العمل على توحيد أراضي سورية الطبيعية الجغرافية الشاملة للأقاليم التي أشرنا إليها، علماً بأن تلك الدعوة بدأت قبل النكبة الفلسطينية، أي قبل ضياع فلسطين التي ظل أنطون سعادة بصفة خاصة يرفع صوته منبهاً إلى احتمال أن تضيع أرضها، وأن يشرّد شعبها مؤكداً أن القضية الفلسطينية هي قضية سورية أولاً[2]، لأن فلسطين في رأيه هي الجنوب من الأرض التاريخية السورية، كما أن سيناء الآسيوية هي قشرة الأرض الجنوبية السورية. على المستوى التاريخي يمكننا ملاحظة أنَّ فرعون مصر حين طرد موسى وأهله من قبيلة راحيل إلى خارج الأراضي المصرية الأفريقية إنما طرده إلى أرض التيه (سيناء) التي كانت ــ وهي

جزء من آسيا ـ لا تشكل إذن جزءاً تاريخياً من الأراضي المصرية الإقليمية في تلك المرحلة من التاريخ، وإنما كانت تعتبر بالفعل قشرة جنوبي سورية: فلسطين... (ومن الملاحظ أن التراث الثقافي، والتقاليد والأعراف والعادات في سيناء جزء من تراث وعادات وتقاليد بادية أهل بلاد الشام).

كان هدف فرنسا تفتيت المنطقة السورية إلى أقاليم، وكانت دعوة أنطون سعادة تناهض الجهود الفرنسية ولا تتفق معها، وهو الأمر الذي دفع فرنسا إلى اعتقاله وبعض رفاقه قادة الحزب في لبنان بتاريخ 10-12-1935، وإلى إحالته إلى المحاكمة بعد سنة من اعتقالها إياه في أحد السجون اللبنانية، عام 1936، وهي المحاكمة التي انتهت إلى عكس ما هدفت إليه فرنسا، حيث أدى صمود أنطون سعادة وهو في السجن، ورفعه يومئذ شعار «الحياة وقفة عز فقط» خلال محاكمته، إلى التفاف الكثيرين من الطلبة والمثقفين والشبان حول شخصه كزعيم سياسي، وحول الحزب، والتوجه للانخراط فيه.

في العام 1938 أفرجت السلطات الفرنسية عن أنطون سعادة وطلبت إليه الرحيل عن لبنان إلى أي منفى يختاره هو، فاختار الرحيل إلى إحدى مناطق أمريكا الجنوبية حيث كانت تقطن غالبية المهاجرين السوريين واللبنانيين، هي البرازيل، التي مكث فيها أنطون سعادة طيلة السنوات التي استغرقتها الحرب العالمية الثانية.

في 2-3-1947 بعد سنة من حصول سورية ولبنان عن استقلالهما عاد أنطون سعادة من منفاه إلى لبنان، ليبدأ الكفاح من جديد في سبيل وحدة الوطن السورية، وليقوم بإجراء بعض التعديلات في طروحات حزبه بحيث أصبح يهدف منذ ذلك التاريخ إلى إقامة سورية الكبرى بحيث تضم كافة الأراضي السورية التالية: سورية بحدودها المرسومة حسب اتفاقية سايكس ـ بيكو. لبنان، فلسطين، الأردن، العراق، وجزيرة قبرص التي كانت في مرحلة من التاريخ سابقة هي المركز البحري للفينيقيين العرب السوريين، والتي سماها البعض بـ (نجمة الهلال الخصيب) [(3)] التي تعني توحيد هذه الأقطار التي أشرنا إليها في دولة قوية واحدة هي (سورية الكبرى).

كان أنطون سعادة شديد الحرص على التنبيه إلى احتمال ضياع (جنوبي سورية ــ فلسطين)، وإلى ضرورة العمل على إقامة الدولة السورية الكبرى القوية الموحدة قبل أن تتمكن الصهيونية العالمية من تحقيق حلمها الكبير بعودة اليهود إلى الأراضي التي كان العبرانيون وبنو إسرائيل قد اغتصبوها اغتصاباً من أصحابها (الفلسطينيين) في (أرض كنعان) قبل ولادة المسيح بألف ومئتي سنة على وجه التقريب، وحتى ما قبل ولادته بستمائة عام[4].

منذ العام 1946، أي منذ حصول كل من سورية ولبنان على الاستقلال، بدأت محاولات الحزب القومي السوري بزعامة أنطون سعادة تتعاظم بهدف تحقيق حلم توحيد أراضي كل من سورية ولبنان أولاً، كخطوة أولى هامة نحو تحقيق الحلم الأكبر بإقامة الدولة السورية الواحدة الكبرى، إجهاضاً لمحاولات الصهيونية العالمية إقامة دولة إسرائيل في فلسطين، وهو الأمر الذي دفع حزب الكتائب الماروني المسلح الرياضي إلى شن هجوم على مقر الحزب القومي السوري وعلى مقر جريدته (البناء) في بيروت أوائل العام 1949، حيث تمكن أنطون سعادة من اللجوء إلى سورية التي سرعان ما شهدت انقلابها العسكري الأول بقيادة حسني الزعيم[5] بعد وصول أنطون سعادة إلى دمشق بثلاثة أشهر (وقد تأكد فيما بعد أن انقلاب حسني الزعيم كان من صنع المخابرات الأمريكية، بل السفارة الأمريكية في دمشق بالتحديد بالتنسيق مع شركة التابلاين النفطية الأمريكية).

كان من السهل على أنطون سعادة التأثير في شخص حسني الزعيم الذي كان يرى في رياض الصلح الزعيم السياسي المسلم السني في لبنان، عائقاً ضد طموحاته... وهكذا، بناء على العداء المشترك بين كل من أنطون سعادة وحسني الزعيم العميل الأمريكي من ناحية، ورياض الصلح المسلم السني العروبي من ناحية أخرى، قام بين الزعيم وسعادة تحالف مرحلي مشترك تمكن الحزب القومي السوري بموجبه من الحصول على كميات من الأسلحة السورية من مخصصات (الدَّرك) وهي الأسلحة التي استخدمها رجال الحزب القومي السوري في محاولة للسيطرة على أجهزة السلطة اللبنانية بالقوة بعد ذلك بأشهر قليلة.

في الوقت الذي كان أنطون سعادة يقود تلك المحاولة من مركزٍ ما سماه بـــ (الثورة الاجتماعية) في مكانٍ ما من الأراضي السورية في يوليو/ تموز 1949.. فشلت المحاولة الانقلابية التي قام بها الحزب القومي السوري للسيطرة على مؤسسات السلطة في لبنان، وبفشل تلك المحاولة حاول حسني الزعيم بدوره التملُّص من مسؤولية تحالفه مع أنطون سعادة بأبشع عملية غدر يمكن أن يقوم بها حليف ضد حليفه: ففي مساء 6-7-1949 أمر حسني الزعيم؛ باعتقال أنطون سعادة في الأراضي السورية، وبتسليمه فوراً إلى مبعوثين لبنانيين هما فريد شهاب مدير الأمن اللبناني العام ونور الدين الرفاعي (وقد كان واحداً من كبار ضباط الأمن العام في لبنان)، اللذين قادا أنطون سعادة وهو مصفد بالأغلال إلى بيروت حيث تمَّ إعدامه بالرصاص بعد محاكمة صورية خاطفة فجر 8-7-1948 . وقد رفض أنطون سعادة وضع عصابٍ على عينيه خلال تنفيذ حكم الإعدام به بالرصاص الذي جابهه بصدره وهو شامخ الرأس مفتوح العينين، يبارك قاتليه.

- باع حسني الزعيم أنطون سعادة إلى رياض الصلح[6] رئيس وزراء لبنان باتفاقية اقتصادية سرعان ما تم التوقيع عليها عقب إعدام سعادة، بين سورية ولبنان؛ وكانت جميع بنودها لصالح حسني الزعيم ونظامه الذي لم يعمر طويلاً في سورية.

بتاريخ 16-7-1949 أصدرت الحكومة اللبنانية قراراً بحل الحزب القومي السوري، وبمصادرة جميع ممتلكاته وأمواله، وزجَّت بالكثيرين من أعضائه في السجون دون محاكمات، بينما فرَّ الكثيرون من أعضاء الحزب اللبنانيين إلى سورية التي أظهر شارعها الشعبي السياسي تعاطفاً حميماً معهم ومع الحزب، وأسفاً وحزناً على نهاية زعيمه بتلك الطريقة الفاجعة.

بانقلاب سامي الحناوي على حسني الزعيم في 14-8-1949 أعلن الحزب القومي السوري العودة إلى نشاطه فوق الأراضي السورية: افتتح لقيادته المركزية مقراً يقوم وراء مبنى الهاتف الآلي في شارع النصر (جمال باشا) في العاصمة السورية، وبدأ الدكتور عصام الدين المحايري، ابن دمشق، العضو في قيادة الحزب، بإصدار جريدة (البناء) كرئيسٍ لتحريرها،

بينما تولى رئاسة الحزب خلفاً لأنطون سعادة، لبناني كنا نسميه في سورية بوحيد الأذن لأنه كان بأذن واحدة، هو جورج عبد المسيح. وقد منح الحزب السيدة جولييت المير أرملة أنطون سعادة رحمها الله لقب (الأمينة الأولى) (7).

هكذا عاد الحزب القومي السوري إلى تدعيم ميليشياته المسلحة ذات التدريب شبه العسكري، (حرب العصابات) المتميز الجيد، وكان من العادي جداً أن نشاهد ونحن فتية صغار في تلك المرحلة في دمشق، صورا للزعيم (الشهيد) أنطون سعادة تنشرها على أغلفتها مجلة (الدنيا) الدمشقية لصاحبها الأستاذ عبد الغني العطري، كذلك صوراً لتدريبات ميليشيات الحزب بقيادة الأستاذ حسن صعب (وهو نفسه المفكر اللبناني المعروف الأستاذ في الجامعة الأمريكية في لبنان فيما بعد) رحمه الله.

.. في تلك المرحلة كان حزب البعث السوري يحاول أن يثبت أقدامه داخل صفوف الجيش السوري، وفي أوساط الطلبة والمثقفين من الشبان بالذات في سورية.

بتاريخ 19-12-1949 سقط نظام سامي الحناوي، وتمكن العقيد أديب الشيشكلي من الهيمنة على مقدرات الأمور في سورية بثالث انقلاب في تاريخ الانقلابات العسكرية في سورية. وسرعان ما توطدت أواصر الصلة السرية بين أديب الشيشكلي والحزب القومي السوري: وكثيراً ما كان عصام المحايري رئيس تحرير جريدة (البناء) الناطقة بلسان الحزب القومي السوري يرافق الشيشكلي في تلك الفترة في رحلاته إلى خارج سورية. بل، وبعد عهد الشيشكلي، تمكن الدكتور عصام المحايري من احتلال مقعد في المجلس النيابي السوري لصالح الحزب القومي السوري خلال المرحلة التي كان فيها سعيد الغزّي رئيساً للوزراء (وقد كان يمتلك في «دوما» مسقط رأسي بستاناً مزروعاً بمختلف أنواع الأشجار المثمرة يتوسطه منزل بديع).

في تلك الحقبة من تاريخ سورية ولبنان الحديث تمكن القوميون السوريون من اغتيال رياض الصلح ثأراً لروح الشهيد أنطون سعادة.

كان الحزب القومي السوري ينطلق من إيمانه العميق بقدرة الإنسان السوري وريث الحضارتين الفينيقية والآرامية، على ممارسة التفوق والتميّز والإبداع في كل الظروف، ومن قاعدة إيمانه بالوحدة الاجتماعية

الجغرافية الطبيعية المزاجية السياسية، ومن منطلقه العلماني، اللاطائفي، ومن اقتناع ثابت لديه بأن (المجتمع السوري) الكبير تتوافر فيه جميع عناصر ومكونات (الأمة) [8].

كان الصراع يدور ساخناً خلال تلك الفترة بين كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا للسيطرة على سورية، وهو الصراع الذي كان أخذ خلال تلك الحقبة من تاريخ سورية الوطني الحديث صورة الصراع حول سورية بين السعودية (أمريكا) والعراق (بريطانيا)، وكان السوريون، وبخاصة رجال الصحافة ورجال السياسية موزعين في اتجاهين: إما في اتجاه السعودية المنتهي في تلك المرحلة حتماً إلى المصالح الأمريكية، وإما في اتجاه العراق المنتهي حتماً في تلك المرحلة إلى المصالح البريطانية. ومنذ أواسط الخمسينيات اقتحمت مصر الناصرية حلبة الصراع في الساحة السورية. كان من أبرز المؤيدين لمصر وعبد الناصر ضباط في الجيش السوري أبرزهم عبد الحميد السراج ــ المستقل، وعدنان المالكي المناصر لحزب البعث المناصر بدوره كحزب، لجمال عبد الناصر. بل إن من الممكن القول إن البعثيين في الجيش السوري وفي الصفوف المدنية كانوا مع مصر وعبد الناصر، ولم يكونوا مع العراق ولا مع المملكة العربية السعودية. خلال تلك المرحلة أرسل عبد الناصر إلى سورية سفيراً لمصر كان واحداً من أبرز ضباط الجيش المصري المسيسين هو محمود رياض[9] الذي يمكن الاطلاع على تفاصيل الأدوار التي لعبها في أوساط السياسيين السوريين والجيش السوري خلال الفترة من 1954 حتى 1958 في مؤلَّف هام للكاتب البريطاني المعاصر (باتريك سيل) هو كتاب (الصراع على سورية The Struggle for Syria).

وقد حدثتني الكاتبة السورية كوليت الخوري حفيدة السياسي السوري البارع فارس الخوري رحمه الله، وقد كان أبرز رؤساء الوزارة في التاريخ الوطني السوري المعاصر، وممثل سورية في مؤتمر سان فرانسيسكو الذي عقد في نهاية الحرب العالمية الثانية، ، فقالت: إنها كانت زاملت (باتريك سيل) البريطاني في مدرسة (الليسيه) في منطقة القصاع في دمشق، وأن أباه كان أحد كبار الدبلوماسيين البريطانيين الذين عملوا في الأربعينيات في

السفارة البريطانية في دمشق وباتريك سيل متزوج منذ سنوات من ابنة الدكتور صباح قباني شقيق الشاعر نزار قباني وهي مطلقة الشاعر الفلسطيني محمود درويش.

على المستوى السوري كان الصراع السياسي يبرز فوق السطح واضحاً بتفاصيله ومنمنماته، في مناسبات معينة، أهمها مواسم الانتخاب للمجلس النيابي السوري الذي كان كافياً دائماً للكشف عن أهم القوى السياسية الوطنية الفاعلة المؤثرة في الساحة السورية السياسية، والتي كان أهمها خلال تلك المرحلة: الشيوعيون بقيادة خالد بكداش، والإخوان المسلمون بقيادة مصطفى السباعي[10]، البعثيون بقيادة عفلق والبيطار، والقوميون السوريون، وجماعة أكرم الحوراني[11] التي تحالفت مع البعثيين في مرحلة لم تطل كثيراً.

في تلك المرحلة كان حافظ الأسد واحداً من الطلبة البعثيين ثم واحداً من الضباط البعثيين في الجيش السوري، وكان الصراع بين القوميين السوريين والبعثيين على أشده.

كانت القومية العربية عند القوميين السوريين شبحاً غامضاً وزعماً باطلاً وشيئاً ما لا يمكن التأكد من وجوده ولا تحسُّسهُ بوضوح، بل إن القومية العربية كانت في نظر أنطون سعادة مرضاً نفسياً.

وإذا كان البعثيون في الشمال، فإن القوميين السوريين يكونون في الوقت نفسه في الجنوب، وكانا كالشرق والغرب لا يلتقيان، مثل خطين متوازيين لا يلتقيان، فالتناقض بينهما كان تناقضاً في الجوهر، كلياً، حاداً للغاية. كان القوميون السوريون يحلمون بتوحيد مجتمعات دول سورية التاريخية الطبيعية، وكان البعثيون يحلمون بتوحيد العالم العربي كله من المحيط إلى الخليج. هذا يعني أن أحلام الحزب القومي السوري كانت متواضعة بمقدار ما كلفت الأقرب إلى احتمال بل إمكان التجسيد؛ بينما كانت أحلام البعثيين هي الأوسع الأشمل، بمقدار ما كانت هي الأبعد عن إمكان التجسيد. ومن يقرأ المبادئ الأساسية لمرتكزات ومنطلقات حزب البعث العربي الاشتراكي، ثم يقرأ المبادئ الأساسية للحزب القومي الاجتماعي السوري قبل التعديلات التي طرأت على فلسفاتها العقيدية المتعددة خلال

الأعوام الخمسة والعشرين الأخيرة لا يمكن له اكتشاف أي تشابه ولو جزئي في المنطلقات الأساسية لكل من الحزبين، وإن يمكن القول إن مبادئ حزب البعث تحتوي مبادئ الحزب القومي السوري. أو أن هذه المبادئ القومية السورية هي جزء من مبادئ حزب البعث الأوسع، الأكثر شمولاً والتي لا ترفض مثلاً التوجه نحو توحيد سورية الطبيعية كخطوة مبدئية نحو توحيد العالم العربي كله في القارتين الآسيوية والأفريقية...

كان البعثيون يرون أن المجتمعات العربية المبعثرة على شمول الأرض العربية من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي، تشكل (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) ولا يزالون... وكانوا يدعون إلى توحيدها، ولا يعترفون بفواصل فيما بينها، ولا يزالون...

وكان القوميون السوريون يرون أن هذه المجتمعات العربية تشكل على المستوى الاجتماعي الجغرافي الطبيعي الإقليمي أربع أمم، لا أمة واحدة:

أ ــ **الأمة السورية:** وتشمل مجتمع كلٍّ من سورية ولبنان وفلسطين والأردن (ثم أضاف إليها أنطون سعادة بعد عودته من البرازيل أواخر الأربعينيات كلاً من العراق وقبرص).

ب ــ **الأمة العربية:** وتشمل مجتمع عرب شبه الجزيرة العربية والخليج.

ج ــ **أمة وادي النيل:** وتشمل مجتمع وادي النيل (مصر والسودان).

د ــ **الأمة المغاربية:** وتشمل مجتمع كلٍّ من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا..

وكان القوميون السوريون يرون أن ثمة فواصل طبيعية، وفواصل اجتماعية ومزاجية، تفصم فيما بين هذه الأمم الأربع، لكنهم ظلوا ينادون لإقامة وحدات أو اتحادات تعاونية فيما بينها على أساس الاعتراف المبدئي بأن لكل منها خصائص ومزاج الأمة المميزة أو المجتمع المميز الطبيعي، ومن الممكن، بل المطلوب، إقامة علاقات تعاونية وتكاملية فيما بينها، في نهاية المطاف[12].

ولقد شهدت تلك المرحلة من تاريخ سورية الوطني الحديث مفارقات مثيرة للانتباه. ففي الوقت الذي كان فيه غسان جديد مثلاً من أبرز الضباط

القوميين السوريين في الجيش السوري، كان صلاح جديد شقيقه الأصغر من أبرز الضباط البعثيين من ذوي الميول اليسارية في الجيش السوري نفسه. إلا أن الضابط عدنان المالكي وهو المتعاطف مع حزب البعث ومن أبناء العاصمة دمشق، كان أشهر الضباط في الجيش السوري خلال تلك المرحلة، ومن المتعاونين مع التيار المتحالف مع عبد الناصر الذي كان يمكن اعتبار عبد الحميد السراج أبرز وجوهه...

كان عدنان المالكي (عاش 37 سنة فقط) يفيض حيوية وذكاءً، وقد اشتهر ببراعته القتالية في الجبهة السورية خلال حرب فلسطين 1948 إلى الحد الذي أطلق معه اسم المالكي على أحد التلال في أرض الجبهة السورية الفلسطينية.

في أواخر العام 1952 طالب عدنان المالكي رئيس الدولة السورية أديب الشيشكلي بإلغاء (حركة التحرير) [13] وهي حزب السلطة في عهد الشيشكلي ــ وقد تم التخطيط لها وإنشاءها بمساعدة مأمون الكزبري وقدري قلعجي، ونزيه الحكيم، فإذا بالشيشكلي يرد على الضابط عدنان المالكي بزجه في سجن المزة العسكري في دمشق. ولم يكتف الشيشكلي بذلك، بل أصدر مرسوماً بإحالة المالكي وزملائه المعتقلين معه من البعثيين إلى التقاعد (المعاش). وفي أواخر عام 1953 تمَّ الإفراج عنهم وحددت إقامة كل منهم في منزله (إقامة جبرية).

بسقوط عهد أديب الشيشكلي بحركة بقيادة الضابط مصطفى حمدون (وقد كان من جماعة أكرم الحوراني التي كانت متحالفة مع حزب البعث)، وبدعم من (حزب الشعب) الذي كان يضم عدداً من السياسيين السوريين الكلاسيكيين البورجوازيين من أبناء مدينة حلب بصفة خاصة، أعيد عدنان المالكي إلى الجيش مرة أخرى، ورُفع إلى رتبة عقيد، وأنيطت به قيادة (الشعبة الثالثة) في الجيش السوري، وهي (شعبة العمليات)، حيث تمكن من خلال موقعه القيادي فيها من المشاركة بتوفير المناخ الملائم للتوقيع على مشروع اتفاقية الدفاع المشترك بين سورية ومصر، وقد وقّع اتفاقية المشروع عن سورية كل من صبري العسلي وخالد العظم، وعن مصر صلاح سالم بتاريخ 2-3-1955 .

كنت يومئذ مذيعا في إذاعة دمشق، وكان الحزب القومي السوري في أوج قوته وازدهاره وتعاطف الشارع السياسي الاجتماعي الشعبي السوري معه.. وكانت مصر بوساطة محمود رياض السفير المصري، وجمال حماد الملحق العسكري، وعدلي حشاد يكن الملحق الصحفي وغيرهم، تحاول توسيع رقعة تكريس تواجدها السياسي في المعادلات السياسية المعقدة الصعبة المتشابكة المختلطة في دمشق.

كان الحزب القومي السوري متهماً بأنه حزب يميني فاشستي متطرف، وكان الصراع السوفييتي ـ الأمريكي حول مصر وسورية بالذات آخذاً بالتصاعد. كانت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا تسعى يومئذ كل بدورها للتمكين (لحلف بغداد) وإيجاد قواعد سياسية بشرية له في الأوساط السياسية السورية وبعض دول الشرق الأوسط وأفريقيا، وكانت كل من بغداد وتركيا وباكستان تمثلان رأس الحربة بالنسبة لسياسة الأحلاف الغربية التي رفضها في مصر عبد الناصر، ومؤيدوه في سورية، ومنهم عدنان المالكي الذي كان متعاطفاً مع حزب البعث، والذي كان يرى في الحزب القومي السوري خطراً على المسيرة العربية القومية ككل، وعلى الجبهة التقدمية في سورية بصفة خاصة.

وقد تمكن عدنان المالكي من تشكيل لجنة من كبار ضباط الجيش السوري من البعثيين والناصريين لتسريح جميع الضباط وضباط الصف والجنود القوميين السوريين داخل الجيش.. وكان من أشهر تلك الإجراءات تسريح المقدم غسان جديد شقيق صلاح جديد، وكان المقدم غسان أبرز ضابط قومي سوري في الجيش السوري يومئذ (اغتيل في بيروت بعد اغتيال المالكي في دمشق).

في يوم 22-4-1955، بعد أسبوعين من تسريح غسان جديد من الجيش السوري كنت أجلس مصادفة في غرفة المذيعين في مبنى إذاعة دمشق القديم في شارع النصر القريب من سوق الحميدية. كان إلى جانبي في الغرفة العقيد برهان قصَّاب حسن، أحد زملاء عدنان المالكي، وهو شقيق رجل القانون السوري نجاة قصاب حسن(14). الذي كان نائباً لخالد بكداش أمين عام اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري في أواسط الأربعينيات.

كان معنا في غرفة المذيعين يومئذ أيضاً الزميلة السيدة عبلة الخوري المذيعة من قرية (الكفير) في الجنوب اللبناني ابنة أخ فارس الخوري رئيس الوزراء السوري الأسبق رحمهما الله، وشقيقة الدكتور سامي الخوري أحد أبرز القياديين في الحزب القومي السوري في تلك المرحلة التي كان يقال خلالها إن موقف الحزب القومي السوري (اليميني) مع وليس ضد حلف بغداد، وأنه ضد وليس مع عصر جمال عبد الناصر. كان عدنان المالكي قادراً على ممارسة الهيمنة داخل حدود الجيش السوري، وعلى مجمل الحياة السياسية في دمشق.

وكان تمكّن كما ذكرنا من تفريغ الجيش من غسان جديد والمئات من المنخرطين في الحزب القومي السوري الاجتماعي من ضباط الصف والجنود الذين قيل يومئذ إنهم كانوا يشكلون خلايا داخل الجيش تعمل لصالح الحزب القومي السوري.

أقول كنا في غرفة المذيعين، نتابع نقل مباراة بكرة القدم (على الهواء مباشرة) بين فريقين لكرة القدم مصري وسوري، وكان يحضرها جمال حماد الملحق العسكري المصري المعروف بصفته مؤرخاً عسكرياً ينشر مقالة كل أسبوع في مجلة (أكتوبر المصرية)، إضافة إلى شوكت شقير رئيس أركان الجيش السوري، وتوفيق نظام الدين من كبار ضباط رئاسة الأركان، وأمين أبو عساف أحد كبار قادة الجيش السوري.

في الساعة الثالثة تماماً من عصر ذلك اليوم 22-4-1955 سمعنا ونحن في غرفة المذيعين في مقر إذاعة دمشق في شارع النصر (جمال باشا)، عبر جهاز المذياع ذي اللون البُنّي الغامق، أصوات إطلاق رصاص، ثم فجأة علا هدير اختلاط الحابل بالنابل عبر الراديو. كان يبدو بوضوح لحظتئذ أصوات هَرَجٌ ومَرَجٌ؛ وعرفنا من صوت المذيع الزميل فؤاد شحادة رحمه الله أن عدنان المالكي أصيب بطلقات رصاص.. وفجأة، وقبل أن يتبين أحدٌ ما حدث بالضبط، ومن هو مطلق الرصاص حقاً، التفت العقيد برهان قصاب حسن نحو السيدة عبلة الخوري قائلاً:

ـــ « راح تخسروا كثير يا عبلة».

موجهاً بذلك الاتهام الفوري إلى الحزب القومي السوري، ولم أكن قادراً ساعتئذ وأنا أسمع هذه الكلمات يوجهها الضابط العسكري برهان قصاب حسن إلى المتهمة بأنها قومية سورية المذيعة عبلة الخوري، على فهم لماذا وكيف يمكن أن تكون زميلتي السيدة عبلة (المذيعة) متهمة ـــ بصفتها شقيقة الدكتور سامي الخوري، أحد قادة الحزب القومي السوري ـــ بمسؤولية المشاركة باغتيال عدنان المالكي، ولا كيف تمكّن برهان قصاب حسن من إدراك أن القوميين السوريين هم المنفذون لعملية الاغتيال، إذْ لم تكن مضت سوى لحظات على عملية الاغتيال، بل ولم يكن مضى بعد من الوقت ما يكفي (للتفكير) بالاحتمالات الواردة.. فكيف وجّه العقيد برهان قصاب حسن الاتهام فوراً إلى القوميين السوريين خلال لحظات قليلة فقط بعد الاغتيال، ما لم تكن هنالك خطة معدة مسبقاً لتصفية القوميين السوريين كانت تحتاج إلى (ذرائع) و(مبررات) مسبقة؟

بعد ساعات أُعلِنَ أن رقيباً في الشرطة العسكرية السورية اسمه يونس عبد الرحيم هو الذي أطلق الرصاص على العقيد عدنان المالكي الذي كان كما قلنا يقود سلسلة عمليات لتصفية وجود الحزب القومي السوري داخل الجيش السوري. وأذكر أننا ونحن نعمل على إسقاط حكم الانفصال السوري من «صوت العرب» في القاهرة عام 1962، كان ثمة إذاعة أخرى ناصرية سرية تبث برامجها ضد حكم الانفصال من (مكانٍ مجهول). تلك الإذاعة السرية كانت تبث برامجها بترتيب من الاستخبارات المصرية الناصرية من سيارة قابعة قرب منزل شوكت شقير في منطقة الشوف في لبنان.

بعد ساعات قلائل أيضاً أُعلن أن يونس عبد الرحيم قاتل المالكي قد انتحر بالرصاص بعد قتله عدنان المالكي، وهي مسألة لابد من التوقف عندها اليوم مطولاً، خاصة وأن أقوالاً كثيرة عن الحقيقة الغامضة الكامنة وراء محاولة اغتيال جمال عبد الناصر في ميدان المنشية في الإسكندرية عام 1954 وهي المحاولة التي كانت البداية لتصفية الإخوان المسلمين في مصر.. ومن هذه الأقوال على سبيل المثال أن الإخوان المسلمين منها براء، وأن المخابرات المصرية في معزل عن عبد الناصر هي التي كانت قامت بتدبير

العملية لاتخاذها مبررا لتصفية الإخوان المسلمين في مصر، وهو قول سمعته شخصيا مباشرة في حوار لي مع المرحوم صلاح الشاهد رئيس التشريفات في عهد الملك فاروق وفي عهد عبد الناصر منذ سنوات قليلة في القاهرة، خاصة وأنني من الذين تعاونوا مع عبد السلام عارف سنتين في العراق، وأميل إلى الظن بأن عبد الحكيم عامر، بالتعاون مع شخصية سياسية سورية كانت لاجئة إلى مصر وكانت تكثر من زياراتها السرية والعلنية للعراق في وسط الستينيات، هو الذي رتب بالتنسيق مع صلاح نصر ـ لعملية إسقاط الطائرة المروحية التي قضى بسقوطها عبد السلام عارف ولفيف من مرافقيه نحبهم إلى الأبد، ليخلو الطريق أمام عبد الحكيم عامر لمحاولة ترتيب شؤون البيت العراقي كما كانت تريد القاهرة يومئذ، بعدما استحكم الخلاف غير المعلن بين عبد السلام عارف وجمال عبد الناصر رحمهما الله، إلى حد كان وصل يومئذ إلى مرحلة عدم إمكان حله إلا بذهاب عبد السلام عارف أو خلعه من السلطة.

كذلك لابد من أن نتذكر ههنا عملية اغتيال الرئيس الأمريكي الأسبق جون كيندي، والإقدام من ثمَّ على قتل قاتله (أوزوالد) بهدف التغطية النهائية على الجهة الحقيقية التي كانت كامنة وراء عملية الاغتيال. ومن كل هذا يمكن التساؤل من جديد، حتى بعد مرور حوالي سبعة وأربعين عاماً على مصرع المالكي:

من الذي قتل عدنان المالكي في سورية بتوفير (المبررات) والذرائع لتصفية الحزب القومي السوري في سورية ولبنان؟ هل هم حقا القوميون السوريون؟ وما هو (الكسب) الذي تمكنوا من تحقيقه عملياً من وراء تلك العملية؟ وما هي (الخسارة)؟ التي حصدوها عملياً من ورائها؟ هل كان ممكناً أن يغيب عن أذهانهم احتمال الإقدام على تصفية الحزب تصفية فورية دون شفقة ولا رحمة، إن هم أقدموا على اغتيال عدنان المالكي؟

من الصعب أن ينسى أبناء الجيل العربي السوري الذي كان يافعاً يومئذ، كيف أنهالت الفؤوس والمطارق فوق رأس وجسد الحزب القومي السوري، ورجاله، وفتيانه، وفتياته، وكيف تعرض هؤلاء في سورية إلى أشد ألوان التعذيب إرهاقاً وإيذاءً على يد عبد الحميد السراج وأعوانه في دمشق.

من الذي رتب عملية اغتيال عبد الناصر في المنشية في الإسكندرية عام 1954؟ ومن الذي (كسب) منها؟

من الذي رتب عملية إسقاط طائرة عبد السلام عارف في العراق عام 1966؟ ومن الذي كان يهمه إبعاد عبد السلام عارف عن الحكم يومئذ في العراق؟ هل كان لعبد الحكيم عامر أو عبد الحميد السراج أو المخابرات المصرية بقيادة صلاح نصر، يدٌ بذلك وقد كان هؤلاء جميعاً ساعين وراء إرضاء جمال عبد الناصر الذي كان عبد السلام عارف في سنواته الأخيرة يناصبه العداء السرّي غير المعلن. كما أعرف جيداً، في الوقت الذي كانت فيه القاهرة على اقتناع عميق بأن الطريق من القاهرة إلى دمشق لابد لها من أن تمرّ ببغداد أولاً وبلا أي عوائق؟!

حواشي الفصل الأول

(1) كان توفيق نوفل في الأربعينيات واحداً من أشهر المصورين الفوتوغرافيين في دمشق. كان له استديو في منطقة (السنجقدار) في العاصمة السورية. والذي لا يعرفه الكثيرون من السوريين أن توفيق نوفل كان لبنانياً وبالضبط مهاجراً إلى دمشق من إحدى قرى جنوب لبنان، ومن المسيحيين اللبنانيين الذين لم يكونوا ليعترفوا قط بوجود حدود فاصلة بين سورية ولبنان.

(2) في عدد فبراير /شباط من السنة الحادية عشرة عام 1925 نشرت مجلة (المجلة) التي كان يصدرها العلامة الدكتور خليل سعادة في البرازيل وهو من أصل يوناني مقالة لأنطون سعادة حين لم يكن قد تجاوز بعد سن الحادية والعشرين من عمره، عن القضية القومية الصهيونية وامتدادها رداً منه على نشاط قام به الصهيوني الدكتور (موسَسُن) الذي ألقى خطاباً في تجمع يهودي صهيوني في (سان باولو) دعاهم فيه إلى مساندة الحركة الصهيونية لإقامة دولة إسرائيل في أرض فلسطين. وفيما جاء في مقالة أنطون سعادة تلك، وهي متوافرة الآن في كتابه المطبوع: «مراحل المسألة الفلسطينية»: ؛ ما يأتي: «أليس من الجبن والتخاذل أن تجتمع في سان باولو حفنة من اليهود للتآمر على سلب السوريين قسماً كبيراً من بلادهم دون أن يكون لآلاف السوريين الموجودين في (سان باولو) جمعية منظمة تنظر في مثل هذا التآمر المعيب، وتعمل على إحباط المساعي التي يقوم بها الصهيونيون لإخراجنا من بلادنا؟»

وفي مقالة له نشرها في العدد 79 من مجلة (الزوبعة) الصادر في سبتمبر عام 1944 نبه أنطون سعادة إلى أن «اليهود في فلسطين سيكونون في نهاية الحرب العالمية الثانية أكثر من السوريين في فلسطين، وفي حالة ستمكنهم من المطالبة بالاعتراف بالدولة اليهودية في جنوب سورية». كذلك أشار أنطون سعادة في المقالة نفسها إلى مؤتمر الصلح الذي انعقد في باريس عام 1919 عقب الحرب العالمية الأولى، وكيف تمكنت الصهيونية من جعل المؤتمر «يؤيد مطالب اليهود تأييداً صريحاً في المعاهدة التي أقرها ذلك المؤتمر، وهي المطالب التي فتحت أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين التي هي أول قسم من سورية يريد اليهود ابتلاعه، وتنظيم شؤونهم واستعداداتهم فيه تمهيداً لابتلاع الأقسام الباقية».

وفيما يسمى بـ «البلاغ الأزرق» الذي أصدره أنطون سعادة 3-6-1936 جاء النص الآتي: «إن وعد بلفور هو وعد سياسي لا حقوقي، وإنه ليس لليهود حقوق خاصة أو عامة في أية أرضٍ سورية».

وفي المذكرة التي رفعها أنطون سعادة إلى هيئة الأمم المتحدة بتاريخ 14-7-1947 بعد صدور القرار الخاص بتقسيم فلسطين، بصفته زعيما للحزب القومي السوري الاجتماعي، روى أنطون سعادة كيف جاء العبرانيون «الجيرو» من البادية، إلى ماسماه في المذكرة بـ (جنوب سورية) الذي كان مقرا للكنعانيين؛ وكيف أنشأوا فيها إمارة، وكيف أخذوا شريعتهم من الشرائع الكنعانية قبل أن تضربهم (الدولة السورية) ثم يشتتهم الرومان.

نريد من هذا كله الإشارة إلى أن أنطون سعادة مؤسس الحزب القومي السوري الاجتماعي، كان يرى ما يراه هذا الحزب حتى اليوم، وهو أن فلسطين هي الجنوب من الأرض الطبيعية التاريخية السورية؛ ولعل هذا ما يفسر لنا حرص الحزب على الاستمرار بالعمل على محورين: المشاركة بالكفاح المسلح ضد إسرائيل، والمشاركة بأية سياسة من شأنها العمل على إحياء مشروع سورية الطبيعية الواحدة، الكبرى:

أما أرض كنعان ـــ فلسطين فهي للكنعانيين الذين هم الفينيقيون والآشوريون والبابليون استناداً إلى ما جاء في الصفحة 35 من (موجز تاريخ الشرق الأدنى) للدكتور فيليب حتّي ـــ ترجمة الدكتور أنيس فريحة الصادر عن دار الثقافة في بيروت الطبعة الأولى و (بلاد كنعان) في المجلد الأول من كتاب (تاريخ الشرق الأدنى) للدكتور فيليب حتّي تشمل كل الأراضي فيما يسمى الآن بسورية ولبنان وفلسطين الشاملة أراضي شرقي نهر الأردن.

(3) ربما كان العالم التاريخي (جيمس هنري بريستيد) هو أول من أطلق هذا الوصف على أراضي سورية الطبيعية الخصبة المنحنية مثل قوس أخضر فوق الصحراء العربية ذات الرمال الصُّفر...

(4) قلنا إن ما يسمى الآن بـ (فلسطين) كان جزءاً من أرض كنعان التي سكنها الكنعانيون، سكانها الأصليون الأولون وهم الفينيقيون والآشوريون والبابليون الذين يعودون بكل فروعهم إلى الأصل العربي كما يقرر ذلك المؤرخ الدكتور محمد سعد طلس في المجلد الأول من مؤلفة القيّم (تاريخ الأمة العربية) ص 9-10. وقد انساح هؤلاء على عدة تدفقات أواسط الألف الثالث قبل الميلاد بالنسبة للكنعانيين، وحوالي النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد بالنسبة للآشوريين. بينما يؤكد أمين الريحاني في كتابه (ملوك العرب) أن الفينيقيين هجرة عربية، تدفقت نحو (ديلمون ـــ البحرين) مما يسمى الآن (بسلطنة عُمان) لتؤسس حضارة ديلمون (البحرين) قبل أن تنتقل إلى ما يسمى بأرض سورية الطبيعية الكبرى. وإذا ما صحت مقولة الدكتور فيليب حتي التاريخية في أن الفلسطينيين هم من أصل هندو ـــ أوروبي، وإذا ما صحت مقولة أنهم وصلوا شواطئ أرض كنعان من جزيرة (كريت)، فإن ما هو مؤكد أن القسم الذين استوطنوه من أرض كنعان سمي باسمهم (فلسطين)؛

في الوقت الذي كانت تسمى (أرض كنعان)، أي منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد. بينما موجة العبرانيين إلى أرض كنعان (فلسطين) لم تكن إلا في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد؛ أي أن تواجد الفلسطينيين في أرض كنعان كان في فترة سبقت وصول الموجة العبرانية الأولى إلى فلسطين من بلاد ما بين النهرين والثانية من بني إسرائيل من مصر كانت عام 1215ق.م. وهذا ما يسقط المزاعم الصهيونية بحق اليهود التاريخي بأرض فلسطين، لأن الفلسطينيين استوطنوها قبل وصول العبرانيين بحقبة طويلة وقد ورد في ص125 من المجلد الأول من (خمسة آلاف عام من تاريخ الشرق الأدنى) للدكتور فيليب حتي: «إن آباء الشعب العبراني جاؤوا إلى سورية مع الهجرة الآرامية وكانوا يتكلمون الآرامية قبل توطنهم فلسطين، وبعد أن أقاموا في فلسطين تعلموا اللسان الكنعاني الذي أصبح فيما بعد اللغة العبرية التي كتبت بها أسفار العهد القديم». (وقد جاء في التوراة العبرية «سفر التثنية 5:26» أن سيدنا إبراهيم كان يسمى بـ (السوري التائه) حسب ما هو وارد في الترجمة اليونانية للتوراة. في الصفحتين 125 و 126 من المجلد الأول نفسه، ما هو جدير بالتوقف عنده والتمعن فيه لاكتشاف (خصوصية العلاقة السورية) التاريخية (بالقضية الفلسطينية): في نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد أسس الآراميون مدينة (آرام) ــ دمشق حالياً ــ وفي وقت لاحق كانت علاقتها بمملكة إسرائيل سيئة، واستمر ذلك لمدة مئة عام. وفي عام 875 قبل الميلاد (أواخر حكم الملك عمري العبراني) أصبحت إسرائيل مقاطعة تابعة لآرام (دمشق) تدفع لها الجزية؛ فلما حاول خليفة الملك (عمري) العبراني، وهو ابنه (آخاب)، الامتناع عن دفع الجزية لملك دمشق الآرامي (بن حدد)، هاجم هذا بجيشه (السامره) وأجبره على الطاعة والإذعان (سفر الملوك الأول ــ الإصحاح 21).

(5) عاصرت وأنا في بداية سن الرشد وقوع انقلاب حسني الزعيم في 30-3-1949 في دمشق، فكان من الطبيعي أن يثير في السوريين الشعور يومئذ بالزهو والانبهار، فقد كان ذلك الانقلاب ثاني انقلاب عسكري يقوم في العالم الثالث ومنطقة الشرق الأوسط. ولعلّي لا أزال أتذكر كيف سارع حسني الزعيم فور قيامه بالانقلاب بالتوقيع على الاتفاقية الخاصة بالسماح لشركة النفط الأمريكية الـ (تابلاين) بمد أنابيب البترول من السعودية عبر الأراضي السورية إلى الشاطئ اللبناني في الزهراني للتفريغ، وكيف أقام مزاداً علنياً في (فندق الشرق) في دمشق، حين كان ينزل فيه يوسف وهبي وأسمهان، لبيع (قلمه الباركر) الذي وقّع به على الاتفاقية التي كان خالد العظم وشكري القوتلي رئيس الجمهورية الذي انقلب عليه حسني الزعيم، رفضا الإذعان للضغوط الأمريكية للتوقيع عليها. ثم مضت السنون، وكشفت المعلومات الموثقة، وكتب صدرت في أمريكا وأوروبا لمؤلفين أمريكيين

وأوروبيين غربيين، عن أن حسني الزعيم كان خاتماً في إصبع المخابرات المركزية الأمريكية، فقد كانت السفارة الأمريكية في دمشق هي المخططة لقيد الانقلاب، وإن بالإمكان العودة إلى كتاب مايلز كوبلاند (لعبة الأمم) وكتاب (الصراع على سورية) لباتريك سيل. ففيهما التفصيل عن كل ذلك. كان حسني الزعيم وهو رئيس للأركان شريكاً بعملية (اختلاس) قام بها الجنرال بستاني، المسؤول يؤمئذ عن تموين الجيش السوري؛ فلما اكتشف شكري القوتلي صفقة السرقات، أمر بزج الجنرال بستاني في سجن المزة الذي أرسل إلى حسني الزعيم يطالبه بالعمل على الإفراج الفوري عنه، وإلا فإنه سيكون مضطرا للاعتراف في التحقيق بأنه شريكه في السرقات. كانت تلك هي الثغرة التي تمكنت بها المخابرات الأمريكية من السيطرة على حسني الزعيم، فإذا به ينفذ الانقلاب كما خططت له السفارة الأمريكية في دمشق، لصالح شركة التابلاين النفطية الأمريكية.

كان عبد الحميد السراج مرافقاً عسكرياً لحسني الزعيم وهو ما لا يعرفه كثيرون. وكان الدكتور محمد أسعد طلس عديل اللواء سامي الحناوي، مستشار الزعيم السياسي، قبل أن أتشرف بزواجي من كريمته في العام 1963، رحمه الله. وكان الدكتور صبري القباني ـ الطبيب ـ رحمه الله مستشارا لحسني الزعيم أيضا. وبعد أشهر قليلة جداً قام اللواء سامي الحناوي بانقلابه العسكري ضد حسني الزعيم الذي تم إعدامه على الفور هو ورئيس وزرائه محسن البرازي. كان الدكتور طلس من المتطلعين إلى إقامة وحدة بين سورية والعراق؛ وكما أعرف جيدا فقد كان هو المخطط الحقيقي لانقلاب سامي الحناوي، وحاكم سورية الفعلي من وراء الستار. طيلة الأشهر التي عاشها عهد سامي الحناوي عديل المرحوم محمد أسعد طلس؛ بل إنني لأعرف اليوم أن والدة زوجتي عقيلة الدكتور طلس السيدة نزهة قرقلر رحمها الله، كانت هي اليد اليمنى في التخطيط للانقلاب. فهي حقوقية حسناء طموح حادة الذكاء تركية من أم عراقية كذلك زوجها فهو من أم من آل الألوسي في العراق. ولم يكن سامي الحناوي، الساذج المسكين، سوى غطاء لانقلاب لم يدم سوى شهور قليلة، انقلب عليه بعدها أقرب ضباطه إليه وهو أديب الشيشكلي. وفي بيروت بعد ذلك بأسابيع قليلة أطلق حرشو البرازي الرصاص على سامي الحناوي الذي كان ممسكاً بيد الطفلة ميادة رحمها الله، الأخت الكبرى لزوجتي، فأرداه قتيلا. (ومن عجيب المصادفة أن أجد نفسي عام 1963 سجيناً سياسياً في سجن القلعة في دمشق، ومعي من السجناء: حرشو البرازي، والدكتور عصام المحايري زعيم الحزب القومي السوري، وجولييت المير، أرملة أنطون سعادة. رحمهما الله؛ ومجيب الابن الأكبر لسليمان المرشد الذي كان ادعى الألوهية في جبال اللاذقية، ثم صدر الحكم بإعدامه أواخر الأربعينيات شنقاً حتى الموت في ساحة (المرجة) في دمشق، ولا زلت حتى الآن أتذكر كيف رأيت جثمانه متدليا من خشبة المشنقة،

وذقنه مغروزة في نحره؛ وعلى صدره صفحة كبيرة الحجم مكتوب عليها بكلمات كبيرة الحروف نص الحكم الصادر بإعدامه شنقاً حتى الموت.

(6) اغتاله القوميون السوريون بعد سنوات من استشهاد سعادة.

(7) كان الشاعر السوري الكبير أدونيس من أبرز مثقفي الحزب القومي السوري، ومن أبرز أعضائه النشيطين في تلك المرحلة؛ وكان كما هو دائماً وديعاً جداً، لطيفاً جداً؛ قادراً على التسلل إلى عقلك ووجدانك، دون استئذان؛ وكثيراً ما كان يزورنا في مقر إذاعة دمشق خلال تلك الفترة، وكنت ألقاه كلما توجهت في زيارة إلى مقر جريدة (البناء) وراء (مبنى الهاتف الآلي) في دمشق، وكان يرئس تحريرها الدكتور عصام المحايري.

(8) يقول العالم المفكر إرنست رينان: «تتولد الأمة من زواج جماعة من البشر ببقعة من الأرض». ويعقب أنطون سعادة على هذه المقولة في كتابه (مراحل المسألة الفلسطينية) الصفحة 19: «ليس شرط الأمة أن تنتسب إلى أصل معيّن بل شرطها هو الاجتماع في حياة واحدة وأرض واحدة. وهذا نحن». وهو يرى أن مجتمعات أو مجتمع سورية الطبيعية الكبرى، التاريخي يشكل أمّة Nation وليس شعباً من أمة People. ونحن نرى أن القول بـــ (الأمة السورية) وليس بـــ (الشعب) السوري، يهدف إلى ربط جميع أراضي سورية الطبيعية الكبرى، ومنها أرض فلسطين؛ بصاحبتها التاريخية، وهي (الأمة السورية) لأن (الأمة) لها أرض، أما (الشعب) فلا أرض له أي أن الأمة لا تكون أمة إلاّ اذا ارتبط تاريخها بأرض تاريخية لها، واقعة تحت سيادتها المتجددة عبر المراحل؛ فإذا ما سلبت هذه الأرض، أو جزء منها، كان من حقها استرجاعها بالأسلوب الذي تراه محققاً هدف الاسترجاع والاستعادة بالتحرير.

ونحن نلاحظ أن أنطون سعادة طرح مقولته بـــ (الأمة السورية) أو (القومية السورية الاجتماعية) المرتبطة بمجمل أراضي سورية الطبيعية الكبرى، ومنها أرض فلسطين، لتأكيد (الحق القومي) أو (الحق الوطني التاريخي) السوري في أرض فلسطين، في مواجهة طرح مقولة (القومية الصهيونية) المرتبطة بأرض فلسطين؛ فقد بدأت دعوته مع وضوح احتمال نجاح الصهيونية العالمية بالاستيلاء على أرض فلسطين لإقامة الدولة اليهودية من خلال مفهوم أو منطق الدولة الدينية، وهو مفهوم رفضه الحزب القومي السوري بزعامة سعادة، وما يزال. ولعل هذا ما يفسر لنا لماذا قاتل المسيحيون اللبنانيون من عناصر الحزب القومي السوري الاجتماعي ضد محاولة إقامة دولة مسيحية في لبنان، فالحزب ينادي بعلمنة الدولة، ويرفض رفضاً صارماً قاطعا حاسماً استناد الدستور إلى أي نوع من التشريع الديني الإسلامي أو المسيحي... إلخ. وبالتالي، إلى أي نوع من أنواع المذهبية الدينية. وقد جاء في خطاب لأنطون سعادة ألقاه في (كردبة ـــ في الأرجنتين)

بتاريخ 26-11-1940 النص التالي: « إن النهضة القومية السورية الاجتماعية تعمل على توحيد سورية، وتجعل العصبية القومية تنتصر على العصبيات الدينية المتنافرة، لإقامة العدل الاقتصادي ــ الاجتماعي الذي يؤهل سورية لأن تكون أمة حية، ومتى صارت سورية ناهضة قوية، فهل يوجد عاقل واحد غير مصاب بمرض النفعية، يعتقد أو يقول إن ذلك هو ضد مصلحة العالم العربي؟».

وفي مقالة لأنطون سعادة في مجلة (الزوبعة) العدد 49 الصادر في أغسطس 1942 ــ جاء في نهايتها «لا حل لمشاكل كل سورية الدينية والاجتماعية غير حل القومية الاجتماعية التي تفرض إنشاء كيان يكون فيه جميع أبناء الأمة أحراراً متساوين في الحقوق والواجبات».

(9) لمع اسم الأميرألاي محمود رياض كضابط عسكري مصري مُسيّس خلال مفاوضات الهدنة المصرية ــ الإسرائيلية التي جرت في مكان محايد هو جزيرة رودس تحت إشراف الأمم المتحدة عقب الحرب العربية الإسرائيلية الأولى عام 1948، وهي المفاوضات التي انفردت مصر بإجرائها نتيجة لضغوط أمريكية بريطانية مشتركة بهدف عزل مصر عن احتمال تلاحمها ببقية الأقطار العربية، وهي اللعبة التي مارستها أمريكا مع مصر أواخر عهد السادات فيما نلاحظ؛ وقد انتهت تلك المفاوضات التي جرت عبر طرف ثالث هو الوسيط الدولي (الكونت برنادوت) الذي سرعان ما اغتالته العصابات الصهيونية، فخلَفَه (الدكتور رالف بانش) الذي تمكن من التوفيق بين المفاوضين المصريين، ومنهم محمود رياض، والمفاوضين الإسرائيليين. . إلى جعل الطرفين يوقعان على اتفاقية الهدنة بتاريخ 24-2-1949.

وقد وقع بين يدي وأنا أعد هذا الفصل، نصٌّ مقالة مثيرة نشرها أنطون سعادة في العدد 95 من مجلة (كل شيء) اللبنانية. وعلى الرغم من أنني عجزت عن معرفة تاريخ صدور هذا العدد، إلا أن أغلب الظن أنها كُتبت قبل تنفيذ حكم الإعدام بأنطون سعادة بأشهر قليلة، وربما خلال الأيام التي كانت تجري فيها مفاوضات الصلح بين مصر وإسرائيل التي انتهت إلى التوقيع على اتفاقية الهدنة بينهما في جزيرة رودس بتاريخ 24-2-1949، وهي الاتفاقية التي سبقتها مفاوضات بين الطرفين حول منطقة صحراء (النقب) التي أصبحت أقسامها الجنوبية والشمالية والشرقية، بموجبها خاضعة للسيادة الإسرائيلية.

يقول أنطون سعادة في مقطع من المقالة هذه التي كتبت بعد أسابيع أو أشهر قليلة من اغتصاب فلسطين: «لم يجتمع العالم العربي أمة واحدة في فلسطين كما كان يزعم السوريون العروبيون. وقد ظهرت في فلسطين حقيقة أن العالم العربي أمم لا أمة. ومن صور هذه الحقيقة المؤلمة لغير المخدوعين، وللمخدوعين المستيقظين، أن مصر كانت نظرياً تحارب مع السوريين ضد اليهود، في حين كانت عملياً

تشاطر اليهود احتلال أراض سورية، فاستولت على منطقة النقب الغنية بالنفط وبالإمكانيات العمرانية، وعلى هذه المنطقة جرى أخيراً النزاع بين مصر واليهود، وتجرى مفاوضات السلم بين مصر وإسرائيل».

من الواضح إذاً أن أنطون سعادة كتب ونشر هذه الأفكار في الوقت الذي كانت فيه مصر الملكية تتفرد تحت وطأة الضغوط الأمريكية والبريطانية بإجراء مفاوضات الهدنة مع الإسرائيليين في جزيرة (رودس)، وهي المفاوضات التي كان الضابط المصري الأميرألاي محمود رياض أحد أعضاء الوفد المصري المفاوض فيها. ولعل هذا ما يكشف لنا في موعد مبكّر ما سوف يرد في فصول مقبلة من كتابنا هذا لماذا كان التعاون والتحالف المؤكّدان بين محمود رياض بالذات، حين كان سفيراً لعبد الناصر في دمشق في منتصف الخمسينيات، والمقدم عبد الحميد السراج، رئيس المكتب الثاني في الجيش السوري يومئذ (المخابرات) ورجل سورية الحديدي الأقوى في سورية خلال تلك المرحلة، على تصفية الحزب القومي السوري الذي اتهم باغتيال الضابط المتحالف مع حزب البعث عدنان المالكي، المؤيد لعبد الناصر، وقد كان صديقاً لمحمود رياض وجمال حماد الملحق العسكري في السفارة المصرية في دمشق. بل إننا إذا ما عرفنا أن عبد الحميد السراج نفسه كان مرافقاً عسكرياً أي ملازماً بصفة شخصية يومية لحسني الزعيم، أدركنا سبب السرعة التي تسلح بها حسني الزعيم عند تسليمه أنطون سعادة إلى رياض الصلح رئيس وزراء لبنان، وهو المسلم السني المرتبط بالسعودية؛ لتجري عملية إعدام أنطون سعادة بالرصاص بعد محاكمة صُوريّة لا أحد يعرف ما جرى خلالها حتى اليوم.

(10) المرحوم الشيخ مصطفى السباعي كان واحداً من أوائل العلماء المسلمين السوريين الذين أنشأوا ما يسمى بتنظيم (الإخوان المسلمين) في سورية، بعد أو مع لقاءات مباشرة له مع مؤسس (الجماعة) في مصر الشيخ حسن البنا رحمه الله. والشيخ مصطفى السباعي كان من رجالات مدينة حمص السورية الشهيرة بوداعة وطيب نفوس أبنائها. وقد تعرفت إليه بوساطة أستاذنا المرحوم الدكتور محمد المبارك طيب الله ثراه. وأتذكر اليوم أن عدداً من المصريين كان لجأ إلى سورية بعد حدوث محاولة اغتيال جمال عبد الناصر في (المنشية) في الإسكندرية التي تسببت بسلسلة المآسي التي عانى منها عشرات المئات من رجالات مصر المنتسبين (لجماعة الإخوان)، وعائلاتهم، سنين عديدة مستمرة. وقد كان من بين أولئك (الإخوان) الذين (هربوا) من مصر ولجأوا إلى دمشق ليستقروا فيها، الدكتور عز الدين إبراهيم ولعله أسهم بالتدريس في (المعهد العربي الإسلامي) في دمشق أو كان من مؤسسيه، وقد كان مقره في فيلا سكنية بديعة كانت تقوم مقابل مبنى (المجلس النيابي) تماماً في دمشق، وقد تزوج الدكتور عز الدين إبراهيم من إحدى بنات الشام، كما فعل غيره كثيرون من المصريين قبل أن يتوجه في الستينيات إلى الخليج، حيث ما يزال في إحدى دوله حتى اليوم (مستشاراً ثقافيا) في إحدى المؤسسات الرئاسية الخليجية.

وللمرحوم الشيخ مصطفى السباعي المرشد الأسبق للإخوان في سورية، مؤلف قيم هو كتاب (الاشتراكية في الإسلام)؛ وأنا أعرف أن جمال عبد الناصر كان قرأ في عهد الوحدة هذا الكتاب الذي صدر بطبعته الأولى في دمشق في مايو 1959، وأمر بإعادة إصداره في القاهرة، فصدر فيها عن الدار القومية الحكومية للنشر بطبعته الثانية في 4-1-1960 خلال عهد الوحدة المصرية السورية، ثم صدر أكثر من مرة بعد ذلك، وما زلت أحتفظ بنسخة منه في مكتبتي الخاصة حتى اليوم.

(11) أكرم الحوراني سياسي سوري، محنك، محترف، وُلد وترعرع في أسرة فقيرة في مدينة (حماة) حيث كان الإقطاع السوري هو السيد المكروه المطاع المهيمن. وقد ارتبط أكرم الحوراني بالتوجه الاشتراكي منذ بدايات عمله السياسي، وانخرط لفترة في الحزب القومي السوري في بداية إنشائه هو وصديقه أديب الشيشكلي، لهذا السبب بالذات؛ فقد كان أنطون سعادة يدعو إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، وكانت بعض مبادئ الحزب القومي السوري الاجتماعي ضد الإقطاعية والإقطاع وضد الاستغلال الاقتصادي والمستغلين الإقطاعيين. وإلى أكرم الحوراني يعود (إثمْ) زج الجيش السوري بعالم السياسة والصراعات السياسية والأيديولوجية؛ وعلى الرغم من (غموض) أفكاره، فقد تحالف مع حزب البعث في سورية إلى حد التمازج الكامل؛ لكن، ولأسباب أجهلها، سرعان ما وقع الطلاق بين الحوراني وجماعته من ناحية، وحزب البعث من ناحية أخرى. ويقال إن أكرم الحوراني كان هو المحرّض المساند لظاهرة الانقلابات العسكرية في سورية؛ وإذا كان ثمة من يقول ببراءة أديب الشيشكلي من التهمة هذه، فإن ما نعرفه اليوم هو أن أديب الشيشكلي حاول بعد خروجه من سورية إلى لبنان، بعد نجاح الحركة العسكرية المسلحة التي قام بها الضابط مصطفى حمدون في حلب وهو من جماعة أكرم الحوراني عام 1954، وبدعم من (حزب الشعب) المؤيد لسياسة النظام (الملكي الإنجليزي) في العراق؛ حاول العودة إلى الحكم في سورية بأموال عراقية، وقد تمكن من التسلل بالفعل من بيروت إلى دمشق سراً، لكنه سرعان ما تمكن من الهرب مرة أخرى بعد أن اكتشف أن الطريق نحو السلطة أمامه باتت مسدودة. بل وإذا كان ثمة من يقول اليوم ببراءة عبد الكريم النحلاوي وجماعته من الذين نفذوا حركة الانفصال في سورية في 28-9-1961، من تهمة الاتصال بدول عربية أو أجنبية قبل القيام بالانقلاب، فإن عبد الكريم زهر الدين نفسه كان أخبرني، وهو قائد للجيش ورئيس لمجلس قيادة حركة 28-9-1961، وأنا أساجله لُعبة النرد (الطاولة) في شقته السكنية في (شارع بغداد) في دمشق بعد أشهر من نجاح حركة الانفصال، بأنه ثبت لديه ولدى عبد الكريم النحلاوي بالدليل القاطع أن أحد المشاركين بتنفيذ حركة الانفصال، وهو الضابط فيصل سري الحسيني، كذلك أخوه التاجر زهير الحسيني، كذلك التاجر خلوصي الكزبري شقيق أحد الضباط المنفذين للحركة وهو حيدر

الكزبري رحمه الله، قبضوا في موعد سابق لقيام حركة الانفصال من دولة عربية مجاورة لسورية كانت تناهض عهد الوحدة هي الأردن، وبوساطة شخص سوري مقيم في الأردن اسمه شريف سلام، مبالغ مالية. وقد وردت الإشارة إلى ذلك في كتاب (سنوات الغليان) لمحمد حسنين هيكل؛ ووردت تفاصيل مفصلة أكثر في كتاب (أسرار الانفصال) للدكتور سامي عصاصة.

على أنني كنت أعرف تلك التفاصيل من اللواء عبد الكريم زهر الدين مباشرة حين كان في دمشق على (رأس السلطة ظاهرياً)، وحين كانت لقاءاتي الشخصية به، شبه أسبوعية. ولعل ما سمعته منه حول هذه المسألة بالذات كانت واحداً من أهم الأسباب التي دفعتني إلى مهاجمة حكومة الانفصال صيف 1962 على شاشة تلفزيون دمشق نفسها (كان المرحوم خالد العظم رئيساً للوزراء) وإلى إعلان استقالتي من مهمتي القيادية في تلفزيون دمشق (وكانت يومئذ استقالة سياسية في واقع أمرها) على شاشة التلفزيون، وإلى الهرب فوراً من سورية قبل أن يتمكن خالد العظم من اعتقالي، وقد أعانني الله على ذلك، ومازلت في المنفى منذ ذلك اليوم من عام 1962. ولعلي أضيف أن أكرم الحوراني كان له منصب (وزير العــدل) في (الوزارة المركزية) لعهد الوحدة بين سورية ومصر، ثم استقال مع كتلة المسؤولين والوزراء البعثيين بعد أشهر قليلة من قيام الوحدة بين سورية ومصر؛ فإذا ما وقع (الانفصال) كان الحوراني واحداً من أبرز مؤيديه، وقد استمر يؤيد عهد (الانفصال) إلى آخر يوم عاشه ذلك العهد. وبعد (ثورة) 8 آذار/ مارس 1963 هرب الحوراني إلى لبنان، وقد تصادف أن لقيته في إحدى دور السينما مصادفة وهو جالس على المقعد المحاذي لمقعدي في بيروت صيف العام 1968.. فكان ودوداً لطيفاً، ولم يعاتبني بكلمة واحدة على كل ما كنت أذعته ضده من إذاعة (صوت العرب) من تعليقات سياسية لاذعة في عهد الانفصال، ولا على كل ما كنت نشرته ضده من مقالات في الصحف والمجلات المصرية واللبنانية. شعرت يومئذ بالتعاطف معه، وبالإشفاق الصادق عليه، واستيقظت في صدري لحظة مباغتة ثورة المشاعر الوطنية؛ وتمنيتُ لو أنني لم أتناول هذا الرجل ولا غيره من رجالات وطني بكلمة سوء واحدة عبر الإذاعات والمطبوعات خارج سورية. وقد يكون لقائي بأكرم الحوراني ذاك، وترفّعه عن العتاب، هو الذي جعلني أتخذ قراري منذ التقيته مصادفة في بيروت في العام 1968، بهجر عشقي للعمل الإعلامي الذي بدأته منذ أوائل عام 1951 كمذيع في إذاعة دمشق. وقد أقام الحوراني خلال سنوات عمره الأخيرة ضيفاً على الملك حسين مريضاً مصدوراً، ربما وحيداً في عمّان غير البعيدة عن دمشق، وقبل وفاته بسنين عديدة اعتزل العمل السياسي وهو متهالك (قرفان). لكن اسم أكرم الحوراني، على أي حال؛ سيظل في صفحات تاريخ سورية الحديث واحداً من بين أهم الأسماء التي صنع أصحابها حركة التطور السياسي والاجتماعي والعسكري والثقافي والاقتصادي في سورية بكل سلبياتها

وإيجابياتها مرةً إلى الأمام خطوات، ومرات إلى الوراء مسافات.. توفي أكرم الحوراني في عمان في ربيع 1996، ودفن فيها، رحمه الله، بعد سنوات من كتابتي السطور هذه عنه.

(12) نلاحظ أن أنطون سعادة دعا في خطاب له ألقاه عام 1938 إلى إنشاء جبهة عربية أي قبل إنشاء جامعة الدول العربية بعدة سنوات، وقد قال في جزء من هذا الخطاب المنشور نصه في كتاب سعادة (أعداء العرب أعداء لبنان) في الصفحات 17-24: «إن إنشاء جبهة عربية هي دعوة الحزب القومي السوري الاجتماعي إلى أمم العالم العربي التي يهمها الأمر لتأليف جبهة على أساس المصالح المشتركة المعيّنة فيما بينها». كذلك جاء في خطاب لأنطون سعادة ألقاه في (توكو مان) في (الأرجنتين) بتاريخ 16-11-1943 في مناسبة مرور أحد عشر عاماً على البدء بالنشاط السري للحزب؛ قبل شهره، وبعد البدء بهذا النشاط السري بثلاث سنوات: «ومن ناحية العالم العربي يرى الحزب سلك طريق المؤتمرات والمحالفات التي هي الطريق العملية الوحيدة لحصول (تعاون) الأمم العربية وإنشاء جبهة عربية لها وزنها في السياسة الدولية».

فهل الجامعة العربية هي التجسيد الذي حققه آخرون حقاً في العام 1945، رغم أن أنطون سعادة كان أول من نادى به منذ العام 1943؟ هل (مجالس التعاون) التي نلاحظ قيامها وتبلورها على أساس إقليمي طبيعي بحت، كمجلس التعاون الخليجي، وكمجلس التعاون المغاربي، هي التجسيد العملي لدعوة نادى بها أنطون سعادة منذ عام 1943، لكن جيلاً آخر، لا يعرف أنطون سعادة، ولا شيئاً من مقولاته قام بتنفيذها بضغوط من الوحدة الاجتماعية الطبيعية المزاجية؟

(13) نلاحظ هنا أن أديب الشيشكلي الذي قام بانقلابه ضد اللواء سامي الحناوي بتاريخ 19-12-1949 بدعمٍ من مجلس العقداء السري الذي كان يضم إلى جانبه الضباط: محمد ناصر، شوكت شقير، أمين أبو عساف، عزيز عبد الكريم، توفيق نظام الدين، كان أسَّس بعد تمكنه من الانفراد بالحكم (حركة التحرير) كحزب للسلطة، وهو الاسم شبه المطابق للاسم الذي اختاره عبد الناصر لتسمية أول تنظيم للسلطة بعد الثورة المصرية التي قامت بعد سنتين ونصف تقريباً من انقلاب أديب الشيشكلي؛ وهو التنظيم الذي عُرف بـــ هيئة التحرير ثم أبدل اسمه عبد الناصر باسم (الاتحاد القومي) ثم استبدله باسم (الاتحاد الاشتراكي) (ونلاحظ أن أديب الشيشكلي نصّب اللواء فوزي سلو في واجهة الحكم عام 1951 كرئيس للوزراء قبل أن ينجز الترتيبات الكفيلة بوصول الشيشكلي إلى رئاسة الجمهورية عام 1953، وهو ما فعله بالضبط جمال عبد الناصر مع محمد نجيب بعد ذلك في مصر؛ وما حاول أن يفعله عبد الكريم النحلاوي في دمشق في 28 سبتمبر / أيلول 1961 حين دفع إلى واجهة الحكم اللواء عبد الكريم زهر الدين.

(14) أذكر أنني كنت في أواخر الأربعينيات شاركت في مظاهرة طلابية اقتحمت المبنى الذي كان يقع فيه مقر مجلة الحزب آنئذ (صوت الشعب) التي كان نجاة قصاب حسن يرئس تحريرها بوصفه شيوعياً قيادياً، وكان المبنى يقع قريباً من السبع بحرات في دمشق. وقد تمكنت مع زملائي الطلبة المتظاهرين من اقتحام المبنى الذي كنا ننوي حرقه وإلقاء القبض على من فيه من الشيوعيين، وقد تسلل نجاة قصاب حسن من المبنى عبر أحد الجدران المطلة على مبنى مجاور وهو يطلق علينا الرصاص من مسدسه، وقد استشهد أحد زملائي في تلك المظاهرة وهو من آل الجعفري، وحوصرت أنا بدوري في غرفة (رئيس التحرير)، وتمكنت من الحصول على الكثير من أوراقه وبعض الصور والوثائق الخاصة به، ومنها صورة الشاعر الناغازاكي (...) وقد بقيت أحتفظ بها منذ أواخر الأربعينيات حتى بداية الستينيات بين أوراقي الخاصة في سورية، إلى أن غادرت وطني لأسباب سياسية منذ صيف عام 1962 لأعيش في أكثر من منفى عربي، ولأكتشف بعد أربعين عاماً ويوماً بعد آخر، أن العروبة ما تزال حتى اليوم حالة ثقافية فقط؛ وأن (الأخوّة العربية) هي المجاملات والتصريحات في المناسبات، لا في المشاعر المستترة، ولا في الممارسات العملية، وأن كل المجتمعات العربية التي أعطيتها سنوات شبابي كلها، وكل ما لديَّ من الطاقات بكل الأمانة والحماسة والإخلاص؛ ظلت وما تزال تعاملني على أساس أنني (سوري المولد)، لا على أساس أنني (عربي الانتماء).. وها أنذا بعد أربعين عاماً من خروجي من وطني، وفاء للعروبة، وحلم الوحدة العربية، أتساءل بكل المرارة: أين هي العروبة التي منحتها عمري وكرست لها حياتي؟ وما شكلها ؟ وما لونها؟ وفي أي مكان يمكن لواحد مثلي أن يعثر عليها؟

ملحق صور الفصل 1







أنطون سعادة





الزعيم حسني الزعيم

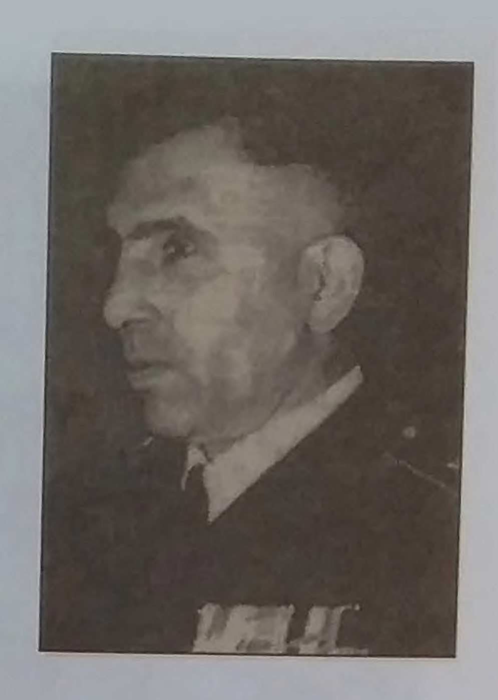
- عقب قيامه بثاني انقلاب عسكري في تاريخ الشرق الأوسط الحديث، بتاريخ 30-3-1949، توجه إلى القاهرة بتاريخ 22-4-1949 برفقة سكرتيره الخاص عديله نذير فنصة حيث اجتمع في قصر أنشاص بالملك فاروق.
- في ذلك اللقاء عرض حسني الزعيم على الملك فاروق إقامة (المملكة المصرية السورية السودانية) بحيث يكون الملك فاروق ملكاً عليها مقره القاهرة، وبحيث تسمى المملكة العربية، وحسني الزعيم نائباً للملك مقره دمشق.
- كان الملك عبد الله، ملك الأردن، دعا عقب قيام حسني الزعيم بانقلابه العسكري، إلى تجسيد مشروع (سورية الكبرى) وقد أعلن الملك عبد الله دعوته تلك بتاريخ 7-4-1949. وفي 19-4-1949 وصل نوري السعيد رئيس وزراء العراق إلى دمشق من بغداد ليعرض على حسني الزعيم مشاركة سورية في حلف عسكري يضم العراق وسورية والأردن.
- لم يكتب لأي من هذين المشروعين النجاح، ففي 14 أغسطس (آب) 1949 قام العقيد سامي الحناوي بانقلابه العسكري ضد حسني الزعيم. (دام عهد حسني الزعيم 137 يوماً فقط).



اللواء سامي الحناوي

- انقلب على حسني الزعيم بتاريخ 14-8-1949
- انقلب عليه أديب الشيشكلي بتاريخ 19-12-1949.
- تمكن من مغادرة دمشق هارباً إلى بيروت فور وقوع الانقلاب العسكري ضده.
- بتاريخ 30-10-1950 أطلق عليه الرصاص حرشو البرازي أحد أقارب محسن البرازي رئيس الوزراء في عهد حسني الزعيم، والذي (محسن) أُعدم بدوره كما أعدم الزعيم بالرصاص، خلال الساعات الأولى من نجاح انقلاب سامي الحناوي على الزعيم..
- لم يكن الحناوي سوى ساتر وغطاء للحاكم الفعلي في عهده، وهو عديله الدكتور محمد أسعد طلس، مستشار حسني الزعيم، أحد مؤسسي وزارة الخارجية السورية، وكلاهما من حلب.
- كان الحناوي طيباً إلى حد السذاجة، عسكرياً بكل معنى الكلمة، وكان قائداً للواء الأول الرابض في الجبهة السورية قبل أن ينقلب على الزعيم.
- كان الحناوي لحظة إطلاق الرصاص عليه من مسدس حرشو البرازي في منطقة الزيتونة على شاطئ البحر في بيروت، ممسكاً بيد الطفلة ميادة محمد أسعد طلس التي لم يكن عمرها تجاوز الخامسة بعد، فلم تصب بسوء.
- حين اعتقلت عام 1963 في سجن القلعة في دمشق، كان حرشو البرازي محبوساً في هذا السجن.





أديب الشيشكلي

- وُلِدَ في مدينة حماة وتخرج من الكلية العسكرية في حمص.
- اشترك في حرب 1948 في فلسطين.
- في 9-12-1949 أطاح بحكم سامي الحناوي الذي كان أطاح حكم حسني الزعيم في 14-8-1948.
- فرض هيمنته على سورية من خلال موقعه في الجيش السوري، وتستر باللواء فوزي سلو الذي عيَّنه رئيساً للوزراء.
- كان كثير التردد بصفة يومية على مقر الإذاعة السورية في شارع النصر (جمال باشا) في دمشق حيث كان يدير الإذاعة صديقه أحمد عسّه.
- في العام 1952 أسس حزب التحرير وعين الدكتور مأمون الكزبري أميناً عاماً له. وكان يحظى بعلاقة خاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة العربية السعودية، شأن حسني الزعيم، بينما كان الحناوي يحظى بعلاقة طيبة مع العراق وبريطانيا.
- في العام 1953 كان تمَّ وضع (مشروع للدستور السوري) وقد صاغ موادّه كل من: أحمد عسه وأنور حاتم وقدري قلعجي ونزيه الحكيم. وكنت أحتفظ قبل خروجي من سورية نهائياً عام 1963 بصفحات من مشروع الدستور ذاك مخطوطة بلون حبر أخضر.
- ازدهرت إذاعة دمشق في عهده، كذلك الزراعة.
- تنازل مجبراً عن الحكم بعد تمرد عسكري في حلب قاده مصطفى حمدون، ومظاهرات شعبية في دمشق قادها صيف 1954 راتب الحسامي والمحامية ملك كباره، وشارك بها ضابط برتبة ملازم واسمه صلاح الضللي كان مسؤولاً عن حماية دار الإذاعة، لكنه انضم إلى المتظاهرين وأطلق علينا الرصاص ونحن في غرفة المذيعين.
- قتله أحد الدروز بعد ذلك بسنوات عديدة وهو في البرازيل.



في اللحظة تلك التي سجلتها الكاميرا، والتي كان فيها عدنان المالكي يبتسم وهو جالس في الصف الخلفي في مقصورة كبار الحضور، وهو يشاهد مباراة بكرة القدم بين فريق حرس السواحل المصري وفريق الشرطة العسكرية السوري، وكانت الساعة تشير إلى الثالثة من عصر يوم الجمعة 22-4-1955، في لحظة التقاط هذه الصورة التاريخية تماماً، أطلق يونس عبد الرحيم (رقيب في الشرطة العسكرية السورية، قومي سوري) الرصاص على عدنان المالكي، فأرداه قتيلاً برصاصتين استقرت إحداهما في رأسه والأخرى في عنقه..

يبدو في الصورة التاريخية هذه العميد شوكت شقير رئيس أركان الجيش السوري مشاراً إليه برقم (1) وتوفيق نظام الدين من كبار ضباط رئاسة الأركان مشاراً إليه برقم (2) والقائمقام المصري جمال حماد مشاراً إليه برقم (3) وأمين أبو عساف أحد كبار قادة الجيش السوري يومئذ مشاراً إليه برقم (4) وإبراهيم صبري من القيادة المصرية السورية ــ المشتركة مشاراً إليه برقم (5) بينما يبدو عدنان المالكي وهو يقهقه مشاراً إليه بعلامة X.

(الصورة عن مجلة (أكتوبر) ــ أرشيف جمال حماد).



المرحومة السيدة خديجة نزهة، حرم المرحوم الدكتور محمد أسعد طلس

- شاركت زوجها الدكتور محمد أسعد طلس عديل سامي الحناوي، بحكم سورية من وراء الستار، طيلة الفترة من 14-8-1949 حتى 19-12-1949.
- والدها تركي كان حاكماً لدمشق في أواخر عهد الخلافة العثمانية، وقد آثر البقاء فيها بعد سقوط الخلافة الإسلامية، ثم كان من ضحايا عملية نسف القطار التي قام بها الوطنيون السوريون في درعا في نهاية الحرب العالمية الأولى.
- أمها عراقية من الموصل.
- اشتهرت بذكائها الحاد، وبجمالها، وبدهائها، وبثقافتها الرفيعة، وأمومتها المثالية.
- جامعية حقوقية، أستاذة مربية، مدرسة اللغة العربية في المدارس الثانوية في دمشق.
- وهي والدة رفيقة عمر المؤلف الدكتورة هالة.
- توفيت في دمشق 6-3-2000 بعد أن داهمها المرض وهي مقيمة في باريس إلى جانب ابنتها غادة الوزير المفوض في السفارة السورية في باريس، وتم نقلها إلى منزلها في دمشق، ودفنت في مقبرة (آل طلس) في حلب إلى جانب ضريح زوجها، رحمهما الله.



صيف العام 1956 قام المرحوم شكري القوتلي بصفته رئيساً للجمهورية بوضع الحجر الأساس لبناء البنك المركزي السوري في دمشق. وهو يبدو في الصورة يلقي كلمة في المناسبة تلك، وإلى يمينه يقف المؤلف (بالنظارة السوداء) وإلى يساره المرحوم مأمون تحسين مرافق القوتلي العسكري.

رقم (1) يشير إلى ظهر المرحوم صبري العسلي رئيس الوزراء. رقم (2) يشير إلى ظهر المرحوم محمود رياض سفير مصر في دمشق وقد لعب باستمرار أدواراً مؤثرة في حركة السياسة السورية طيلة سنوات النصف الثاني من الخمسينيات التي انتهت بتوحيد مصر وسورية في الجمهورية العربية المتحدة. أما رقم (3) فيشير إلى ظهر المرحوم اللواء توفيق نظام الدين رئيس الأركان السوري يومئذ.

(تصوير: استديو آزاد ـ دمشق) من أرشيف المؤلف الخاص.



1 ـ الأديب السوري الراحل الأستاذ سامي الكيالي.

2 ـ الأديبة السورية الراحلة السيدة وداد سكاكيني (وهي من أصل فلسطيني).

3 ـ جانب من رأس الدكتور سهير القلماوي رحمها الله.

4 ـ الدكتور محمد أسعد طلس رحمه الله.

5 ـ أمامه الأديبة السورية عفيفة الحصني رحمها الله.

6 ـ الكاتبة الصحفية المصرية السيدة المرحومة أمينة السعيد.

7ـ الدكتور طه حسين رحمه الله.

8 ـ عبد الهادي البكار.

9 ـ المفكر اللبناني الراحل الدكتور رئيف الخوري رحمه الله.

10 ـ الدكتور الأديب سامي الدهان رحمه الله.

11 ـ الأديب السوري منير داديخي (من حلب).

التقطت هذه الصورة على السلم الخارجي لقصر القبة في القاهرة بعد لقاء جمال عبد الناصر بأعضاء مؤتمر الأدباء العرب الثالث خلال شهر كانون أول/ ديسمبر 1957، قبل قيام الوحدة السورية المصرية بشهرين وقد كان الدكتور محمد اسعد طلس، والمؤلف عضوين في الوفد السوري إلى هذا المؤتمر.

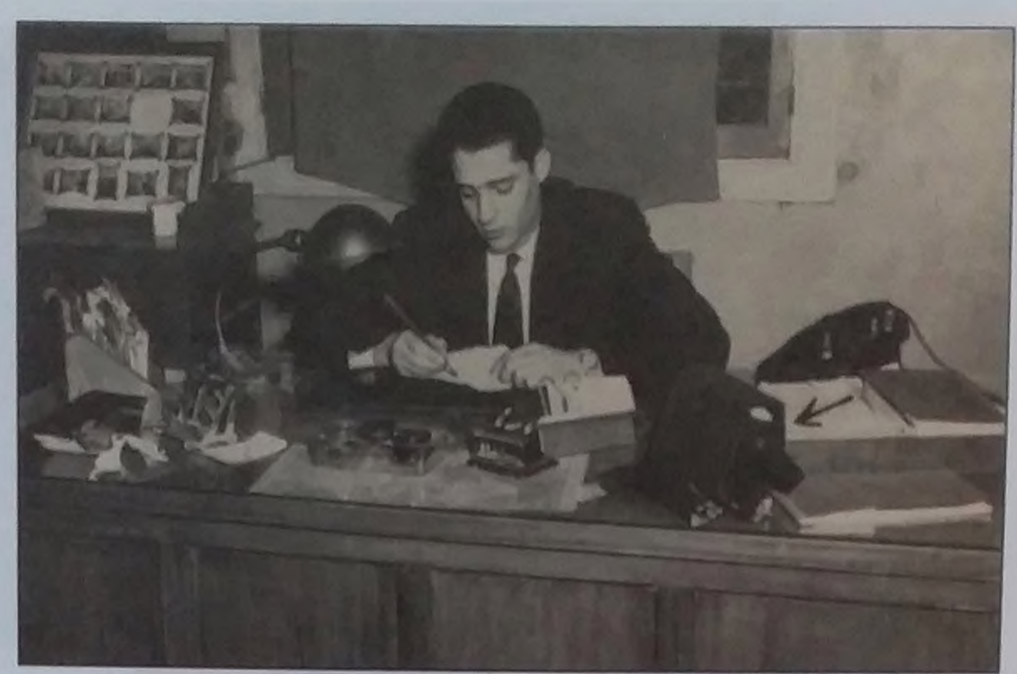
(صورة من أرشيف المؤلف الخاص).



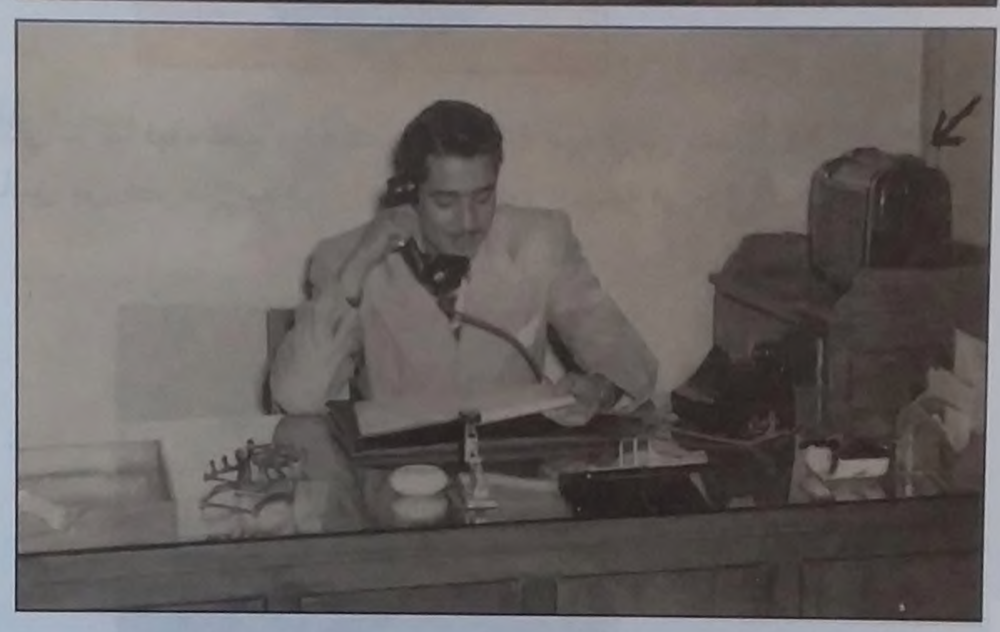
كتــب والدي شرحاً لهذه الصورة هكذا : (هذا عبد الهادي بن أحمد بكار وهو في الشهر السادس من عمره. رسم في ربوة دمشق يوم الجمعة في 28 أيلول 1934).



حين التقطت الصورة هذه في منزل خالي محمد البغدادي في قرية القابون في غوطة دمشق، لم أكن أتممت بعد الخامسة عشرة يوم الاثنين 21-2-1949. ثم، بعد هذا التاريخ بحوالي أربعة شهور، لجأ أنطون سعادة إلى حسني الزعيم في دمشق الذي سرعان ما ارتكب إثم خيانة من استجار به، فقام بتسليمه إلى رئيس وزراء لبنان رياض الصلح، حيث أُعدم بالرصاص دون محاكمة، بعد أقل من خمسة أشهر على التقاط هذه الصورة.



(1)

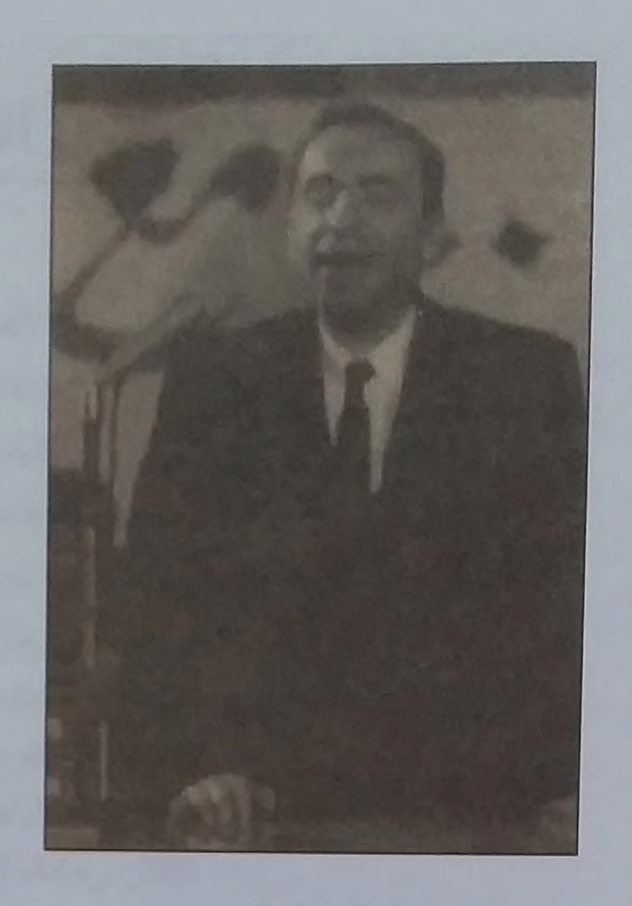


(2)

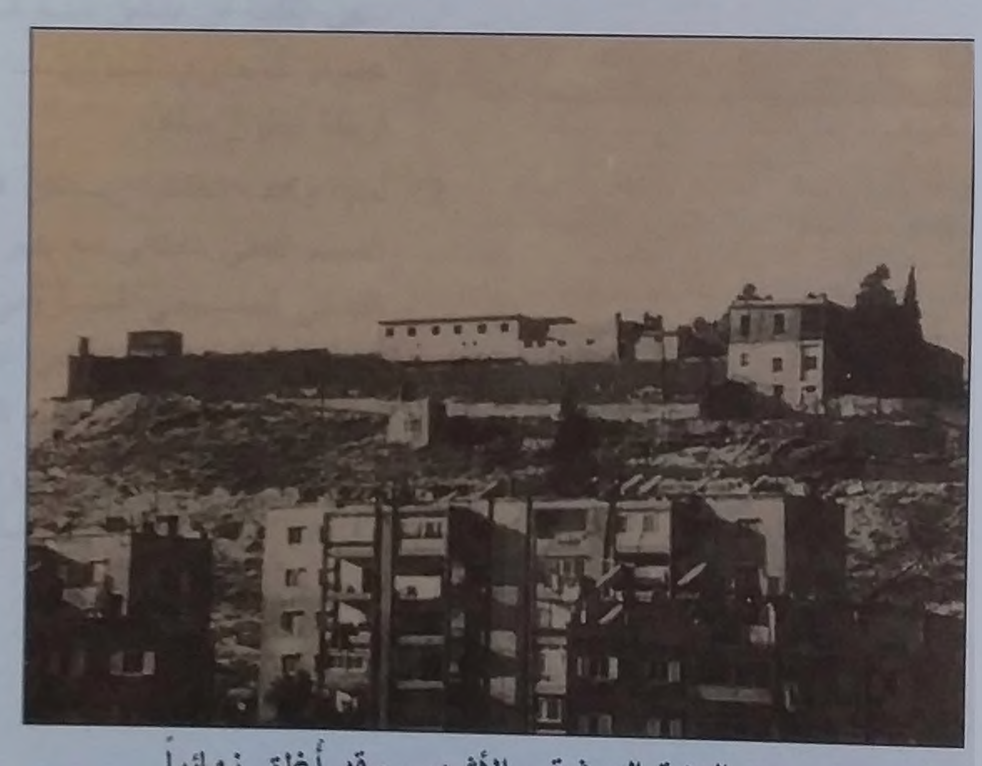
المؤلف في غرفة المذيعين في مقر إذاعة دمشق في شارع النصر العام 1952. وتبدو في الصورة رقم (1) (حقيبة يد) المذيعة عبلة الخوري، مشاراً إليها بسهم. في هذه الغرفة بالتحديد، كان المؤلف يتابع إذاعة المباراة الرياضية التي أقيمت في الملعب البلدي بين فريق السواحل المصري، وفريق الشرطة العسكرية يوم 22-4-1955، من المذياع المشار إليهم بسهم في الصورة رقم (2) والتي كان العقيد عدنان المالكي واحداً من كبار ضباط الجيش السوري الذين شاركوا بالتفرج عليها. وكانت المذيعة عبلة الخوري لحظة اغتيال عدنان المالكي ربيع عام 1955، تجلس مع المؤلف ومعهما الضابط برهان قصاب حسن. وقد استمع الثلاثة إلى صوت طلقات الرصاص التي وجهها الرقيب يونس عبد الرحيم نحو رأس ورقبة المالكي.

1 ـ (تصوير: استديو منصور ـ دمشق 1952)

2 ـ (تصوير: استديو بوياجيان ـ دمشق 1954)



ميشيل عفلق



سجن المزة الدمشقي الأشهر، وقد أُغلق نهائياً
في أواخر عهد الرئيس الراحل حافظ الأســـد

الفصل الثاني 2

- انحسار المد العربي القومي أدى إلى انتعاش الدعوات الإقليمية، وإلى تبلور الكيانات الإقليمية، كمجلس التعاون الخليجي، ومجلس التعاون المغاربي.
- الذين عاشوا تجربة اللجوء السياسي في المنافي خارج حدود أوطانهم الصغيرة لأسباب سياسية من العرب الوحدويين القوميين، هل انتهوا إلى التحول من الآفاق العربية القومية الأكثر رحابة، إلى آفاق العمل الوطني الإقليمي الأكثر نجاعة في المرحلة الراهنة؟
- ذكريات من الحبس المشترك في سجن القلعة في دمشق مع الدكتور عصام المحايري وجولييت المير أرملة أنطون سعادة.
- لماذا وكيف تحالف رياض الصلح المسلم السني اللبناني مع بيير الجميل اللبناني المسيحي الماروني ضد أنطون سعادة المسيحي اللبناني الأرثوذكسي، وضد الحزب القومي السوري الاجتماعي الذي رفض ويرفض لبننة لبنان، وفصله عن سورية ــ الأم؟

قلنا إن الحزب القومي السوري الذي انبثقت من صفوفه في العام 1985 الشهيدة سناء المحيدلي، ومن قبل الشهيد وجدي الصايغ، ومن بعدهما غيرهما كثيرون، انطلق من اقتناع مؤسسه بأن (الأمة العربية) هي في أرض مجتمع شبه الجزيرة والخليج فقط، وليست هي خارج حدوده الجغرافية. وقلنا إن المجتمع السوري الطبيعي (سورية ولبنان، فلسطين، الأردن، ثم العراق وقبرص) يشكل في نظر أنطون سعادة (الأمة السورية)، بينما تواجد (الأمة المصرية) في وادي النيل (مصر والسودان)، و(الأمة المغاربية) في الأرضي الليبية، التونسية، الجزائرية، المغربية [1].

كذلك أشرنا إلى أن هذا التقسيم في طروحات أنطون سعادة مؤسس الحزب القومي السوري إنما جاء على أساس الفواصل الجغرافية النوعية الطبيعية، والفواصل النفسية النوعية المزاجية التي أشار إليها ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، مؤكداً على هذا الصعيد أنَّ التكوُّن الجغرافي الطبيعي عادة ما يشكل عناصر أو مقومات لشخصية مزاجية طبيعية متميزة خاصة بهذا الإقليم الجغرافي النوعي الموحد أو ذاك.

وإذا كان كثيرون قد أنكروا أو استنكروا الرؤية الاجتماعية النفسية هذه لأنطون سعادة في النصف الأول من القرن العشرين الذاهب بصفة خاصة، فإن السنوات الأخيرة شهدت وما تزال تشهد فيما نلاحظ اعترافاً عملياً واضحاً بها. هذا الاعتراف الذي نراه اليوم بالعين المجردة، ونلمسه لمس اليد، يأخذ شكل مجلس التعاون الخليجي، ومجلس التعاون المغاربي، كما يأخذ شكل هذه العلاقات الخصوصية المصرية السودانية، وإن تذبذبت بين صعود وهبوط، بين حين وحين.

بل إنَّ الكثيرين من السياسيين العرب القوميين الوحدويين والمفكرين المحايدين المستقلين، والمثقفين، قد يكونون انتبهوا بدورهم إلى الاعتراف

بطروحات تكاد تتطابق في النهاية مع طروحات أنطون سعادة، دون أن يكونوا قرأوا عنها شيئاً في الغالب، ودون أن يكونوا على علم بها مسبق.

وعلى سبيل المثال نشير إلى سطور جاءت في مقالة للدكتور سعد الدين إبراهيم أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأمريكية في القاهرة، الأمين العام للمنظمة العربية لحقوق الإنسان، رئيس الشؤون العربية في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية الأسبق في مؤسسة (الأهرام) المصرية، نشرتها جريدة (الأهرام) في صفحة (الحوار القومي) بتاريخ 12-6-1985 قال فيها فيما قال:

«التحول الديمقراطي داخل كل قطر عربي هو شرط ضروري للخروج من المأزق العربي الراهن، لكنه ليس شرطاً كافياً. إن شرط الكفاية هو التوحد العربي القومي، فإذا كان التحول الديمقراطي يضمن إطلاق الطاقات الشعبية في كل قطر، للتصدي للهيمنة الأجنبية، والمحافظة على الاستقلال، وإنجاز التنمية، فإن هذه الطاقات محدودة ولا تضمن النجاح إذا صارت أسيرة إطارها القطري المحدود؛ ومن ثمّ فلابد من تكامل وتوحد هذه الطاقات القطرية. ويمكن لهذا التكامل أن يتم تدريجياً من خلال التوحد في أربع مجموعات إقليمية:

ـ الجزيرة العربية والخليج.

ـ المشرق (الهلال الخصيب).

ـ وادي النيل.

ـ المغرب الكبير.

هذه الوحدات الإقليمية ـ يقول الدكتور سعد الدين إبراهيم: «ما دامت تتم على أساس ديمقراطي، فهي تضمن مرحلياً على الأقل وقف التدهور والتقهقر في مجابهة المجابهة الأجنبية، (وخاصة إسرائيل)، وإنجاز تنمية اقتصادية أفضل، وفي الوقت نفسه تكون مرحلة تمهيدية لتوحد قومي أشمل فيما بعد».

وهذا ما طرحه الدكتور سعد الدين إبراهيم في الثمانينيات وهو نفسه ما كان أنطون سعادة قد طرحه في الثلاثينيات (بل في العشرينيات من القرن

العشرين الذاهب)... فلماذا إذاً، ومن أين جاءت الذرائع والمبررات والمسوغات لإحياء هذه الدعوة من جديد، ولحدوث هذا التحول الذي من خلاله نرى مثقفاً مصرياً معاصراً يتبنى الدعوة نفسها التي كان أطلقها أنطون سعادة قبل أكثر من نصف قرن في بلاد الشام؟ (2)

كيف ولماذا إذاً ينكر البعض على البعض الآخر في بلاد الشام تطلعه ولو سراً، من جديد نحو آفاق (سورية الطبيعية الكبرى)، ويكاد يحدوه الشعور وهو يتطلع نحو هذه الآفاق بأنه (مُذْنِبٌ)، أو بأنه ــ في نظر البعض الآخر ــ هو المتخلي إذاً عن منطلقاته الأيديولوجية الأساسية التي دعت وتدعو إلى توحيد الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، وبحيث توحد هذه الوحدة العربية جميع المجتمعات العربية الإقليمية الأربعة: السورية، المصرية السودانية، العربية، المغاربية؟

ليس من شك في أن حافظ الأسد، كشخص، وكمنخرط في حزب البعث منذ عام 1947، كان عاش لسنين عديدة بدوره شعوره المعادي لطروحات أنطون سعادة والحزب القومي السوري الاجتماعي.. فما الذي قد يكون جعل حافظ الأسد، الشخص، والرئيس، يتخذ مواقفه الإيجابية غير السلبية من منطلقات الحزب القومي السوري الاجتماعي مبادئه الداعية إلى استمرار السعي لتوحيد مجموعة دول بلاد الشام من خلال منظور الوحدة الطبيعية التاريخية، دون أن يتخلى عن مبادئ حزب البعث في السعي نحو التوحد العربي القومي الأشمل بصفة خاصة؟. لماذا وكيف أصبح الحزب القومي السوري الاجتماعي غير متصادم وغير مناكف لطروحات حزب البعث ومع القيادة الحزبية البعثية السياسية التي كان يمكن اعتبار حافظ الأسد رمزها في سورية؟ هل لا يجوز القول نظرياً على الأقل: إن وحدة الأراضي الشامية (سورية الكبرى) هي خطوة نحو تحقيق الحلم العربي الوحدوي الأكبر؟

للإجابة على هذه التساؤلات، لابد من الإشارة إلى ملاحظة نراها بالغة الأهمية: إن غالبية الوحدويين العرب الذين خذلت أحلامهم، الممارساتُ النضالية العملية، فاضطروا إلى الهرب من أقطارهم خلاصاً من الملاحقة أو الضغوط السياسية، ولجأوا إلى مصر الناصرية أو غيرها لتحميهم ولتُعينهم على العودة إلى أقاليمهم بعد ذلك منتصرين كقوميين عرب وحدويين، إن هذه

الفئة من بعض المناضلين الوحدويين القوميين العرب قد تكون انتهت إلى استبدال قناعتها بجدوى العمل القومي العربي، بقناعة قد تكون مؤقتة، ذات صبغة قطرية أو إقليمية، بمعنى أن هؤلاء قد يكونون انتقلوا خياراً أو بسبب اكتشافاتهم المأساوية المفجعة لما لم يكونوا على علم به من قبل، من كونهم (عرباً قوميين) إلى صفتهم إقليميين، أي وطنيين بالمقام الأول. إنها العودة المحزنة من الأكبر نحو الأصغر. من الشمولي الأكبر نحو الجزئي الأصغر.. فهم سرعان ما تمنّوا عودتهم إلى أقطارهم من مصر أو غيرها ليحبوا أوطانهم الصغيرة أكثر، وليلتصقوا بها أكثر، وليُخلصوا لكلٍ منها أكثر؛ وليكونوا أوفياء لها، مفيدين أكثر.

بل إن ما يمكن ملاحظته، وبأسىً عميق، هو أنَّ المصريين قبل قيام الوحدة بين سورية ومصر، على سبيل المثال، كانوا (يستلطفون) السوريين، وأن السوريين كانوا (يحبون) المصريين إلى حد العشق الدافئ طيلة المراحل التي سبقت عهد الوحدة بين سورية ومصر؛ إلا أن ما حدث عملياً هو أن تجربة الوحدة بأخطائها التي واكبتها ورافقتها منذ الساعات الأولى لقيامها، كشفت عن حقيقة مؤسفة للغاية، هي أن فشل هذه التجربة نَحَر ذلك الودّ النقيّ العميق الذي كان متبادلاً بين المصريين والسوريين، وكشف عن أن (شيئاً ما) مجهولاً نفسياً تماماً، مزاجياً تماماً، كان له دوره الفاعل المؤكد في عدم حماية التجربة الوحدوية من الفشل الذي انتهت إليه.

إن هذا هو بالضبط ما لم يفكر به عبد الناصر والقادة الوحدويون، وحزب البعث أيضاً[3]، وجميع التنظيمات العربية القومية الوحدوية الأخرى... أعني مسألة المزاج الجغرافي للمجتمع الطبيعي.. لكن أنطون سعادة كما ندرك اليوم كان أخذه منذ بداية دعوته، بعين الاعتبار والاهتمام من خلال كونه متخصصاً في علم الاجتماع، ولعله استقاه كقانون حتمي ثابت مما أشار إليه على هذا الصعيد ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، ومن حقيقة أن الاختلاف النوعي الجغرافي الطبيعي عادةً ما يؤدي إلى اختلاف المزاج الطبيعي الاجتماعي بين الأقاليم الطبيعية، وهي الحقيقة التي جعلت مؤرخاً عظيماً مصرياً هو الدكتور جمال حمدان؛ يسمي أحد مؤلفاته الهامة عن مصر بـ (شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان)، فيمنح بذلك مسألة

التميُّز الجغرافي الطبيعي، أهميّة خاصة، كذلك فعل أنطون سعادة قبل خمسين عاماً ونيّف.

وحتى يكون ما نزرعه اليوم من نطف في الأذهان، ومن بذور الأفكار الانقلابية، أشد وضوحاً، يمكننا الإشارة أيضاً إلى ما يأتي:

نلاحظ من جانبنا أن المناخ، بل التكون الجغرافي بصورة عامة، يؤسس بالفعل المزاج النفسي النوعي المتميز لمجتمع جغرافي طبيعي معين دون غيره. بل إن الطبيعة الجغرافية فيما نلاحظ، لها تأثير مؤكد على سبيل المثال لا الحصر في تحديد (طريقة النطق) للحروف والكلمات، كذلك الغناء، والتصرُّف، وردود الفعل، والطباع، والسلوك الشخصي النوعي الإقليمي بصفة عامة. ومن خلال التجربة الشخصية يمكن الإشارة إلى أننا لاحظنا خلال إقامتنا في (موسكو) ثم في (هامبورغ)، وهما مدينتان باردتان مناخاً في الشتاء، أن الروس والألمان في هاتين المدينتين الباردتين جداً شتاءً ينطقون كلماتهم من (الحنجرة) بحيث لا يبالغون كثيراً في فتح الفم حين يمارسون النُّطق بالكلمات. فالكلمات المنطوقات تكاد تتسلل تسللاً صعباً من حناجرهم عبر (شفاههم شبه المطبقة). لماذا؟ لعلها البرودة هي التي فرضت وتفرض عليهم ذلك فرضاً، بينما يمكن ملاحظة أن المواطن الذي يعيش في إقليم ساخن كالسودان مثلاً، يكاد يفتح فمه إلى أقصاه وهو يقول نطقاً (السلام عليكم) فلماذا؟ إنها السخونة وحرارة المناخ اللتان تفرضان على المواطن السوداني فتح فمه إلى الحد الأقصى الممكن (للتهوية)؛ بينما يظل كل من (الموسكوُفيّ) و (الهامبورغي) في حاجة شتاءً إلى التدفئة، وربما لهذا السبب بالتحديد، لا يفتح فمه كثيراً حين يقول بالروسية على سبيل المثال: (دوبري فيتشر. دَفارج — أي صباح الخير أيها الرفيق) أو حين يقول بالألمانية (جودين مورغين — أي صباح الخير) أيضاً.

الجغرافيا بتضاريسها ومناخها وطبيعتها إذاً بصورة عامة، تؤثر تأثيراً مؤكداً حتى على فن الغناء. ومن الممكن ملاحظة أن (المواويل) التي عادة ما تزخر بها المناطق الجبلية، كمواويل (غوغوس) الإيرانية، والمواويل السورية واللبنانية، تشكل دليلاً كافياً للإشارة إلى أن هذه المواويل تحاول بقوتها الزاعقة اختراق المسافات المعاكسة في المناطق الجبلية، بينما يمكن

ملاحظة أن مجتمعات الأراضي المنبسطة وأحواض الأنهار عادة ما تتميز بأغان جماعية غير صارخة، حميمة سريعة الإيقاع دافئة، لأن انتقال الصوت عبر الأراضي المنبسطة، أهون وأسهل. بل أن ليونة وطراوة وهشاشة وكثرة مياه الأرض المصرية على سبيل المثال أيضاً، هي التي أعطت للإنسان المصري طبائعه الشهير بها من الوداعة والاستسلام الدائم المتجدد للأمر الواقع، والسلطة، والعادات، والتقاليد، ونظام الطهو غير المتطور.. إلخ...كذلك الطبيعة الجغرافية للبنان ـــ الجبال الوعرة والغابات الجبلية والصخور الصلبة.. إلخ بل إن رقصات الدبكة في الجبال القوقازية واللبنانية وغيرها تشير إلى أن هذا الفن من الرقص مرتبط من حيث نشوءه أصلاً، بحاجة المواطن الجبلي إلى تنمية عضلات ساقيه وفخذيه، أو حاجته إلى استعراض قوتها أمام الآخرين، كذلك للتغلب على مصاعب التنقل، ولتحقيق الرهبة في النفوس، خاصة وأن المجتمع الجبلي عادة ما يكون أبناؤه ذوي عضلات قوية في الساقين والفخذين، نتيجة لعلاقة الإنسان بالطبيعة النوعية الجغرافية التي فيها يعيش، وهو في الجبال عادة ما يكون في حاجة إلى استثمار قوته البدنية، وصلابته اللتين فطرته الطبيعة الجغرافية عليهما، وليس على وداعة الاستسلام والرضى بالأمر الواقع.

هذه الحقائق الطبيعية الجغرافية النفسية المزاجية الاجتماعية ذوات الصلة بعلم الاجتماع هي التي قد تكون شاركت فيما نرى ـــ وبقدر كبير ـــ بإفشال تجربة الوحدة بين سورية ومصر، وهي نفسها التي قد تكون ساهمت بإنجاح واستمرار تجربة (دولة الإمارات العربية المتحدة) و(مجلس التعاون الخليجي) من ثمَّ، وهي التي جعلت شعاري (القومية العربية) و(الوحدة العربية) يُصبحان في حكم الشهيدين منذ 28 أيلول/ سبتمبر 1961، حيث انفصلت سورية عن مصر. بل إن ملاحظات كهذه تستند إلى حقائق جغرافية ثابتة، هي التي ـــ كما نرى ـــ ما تزال تحول دون قيام تجربة وحدوية عربية قفزاً فوق الحقائق الموضوعية الجغرافية الطبيعية المزاجية الاجتماعية هذه، وهي الحقائق التي جعلت وتجعل دول الخليج والجزيرة تنعتُ أي قادم إليها من العرب الآخرين بأنه (من غير المواطنين)، وبأنه (وافد) بل بأنه (أجنبي) (4)، وهي تضع قوانينها وتسنُّ تشريعاتها على هذا الأساس الذي

يجعل شعار (العروبة) شبحاً في الأحلام، غير موجود في دنيا الواقع المحسوس. بذلك تمَّ تفريغ شعار (القومية العربية) من مضمونه المعتمد في المشاعر والوجدان، بحيث أصبح (الوافد) من العرب الآخرين إلى قطر آخر عربي خارج حدود مجتمعه، (غريباً) وليس بين أهله؛ (أجنبياً) وكأنما هو في مجتمع آخر لا تصله به قطُّ مشاعر مشتركة جامعةٌ أعضاء العائلة الواحدة، بل المصلحة المشتركة وحدها، وهي في كل الأحوال مؤقتة لأنها غير سياسية، لا اجتماعية، غير نفسية أيضاً. بل إن من الممكن الاعتراف بأن العرب الذين هاجروا منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى القارة الأمريكية، سرعان ما تحولوا إلى مواطنين أمريكيين لهم الحقوق وعليهم الواجبات نفسها التي للأمريكيين بالولادة، وعليهم.. وهو الأمر الذي لا نجده مطبَّقاً في عالم شبه الجزيرة والخليج إزاء العرب الآخرين الوافدين إليهما، على سبيل المثال[5].

أفليس لسبب كهذا يحاول الفلسطينيون الآن تصعيد عملياتهم ضد إسرائيل في سبيل عودتهم بشكل أو بآخر إلى (فلسطين الوطن)[6]، ففي هذه العودة المأمولة، لا استخلاص للوطن الفلسطيني أو استرجاعٌ لمساحات جغرافية منه وحسب، بل — وهذا هو الأهم كما نرى عند الفلسطيني — خلاصٌ للفلسطينيين من شعورهم بالغربة المريرة في تجربة عيشهم الاضطراري في هذا القطر العربي أو ذاك.

لم ينجح شعار القومية العربية حتى اليوم كما نلاحظ بحزن عميق في جعل الأقطار العربية تعتبر الفلسطينيين (مواطنين) فيها، لهم ما لأبنائها من حقوق، وعليهم ما على أبنائها من واجبات، كما حدث للعرب المهاجرين إلى القارة الأمريكية على سبيل المثال.. فكيف يصبح العربي في أمريكا مواطناً أمريكياً[7]، ويبقى العربي الآخر في البلاد العربية كلها خارج حدود وطنه القطري، (غريباً) مرفوضاً في السر، غير جدير بالائتمان؟

لقد أكدت سلسلة التطورات والمتغيرات المستجدة على العلاقات العربية — العربية عبر السنوات العشرين الماضية بصفة خاصة وصارخة جداً، أن الرغبة بتوحيد الأمة العربية ضمن إطار المفهوم العربي القومي الكلاسيكي، غير موجودة إلا عاطفياً أو نظرياً لدى نخبة من المثاليين

الأفلاطونيين والمنظِّرين واللامجربين والمثقفين والحالمين العرب. وما قيام مجلس التعاون الخليجي، وتأكيد سياسة التكامل بين مصر والسودان (المعطلة الآن)، وإرهاصات التوجه نحو إقامة مجلس التعاون المغاربي، إلا البرهان القاطع على ذلك.

فإن يكن الأمر كذلك، فلماذا يُنكر البعض إذاً على البعض الآخر التفكير بإحياء مشروع وحدة الأراضي الطبيعية السورية التاريخية، وهو المشروع الذي يضع على عاتق سورية أولاً مستقبل ثقل جوهر القضية الفلسطينية كله، لأن المشكلة الفلسطينية عند الحزب القومي السوري وأنطون سعادة كما قلنا هي: قضية سوريّة أولاً، باعتبار أن أرض فلسطين ضمن إطار أطروحة أنطون سعادة، هي الجنوب من أراضي ومجتمع سورية الطبيعية الكبرى. (في حوار لي مع أحد كبار المثقفين الفلسطينيين العاملين في جامعة الدول العربية في تونس أوائل الثمانينيات من القرن الذاهب، قال لي متسائلاً، وهو يعبِّر عن رفضه مقولة (سورية الكبرى – وجنوبها فلسطين):

ولماذا لا نعتبر أن سورية هي الشمال من فلسطين؟

وكانت إجابتي: أفلا يلحق ذلك سورية المستقلة بفلسطين المحتلة، مادامت تحت نير الاغتصاب[8]؟

قلنا إن الحزب القومي السوري بعد اغتيال العقيد عدنان المالكي بتاريخ 22-4-1955 تعرَّض إلى محاولة إبادةٍ مبرمجة في كل من سورية ولبنان. طورد قادته وأعضاؤه، وزُجَّ بالكثير منهم في السجون، وتمكن جزء منهم من الهرب إلى المنافي البعيدة والقريبة.. ثم صار توجيه الاتهام في سورية بعد ذلك إلى أي مواطن بأنه (قومي سوري) موازياً لبشاعة اتهامه بالخيانة العظمى. كان طوفان القومية العربية قد طغى، والمدُّ العربي قد انبجست قوته، وكانت سورية بالذات هي مركز الطوفان هذا، ومنها كانت بدايات انبجاس المد العربي القومي الذي سرعان ما تكامل مع الممارسات العملية لجمال عبد الناصر الزعيم الثوري في مصر لصنع تجربة الوحدة المصرية السورية التي بفشلها سرعان ما بدأ شعار القومية العربية يتبخرّ ويتآكل ذاتياً

متحللاً في الأرض والفضاء، كالسحاب حين يتبدد، حتى جاءت هزيمة 1967 العربية التي وأدت شعار القومية العربية وأداً على شمول الأرض العربية(9).

وعلى الرغم من أن سورية بحدودها الصغيرة حتى بداية الخمسينيات من القرن العشرين كانت هي الأغنى والأكثر رُقياً وتقدماً من لبنان، بل وأشدَّ قوة وأكثر منعة، إلا أن لبنان أخذ بالتقدم من خلال القنوات الاقتصادية غير الوطنية بداية من النصف الثاني من الخمسينيات بحيث تفوّق على سورية في كل المجالات العمرانية والاجتماعية والثقافية بل وسبقها، بدفعٍ من الولايات المتحدة الأمريكية ومشروع النقطة الرابعة الشهير.

في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين كانت سورية تفور بالحيوية الموّارة الفيّاضة، بينما كان لبنان شبه مريض بالأنيميا الاقتصادية والاجتماعية.

كانت دمشق حتى منتصف الأربعينيات من القرن العشرين الذاهب مدينة صغيرة مستيقظة وكانت بيروت في الوقت نفسه شبه قرية كبيرة شبه نائمة. وأتذكر اليوم جيداً كيف كنت إذْ أنا طفل صغير، أمتطي برفقة والدي رحمه الله القطار الذي كان يخترق بنا السهوب والوديان والجبال من دمشق إلى بيروت، فإذا ما وصلنا العاصمة اللبنانية بيروت شاهدت عيناي الفارق كبيراً، وواضحاً بين حسن دمشق المدينة الصغيرة وخمول بيروت القرية الكبيرة. لم يكن الفارق النوعي في العمران فقط.. كان الفارق واضحاً أيضاً بين المشاعر الوطنية والقومية العربية النوعية.. (كان اللبنانيون يرون السوري أهم وأقوى وأكثر تقدما، وكان السوريون يرون إخوتهم في لبنان أقل قوة واقتداراً) تلك معادلة تعرضت إلى الانعكاس بالتناوب بعد ذلك مرات عديدة.. ولعل ذلك كان من بين الأسباب التي جعلت أنطون سعادة لا يشعر بأنه يخون وطنه لبنان وهو يدعو إلى دمجه دمجاً وحدوياً كاملاً بسورية الأم. فيقف حزب الكتائب بقيادة بيير الجميّل ضده حتى الموت، كذلك رياض الصلح العربي القومي المسلم السني، حفاظاً على خصوصية واستقلالية لبنان، وسعياً وراء بلورة وتكريس لبننة لبنان.

كان الزعماء الموارنة في لبنان يعتمدون لحماية أنفسهم واستقلاليتهم اللبنانية عن الأمومة السورية، على فرنسا، وكان الموارنة يرون أن فرنسا

هي الأم المرضعة وليس سورية. بينما كان زعماء الطائفة السنية الإسلامية، وعلى رأسهم رياض الصلح، يوزعون ولاءهم فيما بين السعودية ومصر، إلا أن السعودية كانت هي القادرة النافذة أكثر، وهي المؤثرة أكثر في لبنان في عهدي الملك عبد العزيز ثم الملك سعود، قبل ولوج مصر الناصرية المعادلة السياسية اللبنانية الإعلامية الثقافية منذ 1955.

كانت السعودية، قبل مصر، هي حامية حمى المسلمين بكل مذاهبهم في لبنان، مثلما كانت فرنسا بالذات هي حامية حمى المسيحيين بصورة عامة في لبنان وبخاصة الموارنة.

كان زعماء الطائفة الإسلامية السنية في لبنان وعلى رأسهم رياض الصلح، لا يفصلون ولا يفصمون العروبة عن الإسلام، وكانوا ينظرون إلى أي فصل فاصم بين المواطن والعروبة في أي بلد عربي، على أنه فصل بين المواطن والوطن.

كان رياض الصلح رجل دولة، في الوقت الذي كان فيه أنطون سعادة مفكراً زعيماً ثقافياً مستنيراً بلا عون خارجي، وبلا معين من خارج الحدود، وكان يدعو إلى التضحية بلبننة لبنان وإلى دمجه دمجاً في سورية الأم، حتى يصبح لبنان الجزء الأقوى والأعظم والأبقى مع الزمن، كإقليم من أقاليم سورية الكبرى الطبيعية الموحدة.. بينما كان رياض الصلح وأمثاله من زعماء المسلمين السنة في لبنان، أشد حفاظاً على لبنانية لبنان، وخصوصيته السياسية والاجتماعية والدينية والطائفية، من بيير الجميّل نفسه زعيم الكتائب في لبنان. بل أن بيير الجميل ورياض الصلح، كانا متحالفين ضد أنطون سعادة وطروحات الحزب القومي السوري الذي كان ينادي بإقامة الوحدة الاندماجية بين سورية ولبنان، والتخلي عن الخصوصية اللبنانية كمدخل نحو إقامة دولة سورية الكبرى الأعظم. إلا أن استشهاد أنطون سعادة وتعرُّض حزبه بعد ذلك إلى سلسلة من الضربات الموجعة، أدى إلى انتصار كل من بيير الجميل والزعامات الإسلامية السنيّة التي شاركت معه بدورها بمنح لبنان الخصوصية اللبنانية المترافقة مع نهضة عمرانية وتطورٍ اجتماعي وارتقاء اقتصادي ملحوظٍ مجهول القنوات ومصادر التمويل، وهيٍ قوة للبنان وصلت في الستينيات من القرن العشرين الذاهب إلى حد أن عبد الناصر

رضي بأن يلتقي رئيس الجمهورية اللبنانية فؤاد شهاب في عهد الوحدة في منطقة الحدود السورية اللبنانية، دون أن يُصرَّ عبد الناصر على أن يذهب فؤاد شهاب إليه في دمشق أو القاهرة.. بينما نلاحظ كيف كان رئيس الجمهورية اللبنانية السابق أمين الجميّل يقوم بسلسلة من الزيارات إلى دمشق للاجتماع بالرئيس السوري حافظ الأسد الذي لم يتوجه إلى لبنان مرة واحدة للقاء أمين الجميل في بيروت. وفي علاقة على هذا النحو، تكمن المعاني السياسية الكثيرة على صعيد العلاقات السورية اللبنانية في السنوات العشرين الأخيرة من القرن العشرين.

لم يتمكن العروبيون المسلمون السُنّة اللبنانيون من إقامة تنظيم جيد لحمايتهم من الارتجاج ثم الانهزام في لبنان رغم دعم كل من السعودية ومصر إياهم، ثم ليبيا بدءاً من السبعينيات، من القرن الذاهب، مالياً وسياسياً وتسليحاً أيضاً...إلخ.. ولعل ذلك يفسر لنا لماذا خسر هؤلاء المعركة تلو المعركة داخل لبنان نفسه في المراحل الأخيرة، حتى أصبحوا مثل كتلة من اللحم والعظم والأحشاء دون عظم ولا جلد يحميها.. فلقد كانت زعاماتهم ترفع الشعارات وتقبض من هنا وهناك الرشى والمساعدات والأتاوات، دون أن تجهِّز نفسها للمساهمة عملياً بحماية سلامة وجودها حتى لا نقول سلامة لبنان. بل إن هذه الجماعات بالذات كانت ترضع من ثدي سورية السلاح بعد قيام «الثورة» في لبنان عام 1958 بعد مقتل الصحفي اللبناني نسيب المتني على سبيل المثال واستجلاب كميل شمعون الأسطول السادس الأمريكي لحماية نظامه. كنت يومئذ مذيعاً في إذاعة دمشق، رئيساً لشعبة المنوعات ومشرفاً على قسم الاستماع السياسي فيها، وكنت أرى بعينيَّ كيف كان اللبنانيون المسلمون يجيئون إلينا في مقر الإذاعة، ليتسلموا الأسلحة الخفيفة من أيدي جماعة عبد الحميد السراج، ليتاجروا بها بيعاً وشراءً بعد ذلك، وليس ليستخدموها لصالح (ثورة العروبة) في لبنان عام 1958.

حافظ الأسد، بدوره كمواطن سوري كما نُقَدِّر، وكمنخرط في حزب البعث منذ العام 1947، وكضابط طيار في الجيش السوري بعثي قيادي مسيّس، عاش كل تلك الأحداث، ومن الممكن ملاحظة أنه كان مرَّ بدوره إذاً كشخص بالمرحلة التي كان فيها لبنان أقل شأناً من سورية الأم، ثم عاش

المرحلة السورية التي تفوّق خلالها لبنان على سورية وعلى نفسه حيث نهض في الستينيات نهضة اجتماعية وثقافية مُشعّة واضحة، ثم المرحلة التي بدأ فيها لبنان ينهش نفسه بأنيابه، ويقطع لحمه بأظافره، ويأكل عضلاته، ويجرش عظامه بأضراسه جرشاً، وهي المرحلة التي بدأت منذ بدايات السبعينيات من القرن العشرين، وتبلورت على صورة الحرب الأهلية بداية من العام 1975، حيث بات من المنطقي أن يكون لسورية الأم دورها في معالجة الابنة المرزوءة بالاعتلال، واسترجاعها لحمايتها بحضن الأم الدافئ، إذا ما حاولت إسرائيل تحويل لبنان إلى فلسطين ثانية.

الحزب القومي السوري الاجتماعي عاش بدوره تلك المراحل كلها بجميع تياراته اليمينية واليسارية اليافعة، وقياداته المختلفة التي أفرزت عبر السنين الكثير من التحولات والمعطيات والمواقف الجديدة التي طرأت على نظرة الحزب نحو العرب الآخرين، ونحو اليسار الدولي، ونحو مفهوم العروبة..

ولقد كانت أقداري كتبت علي أن أكون سجيناً سياسياً في سجن القلعة في دمشق بعد أن أديت واجبي بالمشاركة بإسقاط حكم الانفصال بصفتي عربياً قومياً وحدوياً عمل لفترة طويلة تحت ظلال رايات عبد الناصر[10]، خاصة وأن سقوط الانفصال كان يعني بالنسبة إلينا نحن الوحدويين في سورية عودة دمشق فوراً إلى التوحُّد من جديد مع القاهرة بزعامة جمال عبد الناصر. إلا أن عدم عودة دمشق إلى القاهرة عقب قيام ثورة 8 آذار /مارس 1963 التي ساهمنا بالنضال الصعب في سبيل أن تتحقق، جعلنا نعلن رفضنا لتلكؤها بالعودة إلى الجمهورية العربية المتحدة.الأمر الذي أوصلنا بدورنا إلى سجن القلعة في دمشق بعد أن قرر الذين كانوا بالسلطة في دمشق عام 1963 وعلى رأسهم أمين الحافظ أن يقذفوا بنا بعيداً عن ساحات المكاسب السلطوية، ليستأثروا هم وحدهم بالسلطة، رغم أننا كنا لهم شركاء في صنع الثورة طيلة سنوات عهد الانفصال، بل كنا نشكل الفئة الغالبة في الشارع السياسي السوري الشعبي، غير المنظمة.

في سجن القلعة في دمشق في العام 1963 كان الدكتور عصام المحايري لا يزال سجيناً منذ العام 1955، وقد جعلني زبانية السجن العريق

أجاوره في إحدى الزنازين القريبة من موقع الزنزانة التي كان يمضي فيها سنوات السجن حبيساً. وفي الطابق الأول العلوي من سجن القلعة الدمشقي العتيق، فوقنا، كانت أرملة أنطون سعادة جولييت المير الأمينة الأولى للحزب القومي السوري الاجتماعي سجينة في غرفة وسيعة محشوة بجمع من المومسات والسارقات والقاتلات والساقطات المتاجرات بالبغاء. لكم أحببت جولييت المير حين رأيتها وكانت معها إحدى بناتها من أنطون سعادة، وكم أشفقت عليها حين توجهت لتحيتها وهي في مهجع النساء السجينات، وكان لها شكل ملاك أو قديسة. كانت ــ رحمها الله ــ تعاني وهي في السجن من ورم كبير في رقبتها بارز فوق أعلى الكتف، ولم يكن مسموحاً لها بإجراء عملية جراحية إمعاناً في التنكيل. كانت تقضي عقوبة السجن والدكتور عصام المحايري وطيار لبناني قومي سورية كنا نطلق عليه ونحن في السجن لقب (أبو عرب) أو (أبو لطيف)، ومجموعة أخرى من القوميين السوريين، وهي العقوبة التي حكم بها عليهم عام 1955 بعد اغتيال عدنان المالكي. كذلك كان معنا في السجن المدعو حرشو البرازي[11] قاتل سامي الحناوي في بيروت بعد إسقاط انقلابه وهو الثاني في تاريخ الانقلابات السورية، على يد أديب الشيشكلي، كذلك كان يزاملنا في السجن مجيب المرشد الابن الأكبر لرجل كان ادعى الألوهية في جبال اللاذقية في سورية في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، وقد أُعدم شنقاً حتى الموت، ورأيت جثمانه وأنا يافع صغير متدلياً من أخشاب المشنقة في (ساحة المرجة) في دمشق؛ هو سليمان المرشد.

كان شَعْر جولييت المير عندما رأيتها في السجن ينسدل يومئذ شائباً حريرياً فضياً فوق كتفيها، فيسبغ عليها مسوح راهبة وقور.. وكنت أقتنص مناسبات خروجنا من الزنازين (للتنفس) لأجري معها الحوار تلو الحوار بتعاطف وودّ حميمين دافئين جداً. ولكم كان يحلو لي اقتناص المناسبة تلك نفسها لأحاور الدكتور عصام المحايري على أمل أن أكسبه إلى صفوفنا نحن العرب الوحدويين القوميين المحسوبين على زعامة جمال عبد الناصر، فكان يبتسم بنبل شديد التأثير، وبهدوء ووداعة ولطف ليس بعدها لطف وودّ ووداعة. كنت أحاول إقناعه بأن أحلامي أنا الشاب العربي اليافع المشحون

إيمانا بإمكان إقامة الدولة العربية الواحدة الكبرى بزعامة عبد الناصر، هي الأحلام الشرعية بمقدار ما هي الأحلام الذهبيَّة، وأنها هي الطريق نحو المستقبل العربي الأفضل الذي سيكون. وكان الدكتور المحايري يكتفي بابتسامته الوديعة، ويكرِّمني فيطلب مني مشاركته الطعام الذي كانت والدته رحمها الله تحمله إليه وهو في السجن كل يوم ثلاثاء من كل أسبوع. وهي ترتدي ملابسها الشامية الشعبية التقليدية.

لم يكن الدكتور عصام المحايري يسخر مني، ولا من حماستي، ولا من أقوالي وأوهامي، وكان واضحاً بالنسبة إليَّ أنني وقعت في قلبه موقع الود، وكان حزيناً لإصابتي برصاصة في ركبتي في محاولة كانت جرت لاغتيالي في مسقط رأسي (دوما) فور عودتي إليها من القاهرة عقب نجاح ثورة 8 آذار/ مارس 1963.

كان الدكتور عصام المحايري يبدو لي بوضوح أنه قارئ ممتاز للتاريخ وعلم الاجتماع، لكن لاشيء كان يمكن أن يجعلني أتنبأ يومئذ بخروجه من السجن في موعد لاحق بعد سنوات،، وبتسنمه رئاسة الحزب القومي السوري الاجتماعي، وليكون أحد خلفاء أنطون سعادة في قيادة الحزب الذي ــ رغم كل ما أصابه من الجراح النازفة الموجعة ــ تمكن من النهوض بعد مرور حوالي أربعة وثلاثين عاماً على استشهاد أنطون سعادة ليكتشف نفسه من جديد، وليعترف الذين دمروه أو شاركوا بتدميره، بأنهم كانوا في نهجهم على خطأ، وأن نهجه كان هو الصواب المفصل على مقياس مجتمع بلاد الشام، السوري المتجانس.

حواشي الفصل الثاني

(1) يرى علماء ومؤرخون كثيرون أن الأفارقة ومنهم أهل مصر والسودان، منتسبون إلى الأصل الحامي غير السامي، وأن عرب المشرق جميعاً، ومنهم الفينيقيون ــ السوريون، منتسبون إلى الأصل السامي، لكن هذه ما تزال حتى الآن مسألة غير محسومة.

ولعليّ أتذكر اليوم أنني كنتُ سمعت خلال زيارة قمت بها لأستاذنا الفاضل الجليل المرحوم الشيخ علي الطنطاوي في منزله في منطقة (المهاجرين) على سفح جبل قاسيون في دمشق، وكنت برفقة أستاذي الشاعر الفلسطيني الكبير حسن البحيري، في بداية النصف الأول من خمسينيات القرن الذاهب، أقول، لعليّ أتذكر اليوم أنني سمعت أستاذنا الشيخ الطنطاوي يقول إن الفراعنة أيضاً منتسبون إلى الأصول العربية التي كان موطنها فيما يسمى الآن بشبه الجزيرة العربية والخليج وبالتحديد، اليمن. فإذا كان قول أستاذنا الشيخ الطنطاوي، وهو رجل البحث التاريخي والإيمان الديني والمنطق والجدلية، قولاً صحيحاً، فهذا يعني أن (الأمة المصرية) ساميّة رغم أنها استوطنت منذ تكوُّنها، جزءاً من القارة الأفريقية.

بل إنني لأجزم أنني كنت سمعت العلامة التونسي الكبير المرحوم الدكتور عثمان الكعّاك، في لقاء لي مباشر معه في تونس في النصف الثاني من السبعينيات، يؤكد أن ما يسمّى الآن بشبه الجزيرة العربية، كان في مرحلة جيولوجية سابقة متصلاً بما يسمى الآن بالقارة الأفريقية، وأن انفصال كل منهما عن الأخرى إنما جاء في مرحلة من التطورات الجيولوجية اللاحقة نتيجة للانشقاق الانهدامي الذي حدث فشكّل الفاصل فيما بينها وهو الفاصل المسمى اليوم بالبحر الأحمر، وامتداداته الشمالية المنخفضة في خط طولي واحد، التي منها على سبيل المثال، غور الانهدام في فلسطين، ووهدة الزبداني (سهل الزبداني) ووادي بردى في سورية ويظهر ذلك بوضوح شديد في المشارف الغربية لمدينة دمشق على طريق بيروت ــ دمشق، حيث يبدو انشقاق جزء عن الجزء الغربي من جبل قاسيون، حيث يرى الناظر بعينيه قمة الجبل حتى سفحها وقد أصبحت اثنتين، بينهما واد، تزحف في أسرّتها مياه نهر بردى وفروعه الجداول السبعة، بين ما يسمى الآن بجبل قاسيون وجبل عنتر.

ومن خلال المنظور هذا فإن العلاّمة الدكتور عثمان الكعّاك أكد لي من لقاء لي مباشر معه في تونس عام 1980 أن البربر أيضاً، وليس الفراعنة فقط من سكان الشمال الأفريقي، هم عرب ساميون، وأنّ تكوُّن الانشقاق المسمى اليوم بالبحر الأحمر في مرحلة جيولوجية موغلة في القدم، هو الذي جعلهم يصبحون (منفصلين) عن أرض العروبة ــ المركزية ــ الأصل، المسماة اليوم بشبه الجزيرة العربية والخليج...

إلا أن علماء ومؤرخين كثيرين آخرين لا يرون ذلك.

(2) يُشتبه في أن كلمة (شام) هي نفسها كلمة (سام) ابن نوح؛ ونحن نميل إلى الأخذ بهذا التفسير استناداً إلى أن ابن عساكر يقول في الصفحة العاشرة من المجلد الأول من كتابه (تاريخ مدينة دمشق): «إن أول حائط وُضِعَ على وجه الأرض بعد الطوفان هو حائط حرّان ودمشق، وبابل». ويقول المؤرخ السوري الدمشقي المرحوم أحمد حلمي العلاف في كتابه (دمشق في مطلع القرن العشرين) الصادر عن وزارة الثقافة السورية في العام 1976 «إن إطلاق اسم الشام على مدينة دمشق هو من باب إطلاق العام على الخاص»... وهذا يعني أن دمشق سميت تجاوزاً بـــ (الشام) تحبباً بالبلاد التي هي عاصمتها، وليس العكس. وهذا ما نجده في مصر حيث يسمي المصريون (القاهرة) باسم (مصر).

ولقد وقع في يدي وأنا أعيد صوغ هذا الفصل مساء الخميس 15-9-1989، كتاب (تاريخ اليهود القديم في مصر) للدكتور عبد المحسن الخشاب (صادر عن مكتبة مدبولي عام 1989)، وقد قرأت في فصل في الكتاب هذا عن (عِلم الحروف)، أن القرآن الكريم يذكر ما يقد يفهم منه أن لغة آدم كانت هي اللغة السيريانية Syriague.

وقد أثارت الملاحظة هذه اهتمامي لأن أنطون سعادة كان في أكثر مقولاته وكتاباته المنشورة المطبوعة يشير إلى أن الفتح العربي الإسلامي لبلاد الشام أو لبلاد سورية الطبيعية الواحدة الكبرى، أجهز على اللغة السورية، لغة أهل البلاد الأصلية. وهي اللغة السيريانيّة التي كانت لغة (عيسى السوري المسيح) عليه السلام؛ والتي لا يزال سكان بعض القرى الجبلية السورية يتحدثون بها حتى اليوم، ومنها قرية (معلولا) على سبيل المثال. ولست أدري علام استند الدكتور عبد المحسن الخشاب ليدلي في الصفحة 243 من كتابه عن تاريخ اليهود القديم في مصر، بالمعلومة هذه المثيرة: إن لغة آدم ثم لغة أهل الخليج، إنما كانت هي اللغة السيريانية، أي اللغة السورية التي أجهزت عليها اللغة العربية القرشية العدنانية بالفتح الإسلامي العربي لدمشق حيث تم إخضاع بلاد سورية الطبيعية بعد ذلك للعرب القادمين من الجزيرة العربية، رافعين لواء الدين الجديد: الإسلام.

ويرى الأستاذ جينون Rene Guenon في بحث له عن علم الحروف La Science des lettres أن معنى اسم (سيريا) في اللغة السنسكريتية هو (الشمس) وأن كلمة (سير ــ Sur) باللغة السنسكريتية تعني (ضوء). ولعل هذا وهذه، ملاحظة لكاتب هذه السطور ما يفسر لنا معنى اسم جبلٍ في بلاد الشام (لبنان) اسمه (جبل سير) ومنه أخذت (منطقة سير) اسمها هذا.

لكن العالم (جينون) يؤكد أن اسم سورية أو سيريا، إنما يعود أصلاً لا إلى المنطقة المسماة اليوم ببلاد الشام، وإنما هو يعود أصلاً إلى الجزيرة التي تحدث عنها (هومر) وكانت تقع في أقصى الشمال القطبي حيث كانت تقع جزيرة (تولا) التي

كان ينتمي إليها طائر العنقاء Phoenix الذي أشارت إليه الأساطير العربية باسم (طائر الرّخ)، علماً بأن البعض يرجح أن الفينيقيين السوريين سمُّوا بالفينيقيين لأنهم اتخذوا من شكل طائر الفينيق شعاراً وعلماً رفرف فوق مراكبهم التي جابت بحار ومحيطات الدنيا إلى أن وصلوا إلى (كورن ديل) في بريطانيا.

(3) خلال عهد الوحدة بين مصر وسورية لم يتنبه كثيرون بل جميع المشاركين بقيادة التجربة من موقع أو آخر، إلى ما كان يحسن التنبه إليه، وهو أن هوية المزاج المصري الجغرافي تختلف عن هوية المزاج السوري. وأن هوية المزاج الجغرافي السوري مختلفة عن هوية المزاج المصري، أي أن كلاً من الطرفين كان يجهل هوية مزاج الطرف الآخر. ولقد كنت أحد هؤلاء الذين عانوا كثيراً من (تفرعُن) الذين تسيدوا علينا خلال سنوات الوحدة المصرية السورية من قيادات أجهزة الإعلام المصرية، على سبيل المثال؛ فقد كانوا غير ديمقراطيين لأن فلسفة الإدارة المصرية التاريخية قائمة تاريخياً على أساس هرمي يجعل من هم (فوق) بعيدين جداً عمَّن هم (تحت). وفي كتابٍ لي انتهيت من تأليفه ولم أدفعه إلى المطبعة بعد تحت عنوان: (إيلياهو كوهين: الجاسوس والقضية) أكشف النقاب عمّا كانت لي به صلة عضوية من وقائع عهد الوحدة وعهد الانفصال، ثم بعدهما حتى العام 1968؛ فقد تحملنا في سورية الكثير جداً من عدم قدرة المنتدبين المصريين للعمل في سورية خلال عهد الوحدة على فهم طبيعة خصائص وطبائع ومزاج الشخصية السورية التاريخية المختلفة، (ولست أشك في أن المصريين عانوا بدورهم بالمقابل خلال عهد الوحدة كثيراً من السوريين) دون أن يحاول أحد من الطرفين التساؤل عن سبب حدوث ذلك التصادم. أمّا سبب ذلك كما نرى فهو أن الجغرافية الطبيعية للإقليم المصري الأفريقي الأقرب إلى خط الاستواء، ذات عناصر مناخية وأرضية مختلفة نوعاً عن الجغرافيا الطبيعية الموحدة لبلاد الشام الأكثر بُعداً شمالاً عن خط الاستواء، والأكثر اعتدالاً في المناخ، وهو اعتدال يساعد على تثوير النشاط البدني والذهني أكثر؛ وقد يساعد الموهوب الشامي على الإبداع وإتقان الحرفة اليدوية التي يحترفها بيديه، حتى وإن يكن مُنظف أحذية، فهو غير مصاب بعلة الخمول.

(4) حدث أنني حاولت منذ عدة سنوات التوجه بسيارتي الخاصة من الإسماعيلية إلى بورسعيد على الطريق المعبدة المحاذية للشاطئ الغربي لقناة السويس، فما كدت أقطع من الطريق بضعة كيلومترات حتى استوقفني حاجز أمني عسكري للتفتيش. ثم فهمت أن عليَّ العودة إلى الإسماعيلية للحصول على (رخصة) تجيز لي العبور للتمتع بالمشوار على شاطئ القناة بين الإسماعيلية وبورسعيد. كانت معي رفيقة عمري وولدي الأصغر صخر الذي كان وُلد في القاهرة عقب حرب 1967 بأربعة أشهر، بصفتي عربياً قومياً وحدوياً كرس حياته لمستقبل النضال الوحدوي تحت ألوية عبد الناصر. لم تكن معي صيف العام 1967 بندقية، كان معي المايكروفون

وقلبي العاشق لمصر، وكان معي القلم والورق وصدقي. كنت بأسلحتي هذه أشارك بمعركة المصير والتحرر الوطني والقومي في مصر. بعد مرور نيف وعشرين من السنين بعد ذلك فكرت بزيارة المنطقة هذه التي كنت فيها حين كانت تُصلى بنار المدفعية الإسرائيلية؛ لأروي لرفيقة عمري وولدي الشاب حكاية تواجدي خلال حرب 1967 مع رفاقي المصريين في منطقة قناة السويس. لكنهم منعوني في عهد السلام من العبور. أجبروني على العودة إلى الإسماعيلية للحصول على (ترخيص).. والجهة ذات الاختصاص في الإسماعيلية ضنّت عليَّ بمنحي ترخيص العبور المشتهى بعد أن عرفت أنني عربي غير مصري. قال لي قائل منهم: (الرخصة لا تمنح للأجانب. ليس من حقك العبور).

العروبة؟ ما شكلها؟ ما لونها؟ ما الذي عملياً إذاً، تعنيه؟

(5) لعل من حق الكثيرين من أهل بلاد الشام بصفة خاصة، من الذين قد عانوا وما يزالون يعانون من صعوبة منحهم حقِ الإقامة في بعض دول منطقة شبه الجزيرة العربية والخليج، ومن تحريم حِلم التجنّس بجنسية دولة من هذه الدول النفطية، أن يعلموا أنَّ فارساً عربياً سورياً مسيحياً من غسان كان اسمه جبلة بن الأيهم، هو الذي نصر جيش العرب المسلمين على فتح دمشق، رغم أن جبلة بن الأيهم كان سورياً مسيحياً من أصل عربي بل أن راهباً سورياً من دمشق هو القمص (أرمانوس) كان هو الذي فتح رتاج (الباب الشرقي) في (سور دمشق) ليدخل منه القائد العربي خالد بن الوليد الزاحف من شبه الجزيرة العربية، إلى أقدم وأعرق مدينة مأهولة في العالم؛ دمشق.

لقد استقبل أهل بلاد الشام عرب الجزيرة القادمين من الصحراء إلى البساتين الشامية وضفاف أنهارها، بالأحضان. لم يرفضوهم ولم يحاربوهم. لم يصفوهم بأنهم (أجانب) و(أغراب). بل إن أهل بلاد الشام في عهد معاوية بن أبي سفيان ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا (تابعين) (محكومين)، وألاّ يكون منهم في بلادهم رئيس ديوان، ولا (موظف قيادي)، لأن الوظائف العليا الرفيعة كانت حكراً فقط على العربيّ المنسوب إلى عرب شبه الجزيرة. فإن تكن حقائق التاريخ هي الشاهدة على ذلك، وعلى أن أهل بلاد الشام اعتبروا عرب الجزيرة المهاجرين إليهم تحت ظلال السيوف ورايات الإسلام؛ أهلاً، وشركاء لهم في الأرض والماء والزرع والسكن والوطن، فلم يثوروا قط ضدهم، ولم يطالبوهم بالخروج وبالعودة إلى الصحراء التي جاؤوا منها، ولم يمنعوا عنهم (حقّ الإقامة) في بلاد الشام، بل كرّموهم تكريماً عظيماً بمنحهم حق التوطن والتجنس دون مقاومة ولا اعتراض، فكيف ولماذا يوصف الوافدون العرب إلى بعض دول شبه الجزيرة والخليج، بأنهم (وافدون) حيناً و(أغراب) أحياناً، و(أجانب) في أغلب الأحيان؟ أية عروبة هذه العروبة التي عنها نكتب ونتحدث؟ وأين هي قابعة أو واقفة أو جالسة؟ ما شكلها؟ ما لونها؟. وفي أي مكان يمكن لواحد أن يعثر عليها؟

(6) حين بدأت بكتابة هذا الفصل؛ كان الفلسطينيون خارج الحدود الفلسطينية يحاولون أن تكون فوهات البنادق وحدها هي المعابر نحو داخل فلسطين، وأن يكون دمُ الشهداء المقدس هو وحده النهر الذي عليهم أن يعبروه بزوارقهم التي هي أجساد شهدائهم إلى أرض الوطن المغتصب. لم يكن بعض فصائل (الثورة المسلحة) الفلسطينية تحول بعد إلى فصائل (للثروات المكدسة) التي يحميها السلاح الذي أصبحت له أغراض أخرى، ولأن هذا التحول قد حدث في مجال الثورة الفلسطينية خارج الإطار الجغرافي للأرض الفلسطينية؛ انبثقت (الثورة) من داخل الأرض المحتلة لتؤكد ما هو هام للغاية: إن الحجر بيد (الثورة) حيث تكون جمرة متقدة حقيقية، قادر على أن يكون أكثر أهمية وأشد تأثيراً في العدو، من بندقية بيد (الثروة) المولودة من رحم الثورة خارج حدود الوطن. وحين يصبح للثورة أمراؤها، يصبح لأطفال وحجارة الثورة، دورها ودورهم المؤثر الفاعل المجدي أكثر.

(7) نلاحظ هنا أن كارلوس منعم، رئيس جمهورية الأرجنتين الأسبق، هو ابن مــواطن سوري مولود في مدينة (يبرود) في جبال القلمون في سورية، وسيدة الأرجنتين الأولى السيدة سلمى، زوجته قبل أن يطلقها هي سورية الأب كذلك.. ولو أن والد كارلوس منعم من اختار الهجرة إلى إحدى دول الجزيرة العربية بدل الأرجنتين، لكان محتملاً عدم تمكنه من الحصول على جنسيتها حتى اليوم. ولسنا نشك في احتمال ألاّ يكون العالم المصري الدكتور فاروق الباز قد تمكن من الحصول على جنسية دولة من شبه الجزيرة العربية لو كان اختار الهجرة إليها من مصر بدل أن يتوجه إلى أمريكا، ليصبح بعد سنوات قليلة جداً واحداً من المواطنين الأمريكيين العلماء المرموقين، وليكون أحد أهم وأبرز العلماء الأمريكيين الذين ساهموا بإيصال أول إنسان إلى سطح القمر.

(8) أتيح لي مؤخراً، بعد كتابة هذا الفصل، الاطلاع على الجزء الأول والثاني من مؤلف المؤرخ الأمريكي اللبناني الأصل الدكتور فيليب حتي المعنون بـــ (خمسة آلاف عام من تاريخ الشرق الأدنى) وفيما ورد في بعض فصولهما أن الفلسطينيين كانوا يستوطنون الشريط الساحلي من جنوبيّ يافا إلى غزة حين كان الفينقيون السوريون في أوج ازدهارهم الحضاري التجاري البحري على القسم الشمالي من الشاطئ الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، وذلك في الفترة التي بدأ فيها العبرانيون يزحفون نحن فلسطين (أرض كنعان) من الشرق (من العراق) وبنو إسرائيل من الجنوب (من سيناء). وإذا كانت هذه حقيقة تاريخية حقا، فهذا يعني أن الفلسطينيين، لم يكونوا إذن (سوريين)، وأن لهم تاريخهم العريق الفلسطيني المميز غير المختلط بتاريخ الفينقيين السوريين؛ وثمة من يقول بأنهم متحدرون من أصول هندو ـــ أوروبية، وأنهم جاؤوا أرض كنعان مما يسمى بجزيرة (كريت). وكانت جزيرة كريت جزءاً من الأرض الفينيقية؛ علماً بأن كثيرين من العلماء والمؤرخين

ـــ يجمعون على أن تواجد الفلسطينيين في أرض كنعان أدى إلى تسمية هذه الأرض باسمهم، وهو (فلسطين). والمؤرخ اليوناني (هيرودوت) يقول: أن الاســـم هو (بلستاين) أي (فلسطين)، بينما جاء في الصفحة 28 من كتاب (سورية وقضية فلسطين) لمحمد عصمت شيخو أن الفلسطينيين جاؤوا أرض كنعان من آسيا الصغرى وبحر إيجه وأنشأوا أسدود وعسقلان وعاقر وعراق المنشية.

ويؤكد المؤرخ الدكتور محمد أسعد طلس في المجلد الأول من كتابه القيّم (تاريخ الأمة العربية) ص9، أن الكنعانيين هم أصلاً هجرة عربية انساحت من بلاد نجد والحجاز وبادية الشام في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد. (والمتفق عليه أن اليبوسيين من عرب نجد، هم الذين أنشأوا مدينة يبوس المعروفة باسم القدس) (أما علم اللغة فيوضح أن اسم كنعان يعني باللغة الكنعانية (الأرض المنخفضة) وهو مشتق من الكلمة الكنعانية (كنعَ) أي انخفض أو انحنى؛ وأن اليونان هم الذين أطلقوا على الكنعانيين اسم (الفينيقيين) لأنهم كانوا كما أشرنا بسطور سابقة اتخذوا من رسم طائر الفينيق (الرخ) شعاراً لمراكبهم البحرية.)

ونحن إذا ما أخذنا بمقولة أن الكنعانيين الذين سمّاهم اليونانيون في وقت متأخر، بالفينيقيين، هم هجرة من نجد والحجار كما يقول المؤرخ الدكتور محمد أسعد طلس والدكتور أحمد داوود وغيرهما كثيرون من المؤرخين، أو أنهم هجرة عربية مما يسمى الآن بأرض سلطنة عُمان كما يفيد المؤرخ اللبناني المرحوم أمين الريحاني في كتابه (ملوك العرب)، فإن أرض فلسطين تكون من هذا المنظور، أرضاً عربية كانت منذ فجر التاريخ والحضارة في منطقة الشرق الأدنى، مستقراً للكنعانيين العرب الفينيقيين، السوريين، أولاً. ونحن في الحال هذه لا نكون في حاجة إلى إثبات عروبة الأرض الفلسطينية التاريخية من كونها وطن الفلسطينيين، فقط، بل من خلال أنها كانت مستقراً للقبائل الكنعانية ــ الفينيقية ــ السورية ذات الأصول العربية قبل أن يقطنها الفلسطينيون. وفي الحال هذه، تصبح القضية الفلسطينية قضية عربية على اعتبار أن السوريين؛ هم كنعانيون آراميون فينيقيون .. إلخ. فكل هذه الأقوام هاجرت مما يسمى اليوم بشبه الجزيرة العربية، كما يذهب إلى ذلك مؤرخون عرب معاصرون كثيرون.

على أن مؤرخاً كالدكتور فيليب حتيّ لا يرى هذا، وإنما هو يقرر في الجزء الأول من مؤلفه القيّم (خمسة آلاف عام من تاريخ الشرق الأدنى) أن البابليين والآشوريين والآموريين والكنعانيين الفينيقيين والعبرانيين هم من أصول ما يُعرف بعرق البحر الأبيض المتوسط، وأنهم نزحوا من الشمال الأفريقي عبر (باب المندب) إلى الجزيرة العربية، فاندمجوا بالسكان الأصليين في الجزيرة العربية قبل أن ينزحوا في عدة هجرات فيما بعد، بصفتهم شعوباً سامية، نحو الشمال، أو إلى ما يسميه الدكتور حتيّ بــ (بلدان الهلال الخصيب). وكما نرى فإن هاتين الفئتين

من المؤرخين لا تنكر إحداهما أن البابليين والأشوريين والأموريين الذين استوطنوا شمالي سورية، وأن الكنعانيين (الفينيقيين) الذين استوطنوا لبنان، وأن الآراميين الذين استوطنو سورية، إنما نزحوا إلى بلاد (الهلال الخصيب) هذه مما يسمى الآن بشبه الجزيرة العربية، وإن تكن أصول هؤلاء قبل اختلاطهم وتزاوجهم من سكان الجزيرة العربية العرب، تعود إلى أصول العرق القفقازي الأبيض (كما يشير إلى ذلك الدكتور فيليب حتي في الصفحة 52 من المجلد الأول من كتابه خمسة آلاف عام من تاريخ الشرق الأدنى).

(9) جاء في مقالة للمرحوم الدكتور طه حسين نشرها في العدد 2847 من جريدة (الجمهورية) المصرية الصادر بتاريخ 7-10-1961 بعد قيام حركة الانفصال في سورية بعشرة أيام: «منذ أعوام طوال سمعتُ حديث الوحدة العربية؛ ولم أسمعه للمرة الأولى والثانية والثالثة إلاّ من السوريين. كانت الوحدة العربية حلماً سورياً...»، وقد أشار الدكتور سامي عصاصة إلى هذا القول في الصفحة 363 من كتابه القيّم (أسرار الانفصال) الصادر في القاهرة عن (دار الشعب) في يناير 1989.

(10) في وقت كنت فيه أحاول إعادة النظر وإجراء تعديلات في بعض فصول كتابي هذا، توجهت نحو الصديق الحاج محمد مدبولي صاحب (مكتبة مدبولي) الشهيرة في القاهرة، مساء الخميس 15-9-1989، باحثاً عن نسخة من كتاب (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة.. وقد لاحظت بين الكتب المعروضة للبيع، ثلاثة مجلدات، مجلدة تجليداً فاخراً هي مذكرات المرحوم خالد العظم رئيس الوزراء السوري الأسبق آخر رئيس وزراء في عهد الانفصال. وقد فوجئت بأن صورة فوتوغرافية منشورة في الصفحة 25 من المجلد الثالث تجمعني بالمرحوم خالد العظم وأنا أقف بينه وبين الزعيم السوفييتي الراحل نيكيتا خروشوف في موسكو صيف العام 1957. ثم فوجئت بما لم أكن أعلم به من قبل، وهو أن دولة رئيس الوزراء السوري الأسبق الراحل خالد العظم، وهو يدافع عن نفسه ضد تهمة (الانفصالية) اللصيقة به، يصفني في الصفحة 437 بأنني (بوق ناصري مأجور)! وهو يشير إليَّ باسم البكّار)، ويصفني بأنني بوق من أبواق الناصرية التي تمكنت من المساهمة بإسقاط حكم الانفصال. وفي حقيقة الأمر كنت تناولت خالد العظم رحمه الله بأكثر من تعليق سياسي من إذاعة صوت العرب خلال عهد الانفصال، وأنا أتذكر اليوم ما يشير إليه خالد العظم في الصفحة 437 من (المجلد الثالث) من مذكراته المطبوعة التي جعلتني المصادفة وحدها التقي ناشر المذكرات فيما بعد، الأستاذ عمر المدني، في فندق (النَعصُ) في بكفيا في جبل لبنان ذات صيف من أوائل السبعينيات، حين كان يقوم بإعدادها للنشر بعد مرور أكثر من عشر سنوات على وفاة خالد العظم في بيروت في 18-2-1965. فخالد العظم يشير في هذه الصفحة إلى مؤتمر صحفي عقده في دمشق قبيل سقوط عهد الانفصال بأيام قليلة

جدا، وصف فيه الوحدويين السوريين الذين قاموا بمظاهرات ضده وقذفوه بثمار الطماطم وهو يزور منطقة حوران، بأنهم (ذباب) وأن باستطاعته (أن يكشهم كشاً).. «وهكذا أعطيت الأوامر إلى قوة أمنية (بكش الذباب الوحدوي) برصاص الرشاشات!». عقب ذلك رددت على خالد العظم بتعليق سياسي كتبته وأذعته بصوتي من إذاعة صوت العرب مساء يوم 7-3-1963، وسألت به خالد العظم رحمه الله: « إذا كنت ترى الوحدويين في سورية ذباباً، فهل كش الذباب يكون بالرشاشات؟» ثم خاطبت الجيش السوري قائلاً: (أجبني عن سؤالي، يا جيش بلادي).. وفي فجر 8-3-1963 سقط «عهد الانفصال» ومعه انتهت الحياة السياسية لخالد العظم الذي شاء قبيل وفاته أن يصفني في مذكراته بالمذيع البوق الناصري (المأجور)، لو أنه رحمه الله كان يعرف الحقيقة، لما وجّه إليّ هذا الاتهام؛ فقد كنت في تلك المرحلة أعيش في مصر لا (عميلا مأجوراً) بل (مناضلا وحدويا) فقيراً، أسكن مع أفراد أسرتي الصغيرة شقةً مفروشة، وأعجز أحياناً عن تدبر ثمن وجبات طعامنا اليومية كأسرة. وكنت أخوض يومئذ وأنا في مصر المعارك تلو المعارك ضد المتفرعنين من أفراد بطانة عبد لناصر رحمه الله، وفي مقدمتهم سامي شرف بالذات الذي أعطى أمره أكثر من مرة بتوقيفي عن العمل، وبإحالتي إلى التحقيق، وبمنع صرف راتبي الشهري، وبفرض الرقابة على كل تحركاتي ومحادثاتي التلفونية، وبزرع (خادمة) تتجسس عليَّ داخل داري؛ وكنت وغيري من الوحدويين نصبر على ذلك الأذى اليومي المرهق، ونقاوم العنجهية والديكتاتورية ونحن فوق أرض مصر، ونرضى بالاستمرار بالنضال من فوق أرض الكنانة لإسقاط حكم الانفصال في ظروف صعبة للغاية، من الفقر والقهر، وهو ما لم يعرفه خالد العظم قبل أن يسترد الله أمانته من جسده، رحمه الله. ولعل من أعجب ما قرأته في مذكراته هذه هو اتهامه للدكتور ناظم القدسي، وعبد الكريم النحلاوي، وعبد الكريم زهر الدين، وعصام العطار، بأنهم (ناصريون) !.

(11) بعد أن تمكن حرشو البرازي من اغتيال سامي الحناوي بالرصاص في بيروت (عقب سقوط عهده في دمشق، وتمكنه من الهرب إلى لبنان) انتقاماً من (آل البرازي) من الحناوي الذي في الساعات الأولى لقيام انقلابه، تم إعدام محسن البرازي مع حسني الزعيم رمياً بالرصاص، ثأراً لروح أنطون سعادة.. قام (آل البرازي) بدفع ضريبة (الدّية) إلى الابن البكر لسامي الحناوي وقيل إن مبلغ (الديّة) كان مقداره خمسةً وعشرين ألف ليرة سورية، وهكذا فإن دماء الآباء قد يتاجر بها بعض الأبناء، وببيعها يتكسّبون.

- أود أن أضيف إلى نهاية الفصل هذا، ما أراه مفيداً بخاصة ونحن نواجه منذ أكثر من عشرين عاماً مضت حدوث انقلاب عربي سوري، موضوعي، على الطروحات التوراتية المزورة التي ظلت طيلة حقبٍ عديدة سلفت، هي (التاريخ)

الذي اعتمدناه وصدقناه ولم نعاكس طروحاته ولا مجراه وأهدافه البعيدة، وربما كان الدكتور كمال الصليبي لبناني يقال أنه من أصل سوري في مؤلفه الهام (التوراة جاءت من جزيرة العرب)، أول من نبَّه إلى ضرورة الحذر من الطروحات التوراتية المزورة واستناداً إلى التاريخ التوراتي المزور، طرح المؤرخون المعاصرون في القارتين الأوروبية والأمريكية أبحاثهم ومؤلفاتهم التي عرفنا مؤخراً، أنها ليست موضوعية، ولا صحيحة باعتبارها أطروحات كانت وما تزال تهدف إلى خدمة أغراض الصهيونية العالمية، وأهدافها العاجلة والآجلة. وقد تصدى لمقارعة هذا التزوير المقصود، الدكتور أحمد داوود (سوري) في كتابه القيّم (تاريخ سورية القديم). وهذان المؤرخان الشاميّان، السوري واللبناني، برهنا برهاناً قاطعاً ومن خلال أصول منهج البحث العلمي، على أن الفلسطينيين ليسوا من أصول قوقازية، ولا هم داهموا منطقة الشرق القديم بحراً من جزيرة (كريت) باعتبارهم منتسبين إلى العرق الهندو ــ أوروبي؛ بل إنهم كانوا في التاريخ القديم مستوطنين على الساحل الشرقي للبحر الأحمر فيما يسمى اليوم بـــ (الحجاز) في شبه الجزيرة العربية، وأن العبرانيين كانوا يجاورونهم من الجهة الشرقية للحجاز في عهد أبو الأنبياء (إبراهيم) الآرامي السوري. وقد كان يطلق على من يُسمّون اليوم بالفلسطينيين، اسم (الفلسبيين) أو (الفليشت) الذين انساحت الغالبية من قبائلهم نحو أرض كنعان شمالاً بعد تصحُّر منطقة الحجاز بعد حقبة من سبي شلما نصرّ أو نبوخذ نصّر العبرانيين، وسوقهم أذلاء إلى بابل. كذلك نزحت القلة من (الفلسبيين ــ الفليشت) بعد تصحُّر منطقة الحجاز، في اتجاه الحبشة جنوباً في عهد النبي سليمان، حيث تهودوا رغم أنهم فلسطينيون عرب كما يخبرنا بعض المؤرخين. هذا يعني أن الفلسطينيين عرب استناداً إلى الطرح الانقلابي وليسوا من أصول (هندو أوروبية) هاجروا من القوقاز؛ وباستقرارهم في أرض كنعان، سُميِّت هذه الأرض باسمهم قبل انهزام الآشوريين والكلدانيين، وفوز الفرس عليهم بقيادة (كورش) الذي أعاد أحفاد العبرانيين المسبيين إلى الأرض التي كانوا فيها يقيمون إلى حين، بعد أن اكتسبوا وهم في المنفى البابلي اسم (اليهود).

إننا منذ نيف وعشرين عاماً نواجه مهمة تصحيح الطروحات التوراتية المزورة، بعد أن ظهرت علامات ومؤشرات تدل على أن الطروحات التوراتية هذه المزورة هي التي سيطرت منذ التاريخ القديم على استخدام علم التأريخ لصالح أغراض عبرانية يهودية إسرائيلية صهيونية مبرمجة سياسية محددة؛ قادتهم منذ التاريخ القديم إلى تزوير التاريخ، ليتمكنوا من أرض كنعان العربية الفينيقية السورية، وهي حقيقة تاريخية تفسِّر لنا لماذا كانت حركة التحرر الوطنية الفلسطينية تنادي منذ بدايات هذا القرن الحالي بالعودة إلى الوطن الأم (سورية)؛ ولماذا على سبيل المثال انتقل مناضل سوري من محافظة اللاذقية، هو المجاهد

عز الدين القسّام، ليشارك في حركة النضال التحررية العربية السورية في فلسطين التي اعتبرها من منظور وطني سوري، ومن منظور عربي تاريخي ومن منظور إسلامي، الجزء الجنوبي من الأراضي الطبيعية التاريخية السورية.

عشت ثورة 1958 اللبنانية، بكل تفاصيلها، وكنت خلال أيام اندلاعها أقوم مقام الصديق المرحوم الأستاذ نشأت التغلبي في رئاسة تحرير جريدته السياسية الأسبوعية (عصا الجنة) خلال مهمة صحافية لصالح دار (أخبار اليوم) المصرية في القاهرة: أكتب افتتاحيتها، وبتصحيح مواضيعها بعد التنضيد، إضافة إلى مهماتي الإذاعية الوظيفية؛ وكنت على اقتناع بأنها (ثورة) شعبية لبنانية تلقائية، اندلعت ضد نظام كميل شمعون في لبنان، وكان نظاماً يمينياً خالصاً، يلقى العون والمساندة والحماية من عالم الغرب الذي كان يجمع فيما بين أمريكا وأوروبا؛ وكان اندلاعها لسبب مباشر معلن يومئذ، وهو تعرض الصحافي اللبناني العروبي الوحدوي الناصري نسيب المتني إلى الاغتيال.

كان ذلك في العام 1958؛ وطوال الفترة من ذلك العام، وحتى بدايات هذا العام الحالي 2003، كنت وغيري كثيرون جداً على اقتناع بأن ثورة 1958 الشعبية اللبنانية الناصرية؛ ما كان لها أن تندلع لولا إقدام (عملاء الغرب) في لبنان على اغتيال ذلك الصحافي العروبي الناصري نسيب المتني، وهو الاغتيال الذي فجَّر تلك الثورة وتسبب بسقوط كميل شمعون من منصب الرئاسة اللبنانية، ليحل محله اللواء فؤاد شهاب، بترتيب من جمال عبد الناصر بالتنسيق مع الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن اتصالاً هاتفياً أجراه معي من دمشق، رجل المباحث السوري المشهور سامي جمعة، بعد أشهر من صدور كتابه (أوراق من دفتر الوطن) عن دار طلاس للنشر في دمشق، قوَّض ما كنت على اقتناع ثابت به منذ خمسة وأربعين عاماً سلفت، تقويضاً أحزنني بمقدار ما أغضبني كإنسان ملتزم بفضائل الصدق والعدل والموضوعية والإنصاف. فقد أعلمني سامي جمعة بأنهم هم (المباحث السورية في عهد عبد الحميد السراج) الذين قاموا باغتيال نسيب المتني في العام 1958، لتبرير وتسويغ الاضطراب الشعبي المسلح الذي سمي بـــ (ثورة لبنان) ذلك العام، المفتعل، بهدف إسقاط نظام كميل شمعون، على أمل إلحاق لبنان بالوحدة المصرية السورية؛ وهو ما لم يوافق عليه جمال عبد الناصر، والولايات المتحدة الأمريكية، اللذان تعاونا في إحلال اللواء فؤاد شهاب، محل كميل شمعون، بخاصة وإن النظام الملكي الهاشمي في العراق كان قد سقط بقيام ثورة 14 تموز (يوليو) 1958، قبل نشوب (ثورة لبنان) بفترة وجيزة، وبسقوطه تقوض (حلف بغداد) تقوُّضاً اعتبر مرحلتئذ، نقطة تضاف إلى صالح التيار العربي القومي الوحدوي بقيادة جمال عبد الناصر ونظامه الذي كان توج صعوده وانتشاره في الشارع السياسي الشعبي القومي العربي، حتى تلك المرحلة التي أعقبت قيام الجمهورية العربية المتحدة بإقليميها الجنوبي المصري، والشمالي السوري.

ملحق صور الفصل 2





صورة من التاريخ الوطني السوري الحديث لم يسبق نشرها. وفيها يبدو المغفور له هاشم الأتاسي أمام الباب الخارجي للقصر الجمهوري في (المهاجرين) في دمشق، يستعرض حرس الشرف بصفته رئيساً للجمهورية العربية السورية عام 1951، وإلى جانبه الملك فيصل الثاني ملك العراق ابن الملك غازي، وإلى يمين الملك (الملازم) جاسم علوان الذي كان مرافقاً عسكرياً للرئيس هاشم الأتاسي، ويبدو خلف جاسم علوان مباشرة الأمير عبد الإله خال الملك فيصل الثاني، وكان وصياً على عرش العراق.

كان الصراع خلال تلك الفترة من تاريخ منطقة الشرق الأوسط على أشده بين أمريكا وبريطانيا وفرنسا حول سورية بالتحديد. لم تكن أنظمة الحكم العربية في كل من العراق ولبنان والسعودية سوى سواتر وقفازات وواجهات للمؤامرات البريطانية والأمريكية والفرنسية على سورية.

التقطت هذه الصورة بتاريخ 8-2-1951 بعد مرور 52 يوماً على انتخاب الأتاسي رئيساً للجمهورية في عهد أديب الشيشكلي الذي بدأ بتاريخ 19-12-1949 قبل أن يبدأ الشيشكلي زحفه البطيء منذ 31-11-1951 نحو منصب رئيس الجمهورية من بعد.

(تصوير: جورج درزي ـ دمشق)

(يحتفظ المؤلف بالنسخة الأصلية الوحيدة من هذه الصورة التاريخية النادرة، وهي من أرشيف جاسم علوان).



الرئيس شكري القوتلي رحمه الله يتسلم من أحد ضباط الجيش السوري، في منطقة (القدم) بدمشق، الفأس التي حفر بها القوتلي أول خندق لتحصين دمشق من خطر التهديدات التركية ـ العراقية (حلف بغداد)، فيما أطلق عليه السوريون يومئذ (أسبوع التحصين). ويبدو إلى يمين الرئيس القوتلي اللواء عفيف البزرة رئيس الأركان، وأكرم الحوراني رئيس المجلس النيابي السوري يومئذ، وبينهما اللواء أمين النفوري أحد كبار ضباط الجيش السوري في تلك المرحلة من تاريخ سورية الحديث. ويبدو عبد الهادي البكار ـ الثاني يمين الصورة ـ يسجل في دفتره بعض الملاحظات.

التقطت هذه الصورة ظهر يوم الجمعة 1-11-1957

(طوني وسفر: دمشق)



هذه الصورة ليست من أرشيفي الخاص، وإنما أرسلها إلي عبر البريد من دمشق إلى القاهرة في الثاني من أيلول/ سبتمبر 1997، الصديق الدكتور صباح قباني، إذ كان منشغلاً بإعداد بحث مطول عن تاريخه الجامعة السورية؛ وقد اقترح عليَّ مشاركته بعض جهده، لتحديد تاريخ التقاط هذه الصورة، فلبيت رغبته، وتبين أنها التقطت في أحد مرابع دمشق الخضر لحفل تكريم الجامعة السورية لفرقتي (رمسيس) و (برينتانا) المسرحيتين المصريتين في العام 1927، ويبدو فيها يوسف وهبة وجورج أبيض ودولت أبيض وأحمد علام، وآخرون وأخريات من الممثلين والممثلات المصريين والمصريات، مع توضيح أن جورج أبيض محام سوري الأصل من حلب، وقد أضفت هذه الصورة إلى كتابي دون استئذان الصديق الدكتور صباح، فليغفر لي هذا الطمع المفيد.

الفصـــل الثالث 3

- كيف تمت تصفية الحـزب القـومي السوري الاجتماعي في سورية خلال عامي 1955 و 1956.
- حتى في المرحلة التـي رزح فيهـا العالم العربي بمجتمعاتـه الإقليميـة الأربعـة تحـت وطـأة الاسـتعمار البريطـاني والفرنسـي، بعـد زوال الاستعمار العثماني أو إزالته بالحرب العالمية الأولى؛ بقي لكلّ من سـورية ومصر تميُّز حضاري نضالي فكري ثقافي قيادي خاص، فاعل، مؤثر على نحو أشمل وأعمق.
- بروز إرهاصـات الفكـرة العربيـة القومية الوحدوية في سورية بالـذات، كان البداية لتأسيس حزب البعث على أيدي كـل مـن زكـي الأرسـوزي وصلاح الدين البيطار، وميشيل عفلق.
- لماذا ناصر المسيحيون العرب شعار القومية العربية، وهـل يعيـب هـذا الشعار أنهم قد ناصروه؟
- عن المراحل والتحـولات الإقليميـة السورية والعربية التي عاشها حـافظ الأسد، وأثرت فيه.

وصف المؤرخ المصري جمال حماد، وهو الضابط المصري المتقاعد الذي كان في النصف الثاني من الخمسينيات عسكريا في دمشق برتبة قائمقام، والذي كان أحد شهود العيان أثناء تنفيذ عملية اغتيال عدنان المالكي، بل والذي كان يتحدث إليه حين أطلق عليه الرصاص، وصف عملية تصفية الحزب القومي السوري الاجتماعي في سورية [1]. عقب مقتل المالكي، في مقالة نشرتها له مجلة (اكتوبر) المصرية قبل سنوات قليلة بقوله: «انطلق رجال الشرطة العسكرية دون أي اختصاص قانوني – يداهمون مقر ومكاتب وصحيفة الحزب القومي السوري[2]. ويستولون على كل ما تحويه من أوراق ومحفوظات، ويلقون القبض على جميع قادة الحزب وأنصاره من المدنيين والعسكريين ويزجّون بهم بلا رحمة في أعماق السجون. وأحرقت الجماهير الغاضبة مبنى صحيفة الحزب ومطبعته؛ ورغم السرعة الفائقة التي تمت بها عمليات الاعتقال، فإن معظم قادة الحزب القومي السوري تمكنوا من الفرار إلى لبنان، ويبدو أن هؤلاء الرجال غادروا بدافع الحذر الأراضي السورية وفي مقدمتهم جورج عبد المسيح زعيم الحزب، كذلك ألمع العسكريين في الحزب ومنهم المقدم غسان جديد الذي كان العقيد عدنان المالكي قد نجح بتسريحه من الجيش قبل أسبوعين فقط، بعد أن تبيّن له أنه يقوم بإنشاء خلايا سرية داخل الجيش. وحين طلبت الحكومة السورية من لبنان تسليم الهاربين، أعلن وزير الداخلية اللبنانية أن الأفراد المطلوب تسليمهم قد ثبت وفقاً للتحقيقات أنهم غير موجودين داخل الأراضي اللبنانية. وقد أدى ذلك البيان إلى توتر العلاقات بين سورية ولبنان، وأخذت الصحف السورية تهاجم الرئيس اللبناني كميل شمعون ونظام حكمه، وأصدرت الحكومة السورية قراراً بحل الحزب القومي السوري ومصادرة أمواله. وتمّ تسريح عدد كبير من أنصار الحزب في مختلف مؤسسات الدولة. ومارس الجيش السوري الضغوط لاستعجال إجراء المحاكمة. وفي منتصف تموز يونيه 1955 بدأ

المدعي العام العسكري التحقيق مع 40 عضواً تم اعتقالهم. وطالب هؤلاء بحضور محامين عنهم؛ إلا أن أغلب المحامين السوريين لم يتقدموا إلى أداء دور المحامي عن القوميين السوريين، وجاء من لبنان 12 محامياً لبنانياً لمعاونة الدفاع.

في 29 تموز/ يوليو 1955 نُشر قرار الاتهام الموجه إلى 140 عضواً من المنخرطين في الحزب القومي السوري الاجتماعي، وطالب المدعي العام العسكري بتوقيع عقوبة الإعدام ضد ثلاثين من المتهمين، وبتوقيع عقوبة السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة ضد تسعة آخرين.. إلا أن أغلب هؤلاء كانوا هاربين. كان على رأس الذين طولب بإعدامهم: جورج عبد المسيح زعيم الحزب، وجولييت المير الأمينة الأولى أرملة أنطون سعادة، وعصام المحايري أمين عام الحزب رئيس تحرير جريدة (البناء) الناطقة بلسان الحزب، والدكتور سامي الخوري، والمقدم غسان جديد. وقد اتهم القوميون السوريون في المحاكمة يومئذ بأنهم زوَّدوا مكتب المعلومات الأمريكي في دمشق بمعلومات عن الإخوان المسلمين في سورية، كذلك بمعلومات تتعلق بنشاط الحزب الشيوعي في كل من سورية ولبنان منذ بداية عام 1955.

في 18 آب/ أغسطس عام 1955 انتخب مجلس النواب السوري شكري القوتلي رئيساً للجمهورية في الاقتراع الثاني بعد أن فشل في الاقتراع الأول بالحصول على أغلبية الثلثين اللازمة كشرط للنجاح.

في اليوم الخامس من أيلول/ سبتمبر 1955 تولى شكري القوتلي مقاليد الرئاسة رسمياً وأدّى اليمين القانونية في مجلس النواب متفوقاً بذلك على خصمه في الترشيح خالد العظم الذي كان سارع بتاريخ 18 أغسطس 1955 إلى إقناع الوزراء البعثيين وأعضاء الكتلة الديمقراطية بتقديم استقالاتهم لإحراج شكري القوتلي، الأمر الذي أدى إلى سقوط وزارة صبري العسلي الذي تقدم باستقالته إلى رئيس الجمهورية بتاريخ 6-9-1955 فقُبلت، وتم تكليف سعيد الغزي بتأليف الوزارة الجديدة.

بتاريخ 25-8-1955 وبعد صعود شكري القوتلي إلى منصب رئاسة الجمهورية بأسبوع واحد، بدأت المحكمة العسكرية في دمشق بمحاكمة القوميين السوريين. وقبل يوم واحد من البدء بتلك المحاكمات جرت محاولة

اغتيال المدعي العام العسكري حمدي الصالح[3]. الذي لم تنله إلا إصابات خفيفة. وقد استمرت المحكمة بجلساتها حين أصدرت أحكامها بتاريخ 13-12-1955 بإعدام ثمانية متهمين ثلاثة منهم فقط كانوا رهن الاعتقال، بينما الخمسة الآخرون كانوا هاربين، منهم جورج عبد المسيح وغسان جديد[4]، بينما حكمت المحكمة على ثمانية عشر متهماً آخر بالسجن مع الأشغال لمدد تتراوح بين 12 و 20 عاماً. وصدر الحكم بالسجن مع الأشغال الشاقة على جولييت المير أرملة أنطون سعادة، والدكتور عصام المحايري الأمين العام للحزب عضو مجلس النواب السوري.

ثم رُفعت الأحكام إلى محكمة الاستئناف التي سارعت إلى إصدار حكمها بنسخ جميع أحكام المحكمة العسكرية بسبب عدم إتمام استجواب المتهمين ضمن إطار الأصول القانونية. وبعد تقديم المتهمين إلى المحاكمة أمام دائرة عسكرية أخرى، أصدرت المحكمة العسكرية الثانية حكمها المشابه تماماً لأحكام الدائرة العسكرية الأولى.

وبتاريخ 5 تموز/ يوليو 1956 رفضت محكمة الاستئناف الطعن الذي تقدم به المتهمون، بالحكم، فأصبحت الأحكام نهائية، ولم يتبق سوى تصديق رئيس الجمهورية عليها لتصبح جاهزة للتنفيذ.

وتردَّد الرئيس شكري القوتلي كثيراً قبل أن يصدق على الأحكام، الأمر الذي دفع بالجيش السوري إلى الإعلان عن اكتشاف مؤامرة جديدة دبرها الحزب القومي السوري لاغتيال كبار قادة الجيش وبعض السوريين التقدميين، وأضيف إلى المعتقلين سبعة جدد!

كان شكري القوتلي ميالاً إلى تخفيف اثنين من أحكام الإعدام إلى السجن المؤبد، لكن ضغوط الجيش على الرئيس القوتلي كانت شديدة، فهدَّد القوتلي بالاستقالة وكان جاداً بذلك، الأمر الذي جعل الجيش يوافق على اقتراح شكري القوتلي بتشكيل هيئة خاصة تكونت من ثلاثة ضباط وثلاثة قضاة عُهد إليهم إعادة النظر في القضية، وتقديم توصياتهم بشأن أحكام الإعدام بصفة خاصة. وهكذا انتقل مصير المتهمين المحكوم عليهم بالإعدام إلى هيئة غير شرعية لا تمت إلى القضاء بصلة. ونتيجة لقرار تلك الهيئة الاستثنائية تم تنفيذ الإعدام رمياً بالرصاص في 3-9-1956 باثنين من المحكوم عليهم بالإعدام، أما الثالث فقد تم تخفيض الحكم عليه إلى السجن المؤبد...

وفي تقديرنا أن تفاصيل تلك الأحداث التاريخية عاشها بدوره حافظ الأسد، بصفته كان ضابطاً طياراً مُسيَّساً في القوات الجوية السورية العسكرية منتمياً لحزب البعث، ولم يكن عبد الناصر أيضاً بعيداً عنها وهو يخوض معركته التاريخية ضد سياسة الأحلاف بل ضد حلف بغداد بصفة خاصة، وكان الحزب القومي السوري الاجتماعي متهماً بأنه يميني متطرف، وبأنه أمريكي التوجُّه، وبأنه يناصر حلف بغداد... وكان نجم عبد الناصر يومئذ قد بدأ بالصعود، في العالم العربي في الوقت الذي كان حزب البعث (متفاهماً جداً) مع جمال عبد الناصر، وكان بين البعث والحزب القومي السوري يومئذ ما صنع الحداد.. (كان ضابط المخابرات المصرية المرحوم عبد السلام الكفافي مقيماً في لبنان خلال تلك الفترة، للعمل ضد حلف بغداد ونظام نوري السعيد في العراق) [5].

لكن، لا ثوابت في السياسة بشكل نهائي.. هذا على الأقل ما كشفت عنه مثلاً الحرب الأهلية اللبنانية ألأخيرة من عِبَرٍ على المستوى العملي... وهذا هو ما نادى به ماكيافيللي في كتابه الشهير (الأمير)، فالغاية إذاً تبرر الوسيلة، والأَسْوَدُ على هذا الأساس كثيراً ما يتحول إلى أبيض، والأبيض إلى أسود أو إلى رمادي أحياناً...

وهكذا فإن التطورات والمتغيرات العربية والمعطيات الجديدة على الساحة العربية، والساحة الدولية، وما حدث في سورية ولبنان بصفة خاصة خلال الأعوام العشرين الماضية بالتحديد، قد تكون جعلت القيادة السياسية السورية في عهد الرئيس الراحل حافظ الأسد ترى أنه قد يكون قد آن الأوان لردم الهوة العميقة التي كانت تفصم بين الحزب القومي السوري وحزب البعث في سورية ولبنان، بهدف توحيد جهودهما المشتركة للتوجه معاً في الطريق نحو تحقيق الأهداف المشتركة موضع التجريب التطبيقي ومحاولة توحيد ما يمكن توحيده من دول بلاد الشام، في الوقت الذي تبلور خلاله ملامح (مجلس التعاون الخليجي الإقليمي)، (ومجلس التعاون المغاربي)، على ألاَّ يتناقض العمل على إحياء المشروع الخاص بوحدة أراضي الهلال الخصيب أو سورية الكبرى، مع المجتمعات الإقليمية الثلاثة الأخرى في شبه الجزيرة والخليج، وفي الشمال الأفريقي، وفي وادي النيل، وبحيث يمكن أن

تأخذ سورية على عاتقها على د ا الأساس، الهمَّ الفلسطيني أي بحيث يتم دمج الأوراق الفلسطينية في الأوراق السورية، على أساس أن القضية الفلسطينية هي مشكلة سورية أولاً، ضمن إطار المفهوم الذي تقوم عليه الفلسفة التي أفرزت مشروع الهلال الخصيب أو سورية الطبيعية الكبرى.. ولعلنا نفهم من الزاوية هذه الفلسفة السورية الكامنة وراء التواجد السوري في لبنان أيضاً، بناء على طلب الشرعية اللبنانية، ولماذا يتحالف الحزب القومي السوري في لبنان، مع التوجهات السورية، في لبنان؛ ونظام الحكم السوري(6).

ولئن يكن ممكناً الإشارة إلى أن فلسفة نيتشه كانت هي المنطلق الذي دفع آدولف هتلر نحو التوسع في أوروبا، وإلى أن كلاً من لينين وستالين لم يتحركا نحو مؤسسات السلطة في روسيا القيصرية إلا بعد أن وضع لهما كلٌّ من آنجلز وماركس المبادئ الأساسية للاشتراكية العلمية؛ وإلى أن الخميني ما تحرك نحو السلطة في إيران إلا من خلال المبادئ القرآنية وفلسفتها الإسلامية كما يُقال في طهران، وإلى أن الثورة الفرنسية ما كانت إلا تجسيداً للأفكار الفلسفية الثورية لكل من جان جاك روسّو، ومونتيسيكو، وفولتير، فإن بالإمكان الإشارة بالتالي إلى أن مجموعة الأحداث والتطورات العربية لسنوات المراحل العربية الثلاث: الخمسينيات، الستينيات، ثم السبعينيات من القرن العشرين الذاهب، كذلك النتائج الملموسة الخاصة بإفرازات ومعطيات هذه التطورات خلال الأحقاب الثلاث تلك، قد تكون هي التي جعلت شخصية عربية سورية تاريخية تتميز بالصلابة ونفاذ الرؤية القيادية، وبعبقرية إدارة الأزمات، تكتشف بدورها أن ما يسمى نظرياً بالأمة العربية، إنما هو عملياً حتى اليوم أربعة مجتمعات، لكل منها شخصيتها وخصوصيتها الجغرا ـــ مزاجية، المميزة، التاريخية، وموقعها الطبيعي الجغرافي المميز، وهي القاعدة التي أقيم على أساسها أصلاً (مجلس التعاون الخليجي) و(المجلس الاتحادي المغاربي)، والتي كانت على أساسها قد وضعت منذ سنين مبادئ السياسة التكاملية بين مصر والسودان، (وإن تكن تعطلت مؤخراً لأسباب تكتيكية تتعلق بالمشاكل الطارئة على العلاقة الثنائية بين النظامين السياسيين في كل من مصر والسودان، وليس بين الشعبين).

لسبب أو آخر فإن أحدا قد لا يكون من حقه إنكار الحقيقة التي تشير إلى أن إرهاصات الانبثاق التحرري العربي المؤطَّر بأفكار ومناهج سياسية واقتصادية وثقافية وتربوية واجتماعية وعسكرية، إنما بدأت منذ بدايات القرن العشرين من سورية بالذات، وليس من غيرها من الأقطار العربية الأخرى التي رزحت بدورها، مثلما رزحت سورية أيضاً لسنين عديدة تحت وطأة الاستعمار الأجنبي.

قُطران عربيان فقط انفردا بتميُّز خاص مختلف نوعياً خلال المرحلة التي استعمرت خلالها كلٌ من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا بعض الأقطار العربية:

1 ـ **مصر:** التي انفردت بتميزها الثقافي وقدرتها الدائمة على التوهج بالخصوصية الثقافية وبحيث وصل هذا التوهُّج الثقافي باستمرار إلى الأقطار العربية الأخرى فاعلاً مُحرّضاً مُؤثراً.

2 ـ **سورية:** التي انفردت دائماً بنزوعها نحو التضحية بذاتها القطرية الوطنية، وبتوسيع رقعة آلامها وآمالها بحيث تشمل العالم العربي كله.. بمعنى أن النضال الشعبي السوري والفكر السياسي في سورية، انطلقا منذ بدايات القرن العشرين الذاهب، متجاوزين الكيان المحلي القطري، ليدخلا في عالم أرحب وأشمل هو العالم العربي كله من المحيط إلى الخليج.

ولئن تكن مصر ـ وهي تُعزِّزُ وتنمي قدراتها الثقافية وتوهُّجها الحضاري الحديث ـ قد ظلت لسبب أو آخر بعيدة سياسياً عن جميع الأقطار العربية الأخرى باستثناء السودان، غير طامعة بتحصيل معلومات عامة أوفر عن شقيقاتها العربيات الأخريات، غير مهتمة بالانشغال بهمومهنَّ الإقليمية الكثيرة، فإن البناء الثقافي والسياسي للمواطن العربي السوري في جميع مستوياته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية، إنما كان بناء (وطنياً ـ قومياً) سورياً عربياً في آن. لعل هذا هو السبب الذي جعل الأناشيد العربية القومية التي كان العربيُّ يرددها مع السوريين في العشرينيات، والثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، تنبثق من سورية العربية تحديداً وليس من غيرها من الأقطار العربية الأخرى، مثل نشيد (بلاد العُرْب

أوطاني) ونشيد (موطني موطني). ونشيد (نحن الشباب لنا الغدُ) وهي أناشيد ألفها مناضلون وطنيون سوريون[7].

كان المواطن السوري يعرف الكثير عن الأقطار العربية الأخرى بمقدار ما كان المواطن المصري مثلاً لا يعرف عنها إلاّ القليل من المعلومات، وهو أمر كان له تأثيره في المساعدة على فشل تجربة الوحدة بين مصر وسورية التي أرادها الشعب السوري تتويجاً لنضاله وتنفيذاً لتحقيق أحلامه (الوطنية ـــ القومية المختلطة) وهو التنفيذ الذي سرعان ما تم إجهاضه ذاتياً بسبب سوء إدارة الدولة الوحدوية الذي وضع حداً فاجعاً لأول تجربة وحدوية عربية في العصر الحديث، ثم تسبَّب في فتح الباب أمام سلسلة التجارب المعاكسة التي بدأت بتجربة الانفصال السورية، ثم تكررت على مستوى الأقطار العربية الأخرى جميعاً التي (انفصلت) عن بعضها البعض، ثم راحت تُكرِّسُ بلورة الروح الانفصالية التي سرعان ما انتهت إلى أشكال من الوحدات الطبيعية الإقليمية كمجلس التعاون الخليجي ومجلس التعاون المغاربي، ... وبحيث تأكد أن أنطون سعادة إذاً، كان السّباق إلى الاكتشاف، وأن دونه كان جميع المفكرين السياسيين الآخرين العرب الذين كانوا يحلمون بأحلام اليقظة العربية.

في المرحلة التي كان فيها الأتراك العثمانيون يحاولون تتريك وتطبيع وتطويع المجتمعات العربية، ومنها المجتمع السوري، وتذويبها في الذات العثمانية التركية، نشأت في مدينة أنطاكية الساحلية السورية (التي كان القائد الفينيقي العظيم هانيبال انتحر فيها، وهي مركز لواء أو سنجق إسكندرون)، حركة تحرر سورية وطنية ذات مطامح عربية قومية ترى في العروبة بوتقة للانصهار القومي الباحث عن فرصة للتحرر من الاستعمار العثماني التركي الذي كان يغطي مطامحه القومية (بالأخوَّة الإسلامية المزعومة)، في (أنطاكية) بالذات إذاً تشكلت خميرة انبعاث القومية العربية منذ ما قبل بدايات القرن العشرين المنصرم، وكان أول المبشرين بهذا الانبعاث، أحد أبناء أنطاكية من العاملين في حقل التعليم، وديع، لطيف، علاّمة، مُهاب، جميل الطلعة، يتوهج بالجلال، اسمه زكي الأرسوزي[8] الذي كان يفكر بكشط الاستعمار العثماني بسلاح القومية العربية والدعوة إلى إقامة الوحدة العربية.

وحين منحت فرنسا لواء إسكندرون السوري بما فيه أنطاكية إلى تركيا، هاجر لفيف من أبنائها إلى مختلف المدن السورية، ومنها اللاذقية ودمشق التي استوطنها زكي الأرسوزي وبدأ وهو فيها يزرع بذور الفكر القومي العربي في المعاهد والمدارس التي كان يُدرِّس فيها. وقد تأثر به الكثيرون من التلاميذ والطلبة. وشيئاً فشيئاً انتشرت أفكاره وصارت جزءاً من طموح الشرف الوطني السوري العربي. وقد كنت استمعت إلى بعض محاضراته عن فلسفة اللغة العربية وموسيقيتها الجميلة، وعن الواقع الوطني وصلته بالمستقبل العربي القومي وأنا في مرحلة اليفاع في أوائل الخمسينيات، حيث كان الأرسوزي يلقيها في (نادي الضباط) في دمشق.. وليس ثمة من شك في أن حافظ الأسد، التقى بزكي الأرسوزي، وتأثر بأفكاره، قبل أن يبدأ كل من ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار دعوتهما المكملة لدعوة الأستاذ زكي الأرسوزي، المتطابقة معها... علماً بأن ميشيل عفلق بدأ نشاطه كمدرس وأديب، ولعل قصة «طربوش سعيد أفندي» القصيرة التي كتبها الأستاذ عفلق خلال تلك المرحلة، كانت من بواكير القصص السورية كما يشير إلى ذلك الدكتور شاكر مصطفى في كتابه عن تاريخ القصة في سورية.

في ذلك المناخ الوطني القومي العربي السوري الطموح المختلط، الباحث عن ملامح الشخصية العربية، تفشت في الأوساط الطلابية السورية الشاملة أوساطاً طلابية عربية عراقية وفلسطينية وأردنية، إرهاصات الفكر القومي العربي الوحدوي المنظم التي تمكنت وهي تتصادم بثورية مثالية مع الاستعمار الفرنسي، ثم مع الأوساط البورجوازية والإقطاعية السورية بعد الاستقلال بدءاً من العام 1946 وهو عام الاستقلال في سورية، من تأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي الذي رفع راية أو شعار (وحدة. حرية. اشتراكية) حين لم يكن جمال عبد الناصر سوى جنين ثوري لم يولد بعد من ضمير الغيب والمجهول والمفاجأة فوق أرضية الثورة العربية القومية الوحدوية.

في تلك المرحلة من تاريخ سورية الوطني الحديث كان «الإخوان المسلمون» قد مضوا يتلمسون طريقهم نحو المستقبل السياسي في سورية والعالم العربي؛ كذلك كان للشيوعيين بقيادة خالد بكداش، صديق ستالين الأثير، في سورية ولبنان، وجود. وهكذا فإن سورية العربية كانت في وقت

واحد، ساحةً للصراع والاحتكاك بين الكثير من الدعوات التي سرعان ما اقتحم البعثيون ساحتها ليضيفوا إليها شعار «القومية العربية»، الذي يدعو إلى التضيحة بالذاتية الوطنية في سبيل الأكبر والأشمل، وهو: الأمة العربية التي رآها القادة التاريخيون البعثيون أمة واحدة من المحيط إلى الخليج. ولقد انبثق الفكر القومي العربي في سورية في الوقت الذي كان فيه الشيوعيون السوريون واللبنانيون يسعون نحو توفير مناخ ينتمي إلى ربط سورية ولبنان بفلك الاتحاد السوفييتي والكتلة الشرقية الأوروبية... وليس صحيحاً أن عبد الناصر كان هو أول من كسر طوق التسلّح العربي، من الغرب.. فقد كانت سورية هي الأسبق إلى شراء السلاح من الاتحاد السوفييتي، بسعي من خالد العظم المسمّى بالمليونير الأحمر، صديق الشيوعيين في سورية. كان (الإخوان المسلمون) في سورية يسعون سعيهم المستمر حتى اليوم، نحو إلغاء علمانية الدولة، وتكريس الشريعة الإسلامية كمصدر وحيد للتشريع، وإقامة الدولة الإسلامية الكبرى المتجاوزة روح الوطنية، والروح العربية القومية، وصولاً إلى ما هو أكثر شمولاً ورحابةً وهو الإنسانية التي تتجه إليها من حيث التنظير أيضاً الشيوعية الدولية لكن على أساس الفلسفة المادية.

وربما أن عدد المسيحيين في كل من سورية ولبنان والأردن وفلسطين كان وما يزال عدداً لا يمكن عدم الاعتراف بثقله، فإن شعار «القومية العربية» سرعان ما حظي باهتمام المسيحيين العرب الذين رأوا فيه خلاصاً يُنجيهم من الشعور بالاغتراب عن الوطن في حالة قيام الدولة الإسلامية، الشبيهة بالمملكة العربية السعودية، أو الجمهورية الإسلامية الخمينية في إيران.

وفي حقيقة الأمر، إنَّ حماسة المسيحي العربي لشعار القومية العربية إنما كان آية من آيات الارتباط الصادق بالوطن والقوم والأرض، وعلاجاً نظرياً ناجعاً لشعور المسيحي بالاغتراب والغبن داخل وطنه نفسه، رغم أن السيد المسيح عليه السلام (اسمه عيسى السُّوري) وكانت اللغة التي يتحدث بها هي اللغة السريانية والآرامية.

مثل تفسير كهذا يمكن أن يكون رداً على الكثير من التساؤلات المشبوهة غير البريئة من التعصب والتشدد التي تقول: لماذا تحمَّس المسيحيون العرب للتمسك بشعار القومية العربية، ووضعه فوق أي شعار آخر؟

ولقد كان هؤلاء العرب القوميون يرون أن «القومية العربية» تعدل حين تساوي، وطنياً وقومياً، بين المسلم والمسيحي، وبذلك لا يكون العربي مرشحاً للانشقاق بسبب التفرقة الدينية والطائفية المذهبية، مثلما حدث في لبنان، ومثلما قد يحدث للأسف الشديد في غير لبنان من الأوطان العربية الأخرى.

في مناخ الصراع هذا بين الكثير من الأيديولوجيات السياسية والدينية فوق الساحة السورية بصفة خاصة والساحة العربية بصفة عامة، نشأ حافظ الأسد متأثراً بأقرب المثقفين إليه ــ جغرافياً واجتماعياً ــ. وهو الأستاذ زكي الأرسوزي ــ ابن مدينة أنطاكية غير البعيدة عن اللاذقية. زكي الأرسوزي الذي استوطن دمشق بعد أنطاكية فأحبها وأحبه أهلها، ومنها بدأ دعوته التبشيرية التي منها كانت البدايات الحقيقية الأولى لحزب البعث العربي الاشتراكي... حزب الكثيرين من المثقفين السوريين والمتعلمين والمعلمين والطلبة والجنود والضباط القادمين من آفاق الفقر والحرمان والكدح، الريفيين؛ الذين سرعان ما امتلكوا نواصي السلطات كلها في دمشق، وأصبحوا هم السادة فيها.

في المناخ هذا أيضاً من التطورات على الساحة العربية، منذ أوائل الخمسينيات من القرن العشرين المنصرم، عاش حافظ الأسد متأثراً، كما نقدر، بالمعطيات الجديدة التي أفرزتها تلك التطورات التي كان منها تقدُّم الشعارات الوطنية الإقليمية على حساب تراجع الشعارات القومية خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة، وبحيث أصبح ممكناً القول إن بعض ما كان مقبولاً مقنعاً من الأفكار السياسية قبل أربعين أو خمسين أو ثلاثين من الأعوام السابقة، لم يعد مقبولاً ولا مقنعاً بعد سلسلة من الممارسات والتجارب السياسية بعد ذلك.. فالممارسات التطبيقية هي التي عادةً ما تكشف صحة أو عدم صحة الطروحات النظرية المستحلبة أصلاً استحلاباً من الأماني والتصورات والأحلام والأفكار، والرؤى المثالية.

ولقد كنا نظن عن حسن نية، قبل حوالي أربعين من الأعوام وأكثر، مثلاً، أنَّ كل العرب يحبون كل العرب، لكن التجارب الميدانية عبر السنوات الأربعين الماضية برهنت لنا على أن هذا هو الزَّعم غير الصحيح، وأن هذا ليس سوى مقولة لحلم ذهبي أصبح اليوم في قناعتنا، شهيداً.

وكنا نظن من قبل، مثلاً، أن الوحدة العربية حلم قابل للتطبيق خلال النصف الثاني من القرن العشرين، إلا أن ملاحم اقتراب الشعوب العربية بعضها من البعض الآخر، من خلال مجال المواصلات ووسائل النقل والسفر، كشفت لنا عن حقيقة أن هذه الوحدة العربية قد تبقى أملاً لفترة مقبلة قد تقصر وقد تطول، وأن العربي أحياناً ما ينظر إلى العربي الآخر بعين الريبة والحذر أو الاستعلاء، وهذه ظاهرة شعبية عربيّة عامة لا يراها المرضى بالتفاؤل الساذج، إنما تراها واضحةً، العقول المفطورة على الموضوعية، وليست هي ظاهرة أو صفة من صفات نظام عربي أو آخر على المستويات الرسمية والتشريعية والتنفيذية، وحسب.

وكنا نظن من قبل أن الحاضر العربي حاضر واحد، وأن المستقبل العربي مستقبل واحد، إلا أن عصر النفط العربي كشف لنا عن أن الفقراء باقون فقراء، وأن الأغنياء العرب يفضلون استثمار وبعثرة أموالهم خارج حدود الوطن العربي، وتكديسها تكديساً انتظارياً في البنوك الأمريكية والأوروبية دون أن يأخذوا بعين الاعتبار قدرتهم التي تمكّنهم ــ إن هم أرادوا ــ من إيجاد الحلول لجميع ــ نعم جميع ــ المشاكل الاقتصادية العربية. بل إن السنوات الأخيرة كشفت لنا عن أن الأغنياء من العرب هم الذين يتقاربون، ويتحالف بعضهم مع البعض الآخر، ويكادون ينفصلون عن العرب الآخرين الفقراء الذين هم في حاجة إلى تعزيز برامج التنمية في أقطارهم، وإلى شراء المزيد من السلاح لمجابهة الآلة الحربية الأمريكية ــ الإسرائيلية المختلطة ــ العدوة في المنطقة العربية... وهكذا فلا الحاضر العربي هو حاضر واحد، ولا المستقبل العربي هو المستقبل الواحد الموحد على ما يبدو بوضوح، في الآفاق القريبة.

وكنا نظن مع شاعر مصر حافظ إبراهيم أنه «إذا ألمَّت بوادي النيل نازلة تداعت لها بقية أجزاء الوطن العربي تضطربُ»... لكننا رأينا ونرى كيف ترك العربُ القادرون، العرب الفقراء يجوعون أو يموتون أو يُسحقون بالدبابات وصواريخ أرض ــ أرض، أو تهدم فوقهم المنازل، بينما العرب الآخرون هاجعون أو متفرجون يتظاهرون بالنوم العميق، وكأن ما جرى ويجري لإخوانهم وإخوتهم في المواطنة العربية لا يعنيهم قط من بعيد أو من

قريب، وإن هم استيقظوا ليجيشوا المظاهرات الشعبية في الشوارع العربية، وليطلقوا من حناجرهم الهتافات والخطب الطنانة الرنانة، فإنهم سرعان ما يخلدون إلى النوم العميق، شاخرين.

كل ذلك أعطى ويعطي المبرر لأي حاكم عربي، ولأي مواطن عربي، للوقوف اليوم مع النفس وقوفاً مطولاً وقفة مراجعة موضوعية بهدف التنقية ومحاسبة الذات قبل محاسبة الآخرين، وبهدف استكشاف الطريق الملائمة السالكة نحو تنمية المزيد من تعزيز القدرة الذاتية على صوت الذات القطرية والإقليمية التي هي جزء لا يتجزأ من القدرة الأشمل الخاصة بصون الذات القومية العربية. فهل لهذا كله يا ترى صلة باحتمال أن يكون السوريون يتطلعون في السر والجوانح إلى مشروع سورية الكبرى حقاً، ويعودون إلى الاحتلام به مرة أخرى، بدلاً من أن تتمكن إسرائيل من ضم بقية أراضي سورية الكبرى جميعها إلى فلسطين المغتصبة بجميع أجزائها دون استثناء؟

ما هو الأفضل للحاضر العربي والمستقبل العربي: ان تتمكن دمشق من التطلع السرّي إلى إحياء الدولة السورية الكبرى الطبيعية بحيث تكون فلسطين ولو نظرياً مرحلياً هي أرض الجنوب من سورية؟ أم أن تتمكن إسرائيل من ابتلاع الأراضي الواقعة ضمن حدود سورية الطبيعية الكبرى شبراً فشبراً، وأن تصبح سورية الحالية مستقبلاً هي الشمال من فلسطين المحتلة، أي الشمال من إسرائيل، كما تريد إسرائيل أن يكون غداً، أو بعد غد؟ (9)

ليس هذا دفاعاً عن سورية التي أرضعت من أثدائها جميع أبنائها عبر كل العصور حليب الاستعداد للتضحية بالجزء في سبيل سلامة الكل، ووضع المصلحة العربية والقومية فوق المصلحة الوطنية السورية، لكن إن الكثيرين في بلاد الشام يتساءلون اليوم فيما نلاحظ: حين يتوجه العرب الآخرون إلى تأسيس وبلورة المجتمعات الإقليمية الطبيعية، مثل مجلس التعاون الخليجي واتحاد المغرب الكبير، ووادي النيل، وإلى جعل المصلحة الإقليمية تكون فوق المصلحة القومية العربية، أفلا يكون من حق سورية أن تسعى إلى توحيد أجزائها المبعثرة، في كلٍ واحد، أو دولة كبيرة واحدة تريدها أن تكون متكاملة في النهاية مع الأشكال الجديدة للشخصيات الثلاث العربية الأخرى؟ أفلا تتحقق بذلك في النهاية وحدة العالم العربي من المحيط إلى الخليج حقاً وعملاً وتطبيقاً؟

إن الكثيرين من هؤلاء يقررون أن المخاطر المحدقة بعرب شبه الجزيرة والخليج، والسوريين، والمغاربة، وأبناء وادي النيل، هي مخاطر حقيقية لا تلامس الحاضر وحده، ولا المستقبل وحده، وإنما هي تلامس المصير الواحد، الموحد شاملاً الجميع دون أي استثناء، مهما اختلف مزاج البعض عن مزاج البعض الآخر، ومهما تميزت طبيعة جغرافية البعض الإقليمي عن طبيعة جغرافية البعض الإقليمي الآخر..

بل إن منهم من يقول: إن قيام أو إحياء مشروع توحيد الأراضي السورية الطبيعية التاريخية الشاملة لفلسطين على أساس أنها الجنوب من الأراضي السورية، يضع على سورية أولاً لاعبء تحرير الجولان فقط سلماً أو حرباً، ولا عبء التوصل إلى حل ينهي الإشكال اللبناني فقط، بل هو يضع فوق أكتافها نظرياً ثقل عبء الهم الفلسطيني، وإرجاع كل شبر سوري مغتصب إلى الوطن الأم، في الأردن كان هذا الشبر، أو كان في لبنان، أو في فلسطين ذاتها...

وما دامت المجتمعات الإقليمية الأخرى في كل من الخليج وشبه الجزيرة العربية، وفي وادي النيل، وفي المغرب الكبير، قد أخذت بأشكال التأطير الإقليمي.. فلماذا ينكر البعض على سورية إذاً أن تفعل الفعل المماثل نفسه؟

لماذا يحلِّل الآخرون لأنفسهم ما يحرّمونه اليوم على غيرهم تحريماً وصل أحياناً إلى حد الاتهام بالتخوين؟ هذا هو السؤال الذي يفرضه اليوم العدل والمنطق، ولا تفرضه أبداً الرغبة بمناصرة مواقف معينة يراها البعض خطأً وعدواناً من دولة عربية ذات سيادة على دولة عربية ذات سيادة أخرى.. لكن، كم من عربي قرأ التاريخ أو يقرؤه اليوم؟ وكم من عربي يعرف اليوم أن هذه الحدود ممزقة أوصال بلاد الشام ذات الطبيعة الجغرافية الواحدة، والمجتمع الواحد، الفاصلة بين سورية وفلسطين، وبين سورية ولبنان، وبين سورية والأردن، وبين سورية والعراق، وبين العراق والأردن، وبين الأردن وفلسطين.. إلخ.. ما هي إلا (حدود) و (خطوط فصل وذبح) رسمتها في الأرض الشامية السكاكين البريطانية والفرنسية، ولم تشارك برسمها أبداً، رغبة أو إرادة أهل بلاد الشام في كل مناطقهم الفلسطينية واللبنانية والأردنية والسورية.. إلخ..

كم من عربي يعرف أن المسافة بين دمشق وبيروت هي حوالي نصف المسافة بين القاهرة والإسكندرية أو أقل على سبيل المثال؟

قبل حوالي مئة وسبعة وأربعين عاماً تقريباً سعت كل من فرنسا وروسيا القيصرية وبروسيا والنمسا وبريطانيا لدى الصدر الأعظم في الآستانة العثمانية، لإنشاء (دويلة جبل لبنان) المسيحية المارونية ضمن إطار الحكم العثماني، فهل يشتهي التاريخ اليوم أن يعيد نفسه؟

ما يزال المطبخ اللبناني متشابهاً مع المطبخ السوري، ولا أحد من الطرفين جرؤ يوماً على المطالبة بإقامة تمثيل دبلوماسي متبادل بين سورية ولبنان، لأن الأوراق اللبنانية مختلطة حتماً ودائماً بالأوراق السورية، ولأن الأوراق اللبنانية والفلسطينية مختلطة حتماً ودائماً بالأوراق السورية أيضاً، اختلاط الزيت بالزيت، لا اختلاط الزيت بالماء. إن الفرز، لأسباب سياسية داخلية وخارجية، لبنانية أو فلسطينية أو أردنية أو سورية أو عربية، أو دولية، لم يعد ولم يكن يوماً أمراً ممكناً، لأن هذا الاختلاط التمازجي الاندماجي فرضته الطبيعة الجغرافية، والوحدة الاجتماعية، والوحدة الثقافية، ووحدة مزاج الشخصية التاريخية الإقليمية، بل وحتى (وحدة المطبخ) ووحدة إنتاج الغلال النوعية من الزراعة المتشابهة في ظروف طبيعية متشابهة؛ كذلك القدرة على التعايش بين مختلف الأديان والمذاهب والنحل الدينية.

(1) قد يكون من المفيد التذكير بأن والد أنطون سعادة هو الدكتور خليل سعادة، المثقف الطبيب المسيحي الأرثوذكسي اللبناني الذي كان له دوره النضالي ضد الاستعمار العثماني لبلاد الشام، ثم اضطر نتيجة لذلك إلى أن يهاجر من لبنان إلى البرازيل، بينما بقي طفله أنطون سعادة في بيروت طيلة سنوات الحرب الكونية الأولى، ثم التحق بوالده في العام 1920 ليساهم بإصدار مطبوعة (المجلة) قبل أن يعود في العام 1932 إلى لبنان، وهو يتقن سبع لغات أجنبية، ليعمل مدرساً للغة الألمانية في الجامعة الأمريكية، وليقوم بتأسيس الحزب القومي السوري بصفة سرية منذ ذلك العام 1932، قبل أن يشهره بصورة علنية في العام 1935، ليبدأ نضاله ضد الاستعمار الفرنسي، فيسجن ثلاث مرات، ثم ينفى خارج لبنان، فيعود إلى البرازيل والأرجنتين في العام 1938. وقد اضطر بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية إلى إرجاء عودته إلى لبنان حتى العام 1947، حيث قام الحزب السوري القومي الاجتماعي في شهر يونيو/ (حزيران) 1949 بمحاولة انقلاب لم يكتب لها النجاح في لبنان، ضد النظام الذي كان يقوده تحالف بشارة الخوري ــ رياض الصلح، وهو الانقلاب الذي جاء عنه في الصفحة 55 من المجلد الثالث من مذكرات خالد العظم رئيس وزراء سورية الأسبق رحمه الله، الصادرة في العام 1972 عن الدار المتحدة للنشر في بيروت «أن الحزب ما حاول القيام به إلا بتحريض من حسني الزعيم في دمشق».

وقد كان من الطبيعي أن يلجأ أنطون سعادة إلى حسني الزعيم في دمشق، حيث كان بينهما التحالف؛ إلا أن حسني الزعيم سرعان ما خان حليفه، فقام بتسليمه إلى رياض الصلح في لبنان غدراً (كما ورد في فصل سابق) الذي أمر بإعدامه بعد ساعات قليلة من سوقه مصفداً بالأغلال من دمشق إلى بيروت. وقد أعدم سعادة رمياً بالرصاص تنفيذاً لتعليمات رياض الصلح رئيس الوزراء (العروبي) المسلم السني، وبشارة الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية، المسيحي الماروني. (وجاء في الصفحة 108 من المجلد الثاني من مذكرات خالد العظم المطبوعة المنشورة، أن رياض الصلح «الذي كان مرتمياً في أحضان رئيس جمهورية لبنان السيد بشارة الخوري ومتمسكاً بالحكم تمسكاً لم يسبقه إليه أحد، وبعد تدخله الظاهر في قضية المرحوم أنطون سعادة ومحاكمته السريعة وإعدامه، أصبح يخشى الحضور إلى دمشق خوفاً على حياته من أن يتعرض له أحد المنتسبين إلى هذا الحزب».

وجاء في الصفحة 867 من المجلد الأول من (الموسوعة السياسية) الصادرة عن المكتبة العربية للدراسات والنشر أنه في عهد رياض الصلح «حصل العصيان

المسلح الذي قام به الحزب السوري القومي الاجتماعي فأُعدم أنطون سعادة في العام 1949. وبعد عامين قام القوميون السوريون باغتياله في مطار عمّان».

ورياض الصلح مولود في مدينة صور، درس مادة «الحقوق» في الآستانة، وكان عضواً في منظمة «المنتدى الأدبي» في حركة «العربية الفتاة»، وناوأ حزب الاتحاد والترقي وسياسة التتريك؛ ثم عاش في مصر عديداً من السنوات قبل أن يعود إلى لبنان ليعمل محامياً في بيروت في العام 1935، وليتحالف منذ العام 1943 مع بشارة الخوري أول رئيس لجمهورية لبنان بعد الاستقلال الذي رسمت حدوده فرنسا وبريطانيا بناء على اتفاقية «سايكس ــ بيكو» السرية، المعقودة بين بريطانيا وفرنسا وروسيا في العام 1916 والتي كشفت عنها بعد ذلك موسكو بعد سقوط النظام القيصري. وبناء على معاهدة سيفر التي كانت نتيجة لمؤتمر (سان ريمو) المعقود في العام 1920 رُسمت هذه الفواصم الحدودية التي نراها اليوم فاصلة بين سورية ولبنان، وبين سورية وفلسطين، وبين فلسطين وسورية من ناحية والأردن من ناحية أخرى، وبين سورية والعراق.. إلخ.. وكل هذه الأقاليم ذات طبيعة جغرافية ــ مزاجية ــ واحدة موحدة، متجانسة اجتماعياً إلى حد التطابق.

وجاء في الصفحة 42 من المجلد الثاني من مذكرات خالد العظم رحمه الله أن رياض الصلح اعترف قبل وفاته بأنه «ارتكب في حياته ثلاث خطيئات لم يغتفرها لنفسه أبداً، إحداها موافقته على إعدام أنطون سعادة إرضاءً لبشارة الخوري».

وجاء في الصفحة 48 من المجلد الثالث من المذكرات هذه المطبوعة المنشورة أن أنطون سعادة «مؤسس الحزب السوري القومي اشتغل لحساب ألمانيا ثم لحساب الولايات المتحدة الأمريكية».. وهذا في رأينا اتهام غير صحيح، بدليل أن خالد العظم يقرر في الصفحة 375 من المجلد الأول من مذكراته نفسها أن حسني الزعيم «كان آلة صمّاء استعملها الأمريكيون مباشرة حيناً، وحيناً عن طريق الفرنسيين وعملائهم، لإيصال حسني الزعيم إلى الحكم» وهذه المعلومة أكدها (مايلز كوبلاند) في كتابه (لعبة الأمم)، فقد جاء في الطبعة الأولى المترجمة إلى العربية من الكتاب هذا، المحفوظة كافة حقوقها لشركة (انترناشيونال سنتر ــ بيروت) في العام 1970، وفي الصفحة 73 بالتحديد مايلي: «كان انقلاب حسني الزعيم في 30 مارس/ آذار 1949، من إعدادنا وتخطيطنا»، أي من إعداد وتخطيط المخابرات الأمريكية؛ علماً بأن (مايلز كوبلاند) كان قُبيل وبعيد قيام انقلاب حسني الزعيم مقيماً في سورية، عضواً في البعثة البدلوماسية في السفارة الأمريكية في دمشق، وكانت له والميجر (ميد) الأمريكي، صلة مباشرة بحسني الزعيم؛ وأن حسني الزعيم، كما يؤكد (مايلز كوبلاند) في كتابه، كان وعدَ الأمريكيين (باتخاذ بعض الإجراءات الإيجابية لإنهاء النزاع العربي الإسرائيلي).

(وورد في الترجمة العربية لكتاب (الصراع على سورية) للكاتب البريطاني (باتريك سيل) الصادر عن (دار طلاس) في دمشق في العام 1983، في الصفحة رقم 59، ما يفيد بصلة المخابرات الأمريكية بالإعداد والتخطيط لانقلاب حسني الزعيم. فإذا كان أنطون سعادة على صلة بالأمريكيين بصفته زعيماً للحزب القومي السوري الاجتماعي، فكيف أقدم حسني الزعيم العميل الأمريكي في دمشق على تسليمه إلى رياض الصلح وبشارة الخوري في لبنان لإعدامه على الفور دون محاكمة رمياً بالرصاص؟. إن إقدام حسني الزعيم، الذي تؤكد وثائق كثيرة صلته بالمخابرات الأمريكية والمخابرات الفرنسية، على تسليم سعادة لرياض الصلح وبشارة الخوري لإعدامه رمياً بالرصاص، ينفي قطعاً التهمة التي وجهها خالد العظم إلى أنطون سعادة في مذكراته؛ وهي التهمة التي وقعت على أساس مشابه تماماً لها مذبحة (القوميين السوريين) في سورية ولبنان بعد إعدام أنطون سعادة.

إن تطورات الأحداث السياسية والتحولات الاجتماعية على صعيد العلاقات العربية ــ العربية، هي التي أفرزت عبر الممارسات البرهان تلو البرهان على أن أنطون سعادة إنما كان في مكانه، سابقاً لزمانه، وأن زمنه بعده قد يكون اليوم جاء، ليأخذ على عاتقه بدوره مهمات المشاركة بمهمة تحديد هوية الحاضر والمستقبل لبلاد الشام كما يسميها البعض أو للبلاد السورية، كما يسميها الحزب القومي السوري الاجتماعي الذي غرسه أنطون سعادة فسيلاً في العام 1930، ليصبح بعد ثلاثة وسبعين عاماً، شجرةً جذورها ضاربة في أعماق أرضها غبر البور، وثمارها من فواكه بلاد الشام يانعة اليوم في كل الفصول.

(2) كان اسم جريدة الحزب الناطقة باسمه هو «البناء»، وكان يرئس تحريرها الدكتور عصام المحايري الذي أعرف كم أُوذي وكم صبر على التعذيب والمشاق، وعلى الحبس في سجن المزة وفي سجن القلعة في دمشق سنوات متصلة عديدة، دون أن يتبرم ودون أن يتوجع بكلمة (آه)، ودون أن تهون عليه نفسه ولا كبرياؤه ولا المبادئ التي اعتنقها لحظة واحدة.

كان مكتب إدارة تحرير الجريدة على ما أتذكر يقع في طابق في بناء يقع في المنطقة الواقعة قرب مبنى الإطفائية في دمشق، في منطقة (الشربيشات).. وكنت أتردد أحياناً على مكاتب تحرير الجريدة وأنا فتى يافع في العام 1949 أو العام 1950 ولمّا أتجاوز من عمري بعد الخامسة عشرة، وكنت أشاهد بين المحررين شاباً تزوج فيما بعد من إحدى المذيعات في التلفزيون السوري اسمها ابتسام باتع، هو فاروق نصّار، وأظنه من أصل فلسطيني.. وكان يحلو لي في تلك المرحلة مجالسة شاب وديع أحببته جداً منذ عرفته لأول مرة في مكتب تحرير جريدة (البناء) هو الشاعر أدونيس.. ولعليّ هناك التقيت بالشاعر الدمشقي الصديق نذير العظمة المعروف، بل ولعليّ أتذكر اليوم أنني كنت أزوره أيضاً في دار والده الكائنة مقابل القصر الجمهوري القديم في منطقة

المهاجرين في دمشق، ولم أكن أعرف يومئذ أنه عضو في الحزب القومي السوري الاجتماعي، لكنني كنت مع ذلك أشعر بالتعاطف الغامض مع (القوميين السوريين) ربما بسبب حزني وتأثري العميق باستشهاد أنطون سعادة بطريقة غدر حسني الزعيم به غدراً ما كان أبشعه من غدر.

وعلى الرغم من أنني انحزت منذ العام 1954 إلى الفكرة القومية العربية، وحلم الوحدة العربية، وكرست من حياتي حتى اليوم تسعة وأربعين عاماً لهما، فإنني قد انتهيت من خلال الممارسات النضالية الجادة من دعوة وتجريب وسجن وتعرض أكثر من مرة إلى محاولة اغتيال، وتشردٍ في المنافي حتى اليوم حوالي أربعين عاماً في عدد من الأقاليم العربية الأخرى، إلى التساؤل بكل المرارة عما إذا كانت «القومية العربية» حقيقة موجودة بمعناها السياسي العام المصيري الشامل وعما إذا كانت كما رأيتها حتى اليوم عبر الممارسات ليست سوى «حالة ثقافية» غير مُسيسة حتى يومنا هذا.

لقد غادرت وطني السوري عن اقتناع ذاتي عميق منذ العام 1962 إلى عالم العروبة ــ الأكبر؛ وكنت بتلك المغادرة السياسية أضحي بهنائي الشخصي، وبنجاحي الأدبي والإعلامي والثقافي والفني والفكري في وطني السوري، وبشهرتي الاجتماعية المتألقة. وبحياة لي في وطني كانت رغيدة.. إلا أن أي وطن عربي آخر انتميت إليه، رفض نفسياً واجتماعياً، انتمائي الكامل والنهائي إليه؛ واعتبرني ضيفاً طارئاً مؤقتاً، أو وافداً لابد له يوماً من أن يرحل، وغريبا، بل أجنبياً. كانت عروبتي في صدري وأنا أغادر وطني السوري؛ حيّةً جيّاشة مضطرمة، ومشاعر انتسابي إليها جد حقيقية؛ لكن أية دولة عربية عملت معها، أو حاولت الانتماء إليها، في الوطن العربي القومي الأكبر هذا، خارج حدود وطني السوري، ظلت وما تزال تعاملني على أساس أنني عضو غريب مزروع في جسد يرفضه بعد أن زُرع فيه، وفي كل مرة إضافية حاولت التأكيد على أن هويتي عربية وأن أرض العروبة هي وطني، وأنني أحد أبنائها البررة، رفضتني القوانين والتشريعات ونظرات الارتياب، والمعاملات القطرية بل الإقليمية الضيقة، وردّتني إجباراً وقسراً إلى أرضي السورية وإلى أمتي السورية صانعة الحضارة العربية الفينيقية العريقة.. وبكل الحزن وعميق الشعور بالإحباط والمرارة، وجدتُني وأنا في أرض العروبة أبحث عن العروبة مدة أربعين عاماً حتى اليوم، فلا أعثر عليها؛ وأسأل عن (معناها العملي) فلا أجد أحداً يعطيني الإجابة الشافية، ولأن الاكتشاف هذا المُرُّ كان عَلقميَّ المذاق على لساني وفي عقلي ووجداني، فقد كان عليَّ أن أصابر بالمكابرة، أو أن أنتحر. إلا أن حكمة الاعتدال قادتني إلى حلّ ثالث هو الاعتكاف والخلود إلى المطالعة والتأمل، والتفكير بما كان وربما هو عربي كائن، وبما ينبغي من وجهة نظري كمجرب، أن يكون. وفي عالم

الاعتكاف والتأمل والمطانعه والتوحد مع العقل ومع النفس والوجدان، ومع التخلّص تماماً من كافة العلاقات والصراعات الاجتماعية، وجدتني ألجأ إلى ابن خلدون، فأجد في «مقدمته» تفسيراً لأسباب حزني وشعوري بالاغتراب والإحباط، ثم وجدتني اشعر برغبة الإطلاع الملحّة على ما خلفه أنطون سعادة من تراث مطبوع، فأجد في الكثير من خطبه ومقالاته المطبوعة المنشورة تفسيراً أيضاً للأحوال النفسية التي وقعت مؤخراً بدوري فيها، وأنا ألهث وراء قطار العروبة الموهوم، وهو ماضٍ غير عابئ بي ولا بغيري من العروبيين المولودين خارج منطقة شبه الجزيرة العربية والخليج..

ولعليّ في فصول كتابي هذا أحاول أن أكتب أيضاً لنفسي وللقراء الآخرين في آن؛ فأنا بين (سوريتي) و (عروبتي) اليوم، بيْنَ بين.. ولست أعرف اليوم إلى أين ستكون خطوتي التالية غداً، هل ستكون في اتجاه القومية السورية ــ المرتبطة بأرض بلاد الشام أولاً، أم تراها ستكون في المضي نحو آفاق القومية العربية التي ما تزال أرضها ترفض انتمائي إليها، وتردُّني إلى حيث صبَّني صباً رحم أمي، قبل ثمانية وستين عاماً قد مضت كما تمضي اللحظة الخاطفة.

وكما ترون فإن كتابي هذا عن الموضوع الشائك الحساس هذا، ليس تطريزاً بالكلمات في صفحات مطبوعات منشورات. إنها محاولة جادة لفتح طريق، ولردم طريق.. أو العكس.. فإما أن تكون العروبة حقيقة سياسية أكثر من كونها حالةً ثقافية خالصة وحسب أو لا تكون.

(3) يمتُّ حمدي الصالح إليَّ بصلة قربى بعيدة، فوالدته ابنة عمة والدي أحمد البكار رحمهما الله، وهو ــ أي حمدي الصالح ــ متخرج من كلية الحقوق بجامعة دمشق، وقد ولدنا وعشنا في بلدة (دوما) على بعد حوالي عشرين كيلومتراً من الشمال الشرقي من مدينة دمشق؛ لكنه كان زامل شقيقي الأكبر محمد عارف البكار (أبو راتب رحمه الله)، في مدرسة (أنموذج دوما) الابتدائية، فهو أكبر مني بحوالي خمسة عشر عاماً على الأقل. وقد كان حمدي الصالح صديقاً شخصياً لأديب الشيشكلي قبل أن يختلف معه، وفي بداية الفترة التي بسط فيها الشيشكلي هيمنته على سورية أناط مهمة قيادة الأمن العام في وزارة الداخلية بحمدي الصالح، رغم أنه مدني حقوقي.

بعد سقوط الشيشكلي في 25-2-1954 بقي حمدي الصالح في سورية متعاوناً مع النظام المدني الجديد بقيادة هاشم الأتاسي الظاهرية الشكلية العلنية، وعبد الحميد السراج العملية السرية، وبدعم من محمود رياض سفير عبد الناصر يومئذ في دمشق، لكن المسيطر الحقيقي على دمشق خلال تلك المرحلة كان هو التحالف الذي قام بين أكرم الحوراني وجماعته، وحزب البعث، وحزب الشعب، والناصريين، والشيوعيين، والإخوان المسلمين، مجتمعين.

ومن العجيب أن عاد سراً إلى دمشق في العام 1956 أديب الشيشكلي الذي كان يناصب وهو في الحكم النظام العراقي (نوري السعيد) العداء، بمساندة أموال عراقية، وبمساندة الحزب القومي السوري بعد الضربة التي كانت حلت به في دمشق في العام 1955 بل إن من المثير للدهشة أنّ استدعى أديب الشيشكلي في اذار/ مارس 1956 سراً إلى بيروت، بعد لقائه بعدد من قادة الحزب القومي السوري، كلاً من حمدي الصالح، وضابطاً مباحثياً سورّياً صديقاً له هو برهان أدهم، ليتدارس معهما الوضع في الجيش السوري، وإمكان القيام بعملية عسكرية يعود بها الشيشكلي إلى الحكم في سورية.

ولقد تبيَّن فيما بعد أن حمدي الصالح وبرهان أدهم تحولا إلى عنصرين قياديين في المباحث العامة السورية، وأنهما كانا كشفا للسلطات السورية محاولة صديقهما الشيشكلي العودة إلى السلطة بأموال من العراق، وبمساعدة من الحزب القومي السوري. ولعل أديب الشيشكلي ارتاب في أمرهما، فأكتفى بأنه تسلّم من الضابط العراقي اللواء غازي الداغستاني نائب رئيس الأركان العراقي خلال زيارة قام بها لبيروت، مبلغ عشرة آلاف دينار عراقي من أصل ثلاثين ألف دينار؛ ثم تسلل الشيشكلي هارباً من بيروت إلى البرازيل، ليُقيم في مقاطعة (جوباس) إلى أن اغتاله مواطن سوري من الطائفة الدرزية بتاريخ 27-9-1964 هو نواف أبو غزالة ثأراً مما كان فعله الشيشكلي بدروز سورية خلال عهده، وأجبر الزعيم الوطني سلطان الأطرش على الخروج بل على اللجوء إلى الأراضي الأردنية؛ ولم يعد إلى معقله في جبل الدروز، إلا بعد سقوط عهد الشيشكلي، وإخراجه من سورية في العام 1954، إلا أن انسحاب الشيشكلي من العملية لم يمنع القوميين السوريين من الاستمرار بالتخطيط لها بالتعاون مع العراق، وكان من المشاركين بها منير العجلاني وهايل سرور وعدنان الأتاسي ونسيب البكري وسامي كبارة وحسن الأطرش وميخائيل إليان وجلال السيد ومحمد الفاضل وسعيد تقي الدين.. إلخ.. إلا أن المقدم عبد الحميد السراج رئيس المكتب الثاني يومئذ كان يتابع تفصيلاتها التخطيطية.. في الوقت الذي كانت فيه الدول الثلاث: بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، تعد العدة لغزو مصر.. وكانت المعلومات أكدت قبل اعتقال المتهمين تمكن «المتآمرين» من إدخال عدة مئات من البنادق إلى سورية عبر البادية من العراق..

وفي أوائل نوفمبر 1956 بدأ الاعتداء الثلاثي على مصر، وفي 22 ديسمبر 1956، أي بعد أسابيع قليلة فقط، أعلنت أجهزة الإعلام السورية عن اكتشاف «مؤامرة ستون» وبتاريخ 8-1-1957 كان عليَّ أن أتواجد يومياً بصفتي مذيعاً في إذاعة دمشق في قاعة مدرّج جامعة دمشق، لأقوم بتسجيل جلسات المحاكمة التي كان جزء منها يذاع بعد إجراء عمليات (المونتاج) تحت إشراف المحامي نجاة

قصاب حسن عبر إذاعة دمشق. كان العقيد عفيف البزرة (ماركسي) رئيس المحكمة والعقيد محمد الجراح (ناصري)، النائب العام، والمحامي المرحوم عبد الفتاح الزلط (من جماعة أكرم الحوراني)، ممثل الادعاء، وكان المقدم عبد الحميد السراج حريصا بصفته كاشف المؤامرة، على حضور كل الجلسات، وكان هؤلاء جميعا، ومعهم في مقر السفارة المصرية في دمشق، محمود رياض سفير مصر في سورية وجمال حمّاد الملحق العسكري المصري، موالين لعبد الناصر الذي كان يخوض في القاهرة معركة ضارية ضد حلف بغداد وسياسة الأحلاف ودول الغرب..

في تلك القاعة في مدرج جامعة دمشق، شاهدت لأول مرة الكاتب الصحفي المصري الساخر، ولم يكن معروف الاسم بعد، الأستاذ محمود السعدني، يقف أمام هيئة المحكمة بصفته شاهد إثبات ضد بعض المتهمين..

كان الحزب القومي السوري كما قيل يومئذ متورطاً بتلك المؤامرة التي قيل إن الجهة التي خططت لها هي المخابرات البريطانية، وحددت لها توقيتاً مثيراً جداً للاهتمام فقد كان المفترض تنفيذها في دمشق لصالح العراق، وفي النهاية لصالح بريطانيا، وفي اليوم نفسه الذي بدأت فيه عملية السويس لمحاولة إسقاط النظام الناصري.. وقد وجّه زعيم الحزب السوري القومي سنتئذ الدكتور عبدالله سعادة في لقاء له مع (باتريك سيل) مؤلف كتاب (الصراع على سورية) تمَّ في بيروت بتاريخ 31-12-1961، نقداً ذاتياً إلى الحزب، معترفاً بهذا التورط، موضحاً أن العراقيين أخفوا عن الحزب خبر عزم بريطانيا على خوض عملية السويس في الوقت الذي كان المفترض أن تقوم فيه العملية الانقلابية في دمشق، التي أحبطها عبد الحميد السراج بالتعاون مع محمود رياض والمخابرات المصرية.

(4) غسان جديد هو الشقيق الأكبر لصلاح جديد وقد أطلق عليه أحد السوريين (وهو المدعو عزت شعث) الرصاص في أحد شوارع بيروت بتاريخ 19-2-1957 فأرداه قتيلاً؛ ثم قُتل المدعو عزت شعث، برصاصة من سوري آخر اسمه عزيز زيوب. والقصة هذه تذكرنا بقصة اغتيال جون كينيدي واغتيال قاتله أوزوالد في الوقت نفسه، بعد ذلك بخمس سنوات، بل بقصة اغتيال عدنان المالكي ومقتل قاتله يونس عبد الرحيم في اللحظة ذاتها، وبحيث لم يتمكن أحد من التحقيق لا مع يونس عبد الرحيم ولا مع عزت شعث ولا مع أوزوالد لانتزاع الاعترافات الكاشفة عن الجهة الحقيقية المخططة لكل من عمليات الاغتيال الثلاث هذه.

(5) كان عبد السلام الكفافي رحمه الله أحد الضباط البارزين في المخابرات المصرية منذ إنشائها بعد قيام ثورة 23 يوليو 1952. وخلال احتدام الصراع بين عبد الناصر تسانده الجماهير العربية من ناحية، ودول الغرب بما فيها أمريكا المتعاونة مع إسرائيل المساندة لها، بخاصة بريطانيا وفرنسا، كذلك بعض الأنظمة التي كان

عبد الناصر يسميها بالأنظمة الرجعية كنظام نوري السعيد في العراق، وغيره من الأنظمة الأخرى المتحالفة يومئذ مع تركيا وإيران، وبالتالي بريطانيا وفرنسا، من ناحية أخرى.. خلال تلك الظروف في النصف الثاني من الخمسينيات حيث كان للسفارة المصرية في بيروت نفوذ وثقل مُميزان (بيروت كانت في تلك المرحلة تشكل أهم مركز لنشاط مؤسسات الاستخبارات العالمية والعربية جميعها)، أنيطت بعبد السلام الكفافي مهمة محاولة إفشال النشاطات التي كانت تقوم بها السفارة العراقية قبل قيام ثورة 1958 في بغداد، في لبنان، ومراقبة النشاطات الإيرانية والتركية والعراقية والبريطانية والفرنسية المتعلقة بحلف بغداد، في بيروت.. إلا أن نشاطات عبد السلام الكفافي، على ما بدا فيما بعد للفاهرة، لم تكن مكرسة للمهام التي كلّفه بها جمال عبد الناصر وحسب، فقد تغلغل في الأوساط الاجتماعية اللبنانية عن طريق السيدة شفيقة دياب، أشهر سيدة في مجال النشاط الاجتماعي في لبنان خلال تلك السنوات، وكانت صديقة حميمة لأم كلثوم رحمهما الله... ولأسباب لا أسمح لنفسي بالقول اليوم إلا أنها (مجهولة) أمر عبد الناصر بإعادته إلى مصر، وإحالته إلى التحقيق؛ وقد أصبح الكفافي بعد ذلك من (رجال الأعمال) في مصر، يمتلك مكتباً للاستيراد والتصدير النفطي. وقد التقيته مصادفة في العام 1968 في القاهرة، فكان وديعاً هاشاً باشاً رقيقاً للغاية؛ وحين عرف أنني أسكن وعائلتي في فيلا مفروشة في منطقة الدقي كان يمتلكها ويسكن طابقها الأول الدكتور بدر الدين حمدي عديل عبد المنعم القيسوني وزير المالية الأسبق، رحمه الله، اقترح عليّ تأجيري شقة له مفروشة في العمارة 37 في شارع أبو الفداء في الزمالك، وهو الشارع الذي كانت تسكنه أم كلثوم رحمها الله. وقد تقبلت اقتراحه شاكراً، وأبرمت معه عقداً، وانتقلت من حيث أسكن في حي المهندسين إلى شارع (أبو الفداء) على ضفة النيل في الزمالك.

كنت في تلك المرحلة بدأت بعلاقة صداقة وودّ مع مانعٍ سعيد العتيبة الذي كان يدرس علوم الاقتصاد في جامعة بغداد، حين كنت مقيماً في العراق، أقود حملة إذاعية ضد نظام عفلق في دمشق، عبر الإذاعة العراقية؛ والذي لم تكن ثمة من دلائل تشير إلى احتمال أن يصبح وزيراً للبترول لاحقاً في دولة الإمارات، لأن دولة الإمارات لم تكن قد أنشئت بعد، ولا كان البريطانيون انسحبوا بعدُ من الخليج... بعد أن توثقت صداقتي بالصديق الدكتور مانع سعيد العتيبة، رافقته خلال إحدى زياراته للقاهرة لتناول طعام الغداء في منزل أمين شاكر المدير السابق لمكتب عبد الناصر ووزير السياحة الأسبق في مصر الذي حاول كما عرفت فيما بعد، المشاركة بمشروع تشجير الطريق بين أبو ظبي ومنطقة العين قبل الاستقلال؛ في الوقت الذي كانت فيه شركة الاقتصادي اللبناني الكبير إميل البستاني رحمه الله وهي شركة (الكات) تتولى شق الطريق وتعبيدها بين أبوظبي ومنطقة العين.

وقد فوجئت بعد عودتي إلى المنزل من دار أمين شاكر وبرفقتي مانع سعيد العتيبة، بالمرحوم عبد السلام الكفافي يعانقني عند مدخل العمارة ثم ينتقل إلى الأخ مانع فيحتضنه بحرارة أيضاً.

وفي اليوم التالي دعاني الكفافي إلى فيلته الفاخرة في طريق الهرم في الجيزة للتحاور (على كأس شاي).. وفوجئت به يطلب مني التوسط لدى مانع سعيد العتيبة لإشراكه ببيع صفقة بترول واحدة من صفقات البترول المجزية، في أبو ظبي؛ وأن أعرض على صديقي الدكتور مانع سعيد العتيبة أن يشتري شقة الكفافي في شارع أبو الفداء التي كنت أستأجرها مفروشة من الكفافي، شريطة أن يكون السعر المدفوع هو كذا ألفاً من الدولارات تُدفع له خارج مصر (وكان ذلك مخالفاً للقوانين المصرية). لم أكن أُلِمُّ بمسائل وقضايا ذات طابع تجاري فيها كسب وصفقات كهذه القضايا، ولا أزال، ولم تكن علاقتي بمانع العتيبة ولا بغيره من أصدقائي المسؤولين في أبو ظبي قائمة يوماً على أساس أي نوع من أنواع الطموح الشخصي عندي على هذا الصعيد، وما تزال كذلك. وبعد أن كرر الكفافي وألح أكثر من مرة على مطالبه هذه، أوضحت له أنني كاتب ورسام، غير معني بشؤون الصفقات والتجارة والمال.. وقد كنت ألاحظ طيلة الأشهر التي سكنت خلالها تلك الشقة المطلة على النيل، أن الكفافي كان حريصاً في كل مرة حاورني فيها، على النيّل من عبد الناصر، وتوجيه الشتائم بأقذع وأقسى كلماتها إليه، وعلى تحميل عبد الناصر وثورة 23 يوليو أوزار التاريخ العربي كله، وأوزار الواقع العربي كلها، وكان ذلك يدهشني بمقدار ما كان يحزنني، وكنت أتساءل: (إذا كان الكفافي، وهو ضابط المخابرات المصري المؤتمن على أسرار مصر، يقول عن عبد الناصر ما يقول، وعن ثورة 23 يوليو ما قال، فكيف كان هذا الرجل مكلفا بمثل تلك المهمة الخطيرة التي كان مكلفاً بها في لبنان؟ وكيف ائتمنه جمال عبد الناصر على ما كان ائتمنه عليه حين أوكل إليه تلك المهمة الخطيرة للتجسس على نشاط (حلف بغداد) في لبنان؟.

وبعد أن تأكد للكفافي رحمه الله أنه لن ينال عن طريقي ما كان يحلم بأن يحققه من مكاسب تأتيه من إمارة أبوظبي وبترولها، ومن مانع سعيد العتيبة وعلاقتي به كصديق؛ فوجئت بـــ (محضر) يبلغني ذات صباح بحكم صادر عن إحدى المحاكم المصرية بوجوب إخلاء الشقة المطلة على مياه النيل، وقد أخليتها على الفور؛ دون أي تردد، أو شعور بالغدر. إلا أن لجوء الكفافي إلى الأسلوب الجارح الذي اختاره لإخراجي من شقته المفروشة، خلّف في نفسي جرحاً عميقاً لم يلتئم إلا بعد سنين، تاركاً في موضعه ندوبه المحزنة بقلبي، جداً؛ فقد اكتشفت يومئذ كم أنا خارج وطني السوري، غريب.

(6) ...وقيل إن (الفلسطينين) جاؤوا (أرض كنعان) مما يسمى الآن بجزيرة (كريت)، بينما (الكنعانيون) الذين سمّاهم اليونان بالفينيقيين، هم هجرة انساحت إلى الشمال إلى ما يسمى الآن ببلاد الشام أو أرض (سورية الكبرى)، مما يسمى الآن بشبه الجزيرة العربية، أي أنهم من أصل عربي. فإذا ما صحت هذه المقولة، فإنه لا يكون من الصحيح اعتبار (الفلسطينيين) (سوريين)، وتصبح (القضية الفلسطينية) هي (قضية فلسطينية) أي قضية الفلسطينيين أولاً، من خلال هذا المنظور بالذات. وربما أنني أحاول أن أبحث، وأن أعرض، وألاّ أنحاز على قدر استطاعة العقل على التطهر من الترسبات الموروثة، فإنني قد صرفت وأنا أكتب الفصول هذه جهدا غير يسير في سلسلة من المحاولات الدؤوب للعثور على (تاريخ للسوريين كأمة)، فلم أعثر على (تاريخ قديم للسوريين كأمة) وإنما عثرت على تاريخ مكتوب للكنعانيين (الفينيقيين) والآراميين والآموريين والبابليين والآشوريين والمصريين والعرب.. كأمم.. ولم أجد أيضاً على سبيل المثال تاريخاً (لأمة عراقية)... فمن نحن إذن؟ من هم السوريون؟ ومن هم الفلسطينيون؟ ومن هم هؤلاء المعروفون اليوم بالعراقيين والأردنيين واللبنانيين على سبيل المثال؟ وإذا ما وحدتنا بعض الأصول التاريخية، فهل تفرّقنا اليوم بعض خطوط الحدود السياسية؟ وهل (القومية السورية) هي (قومية اللسان) أي قومية (اللغة السيريانية)، أم هي قومية الطبيعة الجغرافية والخصائص الاجتماعية المميزة؟ وإذا كان الفلسطينيون متحدرين من عرق هندو ـــ أوروبي، وكان السوريون هم كل الفينيقيين والآراميين المتحدرين من أصل عربي في شبه الجزيرة ومن شمال أفريقيا كما يقول فيليب حتيّ في كتابه القيّم (خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى)، فهل لم يعش السوريون الفينيقيون الآراميون والفلسطينيون ومن يسمون الآن باللبنانيين، فوق أرض واحدة، وسماء واحدة وظروف واحدة، ومزاج واحد، وكانت تجمعهم لغة تخاطب واحدة وما تزال؟. فعلام يختلفون؟ ولماذا؟ وإلى أين سيقود الخلاف جميع أطرافه؟ هل هي النوازع الانتحارية التي عادة ماتسبق سقوط بعض المجتمعات وزوالها النهائي وانقراضها بعد تعفنها حين يستحكم ويستحيل علاجه؟

(7) من هذه الأناشيد، نشيد كنا نردده في مرحلة ما قبل الاستقلال في سورية وهو نشيد (يا ظلام السجن خيّم، إننا نهوى الظلاما) وأظن أن مؤلفه هو المناضل السوري الصحافي نجيب الريس والد الصحافي السوري المعاصر المعروف رياض نجيب الريس. أما لحنه فلحن تركي شهير يقول مطلع كلماته: «أو لورمو بويله أو لورمو؟» «أولا بابيه ورومو». أما بقية الأناشيد التي ذكرتها فأغلبها من تأليف المناضل الدمشقي فخري البارودي، رحمه الله، وهو من أصل فلسطيني وقد كان مرافقاً عسكرياً للأمير فيصل ابن الحسين حين تم تنصيبه ملكاً على سورية عام 1918 وكان البارودي يمتلك مزارع في غوطة دمشق باعها وصرف ثمنها دعماً

للحركة الوطنية السورية وكان عضواً في المجلس التأسيسي عام 1928، ثم عضوا في البرلمان السوري عديداً من المرات في أعوام 1932، 1936، 1943 عن قضاء دوما، مسقط رأسي، وعيّن في العام 1947 عضواً في مكتب الكتلة الوطنية، وكان ضارباً ممتازاً على رقّ الإيقاع وموسيقيا بارعا وهو أشهر ظرفاء دمشق في عصره، وكان هو الذي أنشأ (المعهد الموسيقي) في سورية، وهو الذي اكتشف صوت فتى حلبي اسمه صباح أبو قوس فسمّاه على اسمه صباح فخري.

وقد تخرج البارودي من المدرسة الحربية في دمشق، وشارك كملازم ثان في الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى، وتم أسره في (بير سبع)، ومنها تمكن من الانتقال إلى مصر حيث التحق فيها من ثمّ بجيش الشريف حسين في صفوف (الثورة العربية). سجنته فرنسا في العام 1925 في جزيرة أرواد. وقد حدثني والدي رحمه الله يوم عدت إلى وطني لبضعة أشهر من مصر بعد سقوط الانفصال في العام 1963، وظلت المظاهرات تحيط بدار والدي في (دوما) وكانت تُعدُّ بعشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال لمدة ثلاثة أيام متتالية ليل نهار، هاتفة باسم جمال عبد الناصر، أقول: حدثني والدي، فقال لي رحمه الله إنه لم يشهد مثل هذه الزحوف الشعبية للإعلان عن الترحيب والفرح بابن عائد إليها من أبنائها، إلا مرتين قبل أن يشهدها للمرة الثالثة يوم عودتي إلى وطني من مصر: أولاهما يوم عاد فخري البارودي من سجنه في جزيرة أرواد إلى دمشق، وثانيهما يوم زار جمال عبد الناصر دمشق لأول مرة يوم 24-2-1958 بعد يومين من إعلان قيام الوحدة بين سورية ومصر. فقد كان فخري البارودي مناضلاً وطنياً شعبياً رغم انتمائه إلى الطبقة البورجوازية الدمشقية، وهو الذي أسس (مشروع الفرنك) المخصص للنهضة الاجتماعية، وكان هو الذي أسس أول تنظيم شعبي شبه عسكري وطني في سورية هو تنظيم «الحرس الحديدي».

ولسبب أو لآخر، كره فخري البارودي جمال عبد الناصر؛ ولا أعلم حتى اليوم سبب ذلك، رغم أنني أتذكر أنني استضفت البارودي في برنامج تلفزيوني تمَّ بثه على الهواء مباشرة في الليلة الأولى التي بدأنا بها الإرسال التلفزيوني السوري من (استديو جبل قاسيون) في دمشق، وأجريت معه حواراً مرتجلاً غير مسجل وكان خفيف الدم جداً، امتدح فيه عبد الناصر وعهد الوحدة؛ وكان ذلك مساء يوم 23 يوليو/ تموز 1960 (وبالمناسبة فقد كان الممثل المرحوم نهاد قلعي يومئذ يجلس مع الصديق دريد لحام يتابعان حواري مع فخري البارودي وأنا معه داخل الاستديو التلفزيوني فوق قمة جبل قاسيون)، ومنذ تلك اللحظات التقط الممثل المرحوم نهاد قلعي لهجته التمثيلية الشامية الدمشقية التي عُرف بها بشخصية (حسني البورظان). والبورظان في لغة أهل الشام العامية هو (البوق) أو الرجل أو الشيء الذي يقوم بالتشهير، (وهي كلمة تركية).

ولعلي أتذكر اليوم أن الناصريين بقيادة جاسم علوان، حين حاولوا احتلال مبنى الإذاعة والتلفزيون ومبنى رئاسة الأركان قبل ظهر 18 تموز/ يوليو 1963 في محاولة لإعادة الوحدة بين سورية ومصر بالقوة، ردت عليهم قوات الضابط سليم حاطوم وأمين الحافظ.. إلخ.. بالقصف المدفعي، ودارت رحى المعارك في المنطقة المعروفة الآن بمنطقة المالكي في دمشق، وقد كانت يومئذ بساتين فيها أشجار وجداول، وكان لفخري البارودي دار في هذه المنطقة يقيم فيها بشكل فيلا ذات حديقة وارفة الظلال. وقد أصابها القصف المدفعي يومئذ بأضرار؛ وكنت في ذلك اليوم مصادفة في (أرض المعركة). وبفشل حركة 18 تموز/ يوليو 1963 الناصرية أمست العلاقات بين القاهرة ودمشق سيئة للغاية، وسُدَّ الطريق نحو دمشق نهائياً أمام عبد الناصر رحمه الله.

وحين كنت حبيس سجن القلعة كسجين سياسي في دمشق بعد ذلك بأسابيع قليلة، سمعت من إذاعة دمشق تصريحاً باللهجة الشامية المحببة بصوت فخري البارودي يعلن فيها عن سعادته باحتراق داره، مادام هذا الحرق، كما قال، قد شارك بإغلاق أبواب دمشق أمام جمال عبد الناصر بصورة نهائية.

(8) من الملاحظ أن (حزب البعث السوري) يُغفلُ إسمي ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار كمؤسسين للحزب، وهو يقول إن المؤسس هو زكي الأرسوزي، بينما لا يذكر حزب البعث العراقي قط اسم زكي الأرسوزي كمؤسس للحزب. ونحن نرى أن إعادة صياغة وترتيب أحداث التاريخ بعد حدوثها أمرٌ غير جائز، لأنه في الأصل أمر يجافي العدل والممكن والموضوعية؛ ويزج بعملية التأريخ في مجال التحوير والتأويل؛ وإعادة صوغ الأحداث التي كانت وقعت، إعادة غير أمينة. ما حدث لا يعود ممكناً اعتبار أنه لم يحدث؛ وهكذا فإن من العدل والشجاعة والواجب في آن الاعتراف بما كان هو الحقيقة: إن للأستاذ زكي الأرسوزي رحمه الله على التاريخ حق الاعتراف بأنه كان أول زارع لبذرة فكرة القومية العربية بمفهومها الوحدوي في وجدان جيل ما قبيل وما بعيد الاستقلال في سورية بعد تخرجه من جامعة (السوربون) في باريس وحصوله على إجازة الفلسفة في العام 1930، حيث أنشأ في لواء إسكندرون جريدة (العروبة) وبدأ دعوته منادياً بالانبعاث القومي. وقد أنشأ (نادي العروبة) ومكتبة (البعث العربي) في العام 1937 قبل أن يكون في ساحة النضال السياسي ميشيل عفلق وصلاح البيطار رحمهما الله. وكان يرى أن جذور وحدة الأمة العربية تمتد إلى ما قبل الإسلام، على اعتبار أن «العبقرية العربية في لسانها»، وأن وحدة الأمة لا تتحدد على الصعيد الاجتماعي الطبيعي فقط ــ كما يرى أنطون سعادة مثلاً ــ بل وعلى الصعيد الروحي واللغوي أي (الفيلو ــ لوجي) بصفة أعم وأشمل.

أما الأستاذان ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار فقد توجها من دمشق إلى فرنسا في العام 1929، ومكثا فيها طالبين جامعيين حتى العام 1934، أي أنهما لم يعودا إلى سورية إلا بعد أن أنجز زكي الأرسوزي عملية تأسيس جريدة (العروبة)، وبدأ دعوته إلى الانبعاث القومي العروبي بأربع سنوات، ليعمل الأول مدرساً للتاريخ، والثاني مدرساً للفيزياء في مدارس دمشق الثانوية. وقد كان أول عمل سياسي لهما هو إصدارهما صحيفة أسبوعية يسارية هي جريدة (الطليعة) التي أولت اهتماماً خاصاً بالأدب والاجتماع ثم السياسة في المقام الثالث؛ ومنذ ذلك الوقت بدأا يتقربان من الحزب الشيوعي السوري دون أن ينخرطا فيه، إلا أنهما سرعان ما اكتشفا أن الطريق نحو التقدم العربي هو في رسم سياسة عربية تضع مصالح الأمة العربية فوق أي اعتبار آخر عداها. وفي العام 1941 شكلا حركة (نصرة العراق) في سورية لمساندة حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق ضد الإنجليز. وفي العام 1942 كرسا حياتيهما للعمل السياسي من خلال النضال الحزبي، بينما كان الأستاذ زكي الأرسوزي قد سبقهما في الطريق ذاتها بأشواط؛ فإذا ما حلَّ العام 1946 أصبح (حزب البعث) حركة سياسية شرعية له جريدة ناطقة باسمه هي جريدة (البعث). وقد عقد الحزب أول مؤتمر عام له في العام 1947 لإقرار منهج الحزب، وفي ذلك المؤتمر شكلت أول لجنة تنفيذية للحزب بعضوية ميشيل عفلق (الذي أصبح منذ ذلك اليوم معروفاً باسم العميد) وتمَّ انتخاب صلاح الدين البيطار للأمانة العامة... أي أن زكي الأرسوزي، لم يزج بنفسه في مجال العمل الحزبي بعد وصوله دمشق، لكن ذلك لا يسقط من حساب التاريخ أنه كان هو السابق من حيث التوقيت إلى التبشير بالدعوة إلى الانبعاث القومي العربي[10].

(9) يرجى ملاحظة أنني قد كتبت هذا الفصل في العام 1985، وآثرت عدم تعديله بعد أن سنحت الفرصة، أواخر العام 2003، لنشره في هذا الكتاب.

(10) كما ذكرت في الشرح (9) السابق، فإنني قد كتبت هذا الفصل الثالث من فصول كتابي هذا، في العام 1985، وحين سنحت فرصة احتمال إصدار كتابي هذا في أواخر العام 2003، أضفته إلى بقية فصول الكتاب، دون تعديل، أي أنه قد مرت مدة ثمانية عشر عاماً بعد إعدادي هذا الفصل، قبل احتمال دفع هذا الكتاب إلى النشر، وهي مدة من الزمن حدث خلالها الكثير من المتغيرات التي طرأت على ممارستي الشخصية وتجاربي العملية والفكرية السياسية الخاصة، وعلى بعض الأحوال العربية التي كانت قائمة في الوطن العربي حتى العام 1985، ثم طرأ عليها تغيير أو تعديل أو تحوُّل أو إلغاء. وما يهمني من الأمر هنا، أن أوضح للقارئ أنني قد يممت وجهي صيف العام 1968، عقب نكبة 1967 بشهور قلائل، نحو أبوظبي، لأضع قدراتي وخبراتي العملية في خدمة دعوة حاكم إمارة أبوظبي الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان لإقامة (دولة الإمارات العربية المتحدة)، في الوقت الذي شهد تنكيس رايات (الوحدة العربية) المرفوعة على ضفاف النيل

وبردى والفرات، وإنطفاء جذوة التجربة الناصرية. في ذلك الوقت تحديداً، وقع الشيخ زايد حاكم إمارة أبوظبي، والشيخ راشد آل مكتوم حاكم إمارة دبي، ما سُمّي بـ (اتفاقية سميح) التي كانت الخطوة العملية الأولى نحو استكمال عملية إقامة دولة الإمارات العربية المتحدة في 2-12-1971، بعد حوالي شهر فقط من الانسحاب العسكري البريطاني من منطقة الخليج. وقد عينت عقب وصولي أبوظبي مستشاراً في ديوان حاكم إمارة أبوظبي الذي كان يرئسه الصديق أحمد خليفة السويدي حين كان (اليد اليمنى) للشيخ زايد، في كل الجهود التي صُرفت لإقامة الدولة الاتحادية؛ وحين غادرت أبوظبي قبل قيام الدولة الاتحادية؛ ثم أكرمني حاكم إمارة الشارقة السابق الشيخ خالد بن محمد القاسمي رحمه الله، بمنحي جواز سفر من إمارة الشارقة منذ بدايات العام 1970، سهّل لي عمليات الانتقال من وإلى منطقة الخليج الذي كان زاخراً بعناصر المخابرات البريطانية التي كانت ترتاب بوجود مواطن عربي غير خليجي محسوب على التجربة الناصرية، كمثلي، في منطقة الخليج، التي كانت حتى أواخر العام 1970 واقعة تحت الحماية البريطانية. ثم، بعد قيام الدولة الاتحادية، وبعد صدور جوازات سفر خاصة برعاياها، زودت بجواز سفر إماراتي مؤقت (جواز مهمة) من وزارة الخارجية، استناداً إلى جواز السفر الممنوح إليَّ من إمارة الشارقة بأمر من حاكمها الراحل المغفور له الشيخ خالد بن محمد القاسمي الذي كان يضمر حباً عظيماً، لكل ما ومن هو سوري شامي، جعله يطلق على إحدى مناطق مدينة الشارقة، عاصمة الإمارة، اسم (ميسلون).. وما تزال إمارة الشارقة حتى اليوم، في عهد حاكمها الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، تضمر هذا الود الاستثنائي العميق، نحو كل ما ومن هو سوري شامي، ولعل هذا يبدو جلياً من مجموعة العاملين في فضائية الشارقة التلفزيونية.

بعد قيام الدولة الاتحادية بأشهر قليلة، سعت المخابرات البريطانية إلى إخراجي من منطقة الخليج، ونجحت في ذلك السعي صيف العام 1971، ولم يكن أمامي من طريق أسلكها غير الطريق المفضية إلى القاهرة.

عقب حرب 1973 التي شهدت مواقف لا تنسى اتخذها الشيخ زايد عملياً لنصرة سورية ومصر خلال تلك الحرب الطاحنة، وسطوع نجمه في الوطن العربي، وتمكنه من التحرر من المحاولات البريطانية التدخل في بعض الشؤون الداخلية للدولة الاتحادية التي حاولت بريطانيا إجهاض قيامها، دون أن تتمكن من تحقيق ذلك الهدف قط؛ عدت إلى أبوظبي بترتيب من الصديق أحمد خليفة السويدي الذي أصبح أول وزير خارجية للدولة الاتحادية منذ قيامها؛ وبعد لقاء بالشيخ زايد، أصدر وزير الخارجية قراراً بتكليفي بمهمة (الملحق الصحفي) لسفارة دولة الإمارات في الجزائر، في مرحلة إنشائها، ومنها نقلت إلى تونس للإسهام بإنشاء سفارة للدولة الإتحادية، بعد تزويدي (بجواز سفر مهمة) بصفة (مستشار إعلامي)

حيث مكثت في الفترة من 1974 حتى خريف 1983، أؤدي، لا واجباتي الوظيفية وحسب، بل ما أعتقدت أنه واجباتي العربية القومية، إزاء الدولة التي ناصرت دعوة الشيخ زايد لإقامتها منذ العام 1968، وكان لي شرف أن أكون غير بعيد عن شخصه، حين رفع علمها لأول مرة في دبي ضُحى يوم 2-12-1971، وإزاء تونس، وإزاء العلاقات الثنائية الإماراتية التونسية. وبجواز سفر المهمة، نفسه، المؤقت، عملت بعد ذلك في سفارة الإمارات في بروكسل، ثم منذ العام 1985 وحتى 1-1-1995 في سفارتها في القاهرة؛ لكن، في كل هذه العواصم التي أقمت فيها بجواز سفر مهمة (إماراتي مؤقت)، كلن ينبغي تجديده كل عامين؛ لم يعاملني أحد في الدولة الضيفة وفي الدولة المضيفة، بصفتي مواطناً إماراتياً، بل كان تعامل جميع الأطراف معي، يقوم على أساس أنني مواطن سوري؛ في الوقت الذي كان فيه شعوري بأنني (مؤقت) في الإقامة، (مؤقت) في الانتساب إلى الدولة التي أسعى تحت ظلال أعلامها خارج حدودها، وبأن سمائي (مؤقتة)، وأرضي مؤقتة وصفتي الوظيفية مؤقتة، يحاصرني ليل نهار من الجهات الأربع، محاصرة مضنية، ترفض أن تصدق أنني (عربي) حتى نخاعي العظمي، وتصر على اعتباري (سوريّاً) شئت أو أبيت. وهنا بالتحديد، تساءلت من أنا، وما أكون، وأين هي العروبة التي بها تشدقوا ويتشدقون؟ ما شكلها؟ ما لونها؟ وفي أية سوق يمكن العثور عليها غير سوق الأحلام والأوهام والتطلعات الطوبائية؟

في صباح الجمعة 13-9-1991، تشرفت بالمشاركة في جلسة حوار مع الشيخ زايد، في جناحه الذي كانت مصر تستضيفه فيه، خلال زيارة رسمية قام بها لمصر، مع وفد مرافق، بدعوة من الرئيس المصري محمد حسني مبارك وقد استمر الحوار حوالي خمس ساعات متصلات، تحدثت خلالها بإسهاب عن جوانب من تاريخ الأمة العربية في مراحله الثلاث: القديمة والوسيطة والحديثة، وكان لدي ما أقوله حول خلفيات عدد من الأحداث العربية التي شهدها الوطن العربي، بمعناه القومي، خلال النصف الثاني من القرن العشرين الذاهب، وقد كانت لي ببعض تلك الوقائع والأحداث، من موقع أو آخر، صلة عضوية؛ وكان الشيخ زايد يصيخ إلى حديثي المسهب إصاخة شجعتني على الاستمرار به حتى النهاية؛ ولم يتوقف تدفقي إلى حين داهمتني إرهاصات (غيبوبة داء السكري) الذي أصابني منذ العام 1983، وما يزال يصاحبني، ولا يبدو أنه سيفارقني إلا بعد أن يوصلني إلى لحد قبر لا أعرف في أية أرض سيحفر.

صباح اليوم التالي، السبت 14-9-1991، استدعيت للتلاقي بالشيخ زايد في الجناح الذي كان ينزل فيه، في قصر القبة. وهنالك علمت بأن الشيخ زايد قد سأل سفير الإمارات في القاهرة الصديق حمد هلال ثابت، والصديق الدكتور عبدالله النويس وكيل وزارة الإعلام الأسبق في أبوظبي، عن أحوالي، ومنهما عرف بشهامته ما أعانيه من شتى صنوف مسببات الأرق والقلق كل يوم ليل نهار دون هوادة، ومن شتى الصروف اليومية، وأنني أقيم في (شقة مفروشة) أنا وأفراد أسرتي الصغيرة،

وأعجز أحياناً عن تأمين كلفة الدواء والعلاج، وأنا في كل هذا معلق في فراغ الاغتراب عن وطن المهد، لا تتوافر الظروف المناسبة لعودتي إليه.. إلخ.. كذلك علمت بأن الشيخ زايد قد أصدر أمره بمنحي وأفراد أسرتي الصغيرة جنسية دولة الإمارات؛ وبشراء شقة سكنية تؤوينا إيواء دائماً في القاهرة، من ماله الخاص؛ وهكذا، بعد شهرين أعقبا تاريخ لقائي به، وحواري المطول معه، لا عن همومي الشخصية، بل عن مجموعة من القضايا العربية القومية، تلقيت دعوة من ديوان الرئاسة في أبوظبي، شاملة لأفراد أسرتي الصغيرة، للتوجه إلى أبوظبي في نوفمبر تشرين الثاني 1991، حيث تم إنجاز الإجراءات بمنحنا جنسية دولة الإمارات، وجوازات السفر التي انتشلتنا من مستنقع الأرق والقلق والشعور باليتم، طوال فترة اغترابي عن وطن المهد، وحتى نهاية العام 1997. وبعودتنا إلى القاهرة أوائل العام 1992، بدأنا بإعداد الشقة السكنية الرحيبة التي أهداها لنا من كرمه وعطفه وحنوه الأبوي الغامر، حيث أتيح لنا أواخر العام 1992 الخلاص من محنة التنقل من شقة مفروشة إلى أخرى، بانتقالنا للإقامة الدائمة فيها، لنهنأ بعد اضطراب طال أمده، بنعمة الشعور بالاستقرار، بفضل شهامة الشيخ زايد الذي منحنا جنسية دولة الإمارات دون أن ألتمسها منه، وأهدانا منزلاً في مصر نأوي إليه ما تبقى من سنوات العمر، دون أن تُحيجنا أبوته الغامرة، بالتماسه منه، فكذلك يفعل الكرماء وحدهم، حين يكونون في وزن الشيخ زايد، وهم قليلون جداً، في هذا العالم العربي الزاخر بالأنانيات والمظالم، مرئية وغير مرئية، وبشتى أنواع الجحود. لكنْ، كم من (زايد) في هذا الوطن العربي، يرفع نير الحيف عن المجحود المظلوم؟ وكم من مواطن عربي تتاح له فرصة التحاور مع رئيس دولة؟ وكم من زعيم عربي يسعى إلى تجسيد مفهوم القومية العربية، تجسيداً عملياً محسوساً، على النحو الذي فعله ويفعله الشيخ زايد؟

واجب العرفان بالجميل يقضي برفع الشكر الجزيل إلى الشيخ زايد، علانية هكذا، في صفحات من كتابي هذا الذي أحدس بأن يحظى نشره باهتمام عربي استثنائي، وجدلا أرجو أن يعطي ثماره المرجوة في نهاية المطاف. وإن هذه الكلمة عدل وإنصاف، ما كان لي مهرب من أن أضيفها إلى نهاية الفصل الثالث هذا الذي حاولت به رسم خريطة ميدانية، لشعور المهاجر من وطن مهده، بالغربة، كلما اشتهى الإقامة الدائمة، في مكان أو آخر من الوطن العربي، خارج حدود وطن مهده. وإذا كان الشيخ زايد قد برهن بالفعل المحسوس، على أن الوطن العربي، ومنه دولة الإمارات العربية المتحدة، هو وطن كل عربي بغض النظر عن هوية انتمائه القطري أو الإقليمي، فإن الشيخ زايد يبقى هو الاستثناء، وليس هو القاعدة البديهية، ولو أن الرؤساء والحكام والقادة العرب، الآخرين، ارتقوا إلى ممارسات الشيخ زايد على هذا الصعيد القومي العربي الذي نشير إليه؛ لما بقي الوطن العربي، بمجتمعاته الأربعة، في صراع شبه دائم بين هذا القطر وذاك، وهذا الإقليم وذاك.

ملحق صور الفصل 3





صورة التقطت يوم 29-4-1929 لعدد من طلاب وطالبات جامعة دمشق، وهم يتظاهرون معبرين عن احتجاجهم على إلغاء الحكومة السورية ميزانية جامعة دمشق بعد أشهر من تعيين الفرنسيين الشيخ المغربي تاج الدين الحسني رئيساً لوزراء سورية.

الطلاب يعتمرون الطرابيش، والطالبات يلتفحن بالملايات الشامية، ويحجبن وجوههم بالمناديل السود.. والكل كان يتوحد في موقف واحد ضد المستعمرين الفرنسيين الذين قاومهم شعب سورية البطل، بالدم، وبالمقاومة، وبالصمود.. حتى النصر والتحرر والاستقلال.

(صورة: من أرشيف المؤلف الخاص)



مجموعة من طلبة جامعة دمشق السوريين المؤيدين لحزب (الكتلة الوطنية) يتظاهرون بقيادة الطالب في جامعة دمشق بشير القضماني في (شارع الصالحية) في دمشق، معلنين ولاءهم وطاعتهم لزعماء (الكتلة) في مقارعتهم الاستعمار الفرنسي. وقد كان شكري القوتلي أبرز زعماء ذلك التنظيم... التقطت هذه الصورة في صيف العام 1936.

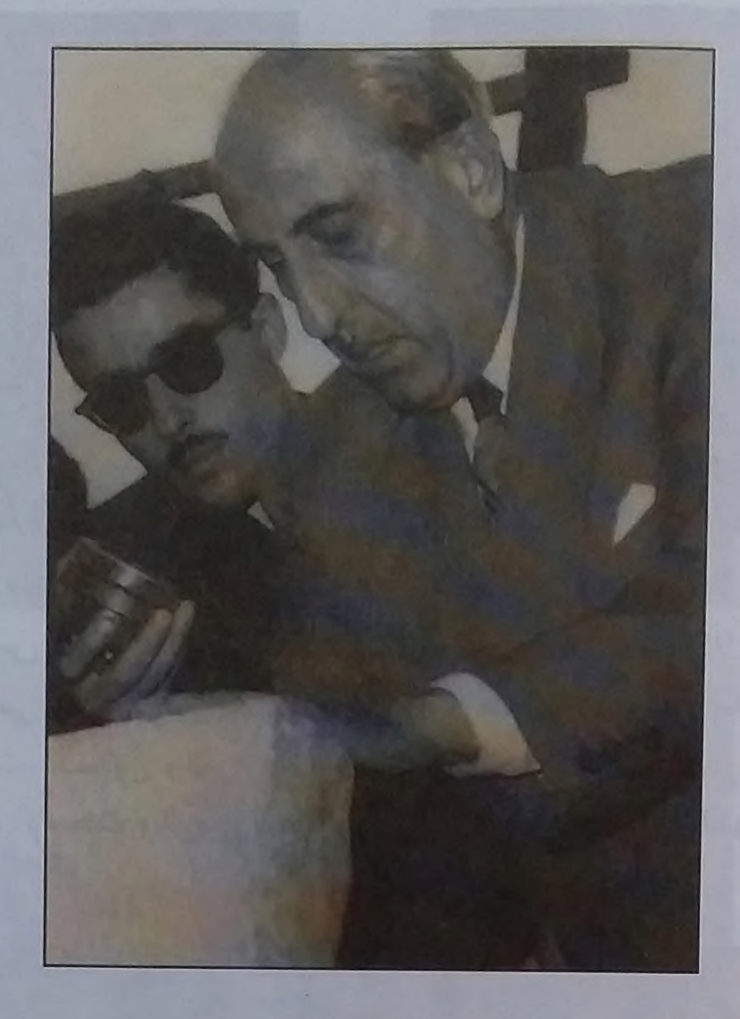
(تصوير: استديو شاوي ـ دمشق) (من أرشيف المؤلف الخاص)



طلبة جامعة دمشق يقومون بتحطيم اللوحة التذكارية على أعلى مدخلها الخارجي، المنقوش فيها اسم الشيخ تاج الدين الحسني، وهو رجل دين معروف، مغربي الأصل، نصَّبه الفرنسيون رئيساً للوزراء في سورية في الفترة ما بين 1928 و 1931، ثم في الفترة ما بين 1934 وحتى 1936، ثم هاجر إلى فرنسا للإقامة في باريس هرباً من انتعاش الحركة الوطنية الشعبية التحررية السورية. ثم أعاده الفرنسيون وعينوه رئيساً للجمهورية السورية قبل الاستقلال في الفترة ما بين 1941 وحتى 1943 وهي سنة وفاته.

(التقطت هذه الصورة أمام مدخل جامعة دمشق عام 1936).

(تصوير: جورج نوفل – دمشق)
(من أرشيف المؤلف الخاص)



الرئيس الراحل شكري القوتلي يضع حجر الأساس لمبنى مصرف سورية المركزي في دمشق (السبع بحرات)، وإلى جانبه المؤلف.
حزيران/ يونيه 1957

(تصوير: استديو آزاد ــ دمشق)
(من أرشــيف المؤلف الخاص)





صورتان لساحة (السبع بحرات) في بداية شارع بغداد من الجهة الغربية في دمشق، قبل أحد عشر عاماً من إنشاء مبنى مصرف سورية المركزي عام 1957 في مواقع أشجار البستان الظاهر في يسار هاتين الصورتين. ولقد هُدِمت هذه القبة ذات البحيرات السبع المتدرجة، وأزيلت البساتين والمزارع من ورائها، حيث منطقة (المزرعة) الآن مشجرة بمباني الأحجار والإسمنت والزمن الجديد الآخر.. **(تصوير: المؤلف عام 1946)**



هذه هي المرجة أو ساحة الشهداء كما عرفها جيلنا ونحن فيما بين الطفولة والمراهقة. ويبدو في أقصى يسار الصورة مبنى (البلدية) الذي تمَّ فيه تنصيب (الملك فيصل بن الحسين) ملكاً على دمشق خريف العام 1918 في نهاية الحرب العالمية الثانية، قبل أن يتم ترحيله من دمشق لتنصيبه ملكاً على بغداد في حماية القوات البريطانية.

على يمين الصورة يبدو فندق (خوّام) الذي كان أنيقاً فارهاً شهيراً، والذي من نوافذه كانت تنطلق أغنية (يا أم العباية) بصوت سهام رفقي في أول عيدٍ للجلاء، إضافة إلى أناشيدنا السورية الوطنية: (موطني موطني) و (بلاد العرب أوطاني) و (ياظلام السجن خيم)، و(حماة الديار عليكم سلام...).

(تصوير: المؤلف عام 1946)





صورتان من احتفال دمشق بعيد الجلاء الثالث في العام 1948

في الصورة الأولى ــ العليا ــ عرضٌ لفوج الدراجات النارية لمديرية الشرطة السورية وهي تعبر شارع بيروت...

في الصورة الثانية رمز لجامعة الدول العربية قامت بإعداده مدرسة الصناعة في دمشق، فوق سيارة تعبر شارع فؤاد الأول في دمشق (شارع الصالحية)...

سقى الله تلك الأيام، ما كان أجملها وأحلاها.. فقد كنا مترعين بالتطلعات القومية، والأحلام العروبية الوردية.

(تصوير: المؤلف عام 1948)



عقب قيام الوحدة السورية المصرية في 22-2-1958 بأشهر قليلة، قامت في لبنان (ثورة شعبية) كانت شرارتها الأولى عملية اغتيال الصحافي اللبناني نسيب المتني، وقد انتهت الثورة بإسقاط نظام كميل شمعون الذي استغاث بالأسطول السادس الأمريكي. وبانتخاب اللواء فؤاد شهاب، بالتنسيق بين أمريكا وجمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية اللبنانية؛ حيث التقى عبد الناصر في خط الحدود السورية اللبنانية في شتورا خريف 1958 في (الكشك) الظاهرة في الصورة، وكان نصفها في الأرض السورية، ونصفها الآخر في الأرض اللبنانية، ويبدو على يمين عبد الناصر مرافقه العسكري وعبد الحميد السراج ومحمد أحمد سكرتير عبد الناصر الخاص.



جمال عبد الناصر يرتجل خطاباً في مواجهة جماهير مدينة (بانياس) على الساحل السوري أوائل العام 1959. ويبدو من يمين الصورة: عبد الحميد السراج، عبد اللطيف البغدادي، ووراءه الفريق جمال فيصل، جمال عبد الناصر ووراءه عبد الهادي البكار، ثم أكرم الحوراني في أقصى يسار الصورة.



في العام 1936 أسس المناضل الوطني السوري الشاعر مؤلف نشيد (بلاد العُرب أوطاني من الشام لبغدان) المرحوم فخري البارودي تنظيماً شعبياً شبه عسكري، لاستخدامه في العمليات الشعبية السورية ضد الفرنسيين، وأطلق عليه اسم (القمصان الحديدية). وهذه الصورة التقطت في إحدى ضواحي دمشق لإحدى (فرق) (القمصان الحديدية) عام 1937. ويبدو مدّرب الفريق بشير القضماني في أقصى يسار الصورة.

(من أرشيف المؤلف الخاص)



الرئيس التونسي السابق الراحل الحبيب بورقيبة، يستقبل عبد الهادي البكار والسيدة عقيلته د. عائشة هالة بنت الدكتور محمد أسعد طلس، في قصر قرطاج الرئاسي في العاصمة التونسية أوائل العام 1981.

(عدسة: وكالة الأنباء التونسية ـ T.A.P)

الشيخ زايد في حوار خاطف مع عبد الهادي البكار يوم الاحتفال بافتتاح قصر الرئاسة (قصر المنهل) في أبوظبي بمناسبة حلول الذكرى الثالثة لتولي سموه مقاليد الحكم في إمارة أبوظبي بتاريخ 6-8-1966.

(عدسة: محمد بدر)



الشيخ زايد فور رفع علم دولة الإمارات العربية المتحدة في قصر الجميرة في دبي لأول مرة، قبل ظهر يوم الخميس 2-12-1971 ويبدو عبد الهادي البكار واقفاً وراء كتف الشيخ زايد مباشرة.. ووراء كتف الشيخ زايد الأخرى، الفريق الركن الدكتور سعيد البادي، وزير الداخلية حالياً، وكان مرافقا عسكرياً لرئيس الدولة..

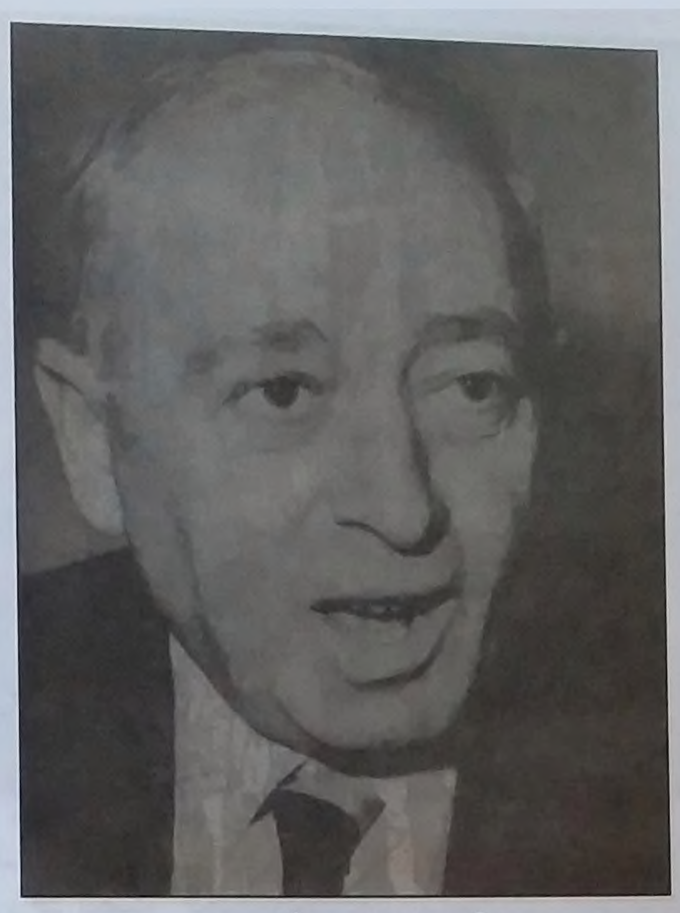
(عدسة: محمد بدر)



أول اجتماع لأول وزارة اتحادية. عُقد الاجتماع في قصر المنهل في أبوظبي أواخر العام 1971. ويبدو الشيخ زايد يتصدر الجلسة، عن يمينه رئيس الوزراء الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم حاكم دبي حالياً، ثم الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم وزير الدفاع (ولي عهد إمارة دبي ووزير الدفاع في الدولة الاتحادية حالياً) ثم أحد الوزراء من قواسم الشارقة، ثم الوزير الشيخ محمد بن حمد الشرقي (حاكم إمارة الفجيرة حالياً) ثم الشيخ سلطان بن محمد القاسمي وزير التربية (حاكم إمارة الشارقة حالياً).

ويبدو يمين الصورة عن يسار الشيخ زايد، وزير الداخلية يومئذ الشيخ مبارك بن محمد، والشيخ سلطان المعلا وزير الصحة يومئذ، والشيخ أحمد بن حامد وزير الإعلام والثقافة يومئذ. أما الذي يبدو واقفاً يمين الصورة فهو الصحفي المصري المرحوم الأستاذ مصطفى شردي الذي كان يعمل مديراً لتحرير جريدة (الاتحاد) في أبوظبي، ويبدو عبد الهادي البكار واقفاً يسار الصورة بصفته مستشاراً إعلامياً يومئذ في ديوان حاكم إمارة أبو ظبي.

(عدسة: محمد بدر)



الأستاذ زكي الأرسوزي

عنه أخذ ميشيل عفلق، وصلاح الدين البيطار
اسم وتوجُه حزب البعث العربي الاشتراكي.

الفصل الرابع 4

- من قتل عدنان المالكي في دمشق في العام 1955؟ ومن هم الذين شاركوا بوضع المخطط الخاص بتدمير الحزب القومي السوري في كل من سورية ولبنان بعد ذلك؟
- أنطون سعادة حذّر (الدول السورية) في مقالة نشرها في العام 1948 مما وصفه بـ «الانجراف في تيار المركزية العربية، المصري»، ورفض أن يكون مقر الجامعة العربية في مصر.
- في العام 1925 حذر أنطون سعادة من احتمال قيام دولة «إسرائيل»، وأعلن «أن القضية الفلسطينية هي مشكلة قومية سورية أولاً.
- دور عدنان المالكي بتوفير المناخ الملائم لعقد اتفاقية الدفاع المشترك بين سورية ومصر في العام 1955، عندما بدأ الصراع حول سورية بين كل من أمريكا وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفييتي.
- هل كان قاتل عدنان المالكي عميلاً مزدوجاً؟
- محاكمة الدكتور منير العجلاني وعدد من الشخصيات السياسية السورية في أوائل العام 1957، كانت هي الضربة القاضية الثانية ضد الحزب القومي السوري.
- عبد الحميد السراج يحضر جلسات محاكمة منير العجلاني ورفاقه.
- المحامي نجاة قصاب حسن يصوغ بقلمه نصوص التعليقات على الأجزاء المذاعة من التسجيلات، وأنا أذيعها بصوتي عبر موجات الإذاعة السورية.

جمعتني المصادفة صيف العام 1989، بعدد من كبار الشخصيات المصرية السياسية المتقاعدين الذين كانت لهم أدوارهم الفاعلة في الساحات السياسية المصرية والعربية في العقدين الخامس والسادس من القرن العشرين الذاهب، ولا يزال بعضهم مستمراً بأداء بعض هذه الأدوار بصفة غير رسمية حتى يومنا هذا.

كان بين أولئك الذين أقام لهم الصديق محمد هلال ثابت سفير دولة الإمارات في مصر، وليمة غداء في مقر سكناه في القاهرة، وكنت أحد المدعوين إليها، السياسي الدبلوماسي المصري العربي المخضرم الأستاذ المرحوم محمود رياض[1] الذي كان جاءنا في دمشق سفيراً لمصر في منتصف عقد الخمسينيات من القرن المنصرم، ليتولى مهمة تسمير السياسة السورية بفلك السياسة الناصرية المصرية، وقد نجح في ذلك، وتوِّج نجاحه ذاك بالإعلان عن قيام الوحدة المصرية السورية أوائل العام 1958.

في تلك الفترة التي كان فيها محمود رياض منفذاً للسياسة المصرية في سورية، بل ومشاركاً برسم جانب من السياسة الناصرية الخارجية العربية التي كانت تهدف إلى انتزاع سورية من الأيدي العراقية والسعودية أي من بين براثن بريطانيا وأمريكا؛ وقعت في سورية ثلاثة أحداث هامة سيكون لها تأثيرها الهام في إجراء سلسلة من العمليات الجراحية في السياسة العربية الخارجية السورية التي انتهت في العام 1958 إلى تحقيق الوحدة بين سورية ومصر:

1 ـ حادثة اغتيال عدنان المالكي في الملعب البلدي في دمشق عام 1955.

2 ـ تدمير الحزب القومي السوري الاجتماعي في سورية ولبنان.

3 ـ محاكمة عدد من الشخصيات السياسية اليمينية السورية.

في يناير (كانون الثاني) من العام 1957، وكان أبرز تلك الشخصيات الدكتور منير العجلاني الذي كتبت عليَّ أقداري أن أكون المذيع المكلف بتسجيل كل الجلسات الخاصة بمحاكمته هو وزملائه المتهمين لصالح الإذاعة السورية التي كان يسيطر عليها سياسياً عملياً يومئذ: عبد الحميد السراج رئيس المكتب الثاني في الجيش السوري؛ وأن يُتاح لي من موقعي ذاك التواجد داخل قاعة المحاكمة في (مدرج جامعة دمشق) في كل جلسات تلك المحاكمة التي تولى رئاستها اللّواء عفيف البزرة وساعده العقيد محمد الجرّاح، والمحامي المؤتمر بأوامر أكرم الحوراني يومئذ: عبد الفتاح الزلط (ممثل الإدعاء) رحمه الله (توفي في فندق شيراتون هليوبوليس في القاهرة بالسكتة القلبية، قبل حوالي عشر سنوات أو أكثر).

وقد تصادف أنني قبل لقائي بالأستاذ محمود رياض في منزل الصديق حمد هلال ثابت سفير دولة الإمارات بالقاهرة صيف العام 1989، كنتُ أنجزت إعداد كتاب مخطوط تحت العنوان: (لماذا يرى البعض أن القضية الفلسطينية، والقضية اللبنانية، مشكلتان أو قضيتان سوريتان ـــ أولاً).. يتضمن عدة فصول حول حادث مقتل عدنان المالكي وحول سلسلة الأحداث المتصلة برغبة كل من النظامين السوري والمصري يومئذ، تدمير الحزب القومي السوري كآلة حزبية وكأيديولوجية سورية وطنية إقليمية، وحول محاكمة الدكتور منير العجلاني وزملائه في يناير كانون الثاني 1957 في دمشق، وهي المحاكمة التي تحولت إلى مناسبة استثنائية للإجهاز على ما كان تبقى من قوة الحزب القومي السوري في كل من سورية ولبنان.

كان من الطبيعي أن ينصت المدعوون إلى حفل الغداء وقد كنت أحدهم، إلى السياسي الدبلوماسي المخضرم الأستاذ محمود رياض، فهو كان أغنانا تجربةً، وأقدمنا عهداً بالعمل في الحقل السياسي العربي، إضافة إلى أنه المتحدث الصريح الذي كان عادةً ما يجاهر بما يعتقده، ولا يتهرب من الإجابة عن سؤال يُطرح عليه، ولا يمنعه خوف من الإعلان عما قد يراه الآخرون أسراراً.

ولقد كنتُ منذ العام 1955 ولا أزال ميّالاً إلى (الظن) بأن قاتل عدنان المالكي، يونس عبد الرحيم، لم ينتحر كما أشيع بعد الحادث مباشرة، وإنما

هو قد قُتل فور إجهازه على المالكي، تماماً كما حدث بعد ذلك (لأزوالد) قاتل الرئيس الأمريكي جون كينيدي عام 1963.

ولقد علمت من الأستاذ محمود رياض يومئذ أن كاتباً أو باحثاً سورياً اسمه سامي عصاصة، حاول الاتصال به أكثر من مرة، ليطرح عليه أكثر من سؤال حول قضية مقتل عدنان المالكي؛ وليضيف الأستاذ عصاصة أجوبة الأستاذ رياض إلى كتاب كان في صدد إعداده حول ملابسات تلك القضية.

ولعليّ فهمتُ من الأستاذ محمود رياض يومئذ أن هذا الباحث السوري المقيم في ألمانيا الدكتور سامي عصاصة، الذي أصدر كتابه الهام (أسرار الانفصال.. مصر وسورية) عن (دار الشعب) المصرية في الشهر الأول من العام 1989، يتهم مصر والسراج بالتخطيط لعملية اغتيال عدنان المالكي، وبتنفيذها، بهدف القضاء على الحزب القومي السوري قضاءً مبرماً حتى تخلو الساحة من معارضي توجيه دفة الزَّورق السوري نحو البحيرة المصرية على أيدي محمود رياض وعبد الحميد السراج.

وقد بدا لي يومئذ، وأنا أحاور الأستاذ محمود رياض حول قضية مقتل عدنان المالكي، أن الضابط الدبلوماسي السياسي المصري العربي المخضرم، محمود رياض كان يواجه يومئذ هذا الاتهام الظنّي، لا بالامتعاض والاستياء، بل بالدهشة والاستغراب والاستنكار معاً؛ وأن ذلك كله قد يشير إلى براءة مصر من هذا الاتهام الذي سيرد في كتاب لم يكن طُبع بعد للباحث السوري المهاجر إلى ألمانيا الدكتور سامي عصاصة، الذي حرص كما لاحظنا على أن يصدر كتابه عن حركة 28 أيلول/ سبتمبر 1961 (الانفصالية) عن دار نشر مصرية، ومن العاصمة المصرية نفسها، وهو اختيار له معناه ومقاصده كما هو واضح.

ولقد كانت أقداري كتبت عليَّ أن أعيش تلك الأحداث الثلاثة السورية التي أشرت إليها بسطور سابقة، وأن تتاح لي فرصة معرفة الكثير مما هو غير معلن عنها حتى اليوم. فلما قرأت ما كتبه الضابط السوري المتقاعد منذر الموصلي ونشرته جريدة (الشرق الأوسط) عن (الزعيم الذي غدر بالزعيم) في العدد الصادر في 1-4-1990، وعن ملابسات اغتيال رئيس الشعبة الثالثة في الجيش السوري عام 1955 (عدنان المالكي)، في العدد

الصادر في 8-4-1990؛ كذلك تعقيب الباحث اللبناني (وهو من أصل سوري) جان دايه، المنشور في جريدة (الشرق الأوسط) بتاريخ 6-5-1990، إضافة إلى مداخلة الدكتور منير العجلاني المنشورة في العدد الصادر يوم الأحد 20-5-1990 من (الشرق الأوسط): رأيت أنه قد يكون من المفيد، أن أدلي بشهادتي للتاريخ، حول ما كنت سمعته بالأذن وما كنت رأيته بأم العين من وقائع هذه الأحداث الهامة الثلاثة، التي ما يزال الكثير من جوانبها غامضاً أو مجهولاً حتى يومنا هذا.

ولعليّ أوضح أنني بهذه الشهادة إنما أنحاز إلى ما أعتقد أنه الحقيقة التاريخية وحدها، والله شاهد على ما أقول؟. فقد آن الأوان لإدلاء كل من عاش أو عايش تلك الأحداث، وكانت له صلة بها من جانب أو آخر في سورية بصفة خاصة، بشهادته الموضوعية للتاريخ، قبل أن ينقرض من تبقى من جيلنا دون الإفصاح عمّا ينبغي الآن الإفصاح عنه قبل فوات الأوان، فلعلّنا بذلك نساعد على وضع النقاط فوق حروفها تماماً، خدمة للحقيقة التاريخية أولاً وأخيراً، حتى تدرك الأجيال التالية حقيقة ما فعلته الأجيال التي سبقتها دون لف ولا دوران، ودون طمس أو حجب أخبار الحقائق كما كانت وقعت تماماً.

وأقسم أنني سألتزم الصدق وحده، فيما سأقول؛ ولن أشهد إلا بما هو صدق خالص مما عشته بنفسي من بعض جوانب هذه الأحداث، وكانت لي به صلة عضوية مباشرة كتبتها عليَّ أقداري وحدها، ولم اسع من جانبي إليها قط.

ولعل من المفيد التذكير بأن الضابط السوري المتقاعد منذر الموصلي محسوب على حزب البعث بصفته كان عضواً فيه من خلال انخراطه المبكر في الحزب الاشتراكي الذي أسسه أكرم الحوراني، وأن الباحث جان دايه محسوب على الحزب القومي السوري الاجتماعي بصفته كان ولا يزال – ربما – عضواً فيه؛ وبذلك يصبح الحياد الموضوعي فيما نشره الكاتبان في جريدة (الشرق الأوسط) هو العنصر غير الموجود، على نحوٍ ملحوظ بوضوح.

وبما أنني لست عضواً في حزب البعث، ولا في الحزب القومي السوري الاجتماعي، وبما أن المصادفات كانت جعلتني أكون شاهداً على

بعض الجوانب المتعلقة بعملية اغتيال عدنان المالكي في (الملعب البلدي) في دمشق بتاريخ 22-4-1995 وما أفرزته من نتائج عاجلة، وشاهداً أيضاً على كل ما جرى في قاعة مدرّج جامعة دمشق التي أُتخذت كمقر لمحاكمة منير العجلاني وحسن الأطرش وسعيد تقي الدين وغسان جديد وعدنان الأتاسي ونسيب البكري وهايل سرور، وعدد آخر من المتهمين يومئذ بمحاولة إسقاط نظام الحكم السوري في نوفمبر/ تشرين الثاني 1956، لصالح العراق (أي لصالح بريطانيا يومئذ)، وبترتيب من الحزب القومي السوري، فقد فكرت باحتمال أن تكون شهادتي للتاريخ في هاتين القضيتين، هي الشهادة المفيدة الموضوعية المطهرة من الأغراض والنوازع الحزبية، بل المطهرة من نوازع الانحياز لأي من الطرفين؛ علماً بأنني محسوب في نظر الرأي العام العربي شئت أو أبيت، على التيار الناصري العربي[2]، وهو التيار الأقرب أيديولوجياً إلى طروحات حزب البعث القومية العربية منه إلى طروحات الحزب القومي السوري الاجتماعي.

كنتُ في الخامسة عشرة من عمري حين أقدم الزعيم حسني الزعيم على الغدر باللاجئ إليه من لبنان: أنطون سعادة؛ لكنَّ اهتماماتي لم تكن كالكثيرين ممن كانوا في عمري الفتي يومئذ منعزلةً عن القضايا الوطنية. كان لذلك أسباب كثيرة منها أن أخي الأكبر أحمد البكار (أبو حاتم) كان استخدمني وأنا طفل في الحادية عشرة على وجه التقريب لنقل كميات من طلقات (الرصاص) في جيبَيْ (شروالي) من دار والدي في مسقط رأسي بلدة (دوما) اللصيقة بدمشق، إلى حيث كان يعتصم أخي أبو حاتم وبعض رفاقه من الفتيان المسلحين بالمسدسات، الذين عمدوا إلى إطلاق الرصاص على أعداد من الجنود الفرنسيين وأعوانهم قبيل انتزاع سورية استقلالها بعدة شهور.

كان عمري يومئذ اثني عشر عاماً فقط، وكنت منذ تلك المرحلة من عمري قد ارتبطت بالقضايا الوطنية ارتباطاً حميماً؛ فلما كانت الحرب العربية الصهيونية في العام 1948، انضم خالي العقيد المتقاعد محمود البغدادي إلى صديقه فوزي القاوقجي قائد (جيش الإنقاذ) في فلسطين. وفي (جنين)، استشهد خالي الشجاع الوسيم وهو يقاتل، فلمّا أعيد جثمانه إلينا، كان

يرافقه فوزي القاوقجي نفسه. وفي دار والدي الوسيعة في دوما أقيم حفل التأبين، ورفعني أخي الأكبر محمد عارف أبو راتب رحمه الله، فوق كتفيه لألقي كلمة أهل الشهيد ارتجالاً، ولم يكن عمري تجاوز يومئذ كما ذكرت الثانية عشرة. وقد بدأت كلمتي المرتجلة مخاطباً فوزي القاوقجي هكذا: (فوزي بك: كفكف دموعك، واعطني أنا أيضاً سلاحي).. فإذا بفوزي القاوقجي يجهش باكياً، ودموعه تملأ خديه، والحشد من حوله وحولي يهتف بعروبة فلسطين؛ والبنادق والمسدسات تخترق الفضاء بطلقات الرصاص، وبالتكبير، وبالهتاف الجماعي بعروبة فلسطين.

كنا يومئذ (نحب) الرئيس شكري القوتلي جداً، ومع ذلك فقد استقبل الشعب العربي السوري انقلاب حسني الزعيم يوم 30-3-1949 بحماسة شديدة؛ فقد كان الرئيس شكري القوتلي مسؤولاً على الأقل عن وزير الدفاع أحمد الشراباتي الذي كان زود المقاتلين السوريين بأسلحة فاسدة ساهمت بانهزامهم أمام اليهود في فلسطين عام 1948، كما كان حدث في مصر فيما سمي بقضية الأسلحة الفاسدة. ولقد كنت أحد الفتيان الذين تظاهروا في دمشق لإعلان التأييد الشعبي لانقلاب حسني الزعيم.. إلا أن إقدام حسني الزعيم على نقض تحالفه مع أنطون سعادة زعيم الحزب القومي السوري اللاجئ إليه من لبنان، وعلى الغدر به؛ جعلنا في سورية نتعاطف مع أنطون سعادة والحزب القومي السوري تعاطفاً عظيماً؛ لكن البعثيين كان لهم موقف آخر، وكانوا قلة قليلة العدد بعد، ولم يكن الإعلان عن تأسيس حزب البعث مضى عليه سوى شهور قليلة.

كان الصراع الأمريكي البريطاني على سورية شديد الاحتدام، وكانت المخابرات الأمريكية هي التي خططت وساعدت على تنفيذ انقلاب حسني الزعيم كما تبين فيما بعد؛ وكان العراق يومئذ مرتبطاً ببريطانيا، وكان ثمة فئة سياسية في سورية تدعو إلى قيام وحدة أو اتحاد بين سورية والعراق، وكان (حزب الشعب) السوري على رأس تلك الفئة التي كان من أبرز قادتها الفاعلين يومئذ، الدكتور محمد أسعد طلس.

كان للدكتور طلس، عديل اسمه سامي الحناوي. وهو ضابط بارز في الجيش السوري.

وكان الدكتور طلس مثقفاً طموحاً، من أم عراقية من آل الآلوسي. وكانت عقيلته السيدة نزهة ـــ وهي تركية الأب، ومن أم عراقية من الموصل أيضاً، ذات طموح سياسي واجتماعي ونفوذي لا يحده حد. وبذلك توافر المناخ الملائم الاجتماعي والسياسي لقيام الدكتور طلس بالتخطيط للانقلاب عسكري ضد حسني الزعيم قام به عديله سامي الحناوي فجر 14-8-1948. وفيما أعرف اليوم جيداً من خلال صلتي الاجتماعي بأسرة الدكتور طلس رحمه الله، فإن واضع المخطط الحقيقي لانقلاب سامي الحناوي، كان هو الدكتور محمد أسعد طلس، بمساعدة من امرأته الجميلة المثقفة، السيدة نزهة صفوة قلاقلار المتميزة بذكاء حاد، وبجمال أنثوي أخّاذ جليل وشخصية قوية لا تفتقر إلى الاقتدار على التأثير.

كان الدكتور طلس هو الحاكم الحقيقي عملياً لسورية من وراء ستار طيلة الأشهر التي استغرقها عهد الحناوي، وكان هو الذي اختار ميشيل عفلق لمنصب وزير المعارف في الوزارة الائتلافية التي شكلت برئاسة هاشم الأتاسي، والتي حرص الدكتور طلس على أن تضم رموزاً لجميع القوى الوطنية السورية. (كانت تلك هي المرة الوحيدة التي تسنَّم فيها ميشيل عفلق منصباً وزارياً طيلة مراحل حياته).

كان من الطبيعي أن يردَّ عهد سامي الحناوي الاعتبار إلى الشهيد أنطون سعادة، وأن يأخذ الحزب القومي السوري الاجتماعي مكانه من جديد في الساحة السياسة السورية. وكانت مجلة (الدنيا) لصاحبها الأديب الصحفي السوري عبدالغني العطري تتولى مهمة نشر صور كبيرة كثيرة على غلافها للزعيم الشهيد أنطون سعادة كان التقطها له قبل استشهاده مصور فوتوغرافي لبناني من قرية (حاصبيا) أو (الكفير) في جنوبي لبنان، كان مقيماً في دمشق، اسمه جورج نوفل. (لم يكن عبدالغني العطري قومياً سورياً ، بل صحافياً سورياً تحالف مرحلياً مع الحزب القومي السوري في عهد الحناوي).

بعد سقوط عهد الحناوي بانقلاب أديب الشيشكلي فجر يوم 19-12-1949، أخذ الحزب القومي السوري فرصته الذهبية الجديدة الإضافية في سورية، وفي الوقت الذي كان فيه الشيشكلي يُضيّق الخناق على البعثيين، يزُجُ بالكثيرين

منهم في المعتقلات، كان القوميون السوريون يعيدون ترتيب صفوفهم، وكانت قدرتهم وقوتهم تتعاظمان في كل من سورية ولبنان.

بعد دخول مصر الناصرية الساحة السورية السياسية بوساطة سفير مصر في دمشق محمود رياض، والملحق العسكري المصري فيها جمال حماد، تحالف عبد الحميد السراج علانية مع مصر الناصرية، ومع بعض الأطراف البعثية لمحاولة وضع حد لتنامي قوة الحزب القومي السوري، الذي كان وجد مساندة من أديب الشيشكلي في السنوات القليلة السابقة ساعدته على دخول المجلس النيابي السوري بشخص عصام المحايري، ومكنته من جعل منبره الحزبي الإعلامي المطبوع، وهو جريدة (البناء)، يكون قادراً على التأثير في الجماهير السورية في كل من سورية ولبنان والمهاجر في الأمريكتين، تأثيراً أصبح الحزب القومي السوري خلال تلك الفترة من تاريخ سورية الحديث معه، قوة فاعلة في تحديث ملامح السياسة السورية في المجالين العربي والدولي...

كان أنطون سعادة يرى منذ بدايات الثلاثينيات، أن القضية الفلسطينية هي مشكلة سورية أولاً، على اعتبار أن الجغرافيا الطبيعية والتاريخ يؤكدان أن فلسطين هي الأراضي الجنوبية من سورية، وأن المجتمع الفلسطيني الاجتماعي والسياسي هو جزء من المجتمع السوري الأم. بل إن من الممكن ملاحظة أن أنطون سعادة كان نبّه إلى بروز احتمال قيام دولة يهودية صهيونية على حساب الأراضي السورية والمجتمع السوري، في موعد مبكر للغاية. كذلك من الممكن ملاحظة أنه نشر في شهر شباط/ فبراير من العام 1925 في مجلة (المجلة) التي كان يصدرها والده الدكتور خليل سعادة في البرازيل، مقالة هامة عن (القضية القومية الصهيونية وامتدادها)، حذّر فيها من خطر قيام دولة إسرائيل، وكان عمر أنطون سعادة يومئذ لا يتجاوز الخامسة والعشرين. (يمكن الاطلاع على هذه المقالة في كتاب «مراحل المسألة الفلسطينية» لأنطون سعادة في الصفحات 3-7 من الكتاب).

عقب حدوث ما حدث في فلسطين عام 1948 نشر أنطون سعادة في العدد رقم 95 من مجلة (كل شيء) اللبنانية مقالة هامة انتقد بها قيام مفاوضات بين مصر وإسرائيل حول ملكية صحراء النقب؛ ومشاركة مصر

بمباحثات الهدنة المصرية ـ لإسرائيلية في جزيرة (رودس)، وقد كان الأميرألاي محمود رياض، بصفته كان يومئذ ضابطاً في الجيش المصري، أبرز أعضاء الوفد المصري في تلك المباحثات ـ المفاوضات الخاصة بفك الاشتباك باتفاقيات الهدنة.

وفي العدد 111 من مجلة (كل شيء) اللبنانية، عقب نكبة 1948 نشر أنطون سعادة مقالة هامة انتقد فيها مصر على أنها أخذت من الأراضي السورية (صحراء النقب) كما قال، وعلى أنها «ضمتها مؤخراً إلى أملاكها بفضل المهزلة الفلسطينية الفاجعة، ملحقةً إياها بسيناء السورية التي أبقتها مصر في حوزتها عقب الحروب السابقة» كما قال بالحرف الواحد ومن الممكن الرجوع إلى نص هذه المقالة كما هي منشورة في الصفحتين 78 و 79 من كتاب أنطون سعادة (مراحل القضية الفلسطينية). بل إن أنطون سعادة حذر (الدُول السورية) في مقالة نشرها في العدد 5 من مجلة (الجيل الجديد) الصادرة بتاريخ 9-4-1948، (ثم أعيد نشرها في الصفحات من 103-105 من كتاب «أعداء العرب أعداء لبنان» مما وصفه «بالانجراف في تيار المركزية العربية المصري»، ورفض اختيار أن تكون مصر مقراً لجامعة الدول العربية، معللاً هذا الرفض بأن «ذلك يجعل جو السياسة المصرية يؤثر ويسيطر على أعمال المؤسسة وتوجيهها» كما ذكر أنطون سعادة بالحرف الواحد.

وبغض النظر عن موقفي الشخصي من تلك الطروحات، فإنها قد تكفي للدلالة على (المبررات) التي قد تكون جعلت مصر الناصرية تسعى من جانبها إلى محاولة تدمير الحزب القومي السوري، وهي المبررات التي لسنا نشك فيها أنها قد تكون شكلت (الذرائع والمسوغات) التي قد تكون دفعت الأستاذ محمود رياض بالتحالف مع عبد الحميد السراج، ومع بعض الأطراف البعثية التاريخية السورية، إلى القضاء على أي احتمال لاستمرار تواجد الحزب القومي السوري حيوياً حياً في سورية ولبنان في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين الذاهب.

لم تكن مصر الناصرية بعيدةً إذاً ـ كاحتمال ـ عن (ملحمة) محاولة الإجهاز على الحزب القومي السوري، وكان لذلك عندها مبررات ومسوغات

موضوعية كثيرة؛ فقد كانت خططت ـ بعد انفراد عبد الناصر بالسلطة في مصر بإبعاد اللواء محمد نجيب عنها ـ لانتزاع (قلب العروبة النابض ـ سورية)، من أيدي المملكة العربية السعودية حيناً، ومن أيدي العراق حيناً آخر، أي انتزاعها من احتمال سقوطها في الفلك البريطاني، أو الأمريكي، وقد تحقق لها ذلك عام 1958، وحتى 28 أيلول، سبتمبر 1961 حيث تمكنت المملكة العربية السعودية بعد ذلك من (انتزاع) سورية من يدي جمال عبد الناصر، منذ 28 أيلول/ سبتمبر 1961 وحتى 8 آذار/ مارس 1963، حيث بدأت مرحلة جديدة من التاريخ السوري الحديث، تبلورت بالحركة التصحيحية التي قام بها الرئيس حافظ الأسد في 16 تشرين الثاني / نوفمبر 1970، بعد أقل من أربعين يوماً على وفاة جمال عبد الناصر رحمه الله، حيث أصبح واضحاً منذ ذلك التاريخ أن القرار السوري أصبح من المصنوعات السورية المحلية الوطنية الخالصة، وأن دائرة الصراع حول سورية من خارج حدودها، بدأت تضيق، ثم تختفي وتزول بصفة نهائية.. وهو إنجاز يحسب عدلاً وموضوعياً وإنصافاً لصالح النظام الوطني السوري طيلة السنوات التي أعقبت خريف العام 1970 الذي فيه قام حافظ الأسد بالحركة التصحيحية التي أفرزت نظاماً استمر بعد رحيله، وأمسى وديعة بين يدي خليفته الدكتور بشار الأسد.

كنت في الحادية والعشرين من عمري حين وقعت عملية اغتيال عدنان المالكي في الملعب البلدي في دمشق في الساعة الثالثة من عصر 22-4-1955 (ولعله كان يوم جمعة).

كان المالكي يومئذ برتبة عقيد، رئيساً للشعبة الثالثة في الجيش السوري، (شعبة العمليات)، وكان مضى على تعييني مذيعاً في إذاعة دمشق حوالي أربع سنوات، وكان المالكي أسهم بتوفير المناخ الملائم في سورية لظهور مشروع الدفاع المشترك بين سورية ومصر، وهو المشروع الذي أخذ شكل (اتفاقية دفاع مشترك) بين الدولتين الشقيقتين مصر وسورية، وقد تم التوقيع عليها بتاريخ 2-3-1955 أي قبل وقوع حادث اغتيال المالكي بحوالي خمسين يوماً فقط. (قام بالتوقيع عليها من الجانب السوري صبري العسلي

وخالد العظم، ومن الجانب المصري صلاح سالم رحمهم الله جميعاً)؛ وكان الصراع الأمريكي ــ الفرنسي ــ البريطاني ــ السوفييتي قد أخذ بالتصاعد والاشتداد يومئذ بصورة واضحة جداً، حول سورية.

كان المالكي المتحالف مع حزب البعث، تمكن قبل أسبوعين من اغتياله، من تسريح أبرز ضابط قومي في الجيش السوري يومئذ: غسان جديد؛ وبذلك خسر الحزب القومي السوري أهم مراكز قواه الميدانية داخل الجيش السوري خلال تلك الفترة.

كان عدد المذيعين والمذيعات في إذاعة دمشق يومئذ، قليلاً جداً، وكانت مهمات (الإذاعات الخارجية) منوطة في الغالب بي، وبزميلٍ آخر هو سهيل الصغير، الذي أصبح في النصف الثاني من سبعينيات القرن العشرين المنصرم، الأمين العام المساعد لاتحاد الإذاعات العربية.

حين تقرر إقامة مباراة رياضية في الملعب البلدي في دمشق بين فريقين لكرة القدم، سوري ومصري، أصدر المدير العام لإذاعة دمشق أمراً إدارياً بتكليفي بمهمة نقل تلك المباراة على الهواء مباشرة، بصفتي مذيعاً، بالتعاون مع معلق رياضي سوري كان شهيراً جداً في بلاد الشام لعل اسمه كان سعيد المشنوق على ما تسعفني به الذاكرة اليوم.

لكن لسبب أو آخر لم أتمكن من التواجد في أرض الملعب البلدي في الوقت المحدد لتواجدي فيه قبل ساعتين على الأقل من بدء المباراة. وهكذا اضطر مدير عام إذاعة دمشق يومئذ إلى تكليف زميل آخر كان عُيِّن مذيعاً في إذاعة دمشق قبل أشهر قليلة، وكان لا يزال تحت التمرين هو الزميل فؤاد شحادة رحمه الله.

في اللحظة التي كانت فيها المباراة قد بدأت، كنت وصلت إلى مقر الإذاعة السورية في شارع النصر في دمشق الذي كان اسمه من قبل شارع جمال باشا. وكالعادة، جلست في غرفة المذيعين مع زميلتي المذيعة السيدة عبلة الخوري.

جلسنا نتابع المباراة المذاعة عبر جهاز الراديو الصغير الخاص بغرفة المذيعين.. فلما بلغت الساعة الثالثة عصراً، سمعنا فجأة طلقات الرصاص تمتزج بكلمات المذيع الرياضي، ، ثم سمعنا من المذياع أصواتاً مختلطة تعلو

وتتحول إلى لغط وهدير اختلط فيه صوت الحابل بصوت النابل، وفهمنا من صوت المذيع الزميل فؤاد شحادة أن الرصاص أطلق على العقيد عدنان المالكي الذي كان يجلس على كرسي في المنصة وراء الملحق العسكري المصري جمال حماد، الذي كان يجلس بدوره مباشرة وراء العميد شوكت شقير رئيس أركان الجيش السوري، بينما كان عضو القيادة المصرية السورية المشتركة، وهو الضابط المصري إبراهيم صبري، يجلس إلى جانب شوكت شقير، الذي كان يجلس وراءه أحد كبار ضباط الجيش السوري البارزين يومئذ وهو أمين أبو عساف بينما كان أحد أبرز ضباط رئاسة الأركان في الجيش السوري، وهو توفيق نظام الدين، يجلس إلى يمين جمال حماد.

بالمصادفة وحدها، قبل شهور من وقوع عملية اغتيال المالكي كنت تعرفت على رقيب في الجيش السوري اسمه يونس عبد الرحيم، في محل لبيع الأحذية في نهاية سوق الحميدية قبل الوصول إلى الباب الرئيسي الغربي للجامع الأموي (المسكيّة). وقد كان شفيق البغدادي صاحب المحل ذاك؛ وهو من أشهر نجوم رياضة المصارعة في سورية في تلك الفترة من التاريخ السوري الحديث. كان يونس عبد الرحيم (خطيباً) لإحدى بناته، يستعد لتأثيث (بيت الزوجية) المحتمل.

مكثت سنوات عديدة بعد ذلك أتساءل بيني وبين نفسي: كيف أقدم هذا الشاب الأرعن الانفعالي يونس عبد الرحيم على الانتحار، وهو المرتبط بخطيبته الدمشقية بقصة حب عارمة، بل وهو الذي كان ينتظر يومئذ موعد زواجه منها بتلهف شديد؟ وهل حقاً كان الحزب القومي السوري هو المستفيد من اغتيال عدنان المالكي؟ وهل يونس عبد الرحيم هو الذي أقدم على الانتحار كما كان أشيع لحظة مصرع المالكي قبل أن يبوح بأسرار تلك العملية؟ أم أن يداً غير يده، هي التي قتلته يومئذ بالرصاص فور اغتياله المالكي؟

بمقتل عدنان المالكي توافرت الذرائع التي كانت مطلوبة للإجهاز على الحزب القومي السوري الذي كان يرى أن القضية الفلسطينية هي قضية سورية بالمقام الأول، باعتبار أن الأراضي الفلسطينية بما فيها النقب وسيناء، هي في نظر طروحات أنطون سعادة، جزء من الأراضي السورية؛ وأن مقر الجامعة العربية التي كان أنطون أول من دعا إلى إنشائها، ينبغي أن يكون

في دمشق أو بيروت أو بغداد، وجميع هذه العواصم في طروحاته تقع في الأراضي الطبيعية السورية؛ وأن القوميين السوريين لم يكونوا موافقين على أن يكون مقر الجامعة العربية الدائم في القاهرة.

كان أنطون سعادة يرى أن المجتمعات التي توحّد فيما بينها اللغة العربية، منقسمة إلى أربع (أمم):

1 ـ الأمة السورية وأرضها تشمل جميع الأراضي السورية الطبيعية (سورية، فلسطين، الأردن، لبنان، العراق + جزيرة قبرص).

2 ـ أمة وادي النيل (مصر والسودان).

3 ـ الأمة المغاربية (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب).

4 ـ الأمة العربية (شبه الجزيرة العربية والخليج).

وكان أنطون سعادة يدعو بإلحاح إلى إقامة (مجالس تعاونية) فيما بين هذه (الأمم) الأربع، وهو ما نراه اليوم مجسداً بمجلس التعاون العربي (وقد انتهى إلى التفكيك عام 1990)، وبمشروع السياسة التكاملية المصرية السودانية.. وبحيث يمكن ملاحظة أنه لم يبق سوى قيام (مجلس التعاون السوري) حتى تتجسد دعوة أنطون سعادة إلى قيام أربع وحدات إقليمية طبيعية تتحدث اللغة العربية. ترتبط بمصالح قومية مصيرية مشتركة واحدة.

وقد ورد في خطاب لأنطون سعادة ألقاه في حشد مناصريه في العام 1938، ونصه بالكامله منشور في كتابه (أعداء العرب أعداء لبنان)، وفي الصفحات من 17-24، ما يأتي:

«إن اشتراك أمم العالم العربي في طلب الحرية والاستقلال لا يولد وحدة قومية؛ بل يولد وحدة اتجاه سياسي تظل قائمة ما دام هناك حاجة إليها. فإذا تم التحرر السياسي، عادت كل أمة من هذه الأمم إلى حاجتها ومصالحها الناشئة عن وحدة حياتها. ونحن لا نريد أن نكون قصيري النظر إلى حد أن تختلط علينا المصالح القومية والحاجات السياسية. نحن لنا وحدة حياتنا في هذا الوطن الذي هو وطننا وتراثنا. لنا مصالحنا التي لا نخلط بينها وبين مصالح الوحدات الأخرى. ولنا إرادتنا التي لا نقبل إرادة غيرها». «نحن ننهض في سبيل مصالحنا وحقنا في الحياة والسيادة، ونقول للأمم الأخرى أن تنهض

هي بدورها في سبيل مصالحها وحقها في الحياة. فإذا فعلت، فإننا ندعوها إلى تأليف (جبهة تعاونية)[3] لبلوغ الأهداف المشتركة لاتقضي على شخصيتنا، ولا تجردنا من حقوقنا ومصالحنا القومية».

... واضح إذاً أن طروحات الحزب القومي السوري الإقليمية السورية هذه كانت منذ البداية سابقة من حيث التوقيت طروحات الشيوعيين السوريين الرافعة شعار (الأممية) وطروحات حزب البعث القائمة على أساس اعتبار (المجتمعات الأربعة) في شبه الجزيرة والخليج، ووداي النيل، وسورية الكبرى، والشمال الأفريقي المغاربي، مجتمعاً قومياً واحداً، وهي الطروحات البعثية التي التزم بها جمال عبد الناصر بعد ذلك في كل ممارساته السياسية ـ السلطوية [4].

ولعلنا نكتشف من كل ذلك، اليوم لماذا كانت تلك الأطراف تتطلع في الخمسينيات من القرن العشرين الذاهب، إلى تحقيق هدف مبدئي مشترك واحد تمثل برغبتها المشتركة بتدمير آلة الحزب القومي السوري. وقد تحقق لها ذلك بعد توفر الذرائع المطلوبة التي كان منها:

1 ـ اغتيال عدنان المالكي في العام 1955.

2 ـ المحاكمة التي جرت للدكتور منير العجلاني وعدد من كبار الشخصيات السورية واللبنانية المتعاطفة على الأقل مع طروحات الحزب القومي السوري في يناير/ كانون الثاني 1957.

في العام 1963 قام العقيد جاسم علوان بحركة 18 تموز/ يوليو الشهيرة التي لم يكتب لها النجاح، والتي كان جاسم علوان يريد بها الضغط على النظام السوري لإعادة سورية إلى صفتها السابقة كإقليم شمالي للجمهورية العربية المتحدة بقيادة جمال عبد الناصر. ولقد تسببت تلك الحركة فيما تسببت، بفشلها، باعتقالي في سجن القلعة في دمشق بأمر من وزير الداخلية ـ الحاكم العرفي يومئذ أمين الحافظ، بتهمة أنني عنصر قيادي فيها؛ رغم أنه لم يكن لي علم بها قبل أن تقع، ولم تكن لي بها أية صلة حين وقوعها، وهي الحقيقة التي تكشفت لأمين الحافظ بعد عدة أشهر من التحقيق المرهق معي، وأنا معتقل في سجن القلعة في دمشق أعاني من التعذيب النفسي والجسدي غير الرحيم، الأمر الذي أدى إلى الإفراج المشروط عني، دون إحالتي إلى

المحاكمة، مع منحي جواز سفر كتبوا فيه ما يأتي: (صالح للسفر إلى جميع أقطار العالم ماعدا الجمهورية العربية المتحدة (مصر).

بعد تدخل كل من جوزيف بروز تيتو، وجمال عبد الناصر وأحمد بن بيلا وعبد السلام عارف في العام 1965 للإفراج عن جاسم علوان، المحكوم يومئذ بالإعدام وبعد مرور عدة سنوات على الإفراج عنه وانتقاله من سجن المزة إلى القاهرة عبر لبنان؛ التقيته لأول مرة أواخر الستينيات في القاهرة. وقد فهمت منه يومئذ أن أحد عناصر الحركة، وهو الضابط محمد نبهان، أقدم على الوشاية بقادة وبعناصر وبموعد قيام الحركة، لمن كانوا هم أصحاب السلطة الحقيقيين في سورية (أمين الحافظ وميشيل عفلق وصلاح البيطار وصلاح جديد وسليم حاطوم وعبد الكريم الجندي... إلخ)، قبل حلول موعد قيامها بعدة أيام؛ وقد علم جاسم علوان بخيانة محمد نبهان المؤكدة للحركة قبل يوم من قيامها، أي بتاريخ 17 يوليو/ تموز 1963، ومع ذلك كما أخبرني، أقدم على القيام بها بالاتفاق مع جمال عبد الناصر في محاولة انتحارية لم يكتب لها النجاح بتحقيق ما كانت تهدف إليه. بل إن الكثيرين من زملائي في إذاعة وتلفزيون دمشق أخبروني بعد سنوات عديدة من حدوثها، أن الضابط سليم حاطوم كان أعطى أوامره مساء يوم 17 يوليو/ تموز 1963 باعتقالي حياً أو ميتاً إذا ما حاولت دخول مبنى الإذاعة والتلفزيون حيث كنت أشغل منصب (المستشار) للتلفزيون السوري.

هذا يعني أن السلطات السورية كانت على علم دقيق إذاً بموعد قيام حركة جاسم علوان العسكرية، صيف العام 1963 بكل تفاصيلها، وبجميع أسماء المشاركين بها، ومع ذلك فإنها لم تحاول اعتقالهم، ولم تحاول إجهاض الحركة قبل أن تقوم. لماذا؟ لأنها كانت تبحث بدورها عن ذريعة لتصفية الناصريين، وإبعاد كل من اشتبه بأنه موالٍ لجمال عبد الناصر في سورية. وقد وفرت لها حركة 18 يوليو/ تموز 1963 بقيادة جاسم علوان، بقيامها وبفشلها، المبرر المطلوب، للقضاء على الناصريين في سورية، ولجعل باب دمشق يكون موصداً نهائياً في وجه جمال عبد الناصر رحمه الله.

فهل كان يونس عبد الرحيم أدى في العام 1955 مثل الدور المزدوج نفسه الذي أداه محمد نبهان في العام 1963؟

هل كان يونس عبد الرحيم متحدثاً سراً مع جهاز أو آخر سوري، أو مصري، في وقت كان فيه يعاني خلاله كما كنت أعلم من ضائقة مالية وهو يحاول جاهداً جمع قيمة شراء أثاث لمنزله الزوجي لخطيبته.

هل لهذا السبب، تم قتل، وليس انتحار يونس عبد الرحيم بعد تنفيذ عملية اغتيال عدنان المالكي في 22-4-1955 في الملعب البلدي في دمشق؟

بعد اغتيال المالكي، أصدر زعيم الحزب القومي السوري يومئذ جورج عبد المسيح الملقب (وحيد الأذن)، كتاباً لم أطّلع عليه، وإنما سمعت أنه أشار فيه إلى ما كان يردده من جانبه يومئذ هو الحقيقة، وهي أن يونس عبد الرحيم لم يمت انتحاراً، وإذا كان الظن صحيحاً، فإن السؤال الذي سيظل يفرض نفسه حتى نجد الإجابة الشافية عليه: من قتل يونس عبد الرحيم؟

ولقد عشت في سورية الفترة منذ 22 أبريل/ نيسان 1955 وحتى الفاتح من يناير/ كانون الثاني 1957، ثمانية عشر شهراً رأينا خلالها كيف تم تفكيك وتدمير آلة الحزب القومي السوري في سورية، والزج بالمئات من قياداته وعناصره في السجون، وكيف تبعثر القوميون السوريون خارج سورية وفي بعض البلاد العربية، وفي بعض المهاجر الأمريكية والأوروبية.. فلما كان يوم 22 نوفمبر/ تشرين الثاني 1956 أعلنت في دمشق قائمة بأسماء سبعة وأربعين متهماً بالعمل على تقويض نظام الحكم السوري لصالح العراق والحزب القومي السوري، كان بينهم الدكتور منير العجلاني ومحمد صفا وغسان جديد ومحمد معروف وصلاح الشيشكلي، وسعيد تقي الدين القاص والأديب اللبناني وحسن الأطرش وهايل سرور وميخائيل إليان وعدنان الأتاسي وسامي كبارة... إلخ..

وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر نوفمبر / تشرين الثاني 1956 أذعت بصوتي من وراء ميكروفون إذاعة دمشق البيان الرسمي الخاص بالإعلان عن كشف (المؤامرة) قبل وقوعها، كما أرسله إلينا عبد الحميد السراج.

وفي اليوم الثامن من شهر كانون الأول/ يناير 1957 كان عليَّ أن أتوجه إلى قاعة المحاضرات في مدرّج جامعة دمشق، بصفتي مذيعاً في الإذاعة السورية، لأشارك بعمليات تسجيل ما سوف يقال في قاعة المحاضرات في مدرج جامعة دمشق، التي تحولت إلى قاعة لمحاكمة

المتهمين الذين كان بينهم الدكتور منير العجلاني؛ وقد ساعدني بأداء تلك المهمة الإذاعية السياسية مهندسا الصوت المرحوم راتب الحنفي وهشام العجة وهو قريب للمليونير السوري أكرم العجة رحمه الله.

استمرت المحاكمة برئاسة اللواء عفيف البزرة ومشاركة محمد الجراح الذي شارك بدور تخطيطي قيادي في حركة جاسم علوان في 18 يوليو/ تموز 1963، والذي أصبح في العام 1958 أميناً عاماً لوزارة الداخلية في سورية في بدايات عهد (الوحدة) والمحامي عبد الفتاح الزلط، رحمه الله، وقد استمرت خمسة وثلاثين يوماً شاهدت وسمعت خلالها كل ما قيل وحدث في قاعة المحكمة التي ظهر فيها صديقنا الصحفي المصري الأستاذ محمود السعدني، المحرر يومئذ في جريدة (الجمهورية) المصرية، كشاهد إثبات ضد المتهمين، وقد قرر بشهادته تلك أن أحد قادة الحزب القومي السوري وهو الأديب اللبناني سعيد تقي الدين رحمه الله؛ حدد له يوم 28 تشرين الأول/ أكتوبر 1956 موعداً لتنفيذ المؤامرة التي كانت تنوي إسقاط الحكم السوري لصالح الحزب القومي السوري ونظام نوري السعيد في العراق. وقال محمود السعدني في المحكمة، وقد سمعت منه ذلك بأذنيَّ، إنه التقى سعيد تقي الدين في لبنان (وربما في منطقة نبع العرعار أو غيرها من المناطق اللبنانية) بتاريخ 11 كانون الثاني /يناير 1957 أي بعد إجراء المحاكمة بثلاثة أيام. (وموعد 28 تشرين الأول/ أكتوبر 1956 يتصل اتصالاً مباشراً بتوقيت حدوث العدوان الثلاثي على مصر). وقد سارع سعيد تقي الدين يومئذ إلى إرسال برقية إلى جمال عبد الناصر، أنكر فيها ما نشره محمود السعدني على لسانه يومئذ في جريدة الجمهورية المصرية، كذلك ما أفاد به السعدني في المحكمة كشاهد إثبات على لسان سعيد تقي الدين. وربما كان محمود السعدني بدأ قبيل تلك المرحلة صلة الصداقة الحميمة التي ربطته بأكرم الحوراني (الذي لم يكن بدوره بعيداً عن لعبة التأثير في هيئة المحكمة يومئذ بوساطة صديقه عبد الفتاح الزلط ممثل الإدعاء الذي كان مع ممثل النيابة العامة محمد الجراح، يمثل في المحكمة يومئذ قمة الشدة والقسوة غير الرحيمة).. وقد بلغ إعجاب الصديق محمود السعدني بأكرم الحوراني بعد ذلك، حداً وصل إلى أن يسمي ابنه البكر باسم (أكرم) تيمناً باسم أكرم

الحوراني.. وقد التقيت السعدني خلال الستينيات، وخلال السبعينيات من القرن العشرين المنصرم، وتناولت في داره طعام الإفطار ذات يوم من شهر رمضان عام 1985، وتكرم بزيارتي في مقر عملي بعد ذلك، وقد كنت أسمع منه كل مرة التقيته فيها، أنه لم ينشر في جريدة الجمهورية المصرية إلا ما قال له سعيد تقي الدين فعلاً، وأنه لم يدل بشهادته ضد بعض المتهمين بتلك المؤامرة في قاعة المحكمة العسكرية الاستثنائية في مدرّج جامعة دمشق في يناير / كانون الثاني 1957، إلا نصرة للحق.

في 27 شباط/ فبراير 1957 صدرت الأحكام ضد الـ 47 متهماً، هم الذين كان 27 منهم معتقلاً و 18 منهم خارج سورية. ولم تشمل الأحكام بالإعدام المتهم الدكتور منير العجلاني الذي صدر الحكم بسجنه مدة عشرين عاماً أمضى منها سبع سنوات في السجن إلى أن تم الإفراج عنه في العام 1964 بعد ما شمله مرسوم بالعفو أبطل الأحكام الصادرة عن المحاكم العسكرية العرفية باستثناء أحكام الإعدام. وأظن أن الدكتور العجلاني خرج بعد ذلك من سورية ولم يعد إليها؛ فما لقيه في قاعة المحكمة من إذلال وقمع وإهانة في العام 1957، وقد كنت شاهد عيان على كل ذلك؛ يكفي من وجهة نظري الشخصية، لإصابة الذاكرة بعجزها عن نسيان أو تناسي الأوطان ومساقط الرؤوس..

ولعلي أسمح لنفسي بعد مرور حوالي ستة وأربعين عاماً على محاكمة المتهمين بتلك المؤامرة التي خططت لها الولايات المتحدة الأمريكية كما نعرف منذ سنوات، وساعدت بتمويلها وورطت بها قادة الحزب القومي السوري في لبنان، (وقد كان بينهم غسان جديد الذي اغتاله مواطن سوري من أعوان السراج اسمه عزت شعث، في بيروت يوم 19 شباط/ فبراير 1957 ـ أي خلال أيام إجراء المحاكمة للمتهمين في دمشق)، لعليّ أسمح لنفسي بالاعتراف بأن الدكتور منير العجلاني، رغم كل ما كان يلقاه يومئذ من القسوة والتعذيب، تولى الدفاع عن نفسه بمرافعة رشحتها بلاغتها للخلود. كانت مرافعة ذات بيان عبقري، وقد صاغها الدكتور العجلاني بقلم الأديب المتمكن من اللغة العربية الفصيحة الرفيعة، وبمداد المفكر المؤمن ببراعته

من التهمة اللصيقة به. وقد ألقاها يومئذ في قاعة المحكمة بحضوري، بصوت حلو آسرٍ قوي جعل الجدران والأرض ونفوس كل الحاضرين ترتجُ ارتجاجاً من قوته وسحر بيانه وبلاغته. وقد دفعته شجاعته بعد الانتهاء من إلقاء مرافعته، وإعادته إلى القفص إلى أن يرسم في الهواء بأصبعيه إشارة النصر (V) في مواجهة مندوبي ومصوري وكالات الأنباء العربية والأجنبية، وقد كان ذلك تصرفاً شجاعاً من الدكتور العجلاني أثار حفيظة هيئة المحكمة العسكرية، وحفيظة عبد الحميد السراج، بالذات فراحوا يشددون الخناق عليه وعلى بقية المتهمين بعد ذلك، أكثر فأكثر.

كنت ألاحظ حرص عبد الحميد السراج على حضور بعض الجلسات بلباسه المدني لا العسكري. كان يبدو يومئذ، وسيماً، ناعماً، رقيقاً، شديد الاهتمام بأناقته... وكنت ـــ وأنا الرسام الشاعر ـــ أحدق بوجهه وأنا على مقعد آخر في الصف الأمامي في قاعة المحكمة، متأملاً بإمعان خصلة شعره البني الفاتح الغزير تتدلى فوق جبينه وكأنما هو واحد من نجوم الشاشة السينمائية الأمريكية، فأعجب غاية العجب مما كان يمارسه هذا الشاب الخجول الرقيق الوسيم، من شتى ألوان القسوة من وراء الستار. فقد كان قليل الكلام، هادئاً، فإذا ما تحدث جاء صوته همساً رقيقاً. كانت سمعة شراسته مرعبة، وكانت رقته الظاهرة ووسامته وصوته الخفيض دائماً، وخجله، كانت كلها تدافع عنه ضد آثار سمعته المرعبة كإنسان رقيق ووسيم الملامح موبوء بقلب لايعرف الشفقة ولا الرحمة.

كان عليَّ بعد الانتهاء من كل جلسة عقدتها المحكمة العسكرية العرفية، أن أتوجه إلى دار الإذاعة في شارع النصر مع مهندسي الصوت راتب الحنفي رحمه الله وهشام العجة، حاملين معنا بكرات الأشرطة المسجلة على أجهزة تسجيل (فيليبس)، والمحتوية كل ما نطق به المتهمون وهيئة المحكمة خلال انعقاد كل جلسة.

وقد كان المحامي السوري المعروف نجاة قصاب حسن، الذي كان في الأربعينيات من القرن العشرين قيادياً بارزاً في الحزب الشيوعي السوري ـــ اللبناني، وهو شقيق برهان قصاب حسن الأكبر، يتسلم منا لحظة وصولنا مقر الإذاعة بكرات الأشرطة، ليبدأ بالاستماع إليها وأنا إلى جانبه؛ حتى إذا

ما فرغ من الاستماع إليها أمسك بقلمه وراح يكتب سطوراً كان عليَّ أن أذيعها بصوتي من وراء مايكروفون إذاعة دمشق بعد إجراء (المونتاج) على التسجيلات... كان المونتاج يومئذ يعني أن يحذف نجاة قصاب حسن كل ما كان من شأنه أن يثير التعاطف مع المتهمين، وبخاصة منير العجلاني؛ وأن أتدخل أنا بصوتي كمذيع بإلقاء التعليقات الخاطفة التي كان نجاة قصاب حسن يصوغها بقلمه أمامي... فقد كان المفترض إذاعة الجلسات على المستمعين كما هي عبر موجات الإذاعة السورية؛ لكن نجاة قصاب حسن بتعليمات من عبد الحميد السراج المسيطر يومئذ على الإذاعة السورية، كان ينتقي من التسجيلات كل ما كان من شأنه الإيحاء بأن المتهمين مدانون بل ومعترفون بأن أحدا منهم غير بريء من التهمة الموجهة إليه...

كان صوتي هو الذي يخاطب الجماهير السورية والعربية في جميع أنحاء العالم العربي عبر تلك التسجيلات (الممنتجة) حين كانت تبث عبر الإذاعة السورية، وأشهد اليوم، بعد مرور حوالي ستة وأربعين عاماً على إذاعة تلك التسجيلات عبر موجات الإذاعة السورية، أن ما كان سمعه المواطنون في تلك الأيام بصوتي، وبأصوات المتهمين المذاعة يومئذ عبر الإذاعة السورية حول تلك القضية، لم يكن هو حقيقة كل ما كان جرى في قاعة المحاكمة في تلك المرحلة من بداية العام 1957، وأنه لم يكن سوى أجزاء مختارة بخبث وبكل عدم حسن النية، وبكل بشاعة الظلم، مما كان جرى في قاعة المحاكمة التي كانت تهدف إلى إطلاق الرصاصة الأخيرة على الحزب القومي السوري، وعلى عدد كبير من الشخصيات السورية الوطنية اليمينية التي كانت تتطلع إلى إقامة وحدة أو اتحاد بين سورية والعراق، ولا توافق على إلحاق سورية بفلك السياسة المصرية الناصرية...

كنت يومئذ من المنتمين خياراً للتيار العربي القومي الوحدوي... وكنت لا أفهم لماذا لا يرضى الجميع بأن تكون لسورية توجهات اتحادية أو وحدوية مع شعب العراق، وبأن تكون لها في الوقت نفسه توجهات اتحادية أو وحدوية مع شعب مصر... وإلا، كيف للوحدة العربية أن تتحقق؟

كنت يومئذ ولا أزال لا أرى تناقضاً قط بين طروحات حزب البعث، وممارسات عبد الناصر من ناحية، وطروحات الحزب القومي السوري من

ناحية أخرى، فتوحيد بلاد الشام قد يكون في نهاية المطاف خطوة نحو الوحدة العربية حين قد تتجسد، ولأن وحدة تقوم بين شعبي سورية والعراق هي أيضا جزء من الطريق نحو الوحدة العربية الشاملة. ولقد برهنت السنوات الأخيرة على أن الحزب القومي السوري لم يتخلف قط عن المشاركة بدم مقاتليه عن القضايا العربية القومية، ومنها قضية فلسطين؛ وعلى أن العرب أخذوا مؤخراً بما نادى به أنطون سعادة منذ العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين الذاهب، وهو إقامة (مجالس تعاون) بين المجتمعات العربية الأربعة التي أشرنا إليها بسطور سابقة، وهي المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية والخليج، والمجتمع المغاربي في الشمال الأفريقي، ومجتمع وادي النيل، والمجتمع التاريخي السوري القائم على أساس الوحدة الطبيعية لبلاد الشام أو أراضي سورية الكبرى.

ولقد كنت في كل مرة خرجت منها من مقر إذاعة دمشق في تلك الأيام العصيبة من يناير/ كانون الثاني 1957، بعد استخدام صوتي كمذيع، في لعبة «منتجة» التسجيلات الخاصة بمحاكمة الدكتور منير العجلاني ورفاقه المتهمين بتلك المؤامرة التي كان الحزب القومي السوري بها يهدف كما قيل إلى الهيمنة على سورية تمهيداً لتحقيق مشروع سورية الكبرى في النهاية...

كنت أنفرد وحيداً في أية غرفة كان يمكنني الانفراد فيها لأُداري خجلي والحزن العميق، وعذاب الضمير، فقد كان ما يفعله الأستاذ نجاة قصاب حسن بالأشرطة يومئذ، في لعبة «المونتاج» تلك يُخلِّف في نفسي حزناً عميقاً حقاً، وكان حذف الكثير من أقوال بعض المتهمين في قاعة المحكمة دفاعاً عن أنفسهم، هو «المؤامرة الخفية» الرسمية السورية مقابل «المؤامرة العلنية» التي كان المتهمون متهمين بها...

لم يكن باستطاعتي يومئذ وبعدئذ أن أفعل شيئاً آخر للكشف عن تلك اللعبة السياسية ـ الإذاعية البشعة التي كانت تنفيذاً لأوامر عبد الحميد السراج، بقلم نجاة قصاب حسن، وبصوتي أنا، سوى أن أوضح لمن حولي ولكثيرين غيرهم ما كان جرى في قاعة المحاكمة مما لم يكن السراج يسمح بإذاعته على الناس. ولعل هذا هو السبب الذي جعل رياض المالكي، شقيق عدنان المالكي، يصدر أمراً بنقلي من الإذاعة إلى وزارة الثقافة فور قيام

الوحدة بين سورية ومصر بعد سنة واحدة من إصدار الأحكام، وهي سنة كنت أمضيت غالبية أشهرها في الاتحاد السوفييتي وأوروبا؛ ولم أعد إلى وطني إلا قبل قيام الوحدة بين سورية ومصر بأسابيع قليلة.

... لم ينس لي عبد الحميد السراج بدوره موقفي ذاك أبداً، حيث تمَّ اقتيادي للتحقيق في مقار المباحث السورية، عدة مرات خلال عهد الوحدة، مرةً بسبب توجيه التهمة إليَّ بأنني شيوعي يتلقى رسائل من صديقه جبران كوريه الذي كان مديراً للقسم العربي في إذاعة برلين الشرقية، يطلب فيها مني أن أرسل إليه عدداً من الأشرطة المسجل عليها أغنيات لفيروز ولعدد آخر من المطربين والمطربات السوريين والسوريات، ومرة أخرى بسبب توجيه التهمة إليَّ بأنني أسيء إلى المصريين وإلى أحمد سعيد مدير إذاعة صوت العرب، وإلى جمال عبد الناصر فيما كنت أقدمه من برامج على شاشة التلفزيون السوري، ومرة ثالثة لسبب لا زلت أجهله حتى اليوم. فبعد سقوط عهد الوحدة أتيح لي الاطلاع على ملفي الخاص في أرشيف المخابرات السورية، وفي المباحث العامة أيضاً؛ وقد كان في أحد هذين الملفين أمر من عبد الحميد السراج باعتقالي في أي ميناء بري أو جوي أو بحري سأحاول الخروج عبره من سورية عامي 1959 و 1960؟ لماذا؟ لا أعلم سبب ذلك حتى اليوم.

.. على هذا النحو من الظلم والاجتهاد الشخصي، كانت الاتهامات تلصق جزافاً بالكثير من الشخصيات الوطنية السورية. كان عبد الحميد السراج بصفة خاصة في الغالب، هو بطل كل ذلك الحرص على سلامة النظام والأمن حتى ولو أدى الأمر إلى هتك الأعراض واعتقال الكثيرين من الأبرياء، وتعذيب المعتقلين بمختلف وسائل وأدوات التعذيب، ومن قلعٍ للأظافر، وزرع للأسلاك الكهربائية في مواضع حساسة في الأجساد، والتهديد باغتصاب أمهات وزوجات وأخوات بعض المتهمين من المعتقلين السياسيين.

لكن عين الله لاتنام، والعدل الإلهي هو الذي يأخذ الطغاة المستكبرين الظالمين بجرائر طغيانهم ومظالمهم...

وفي الدنيا، قبل الآخرة، أحياناً ما يكون الحساب والعقاب...

لعل من الضرورة بمكان الاعتراف بأنني بعد إعدادي بقية هذه الفصول عن قضية اغتيال عدنان المالكي في الفترة ما بين منتصف العام 1989 ومنتصف العام 1990، أتيح لي قراءة كتاب (الأسد: الصراع على الشرق الأوسط) لمؤلفه الكاتب البريطاني المعروف، باتريك سيل، المتخصص بالشؤون السورية، وهو خبير ممتاز في الوقائع السياسية بصفة خاصة؛ وكنت قرأت له في العام 1973 كتابه الممتاز (الصراع على سورية). ومن خلال وجهة نظري الشخصية فإن هذين الكتابين وثيقتان هامتان من وثائق التأريخ الموضوعي لجانب من الوقائع السورية في تاريخنا الوطني الحديث. وقد ورد من الصفحة 97 من الترجمة العربية لهذا الكتاب، الصادر عن (دار الساقي) في لندن في العام 1988، أن بديع مخلوف هو الذي قتل يونس عبد الرحيم، قاتل المالكي، تنفيذاً لتعليمات الحزب القومي السوري، وأن بديع مخلوف حوكم بعد ذلك، وصدر الحكم بإعدامه، وقضى نحبه بحبل المشنقة[5].

وأنا أتساءل اليوم بعد مرور حوالي ثمانية وأربعين عاماً على حادث اغتيال عدنان المالكي في دمشق عام 1955، عمَّن دفع إلى تعميم الشائعة التي كانت زعمت عقب مقتل المالكي، أن قاتله يونس عبد الرحيم، قد انتحر؛ ومن هي تلك الجهة التي عممت في سورية تلك الشائعة التي اعتمدناها لفترة طويلة بعد ذلك على أنها هي حقيقة ما كان حدث في الملعب البلدي صيف 1955؟

بعد مضي حوالي ثمانية أعوام على اغتيال المالكي (وهي السنوات التي شهدت حلقات متتابعة من عمليات الإبادة الجماعية المعنوية والمادية التي عانى منها القوميون السوريون في سورية ولبنان معاناة ملحمية، والتي جعلت الذين سلمُوا منهم من الاعتقال، يتبعثرون في المهاجر والمنافي العربية والأوروبية والأمريكية) اقتادتني مفرزة عسكرية مسلحة من دار والدي في مسقط رأسي (دوما) اللصيقة بدمشق من الجهة الشرقية، إلى سجن القلعة الشهير شهرة سجن المزة وسجن الشيخ حسن يومئذ في العاصمة السورية، بتهمة المشاركة بحركة 18 تموز/ يوليو 1963 الناصرية الانتحارية التي قادها جاسم علوان فلم يكتب لها النجاح؛ والتي فشلها وبما ترافق مع هذا الفشل من شتى ألوان الترويع والإعدام بلا محاكمة، والإذلال والمطاردة التي قادها الطاغية أمين الحافظ، وساهم فيها صلاح الضللي وصلاح جديد

وميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وسليم حاطوم وعبد الكريم الجندي، وغيرهم كثيرون... لإزاحة الناصريين من الساحة السياسية السورية بعد قيام ثورة الثامن من آذار/ مارس 1963، رغم أنهم كانوا شركاء أساسيين فيها، ولولاهم لما كانت، ولما تحقق لها النجاح.. أعلن عبد الناصر انسحاب الجمهورية العربية المتحدة من اتفاقية الوحدة الثلاثية المصرية العراقية السورية يوم 23 يوليو/ تموز 1963.

وبعد عدة أسابيع من زجي في الزنزانة رقم واحد في الطابق الأرضي من سجن القلعة، القريبة من مهجع الأحداث المسمى (الوَظاوِظ) صدرت الأوامر بنقلي إلى غرفة أخرى في السجن مع سجين ناصري آخر من آل العلواني من مدينة حماة، تقع في الطابق الأعلى؛ حيث كان يقع قسم النسوة السجينات.

كانت أم ياسين هي المسؤولة عن أحوال قسم النساء السجينات بصفتها الحارسة برتبة رقيب؛ وهي سيدة دمشقية؛ نحيلة، رشيقة (معروكة) قسمات الوجه، لا تتوقف قط عن تدخين السجائر المحشوة بتبغ (الطاتلي سرت) الرديء. وكانت في العقد الخامس أو السادس، لا تكاد تخرج من نوبة سعال بصوت أجش، حتى تدخل في نوبة سعال أخرى أشد.. وهكذا دون توقف أو استرخاء إلا أحياناً. كانت الحارسة الرقيب أم ياسين من غاويات متابعة البث التلفزيوني السوري، ولعل هذا كان هو السبب الذي دفعها إلى الترحيب السري بي، ترحيباً حاراً جداً، وإلى تكريمي برعاية الأم ولدها الأثير لديها؛ وإلى مصارحتي بأنني النجم الإذاعي والتلفزيوني المفضل لديها؛ وبأنها كانت تتمنى التعرف إليَّ منذ عدة أعوام. وحين كان الليل ينتصف، كانت الرقيب أم ياسين، بالتواطؤ مع (المفتحجي) أبو نعمة، حامل مفاتيح المهاجع والزنازين، تفتح باب زنزانتي، لأكون حراً طليقاً عدة ساعات كل ليلة. (في تلك الليالي البهيمة أو القمراء، أكتشفت كما ذكرت في موضع سبق من هذا الكتاب أن بين المعتقلين في سجن القلعة معي: الدكتور عصام المحايري القومي السوري القيادي الدمشقي البارز المعروف الذي كان معتقلاً منذ العام 1955. كذلك طيار عسكري لبناني لا تسعني الذاكرة باسمه الآن لكنني أتذكر أننا كنا نناديه بلقبه: (أبو عرب) أو (أبو اللطف) أو (أبو لطيف)؛ وكان من القوميين السوريين اللبنانيين أيضاً. كذلك كان بين المعتقلين معنا، قاتل سامي الحناوي

المدعو حرشو البرازي، ومجيب المرشد أكبر أبناء مدعي الألوهية في جبل اللاذقية أواخر الأربعينيات من هذا القرن المنصرم سليمان المرشد الذي أعدم شنقاً في ساحة المرجة أواخر الأربعينيات. وقد أتيح لي أن أشهد جثته المتدلية من خشبة المشنقة وأنا يافع صغير.

انعقدت داخل السجن بيني وبين الدكتور عصام المحايري، وأبو عرب، أواصر علاقة حميمة. وبترتيب من الرقيب أم ياسين كان يتاح لي التوجه إلى الزنزانة التي كان (أبو عرب) معتقلاً فيها، في الليالي البهيمة، وكان يُتاح للدكتور عصام المحايري الخروج من الزنزانة التي كان معتقلاً فيها للتوجه بدوره إلى زنزانة (أبو عرب) حيث كان يتاح لنا نحن الثلاثة التحاور عدة ساعات كانت كافية لإطلاعي على الكثير مما عانى منه القوميون السوريون على يد عبد الحميد السراج وزبانيته.

كانت جولييت المير أرملة أنطون سعادة رحمهما الله، الأمينة الأولى للحزب معتقلة في قسم النساء غير البعيد عن الزنزانة التي كنت معتقلاً فيها في الطابق العلوي من سجن القلعة، وغير بعيد عن زنزانة (أبو عرب)...

وذات ليلة ليس فيها ضوء القمر، وبترتيب مسبق من الرقيب أم ياسين حارسة قسم النساء السجينات، تمكنت من دخول المهجع الذي كانت جولييت المير تمضي فيه سنوات الاعتقال؛ ومعها في المهجع نفسه عدد كبير من السجينات من المومسات والسارقات والقاتلات. استقبلتني جولييت المير بعطف الأمومة، وبرقة وحنوّ الراهبات. كانت تبدو شاحبة، رقيقة، حزينة، عذبة، صابرة، ساخرة. وكانت إحدى بناتها تبيت معها في السجن تلك الليلة لسبب أجهله. كانت ابنتها صبية جميلة، فتية وديعة مهذبة، صامتة، سارحة في عالم الذهول والكبرياء الجريح والآلام العظيمة. كان شعر رأس جولييت المير، بلون الرماد، وكانت الابتسامة لا تغادر شفتيها. وكان ثمة ورم بحجم رمانة غير صغيرة يبرز من خلف جيدها المرمري الشبيه بالعاج. كان الورم سرطانيا، حين رأيته اغرورقت عيناي بالدموع، واختنق صوتي، وبين كفيَّ أخذت كفيَّ جولييت المير أقبلهما متمتماً: «سامحينا ياسيدة الألم والوفاء والصبر»... وبصوتها الواهن الطريّ العطوف الظليّ الغفور، ردّدت جوليت المير كلمات بلا حروف.. كلمات كانت حروفها آهات وزفرات..

كانت السجينات المومسات والقاتلات والسارقات من حولنا، صامتات ساكنات.. ثم أخذ الدكتور عصام المحايري بيدي مقترحاً الانسحاب وأنا في حالة عذاب ونحيب...

في ذلك الوقت الذي كانت فيه السجون السورية تعجّ بضحايا عبد الحميد السراج، كان السراج يعيش في قصر فخم غير بعيد عن شارع العروبة في القاهرة.. وفي ذلك الوقت الذي كانت السجون السورية تعج بضحايا أمين الحافظ، كان الحافظ في قصر الرئاسة في دمشق، رئيساً للدولة السورية.

وما عانى منه القوميون السوريون على يد عبد الحميد السراج، وماعانى منه البعثيون بعد أشهر من قيام الوحدة السورية المصرية على يديه أيضاً، كذلك ما عانى منه الوحدويون السوريون الناصريون على يد أمين الحافظ بالذات عام 1963، أكد وما يزال يؤكد على أن القمع والإرهاب والظلم والترويع واختراع الذرائع والمبررات وافتعال المسوغات، لا يمكن أن تنجح بتحويل الحق إلى باطل، ولا بتحويل الباطل إلى حق مزعوم إلى ما لانهاية... فدولة الظلم ساعة، ودولة الحق حتّى نهاية الساعة...

دالت دولة الطاغية عبد الحميد السراج، وهو منذ عقود يحمل الجنسية المصرية، وليس من حقه العودة إلى الوطن السوري الذي كان السراج قد روعه بالقمع والإرهاب... بينما القوميون السوريون، يؤدون اليوم فيما نلاحظ، دورهم في الساحة السياسية اللبنانية والسورية والفلسطينية... والبعثيون يقودون سورية...

ودالت دولة الطاغية أمين الحافظ، وهو اليوم لا يمتلك حق العودة إلى الوطن السوري الذي كان أذاقه في عهده شتى صنوف القمع والقتل والظلم والإرهاب... بينما الوحدويون السوريون المحسوبون على عبد الناصر، يؤدون اليوم أدوارهم في الساحة السياسية السورية وفي الساحات العربية ومنهم من هو قادر اليوم، بالقلم على الأقل على أن يرد الصفعة، بالصفعات، باسم الحق والموضوعية والعدل، عبر الصفحات المطبوعات المنشورات... في الوقت المناسب تماماً، الذي شهد ويشهد تحول أمين الحافظ من ديك صياح، إلى دجاجة عاجزة حتى عن وضع البيض، ومن شاهر سيف القتل والبتر، إلى متسلح بقرن فلفل أخضر، ومن متسيد مهيمن جبار، إلى لاجئٍ عبدٍ ذليل...

حواشي الفصل الرابع

(1) كتبت هذه السطور قبل وفاة محمود رياض بأشهر كثيرة رحمه الله.

(2) كنت ولا زال على اقتناع عميق ونهائي بأنه ليس ثمة من (ناصرية) منذ 28-9-1970 وهو تاريخ وفاة جمال عبد الناصر رحمه الله. ومن جانبي كنت ولا أزال مرتبطاً بـــ (المبدأ) وليس بـــ (الشخص) الزعيم، لأن الأشخاص يموتون، بينما المبادئ هي التي تبقى.

(3) أفليس ما هو قائم كأمر واقع اليوم، كمجلس التعاون الخليجي، هو التجسيد العملي لما دعا إليه أنطون سعادة منذ العام 1938؟

(4) إن نظرة موضوعية متفحصة ممحصة، لا تتطلب من صاحبها لا الكثير من الذكاء ولا الكثير من الجهد، ستكشف لنا اليوم عن أن المجتمعات الأربعة التي تتكلم اللغة العربية في آسيا وفي أفريقيا، أي في المشرق وفي المغرب، يدور كل منها في فلكه المصلحي الطبيعي الجغرافي المنفصل في الغالب عن الأفلاك الثلاثة الأخرى، وهذا ما يبدو لنا الآن بوضوح شديد بانفصال مصالح دول مجلس التعاون الخليجي، على سبيل المثال، منذ صيف العام 1990 وحتى الآن، عن مصالح المجتمعات العربية الأخرى، وبحيث باتت المسافة منذ حين، بين الكويت وواشنطن، أقرب من المسافة بين الكويت والأردن، على سبيل المثال أيضاً، والمسافة بين كل من الدوحة من ناحية، وتل أبيب من ناحية أخرى، أقرب من المسافة الفاصلة بينها وأية عاصمة عربية أخرى..

(5) حين كنت أراجع فصول هذا الكتاب قبل دفعه للنشر، جرى اتصال هاتفي بيني وبين الأخ الصديق المناضل جاسم علوان مساء الخميس 23-8-2002، أكد لي خلاله أبو جهاد علوان أنه كان حضر تنفيذ حكم الإعدام ببديع مخلوف، عنصر الشرطة العسكرية، وشرطي عسكري ثان آخر مدان في القضية، وكان تنفيذ الإعدام ليس بالشنق وإنما بالرصاص.

ملاحــق

مــن قتــل المالكــي؟

تحت هذا العنوان نشرت جريدة (الحياة) الصادرة في لندن يوم الأحد 16-5-1994، السطور الآتية، وقد رأيت إعادة نشرها في كتابي هذا، دون تعليق:

السيد رئيس التحرير

تحية طيبة وبعد

في زاوية «ذاكرة القرن العشرين» (الحياة 22-4-1994) انتهز السيد إبراهيم العريس ذكرى اغتيال العقيد عدنان المالكي في دمشق يوم 22-4-1955 ليقدم لقراء (الحياة) من جيل اليوم تحليله التاريخي السياسي لما حدث في سورية والمنطقة قبل 39 عاماً. هناك الكثير من القراء أقدر مني على الرد على المغالطات السياسية والفكرية التي وردت في تلك الزاوية وهم لا بد قائمون بذلك غير أنني أود فقط أن أصحح للسيد العريس بعض النقاط التاريخية ليس إلا:

1 ـ يقول السيد العريس أنه كان لعملية اغتيال عدنان المالكي «على يد أعضاء في الحزب القومي السوري» علاقة ذرائعية باغتيال أديب الشيشكلي. ويبدو أن الكاتب لايعرف أن أديب الشيشكلي قد اغتيل بعد عدنان المالكي بسنوات عدة.

2 ـ ينسب السيد العريس إلى «تحقيق قضائي» دار يومها وأدى إلى «ضرب الحزب القومي نفسه». وكي يعرف قراء اليوم ماهية ذلك التحقيق القضائي الذي يشير إليه السيد العريس، فلابد أن يعرفوا أنه بعد أقل من ساعة واحدة على اغتيال عدنان المالكي، كانت هناك جماعة معينة تقوم بإحراق مطبعة جريدة الحزب القومي السوري الاجتماعي في حي سوق ساروجة في دمشق. وبعد أقل من ست ساعات، كان جميع

أعضاء ذلك الحزب على بعد آلاف الكيلومترات من العاصمة حيث وقع الاغتيال، يطاردون ويزجون في السجون بالآلاف من الجنوب إلى أقصى الشمال ومن أقصى الشرق إلى الغرب.

3 ـ يبدو أن الأخ السيد العريس لم يقرأ كتاب (مرآة حياتي) للعماد مصطفى طلاس نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع ونائب القائد العام للقوات المسلحة وعضو القيادتين القومية والقطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي في سورية والذي قال فيه بكل وضوح وصراحة أن الذي تآمر على اغتيال عدنان المالكي ليس الحزب القومي السوري وإنما مصر ممثلة بسفيرها في دمشق وقتئذ محمود رياض وعبد الحميد السراج.

الوثائق الأمريكية تبرئ القوميين السوريين من (مؤامرة ستون) بعد سبعة وأربعين عاماً من الإعلان عنها في دمشق خريف 1956:

حين كانت مخطوطة الكتاب هذا تُجهز لدفعها إلى التنضيد في المطبعة بعد مرور حوالي 47 عاماً على الإعلان عن اكتشاف ما سميَ في دمشق (مؤامرة ستون)، وهو الإعلان الذي أذعته بصوتي عبر موجات الإذاعة السورية في اليوم الثالث والعشرين من شهر كانون الأول 1956، بدأت جريدة (الوفد) المصرية اليمينية المعارضة بنشر فصول من كتاب الكاتب الأمريكي ويليام بلوم: (اغتيال الأمل: التدخل العسكري الأمريكي وعمليات «السي آي إيه» في العالم منذ الحرب العالمية الثانية)، الصادر عن دار (زِد بوكس) في نيويورك ولندن في شهر مايو/ أيار 2003، بعد أيام من سقوط بغداد في 2003-4-9.

وقد ورد في الحلقة الأولى من سلسلة مقالات عرض هذا الكتاب كما نشرتها جريدة (الوفد) المصرية يوم الخميس 7 آب 2003، المعلومات الآتية حول صلة المخابرات الأمريكية، بما كان سمي في دمشق في نوفمبر/ تشرين الثاني 1957(مؤامرة ستون)، التي اتخذت مطية للإجهاز على ما كان تبقى من معالم وجود القوميين السوريين السياسي في كل من سورية ولبنان. ومن خلال الكشف عن هذه الأسرار الأمريكية في كتاب أمريكي لكاتب أمريكي، تتأكد براءة الحزب القومي الاجتماعي السوري من تهمة الإعداد لتلك المؤامرة، ومن تهمة مشاركة القوميين السوريين بها، كما يتأكد عدم معرفة الذين شاركوا بتنفيذها بأن مصر سوف تتعرض للاعتداء الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي في الوقت نفسه الذي تم تحديده لتنفيذ (مؤامرة ستون) في سورية، وفيما يلي النص الوارد في المقال المنشور يوم الخميس 2003-8-7 عن هذا الكتاب الأمريكي الصادر صيف العام 2003:

«... رغم أن الاهتمام الأمريكي بالشرق الأوسط قد سبق الحرب العالمية الثانية بسنوات عديدة، وكان الاعتراف بقرار تقسيم فلسطين وقيام

إسرائيل أبرز مراحله، فإن مؤلف كتاب (اغتيال الأمل)، يختار سورية كنقطة انطلاق على ما قامت به المخابرات الأمريكية من تدخل سافر وصل حد تدبير الانقلابات، ودفع العمولات المالية لسياسيين سوريين مقابل تنفيذها. كان الاهتمام الأمريكي بما كان يحدث في سورية لا علاقة له سوى أن سورية قد رفضت التصرف طبقاً للمشيئة الأمريكية، فقد كانت سورية في تلك الحقبة (العام 1956) هي الدولة الوحيدة من دول العالم الثالث التي رفضت الارتباط بفلك ربط جيشها بالسلاح الأمريكي، كما رفضت القبول بأية معونة عسكرية أمريكية، دون أن تعبأ بالقيود التي فرضتها عليها واشنطن بسبب ذلك الرفض. غير أن مفهوم الحياد الذي مارسته سورية كان يشكل عامل استفزاز لوزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس صاحب مقولته الشهيرة: «لقد صار مفهوم الحياد بائداً، وفيما عدا حالات ضئيلة للغاية، فإن الحياد أمر غير أخلاقي، بل هو برهان على انعدام الرؤية النافذة».

كانت الحكومة السورية في تلك الحقبة تنحو منحى يسارياً بزعامة حزب البعث الاشتراكي والحزب الشيوعي السوري، الأمر الذي أقلق الولايات المتحدة الأمريكية كما يتبيَّن من وثائق سرية أمريكية أفرج عنها مؤخراً. ويورد المؤلف نص تقرير لمجلس الأمن القومي الأمريكي، يستند إلى معلومات زودته بها المخابرات الأمريكية، يقول: إن سورية هي الوحيدة بين دول المنطقة العربية التي تتمسك بسياسة الحياد الإيجابي بقوة، مع مشاعر قوية مناهضة للغرب؛ ولو استمر هذا التوجه في سورية، فإن ذلك قد يؤدي إلى سيطرة الشيوعيين السوريين على السلطة في سورية، وهو احتمال يهدد أمن المنطقة، ويتعارض مع الأهداف التي تسعى الولايات المتحدة الأمريكية إلى تحقيقها في المنطقة العربية بصفتها جزءاً من الشرق الأدنى، كما كان يتعارض مع الأهداف الأمريكية منذ نشوء القضية الفلسطينية (1948).

هذا التناقض الحاد بين مواقف الحكومة السورية، والأهداف والمصالح الأمريكية (في العام 1956 بصفة خاصة)؛ دفع المخابرات الأمريكية إلى تدبير محاولة انقلاب في سورية يهدف إلى تنصيب قوى سياسية سورية لا تعارض الأهداف والمصالح الأمريكية في المنطقة العربية، وإبعاد القوى السياسية

الحزبية السورية البعثية والشيوعية من الحكم. وهنا يكشف الكتاب تفاصيل الاجتماع الذي تم بين اثنين من مسؤولي المخابرات الأمريكية هما (ويلبر كرين إيفلاند) و (أرتشيبالد روزفلت) من ناحية، والسياسي السوري ميخائيل إليان من ناحية أخرى. وقد كان ميخائيل إليان وزيراً للخارجية السورية في فترة سابقة. في ذلك الاجتماع سأل روزفلت السياسي اليميني السوري ميخائيل إليان، عن المطلوب من المخابرات الأمريكية، لإقصاء اليسار البعثي والشيوعي السوري عن الحكم في سورية، ولإحلال اليمين السوري المؤيد لأمريكا وسياسات الغرب، محله، فأجاب ميخائيل إليان بسرد تفاصيل عن المواقع والمؤسسات السورية وعن الأسماء المرشحة للتعاون مع أمريكا وبقية دول الغرب في سورية، وقد تضمن سرد تلك التفاصيل تحديد اسم محطتي الإذاعة في كل من دمشق وحلب، وأسماء عدد من ضباط الجيش السوري، وعدد من أصحاب الصحف السورية ورؤساء تحريرها، الذين أكد ميخائيل إليان أن شراءهم بمبالغ مالية مغرية، أمر ممكن، وهو الأمر الذي سيحقق هدف إقصائهم عن فلك السياسات المصرية الناصرية، والسياسات السعودية، كما قال ميخائيل إليان.

كانت أزمة السويس آخذة بالاشتداد منذ أعلن جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس يوم 26 يوليو/ تموز 1956؛ وقررت المخابرات الأمريكية تنفيذ الانقلاب في سورية يوم 26 أكتوبر / تشرين الأول 1956 بعد أن دفعت لميخائيل إليان مبلغ: 167 مئة وسبعة وستين ألف دولار أمريكي نقداً (حوالي نصف مليون ليرة سورية)، لتوزيعها على شركائه من الضباط العسكريين والسياسيين والصحافيين السوريين، كما طلبت، وكما وعد، وكان طلب ميخائيل إليان وشركائه، الوحيد، هو أن تؤكد لهم الولايات المتحدة الأمريكية مسبقاً أنها ستسارع بإعلان تأييدها واعترافها الفوري بالحكومة السورية التي سيؤلفونها ساعة قيامهم بتنفيذ الانقلاب العسكري؛ وهو المطلب الذي سارع جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية بتلبيته كما شاؤوا.

كان المفترض بل المتفق عليه امريكياً مع ميخائيل إليان، تنفيذ الانقلاب يوم 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1956، لكنّ ميخائيل إليان اقترح تأجيل

موعد تنفيذ الانقلاب مدة أربعة أيام، بحيث يتم التنفيذ يوم 30 تشرين الأول، بناء على طلب عدد من الضباط العسكريين السوريين الذين سيقومون به. وفي صباح ذلك اليوم نفسه، يوم 30 تشرين الأول، توجه ميخائيل إليان إلى منزل إيفلاند في دمشق وهو يبكي، وقال له: لقد بدأ غزو إسرائيل أراضي مصر منذ ساعات، وقواتها العسكرية تزحف الآن نحو قناة السويس، فكيف تطالبنا بأن نطيح بحكومتنا في الوقت الذي تغزو إسرائيل دولة عربية؟»

لم تكن تلك المحاولة الانقلابية الفاشلة نهاية للجهود الأمريكية المستمرة لإطاحة الحكومة السورية تلك التي اعتبرتها الولايات المتحدة معادية لأهدافها ومصالحها. ففي العام التالي خططت (السي آي إيه)، بالتنسيق مع بريطانيا، لانقلاب سوري آخر يضع حداً لبقاء الهيمنة البعثية والشيوعية، اليسارية على سورية؛ وكان بطل تلك المحاولة التي حالت ظروف تنفيذها، هو الديكتاتور السوري السابق الضابط العسكري المخلوع أديب الشيشكلي الذي كان منذ أن خُلع من منصبه، يقيم في لبنان متخفياً؛ ويده اليمنى في عهده الكولونيل إبراهيم الحسيني الذي كان يقيم في إيطاليا، كملحق عسكري في السفارة السورية في روما. وقد قامت المخابرات الأمريكية بإحضار الكولونيل إبراهيم الحسيني من إيطاليا إلى لبنان سراً، للمشاركة بالانقلاب المحتمل الذي كان مفترضاً أن يعيد أديب الشيشكلي إلى منصبه الرئاسي في سورية، كما وعدت الولايات المتحدة الأمريكية بتقديم معونة بمقدار 300 مليون دولار إذا ما وافقت حكومة أديب الشيشكلي (إذا ما نجح الانقلاب) على عقد معاهدة صلح بين سورية وإسرائيل. إلا أن المؤامرة تلك قد فشلت عندما اتصل بعض الضباط الذين جنّدتهم المخابرات الأمريكية، بالمخابرات السورية. وأبلغوها بمبالغ الرّشى المالية التي دُفعت إليهم من المخابرات الأمريكية، وبأسماء العملاء السوريين الذين اتصلت بهم أمريكا عن طريق ميخائيل إليان وبعض شركائه، فطلبت الأجهزة الأمنية السورية من الواشين المبلّغين، الاستمرار بالتعامل مع عملاء المخابرات الأمريكية، حتى تمكنت من الحصول على جميع المعلومات الخاصة بإعداد المؤامرة، والأموال المدفوعة، وأسماء المتورطين بها؛ وبعد ذلك أعلنت سورية تفاصيل تلك المؤامرة الأمريكية الجديدة التي تم إحباطها، كما طردت سورية

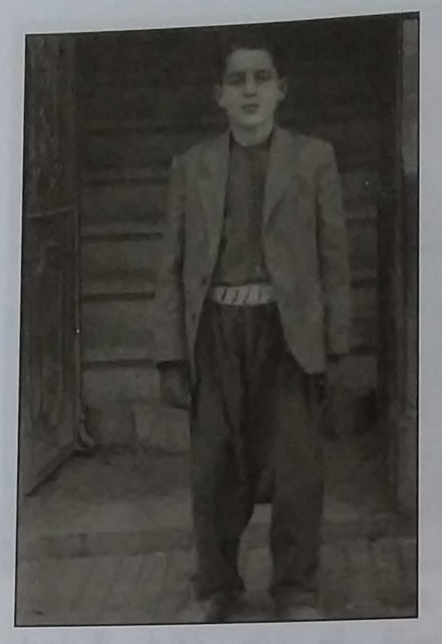
الديبلوماسيين الأمريكيين المتورطين بها؛ وقد ردت الولايات المتحدة على ذلك بطرد السفير السوري من واشنطن، وباستدعاء سفيرها في دمشق إلى واشنطن. ورغم ذلك لم تتوقف المخابرات الأمريكية عن التآمر السري ضد سورية التي كشفت عن إحداها وثائق رسمية أمريكية تمَّ الإفراج عنها مؤخراً وهي تتضمَّن تقريراً عن اجتماع سري عقده الرئيس الأمريكي جون كينيدي أوائل عقد الستينيات من القرن العشرين الذاهب، مع رئيس الوزراء البريطاني الأسبق هارولد ماكميلان، في البيت الأبيض، تمَّ خلاله الاتفاق بين الزعيمين الأمريكي والبريطاني على الاستمرار بمواصلة زرع وتعزيز عناصر مثيرة للاضطراب السياسي والأمني في سورية، بخاصة في القوات المسلحة السورية، لإجبار دمشق على الانحياز إلى الغرب وفي طليعته الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا».

هذا ملخصٌ لما ورد في فصل من فصول كتاب أمريكي لكاتب أمريكي صدر مؤخراً في كل من لندن وواشنطن في شهر مايو/ أيار 2003، وقد كشف عن جوانب من النشاط السري للمخابرات الأمريكية في سورية، ومنه يتبين عدم وجود صلة بين المخابرات الأمريكية والحزب القومي السوري فيما سمي بمؤامرة (ستون) المحبطة في سورية أواخر العام 1956، ورغم ذلك فقد تجددت ضربات الفؤوس عامئذ فوق بقايا الحزب القومي السوري في سورية و لبنان، وزج عدد من أسمائهم في المحكمة التي تولت محاكمة المتهمين بما سمي بمؤامرة (ستون)؛ وكأنما هذا الحزب الذي تم تدميره بعد قضية عدنان المالكي كان هو الذي خطط لها، واستعد لتنفيذها، وهو منها براء. ولعل من العدل والإنصاف الإشارة إلى أن ما جاء في هذا الفصل عن نشاط المخابرات الأمريكية في سورية في مراحل سبقته، يكفي للدلالة على وطنية وعلى قومية وعلى صلابة عبد الحميد السراج وأكرم الحوراني وقيادات حزب البعث (قبل وصوله إلى السلطة في سورية ربيع 1963)، والحزب الشيوعي السوري، واليسار السياسي السوري المختلط بصفة عامة، وفي مواجهتهم الفذة عتوّ نشاط المخابرات الأمريكية والبريطانية والإسرائيلية المشترك، ضد سورية التي ظلت عصيّة على الاختراق، وإن عقّ استقلالية قرارها، عاقّون من سياسيّيها، في أحوال الاستثناء، وهي عابرة...



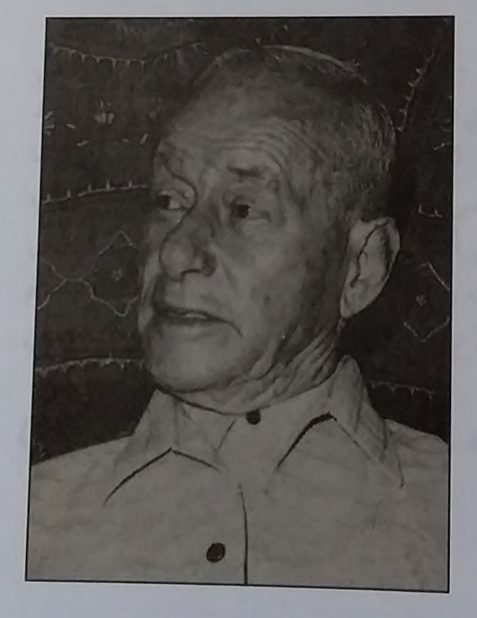
ملحق صور الفصل 4

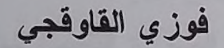




صورتي وأنا ألبس الشروال وعمري لا يتجاوز الثانية عشرة..

في جيبَيْ هذا الشروال كنت أنقل طلقات الرصاص إلى حيث يتمترس أخي أبو حاتم ومعه رفاقه. عابراً مكامن وتجمعات الجنود الفرنسيين فلا ينتبهون إلى ما أحمل في جيبيْ شروالي، وهكذا كانوا يسمحون لي بالعبور، ذهاباً وإياباً، عدة مرات كل يوم.





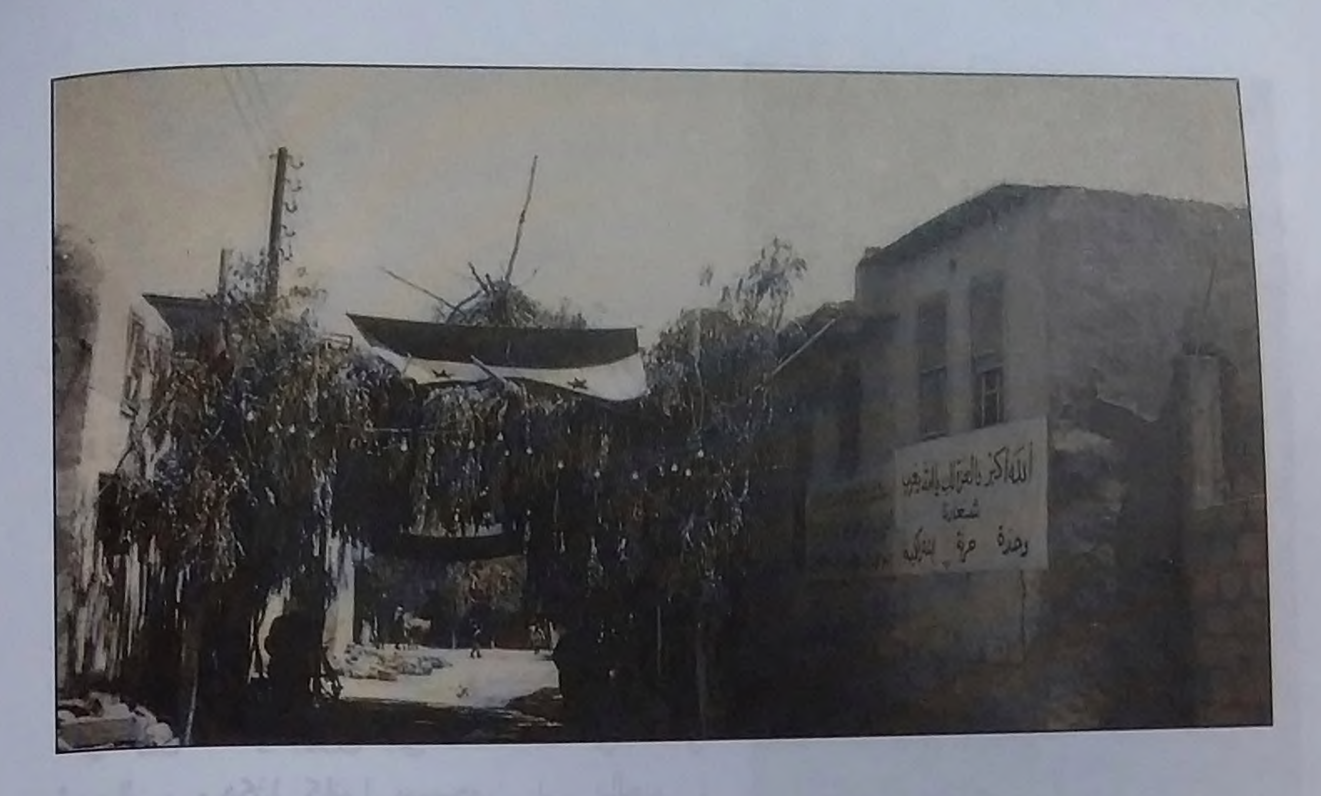
فوزي القاوقجي

قائد جيش الإنقاذ في حرب 1948

جاء دار أبي ليرثي خالي الشهيد في (جنين) في فلسطين، العقيد محمود البغدادي، فلما بكى وهو يرثيه، صرخت في وجهه ولم يكن عمري قد تجاوز الثالثة عشرة:

ـ فوزي بك كفكف دموعك، واعطني أيضاً أنا سلاحي...

فأجهش وأجهش معه الحاضرون من المعزّين بالبكاء، وامتلأ فضاء دار أبي بطلقات الرصاص، وبالهتاف الجماعي: (بدمنا وأرواحنا نفديك يا فلسطين)...



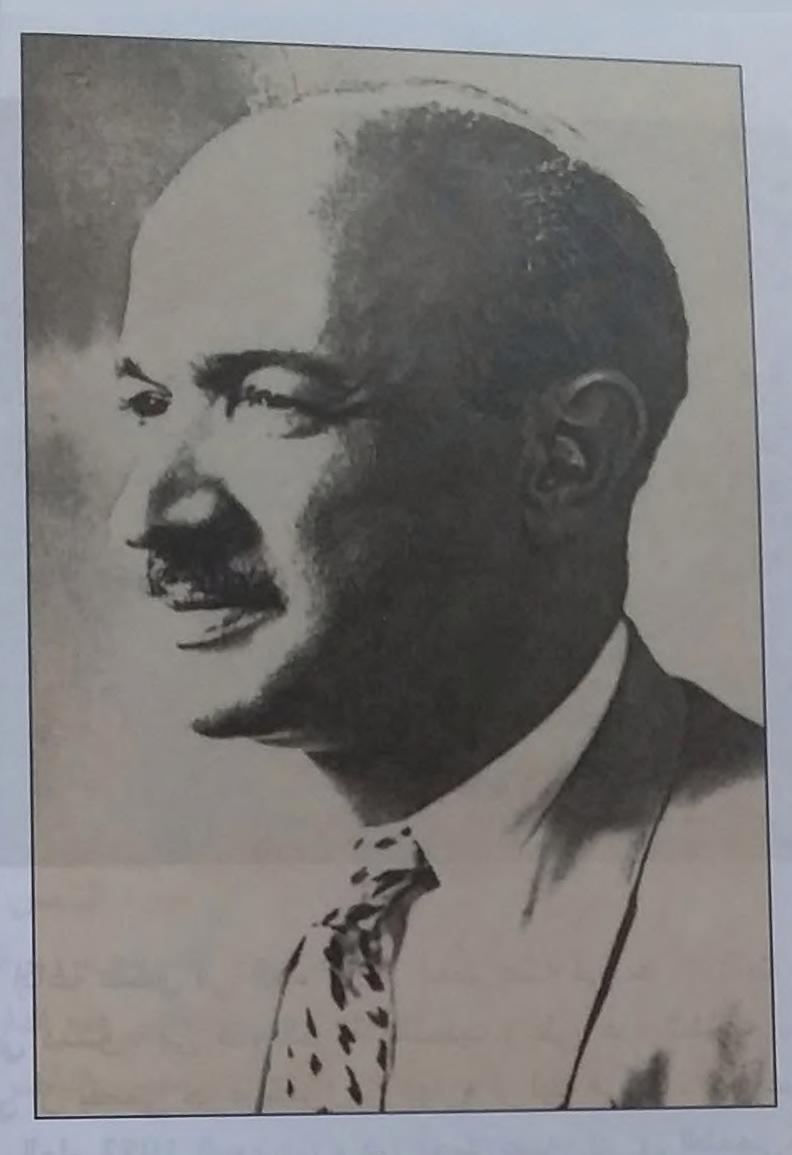
جانب من الواجهة الخارجية لدار والدي أحمد البكار في حارة الشمس في مسقط رأسي دوما، التي استقبلت جثمان خالي الشهيد العقيد محمود البغدادي، وبرفقة جثمانه فوزي القاوقجي والشيخ مصطفى السباعي في العام 1948، واستقبلتني هذه الدار التي ولدت فيها في العام 1934 وهي مزيّنة هكذا حين عودتي إليها من مصر الناصرية بعد شهر من سقوط عهد الانفصال ونجاح ثورة 8 آذار 1963.



في غرفة مدير إذاعة دمشق في العام 1953 أحمد عسه في مقر الإذاعة في شارع النصر (جمال باشا) في دمشق. في هذه الغرفة بالتحديد وعلى هذه الطاولة بالتحديد كان يحلو لأديب الشيشكلي أن يقضي جزءاً كبيراً من نهاره أو ليله في لقاء مع أعوانه الذين صاغوا مشروع دستور العام 1953 السوري، وهم: أحمد عسه، قدري القلعجي، أنور حاتم، نزيه الحكيم، وعدنان عناية.

هذه الصورة التقطت شتاء العام 1953، ويبدو فيها أحمد عسه (بالنظارة) وإلى يمينه عبد الهادي البكار، ثم مصطفى غزاوي، المرحوم عادل خياطة، المرحوم فؤاد شحادة، السيدة إحسان محمودي، مدير البرامج الدكتور صباح قباني، السيدة إحسان بيات رحمها الله قبل اقترانها بالمرحوم الدكتور سامي الدروبي. ويبدو إلى يسار أحمد عسه، سهيل الصغير؛ وقد كان هؤلاء جميعاً من حول أحمد عسه، هم المذيعون في إذاعة دمشق التي أولاها الشيشكلي اهتماماً استثنائياً، وبحيث يمكن القول إن الشيشكلي كان أول زعيم عربي في العصر الحديث أدرك أهمية السلاح الإعلامي، الإذاعي بصفة خاصة، في حماية النظام، والتأثير بالجماهير.

(تصوير: استديو آزاد ــ دمشق) (من أرشيف المؤلف الخاص)



الدكتور محمد أسعد طلس

- مستشار حسني الزعيم، وعديل سامي الحناوي؛ والمخطط الحقيقي الخفي لانقلاب الحناوي ضد حسني الزعيم.
- كان الدكتور طلس الحاكم الفعلي الحقيقي لسورية خلال العهد السوري الموصوف بعهد الحناوي.
- طارده الشيشكلي بعد انقلابه على سامي الحناوي، وتمكن من الخروج من سورية إلى العراق ليعمل أستاذاً في جامعة بغداد، ثم عاد إلى سورية بعد سقوط الشيشكلي؛ وعين رئيساً لمؤسسة اللاجئين الفلسطينيين.
- اعتقله عبد الحميد السراج وأكرم الحوراني في سجن المزة، وفي السجن أصيب بمرض عضال أودى بحياته، ودفن في حلب.
- مؤلف كتاب (تاريخ العرب) الذي صدر بعد وفاته في مجلدين.



القيادة العامة للجيش والقوى المسلحة
مديرية العدلية العسكرية
مكتب شؤون المحكمة العرفية

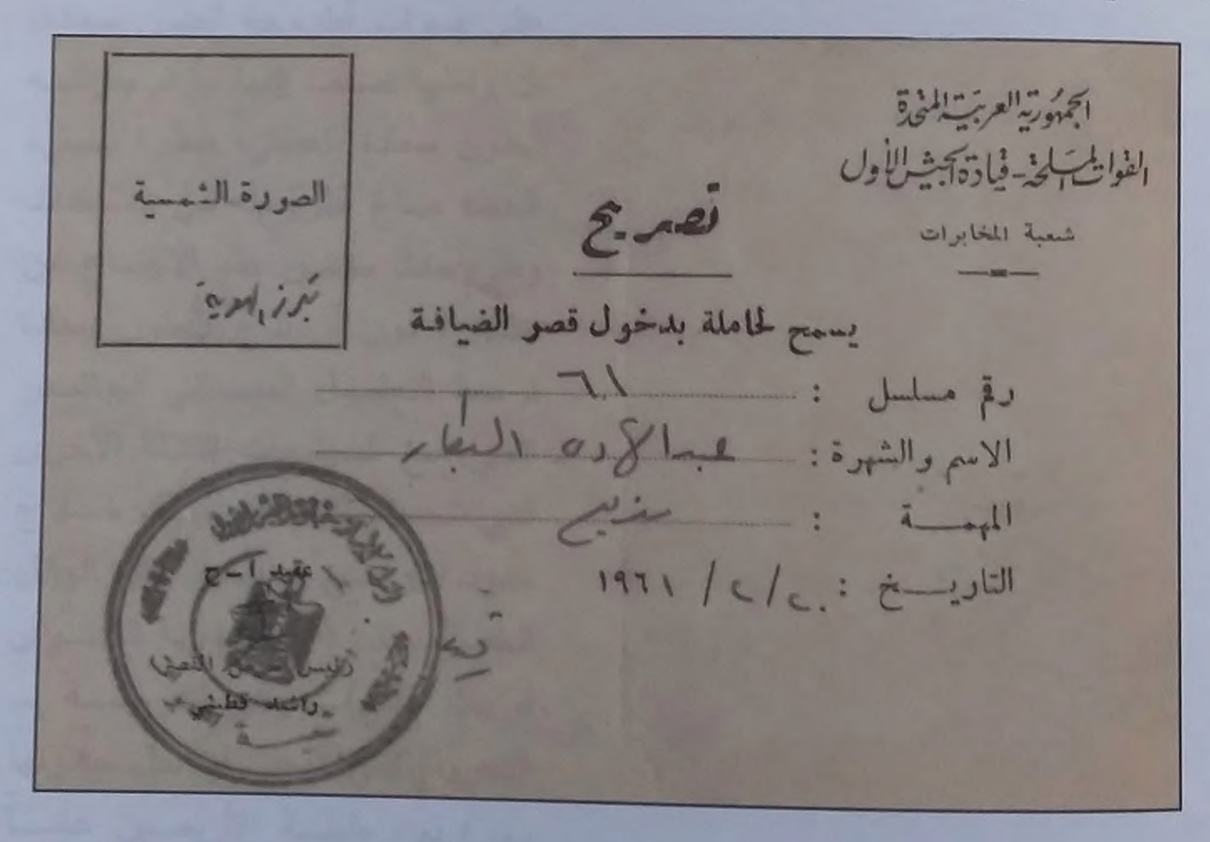
بطاقة دخول موظف

يسمح للسيد الأستاذ عبد الهادي البطار الموظف في «مدرج» الإذاعة
بالدخول في مختلف اوقات عمل وظيفته.

مدير مكتب شؤون المحكمة العرفية

يرجى ابراز الهوية الشخصية حين ابراز هذه البطاقة

صورة عن بطاقة الهوية الممنوحة إليَّ لإجازة دخولي مقر محاكمة المتهمين بالمشاركة بما سميّ (مؤامرة ستون)، برئاسة عفيف البزرة، وعضوية محمد الجراح وعبد الفتاح الزلط، في مدرّج جامعة دمشق.



الجمهورية العربية المتحدة
القوات المسلحة - قيادة الجيش الأول
شعبة المخابرات

تصريح

الصورة الشمسية
تبرز الهوية

يسمح لحاملة بدخول قصر الضيافة

رقم مسلسل : ٦١
الاسم والشهرة : عبد الهادي البطار
المهمة : مذيع
التاريخ : ٢٠/٢/١٩٦١

عقيد ا-ح
رئيس
راشد قطيني

صورة عن البطاقة الصادرة عن شعبة المخابرات في الجيش الأول (الجيش السوري) بتوقيع رئيس حرس قصر الضيافة مقر جمال عبد الناصر خلال زياراته سورية (الإقليم الشمالي)، العقيد راشد قطيني، بتاريخ 20-2-1961، قبل حوالي سبعة أشهر فقط من قيام الحركة الانفصالية السورية العسكرية في 28-9-1961.

الفصـــل الخامـس 5

المقالات الروافد الرَّوادفْ ...

❏ عثرت بين أوراقي المكنوزة المخزونة، على عدد من المقالات المنشورة وغير المنشورة، التي بها أُلقي الضوء على جوانب من المسألة القومية العربية؛ من خلال تجاربي الشخصية العملية الميدانية معها طيلة الأعوام الأربعين الماضية...

وقد رأيت أن أخصص لها الفصل الخامس من هذا الكتاب؛ فهي تبرهن على صواب أطروحة أنطون سعادة، بل ولعلها تضيف إليها ما لم يدركه أنطون سعادة باعتباره منظراً سيء الحظ؛ صاغ أطروحته من ملاحظات وطروحات مؤسس علم الاجتماع ابن خلدون، دون أن تتاح لأنطون سعادة فرصة التعامل الميداني المباشر الحيّ، مع المجتمعات الثلاثة الأخرى التي تتحدث باللغة العربية، خارج حدود الأراضي الطبيعية لإقليم الهلال الخصيب.. (أو سورية الكبرى أو بلاد الشام)... وهي (الفرصة ـــ التجربة) التي أتيحت لنا بكل حلاوتها ومرارتها، طيلة الأربعين عاماً المنصرمة، مثلما أتيحت من قبل لابن خلدون القائل: «إن الأعراب إذا تغلّبوا على أوطان، أسرع إليها الخراب...».

(1)

هل بارك جمال عبد الناصر عزمَ حافظ الأسد علـــى القيـــام بالحركـــة التصحيحيـــة؟ *

في اليوم السادس عشر من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) الماضي احتفلت سورية بحلول الذكرى الثلاثين لقيام الحركة التصحيحية التي قادها الرئيس المناضل الراحل حافظ الأسد بتاريخ 16-11-1970، بعد مرور أقل من خمسين يوماً على وفاة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، وأقل من سبع سنوات على قيام ثورة الثامن من آذار 1963، التي تضافرت مجموعة القوى السياسية القومية الوحدوية العربية في سورية على القيام بها، وكان حزب البعث العربي الاشتراكي أحد هذه القوى السياسية السورية ذوات الهدف القومي الواحد؛ وهو الحزب الذي كان له دوره الإيجابي الفاعل في قيام الوحدة السورية المصرية أوائل العام 1958، والذي أعلن حل كيانه التنظيمي تلبية من قيادته لطلب اشترطه جمال عبد الناصر قبل أن يوافق على قيام الوحدة المصرية السورية برئاسته؛ إلا أن ظروفاً موضوعية كثيرة سرعان ما باعدت بين قيادة الحزب ووزرائه من ناحية، والرئيس جمال عبد الناصر من ناحية أخرى، حيث واكب هذا التباعد المتبادل خلاف حول السياسات المتبعة في إدارة شؤون الدولة الوحدوية (الجمهورية العربية المتحدة)، انتهى ـ بتفاقمه ـ إلى استقالة قادة الحزب ووزرائه من جميع مناصبهم، بعد مرور حوالي سنة وعشرة شهور فقط على قيام الدولة الوحدوية، وبذلك أتيحت الفرصة أمام القوى الاقتصادية والعسكرية والسياسية السورية ذوات النوازع الانفصالية، لتقويض الكيان الدستوري للدولة الوحدوية المصرية السورية، وهو التقويض الذي تحقق عملياً فجر 28-9-1961؛ والذي حرَّض بالتالي حزب البعث العربي الاشتراكي (الذي كان رضي بحل كيانه التنظيمي

* نشر هذا المقال على نحو بارز جداً في العدد الصادر يوم الأربعاء 3-12-2001 من جريدة (الأهالي) اليسارية المصرية المعارضة، الناطقة بلسان حزب (التجمُّع).

إرضاء لجمال عبد الناصر عام 1958) على إحياء كيانه التنظيمي من جديد، وعلى أن يشارك القوى الوحدوية القومية العربية السورية الأخرى متحالفاً معها، لمتابعة مسيرة النضال المشترك لتقويض عهد الانفصال في الثامن من آذار/ مارس 1963؛ حيث بدأ الحوار بين مجموعة هذه القوى المشاركة بعملية تقويض عهد الانفصال حول الأولويات؛ فمنها ما طالب بإعادة الوحدة الفورية مع مصر، ومنها ما طالب بالتريث وبإعادة تقويم التجربة الوحدوية السابقة بهدف الإفادة من دروسها وعبرها الكثيرة، وقد كان على رأس هذه الفئات التي طالبت بالتريث وبالمزيد من الدروس قبل إعادة سورية إقليماً شمالياً للجمهورية العربية المتحدة، حزب البعث العربي الاشتراكي الذي كان تمكن من أن يشد قبضته على زمام السلطة في العراق ومن ثم في سورية بدءاً من ربيع 1963، الأمر الذي أدى إلى إجراء ما سمي بمفاوضات أو مباحثات الوحدة الثلاثية وهي المباحثات التي كشفت عن خلاف سياسي فكري بين جمال عبد الناصر من ناحية، وقادة حزب البعث الاشتراكي العربي في كل من دمشق وبغداد من ناحية أخرى، بل وهو الخلاف الذي لم يتمكن أي طرف من أطرافه من تجاوزه، وبذلك أخفقت المباحثات رغم التوقيع الثلاثي على اتفاقية الوحدة الثلاثية، حيث أعلن جمال عبد الناصر صيف 1963 انسحاب الجمهورية العربية المتحدة من اتفاقية الوحدة الثلاثية، من جانب واحد.

وهكذا، ولأن الخلاف إذاً كان قائماً بين جمال عبد الناصر وقادة حزب البعث العربي الاشتراكي منذ أواخر العام 1959، فقد كان من تحصيل الحاصل أن يسارع حزب البعث بعد تقويض عهد الانفصال بثورة الثامن من آذار إلى مضاعفة جهوده لجمع صفوفه التي كانت مبعثرة منذ العام 1958، وهي الجهود التي بدأ يبذلها في هذا السبيل منذ إسقاط التجربة الوحدوية خريف 1961، بالعودة إلى تراثه الفكري العقائدي، وتاريخه الوطني والقومي، وتجربته النضالية السياسية الثرية العريقة، وهي عملية ترميم وإعادة صياغة تنظيمية استغرقت من عمر هذا الحزب سبع سنوات تلت ربيع 1963، اشتد خلالها الخصام بين سورية ومصر الناصرية، أي بين قادة

حزب البعث وجمال عبد الناصر الذي عانى خلالها من الأحزان والأشجان، رحمه الله، ما أرهقه جداً، إلا أنه، ومع ذلك كله، لم يتلكأ قط عن مناصرة سورية يوم توجه نور الدين الأتاسي من دمشق إلى القاهرة مستنجداً بجمال عبد الناصر، وليؤكد له أن إسرائيل قد حشدت جيوشها في الجبهة الإسرائيلية ــ السورية تمهيداً لاجتياح الأراضي السورية؛ وبذلك تم استدراج مصر إلى فخ نكبة 1967.

في تلك الفترة كان حافظ الأسد وزيراً للدفاع وقائداً للقوات الجوية السورية، لكنه كان على خلاف شديد جداً مع أعضاء القيادة السوريين الفاعلين، بخاصة صلاح جديد الأمين العام لحزب البعث، ونور الدين الأتاسي رئيس الدولة، ويوسف زعين رئيس الوزراء، الذين راحو يزايدون على جمال عبد الناصر على صعيد الاشتراكية العلمية التطبيقية، سعياً منهم نحو استرضاء الاتحاد السوفييتي ومنظومة الدول الاشتراكية الأوروبية الشرقية؛ وهي المزايدة التي كادت أن تفرض عليهم تجاوزهم حدود العقيدة العربية القومية، في حين كان حافظ الأسد رافضاً هذا التوجه باعتباره ذا عقيدة قومية عربية وحدوية تحررية حيادية صارمة غير مؤهلة للمساومة، ترفض جر سورية إلى فلك الغرب أو فلك الشرق، وهي العقيدة التي كانت تتطابق مع العقيدة الناصرية.

انطلاقاً من هذه العقيدة القومية العربية التحررية الوحدوية تحديداً، راح حافظ الأسد يهندس خطة قيامه بحركته التصحيحية لإعادة الحزب والثورة إلى مسارهما الأكثر صحةً وصواباً؛ وقد استغرق الإعداد البطيء لتلك الحركة مدة ثلاث سنوات (من 1967 إلى 1970) تخللتهما في نهايتها أحداث سبتمبر/ أيلول الأسود في الأردن خريف العام 1970.

وبما أن حافظ الأسد كان من البعثيين القدامى المعجبين بجمال عبد الناصر، المتطابقة عقيدتهم مع العقيدة الناصرية، فقد كلَّف صديقه الأثير لديه مصطفى طلاس (وهو نفسه العماد أول مصطفى طلاس نائب القائد العام، وزير الدفاع في سورية حتى اليوم)، بالتوجه من دمشق إلى القاهرة في مهمة سرية حيث أطلع طلاس الزعيم الراحل جمال عبد الناصر على نية حافظ الأسد القيام بالحركة التصحيحية، كذلك على مسوغاتها ومبرراتها التي لم

تكن لتخفى على جمال عبد الناصر.. وهكذا، في الوقت الذي كان حافظ الأسد خلاله على وشك الانتهاء من استكمال وضع الخطة الخاصة بها، قبيل نشوب أحداث أيلول الأسود في الأردن، عُقد مؤتمر رؤساء أركان الجيوش العربية في بغداد، وهو المؤتمر الذي شارك به كل من عبد المنعم رياض عن مصر، ومصطفى طلاس عن سورية...

وعلى هامش انعقاد ذاك المؤتمر، عُقد اجتماع ثنائي سري بين عبد المنعم رياض ومصطفى طلاس، أبلغ فيه رئيس أركان القوات المسلحة المصرية، رئيس أركان الجيش السوري، رسالة شفهية من جمال عبد الناصر موجهة إلى حافظ الأسد، أكدت مباركته قيام الأسد بالحركة التصحيحية استناداً إلى المسوّغات التبريرية التي كان طلاس أوضحها للرئيس عبد الناصر في القاهرة، واستفسرت عما قد يحتاجه الأسد من عبد الناصر وعما يمكن لمصر أن تقدمه أو أن تفعله لدعم الحركة التي ينوي القيام بها. وقد رد طلاس يومئذ بأن وضع القوات المسلحة السورية أكثر من جيد. وحافظ الأسد يسيطر عليها سيطرة تامة، ونجاح الحركة في نظر الأسد مضمون بنسبة 100%؛ والأمر لا يحتاج إلى دعم عسكري من الجمهورية العربية المتحدة التي قد ترى دعم الحركة التصحيحية، سياسياً وإعلامياً فقط[1].

قبل قيام الحركة التصحيحية بثمانية وأربعين يوماً توفي الزعيم الراحل جمال عبد الناصر بتاريخ 28-9-1970، وانتقل الصراع بين حافظ الأسد ومجموعة صلاح جديد إلى مرحلة الحسم، وقد اشتد ذلك الصراع سافراً بين القوتين في المؤتمر القطري للحزب المنعقد في دمشق في 12-11-1970، إلى أن انتهى بإلقاء القبض على صلاح جديد ونور الدين الأتاسي ويوسف زعين وعدد من أنصارهم.

---

[1] عقب قيام الحركة التصحيحية بعشرة أيام، كنت في زيارة لبيروت في طريقي من القاهرة، إلى أبو ظبي؛ وقد زرت خلالها رئيس تحرير مجلة (كل شيء) السياسية محمد سعيد سربية، وسلمته مقالة أعلنت فيها تأييدي للحركة التصحيحية؛ وتوقفي عن الاستمرار بمناهضة النظام السوري الذي ناهضته منذ صيف 1963. وقد أطلعني الأستاذ محمد سعيد يومئذ على (توجيه مطبوع) صادر عن سفارة ج.م.ع. في لبنان، يوصي بتأييد الحركة التصحيحية وقيادة حافظ الأسد؛ وفي اليوم التالي زرت المرحوم سليم اللوزي صاحب ورئيس تحرير مجلة (الحوادث) في مقر المجلة، الذي أطلعني على كتاب صادر من السفارة المصرية في لبنان، مماثل.

مساء يوم 16-11-1970 توجه اللواء مصطفى طلاس إلى مقر هيئة الإذاعة والتلفزيون في ساحة بني أمية في دمشق حيث أصدر أمره بإذاعة البيان الأول للحركة التصحيحية قبيل وصول الرئيس معمر القذافي إلى دمشق بنصف ساعة، خشية أن يحاول القذافي التوسط لصالح الطرف الذي أصبح قادته في سجن المزّة، إلاّ أن القذافي عقب وصوله دمشق، أعلن مؤازرته للحركة التصحيحية وهكذا أصبح حافظ الأسد منذ ذلك اليوم، بقيام الحركة التصحيحية التي لم تسفك خلال سويعات تنفيذها قطرة دم واحدة، رئيساً للجمهورية العربية السورية، وزعيماً عربياً يحظى بالإجلال والإكبار في العالم العربي بل في المحافل العربية والدولية في جميع أرجاء العالم؛ وبذلك أصبحت الطريق بين دمشق والقاهرة سالكة ذهاباً وإياباً في آن، وعلى نحو ساعدهما على خوض حرب تشرين 1973 التحريرية، ثم على تجاوزهما ما أعقبها من خلاف في وجهات النظر حول قضيتي الحرب والسلام، وعلى إحياء روح العروة الوثقى التي جمعتهما في رباط لا ينفصم طيلة السنوات العشر الماضية من عهدي الرئيس محمد حسني مبارك والرئيس الراحل حافظ الأسد، وهي (عروة وثقى) حُبلى بعرى جنينية أوثق، تكاد منذ حوالي ثلاثة أشهر تهبط من رحم الأقدار في بدايات عهد الرئيس الدكتور بشار حافظ الأسد. (ولسوف تمضي العلاقات الثنائية السورية المصرية من الحال الحسن إلى الحال الأحسن بإذن الله.. بخاصة وأن الرئيس محمد حسني مبارك، صديق الأسد الأب الراحل لا يزال هو نفسه الأب المترعة جوانحه بمشاعر الأبوة، وأن مصر ما تزال هي نفسها الأم الحضن الحنون الرؤوم، وأن الرئيس الدكتور بشار الأسد، هو اليوم وغداً، الشاب الواعد المؤتمن الذي اصطفاه الشعب السوري بكل فصائله لرعاية مواسم القطاف، بعد أن سمقت الأشجار وأورقت وأثمرت، بعد أن غرستها يدا حافظ الأسد فسائل قبل ثلاثين عاماً، في تربة الأرض التي يسقيها النيل في الجنوب، وبردى والفرات في الشمال....

القاهرة ــ مساء الاثنين 20-11-2000

(2)

نحـــو استكشـــــاف مقومات الشخصية العربية المعاصرة*

لم تكن مشاركة مصر العربية بمؤتمر قمة الدار البيضاء المنعقد في مايو 1989، تقنيناً لاستئنافها أداء دورها الفاعل في جامعة الدول العربية بعد مرور حوالي عشر سنوات ظل فيها هذا الدور المصري معطلاً تماماً، بمقدار ما كانت هذه المشاركة إيذاناً بنهاية مرحلة التنابذ العربي التي استمرت مدة عشر سنوات على وجه التقريب، وبشرى بولادة مرحلة عربية قومية ربما تكون أفضل.

ولعلنا نلاحظ أن التنابذ العربي في الساحة القومية خلال السنوات العشر الماضية، لم يكن بين بعض الشعوب العربية وبعضها الآخر، وإنما كان بين بعض الأنظمة العربية وبعضها الآخر، أو بين بعض الحكام العرب وبعضهم الآخر بتعبير أصح، أدق.

حدثَ خلال سنوات التنابذ العربي، أكثر من مرة، أن انعكس سوء العلاقة المتبادل بين حاكم عربي وآخر، على نظامي دولتين شقيقتين بسوء علاقة متبادل مماثل؛ ثم انعكس انهيار العلاقات الثنائية بين هاتين الدولتين الشقيقتين وتلِكْما، على العلاقات القائمة بين شعبيهما. هذا يعني أن خلافاً يقوم بين زعيمين عربيين، ينعكس بالتالي سلباً على علاقات دولتيهما المتبادلة والمشتركة، ثم على العلاقات بين شعبيهما المتبادلة المشتركة... وبمعنى أدق: إن الزعماء يأكلون الحصرم، وشعوبهم هي التي تضرس بالنتيجة.. ونحن لا نريد لزعمائنا العرب بعد الآن أن يأكلوا الحصرم، حتى لا تضرس الشعوب العربية مرة أخرى إضافية، خاصة وأن أضراس شعوبنا وقواطعها وحتى أنيابها باتت منخورة بالتسوس الباحث لا عن أسيد حامض الحصرم،

---

* نشر هذا المقال في جريدة (الوفد) المصرية على حلقتين؟: الأولى يوم الأحـــد 11-6-1989، والثانية يوم الاثنين 12-6-1989

بل عن العلاج العاجل لجميع مسببات وأسباب أمراض النخر والتسوُّس والضَّرَس (بفتح الضاد والراء).

وفي توقعنا أنَّ استئناف مصر دورها في الجامعة العربية ستتلوه عودة مقر الجامعة إلى بيتها الذي وُلدت ونشأت وترعرت فيه، وهو القاهرة، ومن المنطقي أن يكون العدُّ التنازلي قد بدأ منذ أيام وصولاً إلى الموعد المقبل الذي سنحتفل فيه في موعد لاحق غير بعيد بإذن الله، بعودة مقر الجامعة إلى حيث ينبغي أن يكون؛ أي إلى حيث تريد الأمة العربية بكل شعوبها أن يكون، غير بعيد عن ضفة النيل الشرقية، في القاهرة.

وما دامت مصر أصبحت مرشحةً منذ أيام لاحتواء مقر الجامعة من جديد؛ ومادامت مصر قد أنجزت حتى الآن على وجه التقريب جزءاً كبيراً من المشاريع الخاصة بالبنية الأساسية، وتمكنت من إرساء قواعد ومبادئ العلاقات السياسية الديمقراطية على المستوى الداخلي؛ ومن إنعاش الآمال بتحقيق الاستقرار واستتباب الأمن وصون هيبة القانون، ومن اكتشاف بدايات الطريق الموصلة إلى آفاق الخلاص من المأزق الاقتصادي، في الوقت الذي نرى فيه علاقات الصحوة الحضارية المصرية تكاد تظهر على نحو واضح، فإن ما هو متوقع منذ اليوم أن تتضاعف أعداد القادمين إلى مصر من جميع أنحاء العالم العربي أضعافاً مضاعفة عما هي عليه اليوم، وعما كانت عليه بالأمس، خاصة وأن بداية مرحلة التضامن العربي بدأت تشهد خلال الأيام الأخيرة صدور قرارات وترتيب إجراءات نرجو أن تكون كفيلة بإزالة المزعجات التي كانت وما تزال تعوق تنامي حجم السياحة العربية في مصر، وتعاظم حجم الاستثمارات العربية فيها... فإن تقنين إنهاء حالة الخصام بين بعض الدول العربية ومصر بمشاركة الرئيس محمد حسني مبارك بمؤتمر قمة الدار البيضاء، هو في أحد جوانبه تحريض للشعوب العربية الأخرى على التوجه بالجحافل نحو مصر بعد فترة فراق استمرت حوالي عشر سنوات، وهو تحريض لأصحاب رؤوس الأموال العربية الخاصة على التفكير بالتوجه من جديد نحو أرض الكنانة وحضنها الرؤوم، وضفاف نيلها الوديع، وشعبها الطيب الضاحك حتى وإن بكى، وطعامها الطيب، ولياليها المِلاح، ومسارحها العريقة، ومتاحفها الغنية بالكنوز... إلخ...

... وما دام العربُ قادمين جحافل غداً إلى مصر الطيبة، فقد يكون من المفيد أن تحاول المؤسسات والأجهزة المصرية ذوات الاختصاص، الإفادة من أخطاء سبقت ممارستها على صعيد العلاقات الشعبية المصرية ــ العربية؛ وقد ارتكبها كثيرون في كل مراحل تاريخ مصر الحديث بكل حسن النية، ومع ذلك، فقد كان لها أسوأ النتائج التي أساءت إلى مصر في الأوساط العربية، ومصر بذلك لا تدري، وكان لها تأثيرها السيء على العلاقات المصرية ــ العربية في كل الظروف؛ وهذه (الأخطاء) التي أرى فائدة اليوم بالإشارة إليها وإلقاء الأضواء عليها، ليست رسمية خالصة، بل هي شعبية أحياناً أيضاً، رسمية في أحيان أخرى، وهي (أخطاء) لم ولا تنفرد بها مصر وحدها دون غيرها من الأقطار العربية، بل إن كل قطر عربي مارسها بدوره عن غير ما قصد؛ وخلَّف بها ترسبات غير طيبة في نفوس أبناء شعوب أقطار عربية أخرى. ولعل هذا اللون الشائع من الأخطاء هو الذي ساهم وإلى حد كبير بتدمير تجربة الوحدة بين سورية ومصر؛ لأن السوري وهو يدخل تجربة الوحدة لم يكن على دراية كافية بالعناصر والمقومات والخصال التي تتشكل منها الشخصية المصرية الإقليمية التاريخية وطبائعها المتفرّدة؛ وأن المصري وهو يدخل تجربة الوحدة، لم يكن كذلك يعلم بدوره أن للشخصية السورية عناصر وخصال ذاتية مختلفة، تجعل مزاجها وطبائعها مختلفة عن طبائع ومزاج الشخصية المصرية الإقليمية التاريخية.

وقد يكون مؤسس علم الاجتماع، العربي المسلم، ابن خلدون، أول من تنبه إلى مسألة حتمية تأثير الطبيعة (بمعناها الجغرافي العام) بطبائع ومزاج المجتمع الإقليمي الطبيعي، بمعنى أن مزاج وطبائع شخصية الإنسان في المجتمع الصحراوي،تختلف عنها في شخصية إنسان مجتمعات أحواض الأنهار والمجتمعات الجبلية.. إلخ.. ولعل الأصل في نشوء المجتمعات وتطورها كان هو (المجتمع الطبيعي) الموحد الطبائع والمزاج؛ بمعنى أن الإنسان الذي أقام أو يقيم في الصحراء، كان وما يزال متميزاً بمزاج وبطبائع إقليمية تختلف عن مزاج وطبائع الإنسان الذي أقام ويقيم في حوض النهر، حيث يتوافر الماء، والزرع، وحيث يكون الإنسان في حضن الطبيعة هذه ذا

لطف ووداعة، وميالاً أكثر إلى المرونة والحبور والمرح، أكثر من ابن مجتمع الصحراء، على سبيل المثال، ومن هنا حدث التقارب بين الإنسان والآخر في المجتمع الطبيعي الواحد المتجانس، وبدأ تشكيل المجتمعات الإقليمية الطبيعية.

بل إن المجتمعات التي تقيم في مواقع حارة أقرب إلى خط الاستواء، لابد أن تكون كما نلاحظ مختلفة الطبائع والمزاج عن المجتمعات التي تقيم في مواقع معتدلة أو باردة أبعد عن خط الاستواء... من هنا يمكن اكتشاف أن إقامة أي مجتمع سياسي أو قومي، تتجاوز هذه الصلة المؤكدة بين الموقع الطبيعي الجغرافي، وطبائع ومزاج إنسان المجتمع الإقليمي المقيم فيه؛ تبقى معرضة للخلل أو الفشل أو الانهيار؛ وهو ما كان أدركه في العصر الحديث بعد ابن خلدون، مؤسس الحزب القومي الاجتماعي السوري أنطون سعادة، وما نراه اليوم مجسداً بشكل محسوس في (مجلس التعاون الخليجي) وفي (مجلس التعاون المغاربي) وما كنا نراه من قبل في الأسباب المسببة (لمعاهدة التكامل) بين مصر والسودان، وهي المعاهدة التي تم نحرها إلى حين.

وإذا كان يمكن القول إن السماء تضمُّ جميع من هم فوق الأرض، في كل مناطقها في كلٍّ واحد، فإن الثقافة العربية (وعمادها الأساس هو اللغة العربية الفصيحة) قد ضمت كل المجتمعات العربية الإقليمية في كلٍّ واحد، كذلك جميع الأقطار العربية بكل شعوبها التي تنتمي إلى ثقافة واحدة هي الثقافة العربية...

وبغض النظر عن الآمال والأماني والتطلعات المثالية العربية القومية الشعبية بتوحيد القوى العربية المبعثرة في دولة أو أكثر، ذات شكل اتحادي أو وحدوي، فإن واقع العلاقات العربية ــ العربية منذ بدايات عصر الاستقلال العربي وحتى يومنا هذا، أي منذ حوالي ثمانية وخمسين عاماً[1]، أكد أنَّ ما وحد وما يوحد العرب، ليس هو التاريخ المشترك، وليس هو

---

[1] كانت سورية أول بلد عربي يحصل على الاستقلال في 17-4-1946؛ ومن الممكن اعتماد هذا التاريخ كبداية لعصر الاستقلال العربي حيث بدأت الأقطار العربية تفوز بالاستقلال، واحدة بعد الأخرى، بعد ذلك.

الأخطار المشتركة الواحدة، وليس هو الأخوة المتبادلة المهملة، وليس هو التكامل الاقتصادي الأمل، وليس هو الانتماء إلى أصل عرقي واحد، وليس هو المصير الواحد المشترك كما يقول القائلون والأدباء والشعراء العرب في أيام المحن؛ وإنما الذي وحَّد وما يزال يوحد العرب هو الثقافة العربية الواحدة القائمة على أساس اللغة الواحدة العربية المشتركة.. وهذا يعني أن (العروبة) ما تزال حتى اليوم من الناحية العملية، (حالة ثقافية) فقط؛ وما دامت (العروبة) عملياً، هي كذلك، فإن ذلك ليُفسر لنا إذن لماذا انقسمت المجتمعات العربية المرتبطة بثقافة عربية واحدة إلى (مجتمعات طبيعية) أربعة، إقليمية قامت على أساس وحدة الشخصية الإقليمية المميزة، ووحدة المزاج الإقليمي الجغرافي، وهو مزاج غير موحد من حيث صلته بالساحة القومية الشاملة كل المجتمعات العربية.

ولعلنا نلاحظ أن الموقع الجغرافي الطبيعي لدول مجلس التعاون الخليجي، هو الذي أغرى بقيام مجلس التعاون الخليجي، وأن الموقع الجغرافي الطبيعي للدول المغاربية الأربع، الجزائر، المغرب، تونس، وليبيا، هو الذي أغرى بقيام مجلس التعاون فيما بين هذه الدول المغاربية، وأن الوحدة الطبيعية لوادي النيل هي التي جعلت العلاقات المصرية السودانية تكون دائماً شبه خصوصية، وأن الوحدة الطبيعية الجغرافية لما يسمى ببلاد الشام هي التي أفرزت مجموعة المشاريع المعروفة باسم سورية الكبرى أو الهلال الخصيب، وهي المشاريع التي اعتبرت كلاً من سورية ولبنان والأردن وفلسطين والعراق، مؤهلة من حيث وحدة أراضيها التاريخية الطبيعية، ووحدة مجتمعاتها من حيث المزاج والطبائع والشخصية الإقليمية للتوحد ضمن إطار المجتمع السياسي الثقافي الاجتماعي المتجانس الواحد.

وإذا كان القوميون العرب قد رفعوا شعار الأمة العربية الواحدة على أساس أن يتجاوز هذا الشعار مقولة أن المجتمعات العربية هي مجتمعات إقليمية أربعة، وليست هي مجتمعاً متجانساً واحداً، فإن هذا الشعار ظلَّ عملياً حتى اليوم ومنذ العام 1946 (وهو عام بداية عصر الاستقلال العربي الحديث) حُلماً متلألئاً تلألؤ السَّراب. وما أكدته مجموعة الممارسات الرسمية

والشعبية على صعيد العلاقات العربية ــ العربية بعد قيام وسقوط تجربة الوحدة بين سورية ومصر بصفة خاصة، لا يتطابق للأسف من الناحية العملية مع هذا الحلُم القومي العربي الوحدوي المتوهج توهُّج السراب، أو توهج الذهب العسير المنال.

وإذا كان الحلم العربي القومي الوحدوي قد انطفأت نجومه منذ نكبة العام 1967، وحلت محله شعارات بديلة في أواخر المرحلة المصرية الناصرية، كوحدة العمل العربي ووحدة الصف العربي، فإن مرحلة ما بعد العام 1973، وحتى اليوم شهدت، مع استمرار فلسفة أخرى جديدة هي فلسفة (التعاون) البديلة لشعار الوحدة أو الاتحاد؛ ومع ذلك فإن دوائر هذا (التعاون) تبلورت في غالبيتها فيما نلاحظ على أساس وحدة الشخصية العربية في مجتمعها الإقليمي الجزئي الطبيعي المتجانس، لا في مجتمعها العربي العام الأشمل، وكما أشرنا بسطور سابقة فإن المجتمعات العربية اليوم، فيما نرى، هي مجتمعات طبيعية أربعة:

1 ــ مجتمع شبه الجزيرة العربية والخليج ويضم جميع دول مجلس التعاون الخليجي (السعودية، الإمارات، سلطنة عُمان، البحرين، قطر، الكويت، وربما الجزء الجنوبي من العراق).

2 ــ المجتمع المغاربي في الشمال الأفريقي ويضم دول مجلس التعاون المغاربي الأربع (المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا) إضافة إلى موريتانيا التي آثرت عدم الانخراط في المجلس.

3 ــ مجتمع بلاد الشام أو سورية الكبرى، ويضم أراضي سورية بحدودها السياسية الدولية الحالية ولبنان والأردن وفلسطين، وربما الجزء الغربي من العراق.

4 ــ مجتمع وادي النيل، ويضم مصر والسودان.

هذا الانغلاق الرباعي لمجتمع الأمة العربية، لم تحدده في العصر الحديث قوة أجنبية عظمى ــ ولا إسرائيل وحسب كما يزعم البعض، وإنما هو انغلاق نفسي اجتماعي رباعي فرضته الطبيعة الجغرافية من حيث الموقع

والتضاريس والمناخ والنظام الغذائي المتوارث، والعادات والتقاليد الموروثة.. إلخ.. بل وفرضته بصفة خاصة الطبائع والخصال الإقليمية والمزاج الإقليمي الخاص لإنسان هذا المجتمع الطبيعي أو ذاك. هذا يعني ما ينبغي اليوم أن ندركه قبل فوات الأوان، وهو ضرورة أن يحاول العرب معرفة العرب بصورة أكثر دقة وجدية موضوعية؛ وأن يكتشف كل منهم الهوية المزاجية للآخر، ومفاتيح الآخر؛ وما يرضيه وما يغضبه، وما يسعده وما يزعجه.وأزعم أن المواطن المصري على سبيل المثال لم يكتشف حتى يومنا هذا مفاتيح الشخصية العربية الخليجية، ولا مفاتيح الشخصية العربية الشامية، ولا مفاتيح الشخصية المغاربية. وأزعم أن أهل سورية الكبرى، وعرب الجزيرة، والشمال الأفريقي المغاربي لا يزالون حتى يومنا هذا يجهلون كيف يمكن لهم التعامل بنجاح مع الشخصية المصرية ذات المزاج المتميز المختلف، والطبائع غير المتطابقة مع طبائع وخصال أهل بلاد الشام وأهل الجزيرة العربية وأهل الشمال الأفريقي المغاربي من عرب وبربر..

هذا الجهل المشترك المتبادل أدى إلى الكثير من سوء التفاهم المتبادل بين بعض الدول العربية وبعضها الآخر، وإلى اعتلال العلاقات فيما بين بعضها وبعضها الآخر في بعض الأحيان، ومن شأن التعرف على خصائص الشخصية المعاصرة للمواطن العربي في كل من المجتمعات الإقليمية الأربعة التي أشرنا إليها وحددناها، المساعدة على أن يتحاشى العربي بنجاح خطورة (التصادم النفسي السري أو العلني مع أخيه العربي الآخر المنتمي إلى مجتمع إقليمي طبيعي عربي آخر)، ومثل هذا (التصادم) كثيراً ما كانت له عواقب وخيمة شوَّهت لفترات متعددة متلاحقة العلاقات العربية ـــ العربية..

وقد أثبتت العلاقات العربية ـــ العربية خلال السنوات العشرين الماضية بصفة خاصة على أن جميع مستويات الممارسة الرسمية والشعبية، أن القومية العربية تحولت بعد سقوط الحلم العربي الوحدوي القومي من مساحةٍ أوسع تضم جميع الأراضي والمجتمعات العربية، ومن إطار شامل لكل أجزاء الأمة العربية ذي خصائص كثيرة منها الخصائص السياسية، إلى مجرد (حالة ثقافية) أكدتها وما تزال تؤكدها وحدة الثقافة العربية التي ما

تزال وحدها حتى اليوم تقاوم المزيد من البعثرة والتفكك العربي، فهي الموحِّدة لشعوب الأمة العربية، لكنْ، على أساس التعامل الثقافي الواحد المشترك وحده.

بغياب مفهوم (القومية العربية ـ Arab- Nationalism)[2] بمعناه الشامل كل المجتمعات الوطنية العربية، أصيبت العلاقات الشعبية العربية ـ العربية المتبادلة بالتقلُّص العضلي.

وشيئاً فشيئاً تبلورت فلسفة وحدة المجتمع الطبيعي ـ الجغرافي، وتجسَّدت في (مجلس التعاون الخليجي)، و(مجلس التعاون المغاربي) وانتعاش حُلم إحياء مشروع (سورية الكبرى) الذي يمكن النظر إلى الدور السوري في لبنان على أساسه، وعلى أساس أنَّ كل لبنان، من خلال هذا المنظور، جزء لا يتجزأ من الأراضي السورية الطبيعية الكبرى التاريخية، كما هي أرض فلسطين[3].. أيضاً، ولعل ذلك كله كما نرى، تجسَّد في مرحلة ظلت فيها العلاقات المصرية ـ السودانية، تتسم بخصوصية متميزة في حالتي الوفاق والخصام. وكل من مصر والسودان تقع في (وادي النيل) أي في منطقة طبيعية متجانسة واحدة. فما الذي يعني هذا كله؟ يعني أن الطبيعة الجغرافية لا المصالح السياسية، ولا المصالح الاقتصادية، هي التي فرضت مؤخراً تبلور هذه المجتمعات الإقليمية العربية الأربعة، وأن وحدة الطبائع والمزاج في المجتمع الإقليمي الطبيعي هي التي قادت إلى هذا (التبلور)

---

(2) قد يكون من المفيد الإشارة إلى أن الترجمة الحرفية الأدق لكلمة Nationalism هي (الوطنية) بمعنى الولاء (للأمة ـ Nation). وتعبير (الصحف الحكومية القومية) المستخدم في مصر على سبيل المثال يحمل في باطنه أن المصريين هم (أمة) وليسوا (شعباً) من أمة.. ونحن إذا شئنا استخدام كلمة تدل على أن مصر جزء من الأمة العربية علينا استخدام كلمة الوطنية بدل كلمة القومية.

(3) لعل هذا ما يكشف للكثيرين عن المبررات التاريخية والذرائع التي جعلت سورية تنظر إلى القضية الفلسطينية باستمرار على أساس أنها (مشكلة سورية ـ أولاً)، لأن فلسطين ضمن إطار مشروع سورية الكبرى هي القسم الجنوبي من الأراضي السورية، وهو ما نادى به أيضاً أنطون سعادة الذي طرح شعار (القومية السورية المرتبطة بأرض فلسطين كجزء من سورية الكبرى) مقابل (القومية الصهيونية المرتبطة بأرض فلسطين).

وأكدته كحقيقة اجتماعية أولاً. ومعنى ذلك أيضاً، بكل الصراحة وبكل الوضوح، أن الشخصية العربية المعاصرة منقسمة إذاً عملياً ونفسياً ووجدانياً جميعاً من حيث الطبائع والمزاج إلى أربع شخصيات:

1 ــ شخصية مجتمع شبه الجزيرة والخليج، وهي تتميز بطبائع وعناصر مزاجية مختلفة إلى حد ما، أو إلى حدٍّ كبير مع طبائع وعناصر ومقومات أمزجة الشخصيات الثلاث الإقليمية العربية الأخرى.

2 ــ شخصية المجتمع المغاربي في كل من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا وهي تتميز بطبائع وعناصر مزاجية مختلفة إلى حد ما أو إلى حد كبير مع طبائع وعناصر أمزجة الشخصيات الثلاث الإقليمية العربية الأخرى.

3 ــ شخصية المجتمع الشّامي الكبير في كل من سورية ولبنان وجزء من العراق والأردن وفلسطين بما فيها سيناء (التي يرى أنطون سعادة أنها تشكل قشرة جنوبي سورية باعتبارها آسيوية غير أفريقية متصلة بصحراء النقب)، وهي تتميز بطبائع وعناصر مزاجية مختلفة إلى حد ما أو إلى حد كبير مع طبائع وعناصر أمزجة الشخصيات الثلاث الإقليمية العربية الأخرى.

4 ــ شخصية مجتمع وادي النيل في كل من مصر والسودان، وهي تتميز بطبائع وعناصر ومقومات مزاجية مختلفة إلى حد ما، أو إلى حد كبير، مع طبائع وعناصر أمزجة الشخصيات الثلاث الإقليمية العربية الأخرى.

وقد يلاحظ أن العراق بحدوده الحالية لم يرد ضمن إطار هذا التقسيم الرباعي؛ وعلى الرغم من أن مشروع سورية الكبرى أو مشروع الهلال الخصيب يعتبر أرض العراق جزءاً من أرض سورية الكبرى أو الهلال الخصيب، فإن الموضوعية تقضي بالاعتراف بأن للمجتمع العراقي، وقد أقمت فيه مدة سنتين متصلتين، طبائع وخصائص ومقومات مزاجية وخصالاً مختلفة عن طبائع وخصائص مزاج المجتمع السوري الكبير، وإذا لم نتفق على مقولة إن العراق، من الناحية المزاجية، عراقان: سوري في جانبه

الغربي، شبه خليجي في جانبه الجنوبي الشرقي، فإن من الممكن القول إن المجتمع العراقي المعاصر يتميز بطبائع وخصائص ومقومات مزاجية، شديدة الخصوصية، ينفرد بها وحده تماماً.

وإنني لأزعم أن العربي لا يعرف حتى الآن العربي الآخر بالمقدار الذي يؤهلهما لإقامة علاقات مشتركة، نفسية، وجدانية، مطهرة من شوائب التَّضاد المشترك الباطن المفاجئ العارض، والنفور المتبادل غير المعلن أحياناً. وليس صحيحاً قط أن العربي يعامل العربي الآخر عملياً، كما يعامل الأخ أخاه حقاً. إن (الأخوة العربية) أصبحت كما نلاحظ (مادة إعلانية) و(كلمات للمجاملات) المتبادلة في المناسبات المختلفة وهي في الغالب ليست سوى نقوش وتطريز وفسيفساء لتجميل ظواهر العلاقات العربية ــ العربية بين حين وآخر، وبذلك أصبح العرب جميعاً باللعبة البيضاء هذه الجميلة، مخدوعين، وخادعين، لأنهم يحرصون بذلك على أن يزعموا ما ليس هو حقيقة ولأن الحقيقة تؤكد اليوم أن العلاقات العربية ــ العربية، لا تحكمها عملياً مشاعر الأخوة والأسرة الواحدة، بل تحكمها للأسف معادلات الربح والخسارة، والمصالح المادية أو السياسية، وكلها ليست من الثوابت، بل من المتغيرات تأثراً بالمعطيات الجديدة والتحولات المتجددة باستمرار.

لكن، وعلى الرغم من قسوة الحقيقة هذه التي يُحزِنُ الاعتراف بها، أو إعلانها هكذا صراحة دون لف ولا دوران، قلوبنا جميعاً، فإن انتعاش الآمال بتكامل تحقيق التضامن العربي، يفرض على كل مجتمع عربي إقليمي من هذه المجتمعات الأربعة التي حددناها، أن يسعى للتعرف، الجاد الدقيق على خصائص الشخصية العربية التاريخية في مجتمعاتها الإقليمية الأربعة، وطبائعها ومقومات مزاجها المتميز الذي يحكم مشاعرها وتصرفاتها، ويؤثر على علاقاتها بالعرب الآخرين. ولعل مصر تكون هي المعنية أكثر، أولاً، بالقضية الهامة هذه البسيطة الشائكة المركبة، لأنها بدأت تتصدى من جديد لأداء دورها القيادي في العالم العربي، ولأنَّها قد تصبح كعبة السياحة العربية مرة أخرى، ولأن مقر جامعة الدول العربية يعود إلى القاهرة في موعد لاحق غير بعيد؛ ولأنها ستكون البيت المقصود للعرب الآخرين جميعاً،

وبؤرة مركزية للنشاط السياسي العربي الخاص بكل القضايا القومية. ولعل من المفيد أن تحاول مصر بصفة خاصة أن تتعرف وبالسرعة الممكنة، على نوازع ومقومات أمزجة وطبائع أهل بلاد الشام والدول المغاربية ودول شبه الجزيرة العربية والخليج، فطبائع وأمزجة هؤلاء تختلف حتماً عن الطبائع ومقومات المزاج المصري؛ ولا يصح أن يتعامل المصري في المرحلة المقبلة مع الشامي أو الجزائري أو العراقي أو الخليجي أو السعودي، على سبيل المثال، كما اعتاد أن يتعامل مع أخيه المصري ذي المزاج المشابه لمزاجه الخاص، الوطني الإقليمي.

وقد يكون من المفيد جداً أن تدعو إحدى المؤسسات المصرية ذات الاختصاص كمركز الدراسات والبحوث الاجتماعية والسياسية في مؤسسة الأهرام أو إحدى الهيئات الأخرى المتخصصة، إلى عقد مؤتمر في القاهرة يكون شعاره هكذا: (الشخصية العربية المعاصرة: خصائصها وطبائعها ومقومات مزاجها في أقاليمها العربية الأربعة). يشارك فيه عدد من علماء النفس وعلماء الاجتماع وخبراء السياحة، والسياسة العرب، ونماذج من السياح العرب من مختلف المجتمعات العربية الأربعة ومن مختلف مراحل العمر، تجرى فيه دراسة ميدانية لخصائص الشخصية العربية المعاصرة، وطبائعها، ومقومات مزاجها، والتعرف على ما يرضيها وما يغضبها حين تزور موطناً عربياً آخر غير موطنها الإقليمي أو القطري...

(3)

عن العرب الذين لا يعرف بعضهم بعضاً*

من المؤسف أن يلاحظ المفكرون العرب اسياسيون والكُتّاب الصحافيون والمحسوبون على جميع المؤسسات الحكومية في النظام العربي القطري المعاصرون، تكرُّر ظاهرة ما تكاد تختفي حتى تطفو مرة أخرى على سطح الأحداث على مستوى العلاقات العربية ـ العربية، وما تكاد تظهر حتى تختفي، لكن، إلى حين. من المؤسف أن يلاحظ هؤلاء جميعاً آلية هذه الظاهرة المربكة لسيولة العلاقات العربية ـ العربية، لا الرسمية فقط أحياناً، بل الشعبية في أغلب الأحيان، دون أن يحاولوا تفسير سبب استمرار تواجدها كلغمٍ مؤقت كامن لا في صدور الحكومات العربية بل في صدور الشعوب العربية نفسها، ولماذا هي كانت في الأصل، ولماذا هي باقية كامنة تتحفز لفرض ذاتها على صعيد العلاقات العربية ـ العربية بين حين وآخر.

ولأننا نرى من جانبنا أن اللف والدوران من حول هذه الظاهرة لا يلغيها، وأن التغاضي عنها واحدٌ من أهم أسباب استمرارها، وأن الخوف من الكتابة والحديث علناً صراحةً عنها هو خوف الطبيب الجبان الجاهل من تشخيص علة المريض، وأن الكشف عن هوية الداء هو الخطوة الأولى نحو المداوة والمعالجة على أمل تطهير المريض من مرضه، والعليل من علته وأسبابها ومسبباتها، فقد رأينا ضرورة أن نحاول ذلك من جانبنا بصفتنا من المتخصصين بـ (الطب والتطبيب الشعبي العربي)، وبصفتنا لا من الأطباء بل من المجربين الذين أوصى المثل الشعبي باللجوء إليهم عند الملمات: (اسأل مجرب ولا تسأل حكيم)..

من موقعنا التجريبي الميداني خلال الأربعين عاماً الماضية في عدد من المجتمعات الإقليمية العربية؛ نرى أنه قد آن الأوان للمجاهرة بما قد

* كتبت هذا المقال، ربما في العام 1988، وأرسلته إلى المرحوم الأستاذ لطفي الخولي المشرف على صفحة (الحوار القومي) في (الأهرام). فلم ينشره.

لا يجاهر به غيرنا، وهو أن (العروبة) ما تزال حتى الآن (حالة ثقافية) ليس أكثر، وأن وحدة الأمة العربية من المحيط إلى الخليج كانت وما تزال حلماً أو أملاً يريد بعضنا أن يتحقق، وترفض الغالبية العربية أن يكون، مستندة في رفضها هذا إلى ذرائع ومسوغات وتبريرات نراها من جانبنا قابلة للإزالة رغم أنها موضوعية.

وما دامت (العروبة) حتى اليوم حالة ثقافية فهذا يعني أنها لم تُسيس حتى اليوم بعد، رغم كل ما يقال عكس ذلك؛ وهي لم تشمل بعد حتى الأحوال الاجتماعية العربية الإقليمية التي هي في رأينا، وكما اكتشفناها من خلال ممارساتنا العملية التجريبية الميدانية أحوال اجتماعية منقسمة إلى أربع تجمعات اجتماعية متمايزة، تفصل فيما بين كل منها، والأخرى، حدود وفواصل غير مرئية، لكنها فواصل حقيقية، لأنها حدود وفواصل نفسية تتصل اتصالاً مباشراً بالهوية الجغرافية المزاجية الطبيعية التاريخية، وبالطبائع المميزة لكل مجتمع إقليمي من هذه المجتمعات العربية الأربعة التي مرّ ذكرها.

ولعل من الأهمية بمكان الآن توضيح أننا لا نضع هذا التقسيم الإقليمي للمجتمعات العربية من منظور سياسي، ولا بهدف رسم حدود سياسية دائمة فاصمة بين هذه المجتمعات العربية الإقليمية الأربعة، وإنما نحن نحاول اليوم بصراحة، ربما بشجاعة أيضاً، التقاط (صورة فوتوغرافية) بعدسة حيادية لجانب غير مرئي للعيون من الواقع العربي الموضوعي الراهن، هو الجانب المتعلق بما يحلو لي أن أسميه بـــ (المزاج الجغرافي) والطبائع والخصال المتميزة لمجتمع طبيعي معين، وهي طبائع وأمزجة وخصال تلعب الجغرافية الطبيعية دوراً أساسياً بتحديد ملامحها وهويتها وخصالها ومقوماتها المميزة؛ وهو ما كان أشار إليه (ابن خلدون) في مقدمته الشهيرة، بصفته التاريخية كمؤسس لعلم الاجتماع، وما اكتشفنا نحن بدورنا من خلال ممارساتنا الميدانية، أنه حقيقة اجتماعية، بل حتمية اجتماعية لا ينبغي تجاهلها ولا تجاوزها، ويخطئ المتصدُّون للعمل السياسي في عالمنا العربي كثيراً إن هم أنكروها ولم يأخذوها بعين الاهتمام والاعتبار في أية مناسبة وفي أية مرحلة

حاولوا أو سيحاولون فيها أن يدفعوا المجتمعات العربية نحو التقارب أو الاتحاد أو الوحدة.

لقد عشنا خلال الأعوام الأربعين الماضية متنقلين بين مجتمع عربي إقليمي، لا كتجار، ولا كموظفين باحثين عن مناصب ورواتب مالية، بل كقوميين عرب وحدويين صادقين. ولعل سنوات التشرد،والسجن، والمنافي، والفقر والتعرض لأكثر من محاولة اغتيال، تعطينا اليوم الحق في أن نعبِّر بوضوح لأمتنا العربية التي كرسنا حياتنا من أجل قضاياها الكبرى، عن جزء من العبر والدروس والحقائق الموضوعية المستفادة التي اكتشفناها خلال مسيرتنا التجريبية الميدانية الطويلة، بخاصة هذا الجزء الذي نرى أن المناسبة قد حانت اليوم للتعبير عنه في الأيام هذه التي شهدت فيها العلاقات الشعبية المصرية ـ العراقية، والعلاقات الشعبية المصرية ـ الجزائرية، أحداثاً مؤسفة للغاية في مناسبة إجراء مباراة لكرة القدم بين مصر والجزائر انتهت بفوز مصر، وبفقء عين طبيب مصري شاب بشظية زجاجية قذفها في وجهه لاعب الكرة الجزائري الشاب (بللومي)؛ وفي مناسبة عودة مئات العمال المصريين من العراق إلى مصر أحياءً وموتى؛ وهي أحداث تحزن القلب، وتخلف فيه شعوراً بالمرارة، لا نحو طرف عراقي أو جزائري أو مصري بعينه، بل نحو إصرار جميع المفكرين والكتاب العرب الذي علَّقوا على هذه الأحداث فأجمعوا، على إدانة هذا الطرف أو ذاك، بينما الطرف المدان ليس أي طرف من هذه الأطراف الثلاثة، وإنما هو طرف رابع لم يحاول هؤلاء المعلقون المعقبون التعرف عليه يوماً للأسف؛ وهو (الاختلاف البيِّن) بين الأمزجة والطبائع العربية الإقليمية، الأربعة، التي أشرت إليها بسطور سابقة.

وإنني لأزعم أن العربي قد يعرف اليوم الفرنسي، والبريطاني، والإيطالي، والأمريكي.. إلخ لكن العربي لا يعرف العربي الآخر، وما يزال الكثيرون يعتقدون خطأً أن (قومية اللسان) تؤدي إلى (قومية الطبائع) وإلى تقارب الأمزجة الإقليمية، أو إلى تحالفها استناداً إلى تمازج المصالح.

إن اللغة المشتركة الواحدة، لم تؤد حتى اليوم فيما نلاحظ إلى إلغاء الفواصل النفسية بل الفواصل الوجدانية المتمثلة بالمزاج الاجتماعي للمجتمع الإقليمي الطبيعي بين هذه المجتمعات العربية الأربعة. ولعل الفواصل التاريخية هذه ما تزال حتى اليوم قائمة، لأن أحدا لم ينتبه إلى خطورتها بالمقدار الكافي، وبالتالي لم يحاول أن يدعو إلى إزالتها حتى يبدأ التعاون والتضامن العربي، لا بالمشاريع السياسية أو العسكرية والاقتصادية المشتركة، على سبيل المثال، بل بالمشاريع الخاصة بإزالة الفواصل النفسية الاجتماعية المزاجية القائمة بين المجتمعات هذه الإقليمية الأربعة، بدءاً بالاعتراف بأنها موجودة كظاهرة من ظواهر نشوء المجتمعات الإقليمية، بهدف إزالتها.

في الأمثلة المصرية الشعبية مثل شعبي قديم يقول: (إيش لمْ الشامي على المغربي؟) بمعنى أن الشامي، والمغربي، من حيث الطبائع والمزاج، لا يلتقيان. وتوافر وجود مثل شعبي هام كهذا في مصر منذ مئات السنين، يعني أن جيلاً أو أجيالاً غيرنا، قبلنا، قد تنبهت إلى الظاهرة هذه المؤسفة، في الوقت الذي عجز السياسيون والكتاب الصحافيون المعاصرون في جميع أنحاء العالم العربي عن اكتشافها؛ وعن إلقاء الأضواء الكاشفة عليها، لا بهدف جعلها تظل ثابتة مكرسة خالدة، بل بهدف معالجتها كظاهرة مَرَضيّة تعوق وحدة الأمة العربية؛ ووضع الحلول لها.

أفلا تلاحظون، كما نلاحظ، أنه في كل مرة اقترب فيها شعب عربي إقليمي من شعب عربي إقليمي آخر انتهى التقارب هذا إلى النفور الشعبي المشترك المتبادل بينهما.. ولو إلى حين؟ هل الحكومات هي حقاً، دائماً المتسببة؟ أم أن المسألة تتجاوز قدرة الحكومات ومهماتها الرسمية الإيجابية والسلبية؟

قبل قيام الوحدة بين سورية ومصر كان ثمة عشق حقيقي عتيق متبادل بين الشعب العربي السوري والشعب العربي المصري، ولم يكن عبد الناصر هو المتسبب أبداً في إيجاد تلك الحالة من العشق المتبادل العظيم بين الشعبين، كما يظن البعض خطأً.

بعد أشهر قليلة من قيام الوحدة بين مصر وسورية بدأ المصريون يتذمرون سراً من السوريين؛ وبدأ السوريون يتذمرون سراً من المصريين.

هذه حقيقة عشتها بنفسي بصفتي صاحب صلة عضوية بالتجربة الوحدوية، وبتجربة الانفصال.

لا تصدقوا أن تحطُّم تجربة الوحدة كان نتيجة لمؤامرة خارجية وحسب. لقد تآكلت تجربة الوحدة ذاتياً وتحطمت من قبل أن تقوم في دمشق حركة الانفصال في 28-9-1961 لم تكن (أخطاء الوحدة) فقط وحدها هي المتسببة فيما حدث لتجربة الوحدة من دمار ذاتي، ولا أقول من تدمير.

إن أهم أسباب دمار تجربة الوحدة بين سورية ومصر، هو أن المصريين كانوا يجهلون مفاتيح الشخصية الشامية التاريخية الآسيوية ومزاجها وطبائعها؛ وأن السوريين بدورهم كانوا يجهلون هوية المزاج المصري، وطبائع أهل وادي النيل الأفريقي، ومقومات الشخصية المصرية التاريخية النفسية المزاجية.

لقد أقدم المصريون والسوريون على التحالف والاندماج بإقامة (الوحدة) وكل منهما يجهل طبائع الآخر تماماً؛ وما حدث في عهد الوحدة أن الطبائع المصرية والطبائع السورية، تصادمت بعنف في السر، فتهشمت تجربة الوحدة علناً من بعد هذا التصادم.

على أساس هذا القياس ينبغي فهم الأسباب العميقة لحدوث ما حدث مؤخراً للمصريين العاملين في العراق الذينْ توجهوا إلى بلاد الرافدين جماعات، دون أن يكون واحد منهم على معرفة مسبقة بأن للشخصية الإقليمية العراقية ــ بغض النظر عن المقولات والطروحات السياسية القومية الوحدوية الأخرى ــ مزاجاً مختلفاً عن مزاج الشخصية المصرية التاريخية، وطبائع وخصالاً تختلف عن طبائع وخصال أهل مصر الإقليمية الطبيعية.

إن التطرف والصلابة، وأحياناً العنف في اتخاذ المواقف الإيجابية أو السلبية؛ هي سمات ثابتة دائمة من سمات الشخصية العراقية التاريخية، ومثل عناصر ومقومات كهذه قد تكون هي التي ساعدت العراق على أن يخوض مع إيران أطول حرب في تاريخ الحروب العسكرية، بينما نرى أن اللاتطرف وعدم الصلابة، كذلك الميل نحو اللاعنف ونحو الحبور ونحو التسامح والنسيان والبساطة، هي سمات ثابتة من سمات الشخصية المصرية

التاريخية والمعاصرة الموروثة... وقد أشار الصديق الراحل الدكتور جمال حمدان في مؤلفه الملحمي في أجزائه الأربعة (شخصية مصر ـ دراسة في عبقرية المكان) إلى توصيف الشخصيتين المصرية والعراقية، على هذا النحو الموجز المعبر بفصاحة اجتماعية بليغة موضوعية. هذا يعني ـ موضوعياً ـ أن المتسبب الحقيقيٍ فيما جرى مؤخراً بين المصريين والعراقيين على مستوى الشعبين لا الحكومتين؛ هو جهل الشخصية المصرية طبائع وهوية ومقومات مزاج الشخصية العراقية، كذلك جهل الشخصية العراقية طبائع وهوية ومقومات مزاج الشخصية المصرية: الحكومتان تتقاربان، والشعبان يتباعدان من خلال الاحتكاك المباشر. وهذه اليوم هي الحقيقة التي لا يفيد إغفالها أي طرف عربي.

لقد كتب الناقد الرياضي المرحوم نجيب المستكاوي في جريدة (مايو) ـ وهو في الأساس متخرج من قسم الفلسفة في كلية الآداب، وكلامه على هذا الأساس محسوب عليه تماماً، تعليقاً حول حادث قذف لاعب كرة القدم الجزائري (بللّومي) طبيباً مصرياً، بشظية زجاجية، أدّى إلى فقء إحدى عينيه كما قيل، وقد وصف المستكاوي فيه الجزائريين بأنهم (بدوٌ طوارق متخلفون بربر) ولم يكن ذلك منه تعليقاً على ما حدث، بل قذفاً بشظية زجاجية أخرى كامنة في قاع الشخصية المصرية التاريخية المعتدة أبداً بذاتها اعتداداً لا يفوقه اعتداء آخر، كادت أن تفقأ عيني العلاقات المصرية ـ الجزائرية، فقئاً قد يؤدي إلى العمى المؤكد.

وأنا الآن لا أكتب هذه السطور دفاعاً عن (بللومي) الجزائري الذي لا أعرفه؛ والذي لم أشاهده يوما يرفس الكرة بقدمه.. بل إنني في الأساس لست من هواة كرة القدم، ولا من متتبعي أخبار نشاطات نجومها وملاعبها ومبارياتها؛ وقد أحزنني إلى حد الشعور بالغضب اعتداء مواطن عربي على مواطن عربي آخر اعتداءً فقأ به عينه لأسباب تتعلق برفس الأقدام كرةً من جلد منفوخة بالهواء؛ في الوقت الذي تغاني منه أمتنا العربية من خطر انقراضها، ويعاني فيه (الرغيف العربي) من احتمال اختفائه.. لكنني حزنت جداً حين قرأت ما كتبه الناقد الرياضي المستكاوي المصري، واصفاً

الجزائريين بأنهم (بدو متخلفون غير متحضرين وبربر)؛ وهم الشعب الذي انتزع استقلاله بمليون شهيد، وحظي بمساندة من شعب وحكومة مصر لا ينساها شعب الجزائر.

لكنني غفرت للناقد الرياضي، بيني وبين نفسي، هذه الزلة القلمية الشعوبية الاستعلائية التي جاءت منسجمة مع استياء شعبي مصري عارم، من (بللومي) الشخص، وليس من الجزائر، الدولة الشقيقة والشعب الشقيق. لكنني، مع ذلك أرى فائدة في ضمّ هذه الواقعة إلى هذا الموضوع الذي أحاول اليوم طرحه؛ لأنها تساعد كما أقدر على تفسير أهميته، والجدوى من إلقاء الأضواء عليه.

لقد سبق لي أن عشت في العراق في الستينيات مشرفاً على حملة إذاعية ضد نظام ميشيل عفلق في دمشق مدة سنتين، تعرفت خلالهما على المزاج والطبائع العراقية بكل جوانبها السلبية والإيجابية. وسبق لي أن عشت فترة من حياتي في الجزائر في منتصف السبعينيات كمبعوث ديبلوماسي من دولة الإمارات، وأزعم أنني تعرفت خلالها على المزاج والطبائع الجزائرية ولعل من المفيد أن أفيد بما يلي:

إن أبرز سمات الشخصية الجزائرية ميلها نحو السلوك الحاد، وعدم الحبور، وميلها إلى الصراحة مع الشجاعة والوضوح. الجزائري صادق مع نفسه ومع غيره. إذا ما غضب منك سارع إلى العِتاب أو الانفجار، وإذا ما وعدك عاهدك بصدق بوعده وعهده، وإذا ما صادقك صدق في صداقته. وهو لا يغدر بك ولا يخونك. ولا يحابيك، ولأنه جاد في كل الأحوال والظروف؛ فهو نفور من السخرية والمضاحكة والساخرين والمتضاحكين، وهو لا يسخر من الذين قد يتفوق عليهم، ولا يقبل بأن يسخر منه أحد إذا ما تفوق عليه هذا الأحد. الجزائري صعب المراس كحصان جموح، لكنه صادق شجاع، وهو رجل المصارحة والمواجهة في كل الظروف، وربما تكون هذه من عناصر طبائع مجتمعات أهل الجبال بصورة عامة.

لقد انهزم الفريق الرياضي الجزائري في المباراة، والجزائري بصورة عامة معتد أيضاً بذاته وتاريخ شعبه، شديد جداً في ممارسة الحرص على كرامته في كل الظروف. وقد توجه لاعبو الفريق الجزائري إلى الفندق بعد

انتهاء المباراة وهم في حالة إحباط شديد، وكان من الخطأ الفادح أن يوجّه إليهم أحد من المصريين الطيبين ــ وهؤلاء الجزائريون كانوا ضيوف مصر ــ أيّ نوع من كلمات (التهكم) و(السخرية) و(التريقة) المصرية الشهيرة؛ وربما كان الأفضل، المواساة وليس (التريقة) و(السخرية).

إن من المعتاد أن (يتتريقَ) (الأهلاويون) على (الزملكاويين) مثلاً في مصر، بعد مباراة ينتصر فيها الفريق (الأهلاوي) على (الزملكاوي)، وأن يتقبل الزملكاويون من الأهلاويين هذه (التريقة) بشن دفاع مضاد بالنكات و(التريقة) المضادة!. هذه المداعبة هي من سمات مجتمعات أحواض الأنهار والماء الوفير. لكنَّ الجزائريين ليسوا في هذا كالمصريين يعيشون في حوض النهر، ولا أحد يستطيع أن يغير طبائع الشعوب الإقليمية التي أنشأتها طبيعة جغرافية معيّنة، وأصبحت صفة اجتماعية غريزية ثابتة يتوارث جيناتها جيل بعد جيل. وليس من شك في أن ما هو أفضل وأنجع أن يحاول كل مجتمع إقليمي من مجتمعاتنا العربية الإقليمية الأربعة، التعرف إلى هوية مزاج وطبائع وخصال المجتمعات العربية الإقليمية الثلاثة الأخرى، حتى لا تتباعد الشعوب العربية بعضها عن بعضها الآخر كلما تقاربت في لعبة سياسية أو لعبة رياضية.

ومن خلال تجربتي الشخصية اكتشفت خلال إقامتي في العراق على سبيل المثال أن المجتمع العراقي غير ميالٍ للمداعبات على الطريقة المصرية والشامية، فهو في الغالب مجتمع صارم حادّ غير ضحوك كالمصريين وكأهل بلاد الشام على سبيل المثال، وغالباً ما لا يستسيغ أن يقول النكتة ولا أن يسمعها من غيره إلا فيما ندر؛ وأنه في الغالب ميال بطبعه إلى الكتمان وإلى عدم المصارحة؛ وإلى الانفجار بالتراكمات عند الغضب، دون أن يسبق ذلك تمهيد أو نقد أو عتاب، وإلى أن يكون هو المؤثر لا المتأثر، وإلى أن يكون هو المتبوع لا التابع، وإلى استخدام السكين أحياناً بدل اللسان.

واكتشفت خلال إقامتي تسع سنوات في تونس، على سبيل المثال أيضاً، أن التونسي لا يغفر الإساءة قط، وأن الابتسامات عنده على الشفاه غالباً ما تكون جزءاً من الصناعة السياحية، أو الوداعة الدبلوماسية المصنوعة غير العفوية،

وأن ما يبدو للآخرين منه رقةً ونعومةً إنما هو الغطاء المهذب الجميل الذي لا يمت إلى الرقة والنعومة بصلة؛ وهو في العادة حريص على أن تبقى بينه وبينك حدود فاصلة لا يسمح لك بالتدخل في شؤونه، وهو بالمقابل لا يحاول التدخل قط في شؤونك إلا إذا دعوته إلى ذلك.

ولعليّ بعد فوات الأوان، وبعد انقضاء أربعة وثلاثين عاماً على بداية صلتي المباشرة بمجتمع أهل الخليج، اكتشف، على سبيل المثال أيضاً، أن ذكاء البدوي الفطري، يتجاوز ذكاءنا نحن أهل المجتمعات الأقدم بالتحضر، وأن الخليجي قد يتظاهر أمامك بأنه لا يعلم، وهو في حقيقة أمره على علم دقيق جداً بما يزعم أنه لا يعلم به وأن أهل الصحراء نفورون من المتحدثين لمدة مستمرة طويلة بأصوات ذوات نبرات عالية، وأنه قد يكون مستحيلاً أن تستعيد ثقتهم بك إذا ما فقدتها حتى وإن تكن في ذلك مظلوماً، وأنهم يؤثرون أن تختصر بالحديث والكتابة فلا تسهب ولا تطيل؛ فإذا ما أسهبت وأطلت، قاطعوك أو أهملوك ثم ابتعدوا عنك أو أبعدوك عنهم بالإهمال، حتى وإن تكن آينشتاين أو أرسطو أو سقراط، أو أعظم عالم مفكر فنان في الكون كله! وغالباً لا يستخدمون أيديهم في معارك الخصام، بل إن ذكاءهم الفطري، وقدرتهم الفائقة على تحقيق المآرب، إنما يستخدم سلاح العقل والمباغتة بهدوء. ورغم أن أهل الخليج لا يفضلون في الغالب المواجهة ولا المصارحة من جانبهم، ولا المعاتبة من الأطراف الأخرى، فإنه يكون مترتباً عليك أن تُعبِّر عن حاجتك إن تكن لك عندهم حاجة تود أن يقضوها لك، هكذا مباشرة بوضوح، وباختصار شديد ودون أي لف ودوران. ورغم كرم العربي، التاريخي، فإن الابتزاز يؤذي مشاعره جداً؛ ويزعجه بشدة أن يعامله الآخرون فقط على أساس أن غني ثري، وأن عليه أن يعطي دون أن يأخذ. وقد تحولت المسألة هذه إلى عقدة نفسية خليجية في السنوات الأخيرة، وجيل الشباب الخليجي يحاول أن يأخذ دون أن يعطي أو أكثر مما يعطي.

إننا في مناهج برامج التعليم في العالم العربي نعطي أبناءنا وبناتنا، لمحاتٍ ومعلومات عن مختلف مناطق العالم العربي من النواحي الجغرافية الطبيعيةً، والسياسية، والاقتصادية، والزراعية.. إلخ.

لكنَّ جميع مناهج التعليم العربية في كل الأقطار العربية، ما يزال فيه نقص وقصور يجعلان المواطن العربي في أي مجتمع إقليمي عربي لا يعرف شيئاً عن طبائع الشخصية العربية في المجتمعات العربية الإقليمية الأخرى.

إن العرب لا يعرفون العرب؛ ونحن ندعوهم إلى أن يعرف بعضهم بعضاً أكثر؛ ونرى أن هذه هي الخطوة الأولى نحو عصر الوفاق والتضامن الشعبي العربي القائم على التفاهم المتبادل، وهو عصر ما نزال بعدُ نعيش حتى اليوم، خارج حدوده.

إنني أدعو مراكز الدراسات والبحوث العربية إلى الاتصال بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية لإقامة مؤتمر عربي في القاهرة، تنقله الأقمار الصناعية إلى جميع محطات التلفزيون والإذاعات العربية في العالم العربي، على أن تشارك به كوكبة من علماء النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد العرب، كذلك كوكبة من المرشدين السياحيين العرب، ونماذج من المواطنين العرب الذي سبق لهم القيام بزيارات لأقطار عربية أخرى غير أوطانهم، أو الإقامة في دول عربية أخرى غير الدول التي ينتمون إليها، وبحيث يلتئم هذا المؤتمر تحت العنوان: (ملامح طبائع الشخصية العربية المعاصرة)؛ ولست أشك في أن مؤتمراً مقترحاً عربياً كهذا تشارك به الدول العربية جميعاً، وتنقل جلساته عبر الأقمار الصناعية إلى جميع شاشات التلفزيون والإذاعات العربية، ستكون له فوائده الجمّة في تعزيز العلاقات الشعبية العربية ـ العربية على المدى القريب وعلى المدى البعيد؛ وفي منع تكرار مثل هذا الذي حدث مؤخراً بين عدد من أفراد الشعب المصري والعراقي، في العراق، وبين رافس كرة القدم الجزائري والطبيب المصري الشاب. الذي لا أعرف اسمه، لكنني لن أنس اسم فاقئ عينه بشظية زجاج، وهو بطل رفس الكرة الأشهر في الجزائر: بللومي!. *

* بللومي (الأبلم) في اللغة العربية، هو من انتفخت شفته السفلى. وفي المصرية العامية يصفون الغضوب بـــ (المبلّم)، وهي كلمة فصيحة بمعنى (المبوّز) أي من انتفخت شفته السفلى، أو الشفة العليا والسفلى في آن.

(4)
الحصـــاد الفاجـــع ... *

لست أجد حرجاً في إعلان أن الممارسات الميدانية الاجتماعية والسياسية التي أمضيت نيفاً وثلاثين عاماً حتى اليوم وأنا منشغل عملياً بها، في الكثير من المجتمعات العربية الآسيوية والأفريقية، كشفت لي في النهاية أن (العروبة) بمضمونها العملي خلال المرحلة هذه من تاريخ منطقة الشرق الأوسط، ليست سوى (حالة ثقافية)، وأن عربياً واحداً تقترب منه أو تحاول الاستيطان في القطر الذي ولد هو فوق أرضه، لن يسقط الجدار الخفي الغامض غير المرئي الفاصل بينك وبينه، وإن تكن أمُّك قد ولدتك فوق أرض قطر عربي آخر غير القطر الذي كان فيه مسقط رأس هذا العربي الآخر الذي أعنيه، والذي يرفضك كمواطن وافد طارئ في وطنه، إن حاولت أن تشاركه في المواطنة الدائمة في وطنه.

فرحم أمك إذاً هو الذي يتولى تحديد هوية انتمائك الجبري، الوطنية، شئت أو أبيت.

إن التجربة العملية الشخصية الميدانية قد أكدت لي أن (الأخوة العربية) ليست في الغالب سوى شكل من أشكال العلاقات البروتوكولية ـ المتبادلة التي تخفي جميع الأطراف بها الحقائق الأخرى (الشعورية) الخفية، وذلك بالمجاملة اللفظية الشبيهة بمرهم يدهن به الجرح لأسباب علاجية أو وقائية، إلا أن المراهم المغطية للجروح والقروح غالباً لا تُشفي، بل هي قد تُخفي لا أكثر.

ثلاثون عاماً ونيف من الممارسات الميدانية كشفت لي على نحو فاجع للغاية أن (العروبة) ليست حتى اليوم سوى (حالة ثقافية)، وأنها إذ ليست هي البوتقة التي سقطت فيها حقاً عملياً الفواصل بين هذا الإقليم العربي وذاك كما نزعم، وهي بوتقة لم يتحقق فيها بعد حتى اليوم حلم طموح أي عربي بأن

* كتبت هذا المقال عام 1988، وأرسل إلى رئيس تحرير جريدة (الوفد) المصرية، فلم يُنشر.

يكون له حق الاستيطان والمواطنة فوق أرض أخرى عربية غير الأرض التي وضعته فوقها رحم أمه من الأراضي العربية. فكأنما أرحام الأمهات هي وحدها التي تحدد الانتماء الوطني شبه القومي للإنسان العربي، منذ اللحظة الأولى لمولده وبصورة نهائية.

ولئن تكن الأحزاب والحركات العربية هي التي رفعت منذ بدايات هذا القرن شعار (العروبة) و (القومية العربية) فإنّ مجموعة الممارسات الرسمية والشعبية العربية أكدت لي أن الشخصية العربية القطرية ظلت حريصة على استقلالها الشعوري المزاجي، وأنها غير مستعدة للتضحية بخصائصها الذاتية القطرية للذوبان فيما يمكن تسميته بـ (الشخصية العربية القومية الواحدة الموحدة). وهذا ما يجعلنا نرى اليوم بوضوح أن (العروبة) كانت منذ بدايات هذا القرن، واستمرت حتى اليوم على أساس أنها (حالة ثقافية) جامعة للمجتمعات العربية الأربعة التي أشار إليها الكاتب السياسي العربي الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل في الحوار الذي أجرته معه إذاعة لندن. وهي حالة عجزت عن التجسد في حالة من التوحد السياسي أو العسكري أو الاقتصادي أو النفسي حتى الآن، إلا في مناسبات ونزوات تاريخية وتجارب وحدوية طارئة عابرة، ومشاريع وحدوية لا تتحقق أو لا تدوم.

في المؤتمر العربي الذي كان قد عقد في باريس ما بين 18 و 23 يونيه عام 1913، والذي شاركت به كوكبة من الشخصيات الوطنية الشامية للتشاور حول مستقبل العالم العربي الذي بدأ بانكسار الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى، أكد أحد المشاركين بذلك المؤتمر، وهو أندريه مطران، أن القومية العربية هي العامل الأساس الذي يجمع العرب على اختلاف أديانهم، فقال: (إذا كانت النعرة الجنسية فضيلة في النفس، فلست أعرف أمة أشد تأثرا بعواملها، من الأمة العربية: لمّا قدم أبو عبيدة الجراح وخالد بن الوليد بجيوش العرب المسلمين إلى بلاد الشام، وجدوا حارساً على أبوابها من الغسانيين، وهم عرب نصارى يتقدمهم ملكهم جبلة بن الأيهم، إلا أن هؤلاء بدلاً من أن يقاتلوا المسلمين ويقفوا في وجوههم، عطفوا عليهم عطف الأخ، فتركوا الجامعة الدينية والرابطة السياسية اللتين كانتا تقضيان

بموالاتهم للروم، وخطبوا ود وولاء الناطقين بلسانهم من بني أمتهم العربية، فمهدوا إليهم السبيل، وفتحوا الطريق، ومكنوهم كل التمكين من فتح دمشق).

فإن يكن جبلة بن الأيهم الغساني المسيحي السوري، قد احتضن أبا عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد القائدين العربيين المسلميْن، وساعدهما وهو العربي النصراني السوري، على فتح (الشام) بجيش عربي من شبه الجزيرة العربية يحمل رايات الإسلام (وهي البداية التي مكنت معاوية بعد ذلك وعرب الجزيرة من الاستيطان في بلاد الشام، ومن إقامة الدولة الأموية ومن ثم بعقولٍ وأيد عاملة من أهل بلاد الشام، وبقيادات سياسية دينية وعسكرية من شبه الجزيرة العربية والخليج) فإن أحفاد أبي عبيدة الجراح وخالد بن الوليد من أهل شبه الجزيرة العربية والخليج، لايزالون كما نلاحظ اليوم يعتبرون الوافدين إليهم حيث هم في شبه الجزيرة والخليج، من أبناء الأقطار العربية الأخرى، ومنها بلاد الشام (غرباء وأجانب أحياناً). والتشريعات والقوانين الخاصة بتأشيرات الدخول والإقامة والتجنيس هي البرهان الصارخ على ذلك. فأي معنى عملي إذاً لكلمتيْ (الأخوّة العربية)؟. أي معنى عملي لشعار (القومية العربية) إذا كان عدد من الذين ارتبطوا بهذه الدولة العربية أو تلك منذ أكثر من عشرين عاماً، متخلين بذلك عن الارتباط العضوي بأوطانهم الصغيرة، صارفين الجهد، باذلين العرق في الليل والنهار للمشاركة من موقع أو آخر بمختلف برامج ومشاريع التنمية والتطوير والعمران في هذه المنطقة أو تلك في شبه الجزيرة دون أن يتمكنوا من الحصول على جنسية الدولة التي نزفوا فوق أرضها أغلى سنوات أعمارهم بكل الحماسة والوفاء والإخلاص، وليس ثمة من عيب أو ذنب اقترفوه سوى أن أرحام أمهاتهم لم تضعهم ولم تلدهم فوق الأرض التي اختاروها لسبب أو آخر: وطناً بديلاً عن وطنهم القطري العربي الصغير؟ وعلى هذا الصعيد فإن المواطنين في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال غالبيتهم من (الوافدين) إليها كما هو معلوم.

ولعل من المفيد إيضاح أنني عشت بدوري الأربعة والثلاثين عاماً الماضية، متنقلاً بين الكثير من أرجاء الوطن العربي، متخلياً خياراً عن

نرجسية شعوري بالانتماء للوطن الصغير الذي كان فوق أرضه مولدي ومهدي، رغبة مني بتوفير البرهان العملي على أن القومية العربية تشمل الوطن العربي الواحد الكبير، ومشاركة متواضعة عملية مني بمسيرة النضال العربي القومي لتوحيد أجزاء الوطن العربي الممزقة المبعثرة، وقد (نسيت) خلال الأربعة والثلاثين عاماً المنصرمة حقاً ولم (أتناسَ) أنني سوري المهد، وحرصت على أن أكون مواطناً صالحاً في كل دولة عربية عشت فيها حتى اليوم، أو ارتبطت بها خارج حدود الجمهورية العربية السورية.

كنت أحلم وأنا أخرج من وطني الصغير خروجاً نهائياً لاعودة بعده، بأن أعطي وبأن أكون مفيداً أكثر في الوطن العربي الأكبر، ثم مرت السنوات تطوي السنوات وظللت خلالها غير محصن لا بجنسية ولا بجواز سفر، وكنت أرى ذلك (تضحية) مني في سبيل العروبة، والقومية العربية، والحلم الوحدوي الأكبر، لكن أي مجتمع عربي آخر غير مجتمعي الوطني الصغير كان وما يزال يعاملني كوافدٍ طارئ، وكمقيم فيه مؤقت إلى حين، وعلى الرغم من عدم حملي جواز سفرٍ سورياً يحدد انتمائي الوطني، محاولاً بذلك، التحرك والعمل على أساس هويتي العربية القومية، وعلى أساس عدم اعترافي بوجود حدود وفواصل بين الأقطار العربية، على الرغم من ذلك كله، وعلى الرغم من انقطاع صلتي بوطني السوري، وبأهلي فيه مدة أربعة وثلاثين عاماً متصلة، فقد كان كل مجتمع عربي عشت فيه يعاملني علناً أو سراً على أساس أنني (سوري)، وكانت كل دولة عربية عشت فيها وما تزال تعاملني على أساس أنني (سوري)، وربما بعد أو قبل فوات الأوان اكتشف اليوم بكل المرارة أنني بـــ (عروبتي) التي وضعتها فوق (سوريتي) أي أنني بقوميتي التي وضعتها فوق وطنيتي، لم أتمكن من تحقيق أية فائدة للوطن العربي الأكبر، ولا من إسداء أية خدمة تذكر لوطني الأصغر.

وقد كنت عشت في العراق في عهد عبدالسلام عارف وعبد الرحمن عارف بين صيفي عامي 1964-1966 بجواز سفر مصري، لكن السلطات العراقية ظلت تعاملني على أساس أنني سوري، رغم أنني كنت أشارك بالسعي لإسقاط النظام السوري الذي كان يومئذ قائماً تحت زعامة ميشيل عفلق وأمين الحافظ وصلاح جديد.

وفي أوائل النصف الثاني من الستينيات زرت الأردن قادماً إليها من العراق وأنا أحمل جواز سفر عراقياً، فإذا بضابط من المخابرات الأردنية يزورني حيث كنت أقيم ضيفاً في عمّان، ليوجه إليَّ عدة أسئلة على أساس أنني سوري رغم أنه كان يعرف جيداً أن صلتي بوطني السوري وبالنظام السوري فيه يومئذ كانت صلة ميتة، أي غير موجودة.

وطيلة سنوات الوحدة بين سورية ومصر عشت في القاهرة منتدباً للعمل في الإذاعات المصرية، لكن مصر، حتى في العهد الناصري، ظلت يومئذ تعاملني على أساس أنني سوري رغم أن سورية ومصر كانتا تشكلان دولة واحدة هي الجمهورية العربية المتحدة.

وفي عدة زيارات قمت بها لعدد من دول شبه الجزيرة العربية وإمارات الخليج وأنا أحمل جواز سفر مصرياً في أواخر النصف الثاني من الستينيات، عوملت على أساس أنني سوري رغم تزوّدي جواز سفر مصري.

وفي الجزائر بعد ذلك، ثم تونس التي أقمت فيها تسع سنوات حاملاً جواز سفر من إحدى دول الخليج، عوملت على أساس أنني سوري، وهو أمر تكرر خلال إقامتي في مصر بعد ذلك رغم أنني كنت ولا أزال مقيماً فيها بموجب جواز سفر من إحدى دول الخليج...

وعلى الرغم من انسلاخي عن وطني السوري الذي كان في الأصل لأسباب سياسية، وبسبب انتمائي للتيار العربي القومي الوحدودي الناصري، فقد ظلت (مؤسسات معينة) في مصر حتى في عهد عبد الناصر، وأنا متواجد فيها منحازاً إليها ضد حكومة وطني الصغير تعاملني بعد الانفصال السوري وتدمير التجربة الوحدوية بصفتي (سورياً، رغم انقطاع كل أنواع الصلة بيني وبين وطني بُعيد الانفصال)، ورغم أن مسؤولين كباراً في مصر يومئذ هم الذين كانوا عرضوا عليَّ القدوم إلى مصر كلاجئ سياسي، لأشارك بالنضال بهدف إسقاط عهد الانفصال، دون أن تكون عندي في الأصل أية نية مسبقة للتوجه نحو هذا اللجوء في مصر، بل إن الشكوك ظلت تحوم فوقي، ومن حولي، في أي مكان عربي حللت فيه، طيلة الأعوام الأربعة والثلاثين الماضية... وهي شكوك وصلت إلى حد النظر إليَّ نظرة خفية باطنية سرية

على أساس أنني لست سورياً فقط، بل وعميلاً لأي نظام قام وسيقوم في سورية، وبذلك رأيتني في نهاية المطاف، أخسر الدين والدنيا معاً، وأخسر وطني دون أن أنجح حتى بتأكيد وتكريس صلاتي بعالم العروبة الأكبر الذي اتخذته وطناً وداراً بلا حدود، إلا أنه ظل يرفضني كما يرفض الجسم عضواً مزروعاً فيه بعملية جراحية. وظل هذا العالم العربي الكبير حتى اليوم غير قادر على إدراك أنني مثل كثير من الشهداء الأحياء غيري، إنما قد ضحيت بانتمائي الوطني في سبيل تأكيد إمكان تحقيق انتماء قومي عربي أوسع وأشمل، وأنني ما خرجت من وطني جرياً وراء مطامع ومكاسب شخصية، وإنما رغبة مني بأن أؤكد لنفسي ولغيري أن الوطن القطري العربي ليس سوى (غرفة) في (الدار) العربية الرحيبة للعائلة العربية الواحدة، وأن الأرض العربية هي لكل أبنائها العرب، وأن حدود الخرائط العربية الحالية السياسية هي حدود مفتعلة، وأن علينا أن نبرهن للأجيال العربية المقبلة على أن التجزئة على أساس إقليمي وقطري يمكن أن تزول أو تزال، وأن بإمكان أي عربي أن يعيش وأن يتأقلم وأن يكون مواطناً صالحاً معترفاً بمواطنته في أية بقعة عربية أخرى بعيدة عن مسقط رأسه.

لكن، ها أنذا بعد أربعة وثلاثين عاماً من التجربة الاجتماعية السياسية هذه العربية القومية الملحمية ذات البعد الوحدوي، أنتصب وحيداً في مهب الريح دون وطن ولا مستقر ولا ميناء يرسو فيه زورقي الحائر الباحث عن اليقين، بل دون مصدر للرزق بعد ثمانية وعشرين عاماً كرست خلالها كل قدراتي لصالح دولة عربية ناشئة حديثة استكثرت علي حتى الراتب التقاعدي بعد نهاية المطاف.

ولعلي أرى ضرورة أن أكرر أنني لست أريد من الاستشهاد بجانب من أخبار تجربتي الشخصية، أو قل مأساتي الشخصية، إلاَّ تقديم البرهان الملموس للقارئ المواطن العربي على صحة ما أطرحه عبر هذه السطور مما أراه حقيقياً بل صحيح التشخيص، وهو أن (العروبة) بمفهومها العربي ما تزال حتى اليوم للأسف (حالة ثقافية) أو (مقهىً ثقافياً) تلتقي فيه المجتمعات العربية لتتعاطى أخبار الثقافة، أو لتتبادل أخبار الساسة والسياسة، ولتستمتع

بنتاجها وإفرازاتها وتحولاتها ومعطياتها الجديدة، وحين تنفضُّ جلسات سُهّار الليالي الثقافية السياسية العربية (القومية) في (المقهى الثقافي العربي)، يكتشف السُّهار أنهم متفرقون لا محالة إلى أربع فصائل اجتماعية ــ سياسية مزاجية، تسكن أربع مناطق طبيعية من الشرق الأوسط، في آسيا وأفريقيا، هي الفصائل الأربع التي كان أنطون سعادة، عالم الاجتماع، مؤسس الحزب القومي الاجتماعي السوري، قد أشار إليها في طروحاته منذ سبعين عاما مضت.

ولعلنا نلاحظ أن مجلس التعاون الخليجي يؤكد جزءاً من هذا التقسيم عملياً، كذلك شبح الاتحاد المغاربي الغامض، كذلك العلاقات الخصوصية بين مصر والسودان، وإن تكن تُعاني منذ حين من بعض الجمود، كذلك الانتعاش الذي كان قد طرأ خلال السنوات الأخيرة على مشروع (سورية الكبرى) الشامل بلاد الشام. وكل المجالس والمشاريع والعلاقات النوعية هذه تؤكد أن (العروبة) التي جذبتنا وأغرتنا وافترستنا، ليست إذن سوى (حالة ثقافية) بصفتها القومية الجامعة كل المجتمعات العربية التي توحدها الثقافة العربية، وتجزِّئها إلى مجتمعات إقليمية أربعة: الطبيعة، والسياسة، والمزاج الإقليمي المتميز، وهو ــ عربياً ــ أربعة أمزجة إقليمية. وهذا يعني أن (الشخصية العربية) من حيث العناصر المزاجية الإقليمية الطبيعية ما تزال إذاً حتى اليوم (منفصمة) أو قل هي (منقسمة)، شئنا أم أبينا، إلى أربع شخصيات تتحدث اللغة العربية، وتربط فيما بينها الثقافة، لا السياسية العربية، بل ولا الطموحات والمصالح الموحَّدة العربية، لأن الدلائل كلها تشير اليوم إلى أن الطموحات العربية، ليست طموحات متماثلة متطابقة أو موحدة، بل هي طموحات إقليمية أو قطرية منفصمة منقسمة بدورها إلى طموحات أربعة، لأسباب جغرافية طبيعية ولأسباب مزاجية إقليمية أيضاً، وعلى أساس هذه الأسباب يتآمر أعداء الشعوب العربية عليها بنجاح ملحوظ، وتستسلم الغالبية العربية المُقدَّدة، إلى هذا التآمر الصارخ الحارق والخارق.

أربعة وثلاثون عاماً مضت إذاً، وأنا أحاول الثبات في موقعي كقومي عربي وحدوي لأقنع نفسي أولاً بوجوب وبنجاعة الاستمرار بممارسة التضحيات في سبيل ما هو آت، لكن الممارسات كشفت لي عن الحقيقة

الفاجعة المحزنة جدا، وهي أن (العروبة) ليست سوى ملاءات للمجاملات، وليست سوى عباءات تخفي وراءها بشاعة الواقع العربي المجزأ الذي نعيشه عملياً، ونرفض الاعتراف به إعلامياً، وهو الواقع الذي يقرر حقيقة أن (العروبة السياسية ـ القومية) هي حلم أو هي الوهم الجميل، أو هي نوازع ونزوات، وأن المفيد الناجع أكثر إذن هو الاعتراف بهذا الواقع الراهن الموضوعي الحقيقي كما هو تماماً، مع عقد العزم على تغييره غداً، وذلك بإنعاش الدعوات والبرامج المشتركة الخاصة بتعزيز (التعاون) الاقتصادي، والتعليمي، والعسكري، والأمني والسياسي والزراعي..إلخ بين الدول العربية جميعها في مجتمعاتها (الطبيعية) الأربعة. مع تعزيز وتعميق وحدة الثقافة العربية والتعاون الثقافي، وتبادل الإنتاج الثقافي في مختلف مجالاته، لأن الثقافة تخاطب العقل والوجدان، وهي ما تزال وحدها الأقدر من السياسة على تحقيق قدر أعلى من التعاون والتعاطف العربي القومي المتبادل المشترك (ولقد كانت مصر قد تمكنت من احتلال مكانها القيادي في العالم العربي وما تزال لأسباب ثقافية لا سياسية).

نعم أربعة وثلاثون عاماً قد مضت، وأنا أتعاطى النضال والكفاح الصَّبور الهادئ، وأدفع الثمن باهظاً كل يوم على طريق القومية العربية ذات البعد الوحدوي، وقد كان حصادي حتى اليوم، هو الحصاد التالي:

1 ـ لم أفد وطني الأصغر الذي كان فيه مهدي، بفائدة تذكر.

2 ـ لم أفد وطني العربي القومي الأكبر، بفائدة تذكر، وهو عندي الوطن الأرحب الأغلى الأحب كان وقد يبقى.

3 ـ لم أحقق لذاتي ولا لأفراد عائلتي وأولادي كشخص، أي نجاح معنوي ولا أي كسب مادي أو اجتماعي. بل إنني قد خسرت وأنا أنزف أربعة وثلاثين عاماً من عمري في المسرح العربي القومي الكبير، عافيتي، وشعوري الذاتي بالأمان والاطمئنان، وكل ما كنت حققته من مكاسب شخصية اجتماعية ومادية قبل خروجي خياراً من وطني السوري الأصغر، وقد كان متاحاً لي أن أعيش فيه كغيري، كإنسان، بأمان

واطمئنان مع عائلتي وأولادي، وكان متاحاً لي فيه أن يكون لي فيه راتب تقاعدي في نهاية المطاف يعين أفراد أسرتي الصغيرة على العيش بكرامة بعد موتي*.

---

* كتبت هذه الخواطر في العام 1988، وأرسلتها إلى جريدة (الوفد) المصرية، فلم ينشرها رئيس تحريرها لأسباب أجهلها. ثم مرت حوالي ثلاث سنوات بعد ذلك، تشرفت بعدها بلقاء صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في حوار في جناحه في (قصر القبة) في القاهرة استمر حوالي خمس ساعات متصلة، حول الشجون والأحوال العربية، وتاريخ منطقة الشرق الأدنى القديم. وعلى الرغم من أنني لم أتحدث مع سموه يومئذ عن أحوالي ومأساتي الشخصية، فقد كرمني بإصدار أمره بمنحي جنسية دولة الإمارات العربية المتحدة، وكان ذلك في سبتمبر عام 1991، وبإهدائي منزلاً سكنياً في القاهرة أنزف فيه ما تبقى من سنوات عمري، فله الشكر.

(5)
سورية ومصر.. الوحدة والانفصال *

في فجر اليوم الثامن والعشرين من سبتمبر 1961، وقعت واقعة الحركة الانفصالية في دمشق التي خلعت سورية من الكيان الدستوري للجمهورية العربية المتحدة، وفصمتها عن قرينتها مصر فصماً دستورياً نهائياً.

وفي عصر اليوم الثامن والعشرين من سبتمبر 1970 فاضت روح الزعيم العربي جمال عبد الناصر شهيد حُلم العروبة القومية الوحدوية، عقب إنجازه آخر المهمات القومية التي تصدّى لها، بوضع حدّ صارم لأحداث (أيلول الأسود) الدامية.

بعد مضيّ اثنين وأربعين عاماً على انفصال سورية عن مصر، وثلاثة وثلاثين عاماً على رحيل خالد الذكر الزعيم العربي المصري جمال عبد الناصر؛ يستطيب العقل العربي التحويم فوق معاني هاتين الذكريين بكل ما تزخر به كل منهما من عبق الدروس والعبر الموحية الهادية المستفادة، منها على سبيل المثال أن الحفاظ على تحقق هدف قومي أسمى بعد نضال جهيد لتحقيقه؛ يتكافأ مع أهمية تحقيق هذا الهدف، وبخاصة أن انتكاسةً تصيب هذا الإنجاز بأضرار مؤكدة، ستعوق معاودة محاولات تحقيق هذا الهدف إعاقة نهائية أو لحقبةٍ طويلة مقبلة؛ وهذا ما كان حدث نتيجة للتفريط بالإنجاز القومي المتمثل بتحقيق الوحدة المصرية السورية في 22 فبراير 1958، تفريطاً تسبب به عجز القيادة السياسية للدولة الوحدوية السورية المصرية وكوادرها القيادية، في كلي القطرين السوري والمصري، عن إدارة الأزمات الناجمة عن سياسات التسرع والارتجال على مستوى الداخل لا على مستوى

* نُشرت في جريدة (الأهرام) المصرية الحكومية شبه الرسمية في العدد الصادر يوم الثلاثاء 2003-8-26.

الخارج، بمعنى أن اعتلال العلاقات الثنائية المصرية السورية ضمن إطار التجربة الوحدوية الدستوري، كان اعتلالاً ذاتياً في المقام الأول، وإن يكن الإجهاز عليها بالحركة السورية الانفصالية قد تحقق بتشجيع خارجي مؤكد. وقد يمكن القول إن تجربة الوحدة السورية المصرية قد وُلِدت وفي جوفها أسباب ومسببات قِصر عمرها، أو تقوُّضها؛ وبخاصة أن تحققها جاء نتيجة لإلحاح سوري شعبي ــ عسكري ــ حكومي ــ سياسي مُلّح شديد الحماسة، غير متماثل ولا متكافئ مع موقف مصر الرسمي والشعبي من فكرة إقامة وحدة سورية مصرية. ولعل انعدام هذا التكافؤ هو الذي جعل جمال عبد الناصر يتلكأ بالموافقة على هذه الفكرة ــ المشروع ــ ويحدد شروطه للقبول بها، وقد وافق السوريون على تلك الشروط جميعها دون الاعتراض على واحد منها. وإذا علمنا أن جمال عبد الناصر الذي سيكون حاكماً لسورية كما هو حاكم لمصر، لم يسبق له أن زار سورية قبل الوحدة السورية المصرية، سهل علينا إدراك صعوبة أن ينجح رئيس دولة في حكم دولة أخرى لم يطلّع على جغرافيتها اطلاعاً مباشراً من قبل قط، ولم يعرف عنها ومنها إلا ما قرأه عنها في الكتب المطبوعة والصحافة والتقارير الدبلوماسية والاستخباراتية المخطوطة، وما سمعه من أخبار أحوالها عبر محطات الإرسال الإذاعي، عربية، وأجنبية.

ولعلي أضيف أن ما حدث خلال سنوات التجربة الوحدوية المصرية السورية ليس فقط عجز القيادة السياسية والمؤسسات والبطانات والكوادر القيادية المرتبطة بها، عن إدارة الأزمات الداخلية إدارة ناجعة كان يمكن أن تقي الجمهورية العربية المتحدة من التقوُّض، وإنما العدل والإنصاف يقضيان بالاعتراف أولاً، منذ الشهر الأولى لقيامها، كان نتيجة لتصادم حقيقي غير مرئي بالعين الناظرة، بين المزاج الاجتماعي ــ الجغرافي ــ المناخي ــ الاجتماعي ــ النفسي المصري الأفريقي التاريخي من ناحية، والمزاج الاجتماعي ــ النفسي ــ المناخي ــ السوري الآسيوي من ناحية أخرى.. بسبب هذا التمايز غير المرئي بين مقومات الشخصية المصرية التاريخية، ومقومات الشخصية السورية التاريخية، تفشّت مسببات الاعتلال الموضوعية

من أعلى إلى أسفل، في جميع مرافق ومفاصل كيان التجربة الوحدوية السورية المصرية، بمعنى أن تصادم النوازع والخصال والطبائع بين الطرفين لم يكن فقط على مستوى القيادات المختلفة في الإقليمين الشمالي والجنوبي وحسب، وإنما هو قد تسبب في تصادم بين الطبائع المتمايزة باعد نفسياً بين الشعبين يوماً بعد آخر، إلى أن وقعت واقعة الانفصال في سورية، ليتنفس الكثيرون في مصر كما في سورية الصُعداء كما يقال، بعد حدوث الطلاق (بالخُلْع) الذي باعد بين الدولتين، كما أتاح لكل منهما فرصة الاستقلال عن الأخرى على جميع المستويات الرسمية والشعبية.

هذه حقيقة موضوعية لمسها كاتب هذه السطور لمس اليد من خلال موقعه الدافئ الحيوي في التجربة الوحدوية السورية على الصعيدين الرسمي والشعبي في الإقليم الشمالي والإقليم الجنوبي في آن؛ لكن الإفصاح عنها قبل اليوم كان محبطاً عسيراً، مؤذياً لوسامة الحلم العربي القومي الوحدوي وجوهره المثالي، وقد آن الأوان للمجاهرة بهذه الحقيقة الموضوعية ضمن إطار الدعوة إلى الاستمرار بالمحافظة على توهج حلم الوحدة العربية، وبتحصينه ضد الانطفاء، وإلى وجوب السعي إلى تضييق الشروخ وترميمها وردمها، بين طبائع ومقومات الشخصيات الإقليمية التاريخية الأربع. نعم فالأمة العربية مكوّنة شئناً أو أبينا من هذه المجتمعات الأربعة التي توحدها الثقافة العربية المشتركة، وتباعد بينها الطبائع والخصال الإقليمية المختلفة.

على أن ما يمكن ملاحظته من منظور التحويم فوق رُبى التاريخ العربي الحديث، وجباله ونجاده ووهاده وسهوبه وسهوله، أنه ما حدث دمج رسمي بين شعب عربي وشعب عربي آخر؛ إلا وتنافرا من بعد الدمج. وتباعد كل منهما عن احتمال ذوبانه في الآخر؛ وما بوعد يوماً بين شعبين عربيين إقليميين، إلا وتقاربا من بعد، وهي كما نرى وترون معضلة حقيقية تحرضنا على استكشاف الطرقات المفضيات في نهاية المطاف إلى محاولة تجسيد حلم الوحدة العربية تجسيداً قابلاً للاستمرار والبقاء. ولماذا لا يتم استكشاف هذه الطرقات التي ما تزال لكل العرب مجهولة؟ أفلم تتوحد واحد وخمسون ولاية في القارة الأمريكية لتشكل أقوى دولة في العالم اليوم؟ أفلم

يوحد بسمارك المقاطعات الألمانية، وغاريبالدي الإمارات الإيطالية؟ أفلم تحقق الوحدة الأوروبية؟

تلك خواطر قد أثرتها وتثيرها في الصدر العربي القومي هذه المناسبة المزدوجة في ذكرى وقوع الحركة الانفصالية السورية في الثامن والعشرين من سبتمبر عام 1961، وفي ذكرى رحيل خالد الذكر الزعيم جمال عبد الناصر في الثامن والعشرين من سبتمبر عام 1970، وقد كان رحيلاً ليس ككل رحيل، بدليل أن الحوار في مصر وبقية أنحاء الوطن العربي عن جمال عبد الناصر ــ الشخصي، وعن جمال عبد الناصر ــ الزعيم العربي ــ وعن جمال عبد الناصر ــ قائد الثورة، وعن جمال عبد الناصر ــ رئيس الدولة المصرية.. ما يزال مستمراً طيلة السنوات الثلاث والثلاثين التي أعقبت تاريخ رحيله حتى اليوم، وهو استمرار بالحديث عنه يغذيه ويشارك به محبوه وكارهوه في آن، بل هو استمرار بالحديث عنه أكد ويؤكد استعصاء بل استحالة (شطب اسمه) من صفحات التاريخ؛ وعلى هذا الأساس فهو الغائب الحاضر أبداً، المثير للجدل بين خصومه وأنصار تجربته في كل حين. على أن ما يثير الأسى في النفس العربية أن كل نصير لسياسات جمال عبد الناصر النظرية والتطبيقية، محب مجلّ لشخصه في حياته وبعد وفاته، محكومٌ عليه اليوم بأن يصنَّف في جداول قوائم أسماء أعداء تجربة وشخصية خليفته الراحل محمد أنور السادات، والعكس صحيح أيضاً، فإن كل نصير لسياسات السادات النظرية والتطبيقية في حياته وبعد وفاته، محكوم عليه اليوم بتصنيف اسمه في جداول قوائم أسماء أعداء تجربة وشخصية سلفه جمال عبد الناصر، وهو شطط في الشقاق والفراق غير محمود، يلغيه واجب الوفاق المتاح الممكن، شريطة أن يدرك المتخاصمون من كلي الفريقين، حقيقة موضوعية تفرض ذاتها، وهي تؤكد أن كلي الرئيسين الراحلين جمال عبد الناصر ومحمد أنور السادات قد بذلا جهديهما بحدودهما القصوى لإسداء الخدمات تلو الخدمات لإسعاد شعبيهما، وفي ملاحم هذا الإسداء جاء بعض الخطأ في التقدير والتصرف، كما جاء بعض الصواب في العهدين؛ لكن، في الحالين، كان حسن النية من كليهما متوافراً... وقد كان بديهياً أن يكون كل

من عهديهما، محكوماً بظروف دولية ما كان لأي منهما إلا أن يأخذها بعين الاعتبار والاعتماد؛ فيتخذ القرارات في توقيت أو آخر معيّن، ضمن إطار ومناخ تلك الظروف الدولية الضاغطة الحاكمة. (وما دمنا في صدد الذكرى الثالثة والثلاثين لرحيل جمال عبد الناصر، في 28 سبتمبر من العام 1970 فإن العدل والإنصاف والوفاء لتقضي بتوقُّف المجترئين عن الاستمرار بالاجتراء على شخصه وعلى عهده في مصر بصفة خاصة، فإن ما حققته مصر في عهده من الإنجازات الوطنية والقومية لأكثر من أن يُحصى ويُعد؛ وبالمقابل فإن العدل والإنصاف والوفاء لتقضي بتوقف بعض المحسوبين على جمال عبد الناصر وعهده بالتوقف عن الاجتراء على محمد أنور السادات وعهده، فقد كان لكل منهما أسلوبه لتحقيق الأهداف الواحدة على جميع الأصعدة المصرية والعربية والدولية، وقد جرب جمال عبد الناصر مواجهة إسرائيل بما كان متيسراً له من وسائل المواجهة ومنها الصمود والصلابة وعدم المساومة على كل ما هو حق وعدل، كما جرَّب الرئيس السادات مواجهتها بحرب التحرير 1973، ثم بالسلام، ثم تأكد مؤخراً للقاصي والداني أن إسرائيل غير معنية بالسلام، وأن سياساتها التوسعية تتطلع إلى احتلال دمشق والمدينة المنورة وكل الأراضي العربية الممتدة من النيل إلى الفرات.. وها هي ذي إسرائيل تكاد تدق اليوم بقبضتها على أبواب الحرب السابعة التي لن تكون مصر في حال فرضها على العرب خارج نطاقها قط، وهو ما تأخذه مصر الحصيفة بعين الاحتمال فيما نقدّر؛ على الرغم من إعلانها دائماً حرصها الشديد على وقاية عملية السلام من شبح التدمير بالحرب.. لكنَّ ما كان وما يزال مفهوماً، أن مصر ما دخلت مباحثات كامب ديفيد، وما وقَّعت على معاهدة سلام مع إسرائيل، إلا على أمل أن تكون اتفاقية كامب ديفيد هي الخطوة المصرية الأولى نحو استكمال عملية السلام فيما يخص جميع أطرافها العربية الأخرى.. وإذا كان جمال عبد الناصر قد واجه الغطرسة الإسرائيلية العدوانية التوسعية بالخيار العسكري على قدر طاقة مصر القصوى في عهده.. ومحمد أنور السادات قد واجهها بالحرب ثم بالسلام على أمل أن ترعوي عن غطرستها فتعيد إلى العرب الآخرين أراضيهم وحقوقهم

السلبية، فها هي ذي إسرائيل تسفر عن وجهها العسكري المتوحش الضاري بصفة نهائية، مراهنة منها على أنها قد تمكنت من قبل من تحييد مصر عن حلبات الصراع الإسرائيلي العربي حول الأرض وحول الحقوق العربية، وهو سفور تدرك مصر محمد حسني مبارك جيداً أهدافه وإيحاءاته، إدراكاً يفتح الأبواب اليوم وغداً على كل الاحتمالات والتوقعات الحصيفة غير الساذجة، وبخاصة أن بين يدي الرئيس مبارك ملفات كل الحروب التي خاضتها مصر في العهد الناصري ضد الغطرسة الإسرائيلية العسكرية السياسية بكل عبرها ودروسها المستفادة، وملفات عملية السلام التي كانت خيار الرئيس محمد أنور السادات بعد حرب التحرير العام 1973، بكل ما انتهت إليه من انتكاسات متتالية سعت إسرائيل إلى تحقيقها ولم تسع مصر حتى اليوم من جانبها إليها قط..

رحم الله الزعيم الخالد الذكر جمال عبد الناصر الذي أرادت المشيئة الربانية أن يرحل إلى رحاب ربه الأعلى، تماماً في مثل اليوم الذي قامت في فجره الحركة الانفصالية السورية وهي عار على من قاموا بها إلى أبد الآبدين...

(6)

الصراع على أحقية الهيمنة على سورية، بين جمـــال عبد الناصر وحزب البعث...

عثرت مؤخراً بين أوراق كثيرة متراكمة في مكتبي على مقالة بقلم الدكتور مصطفى الفقي عن (البعث وعبد الناصر) منشورة في العدد الصادر يوم الثلاثاء 11-4-2000 من (الحياة)، كذلك على تعليق للدكتور سعد الدين إبراهيم عليها كما نشرته (الحياة) في عددها الصادر يوم الأربعاء3-5-2000 . وعلى الرغم من هذه المسافات الشاسعة الفاصلة فيما بين منطلق الدكتور الفقي كمفكر سياسي عربي قومي وحدوي من ناحية، ومن منطلق الدكتور سعد الدين إبراهيم كمتخصص في علم الاجتماع، حاملٍ على كتفيه أعباء الدفاع عن (حقوق الأقليات) وتطلعاتها الإصلاحية أو الانفصالية مؤيداً مناصراً الولايات المتحدة الأمريكية وحليفاتها من الدول الغربية الأوروبية، في العالم العربي من ناحية أخرى، فإن المقالة والتعليق عليها يؤكدان أهمية المضووع الذي حوَّمتا حوله، وهو البحث عن الأسباب الحقيقية التي كانت أدت إلى حدوث التصادم العنيف بين حزب البعث وجمال عبد الناصر، وهو التصادم الذي كان شكّل واحداً من أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط الجمهورية العربية المتحدة، وتراجع القومية العربية من حال مدٍّ إلى حال جزر من بعد، ثم إلى نكبة 1967 التي كشفت عجز كل من التجربة الناصرية وهي مؤطرة في (دولة) هي مصر، وتجربة حزب البعث المؤطرة أيضاً في دولة في كل من سورية والعراق، عن الوفاء بالتزاماتهما المعلنة التي حددها انتماؤهما لعقيدة واحدة هي العروبة القومية ذات التطلعات الوحدوية.

إلا أن الذي بان بوضوح أشد أن كلاً من الدكتور الفقي والدكتور سعد الدين، قد كتبا ما كتبا حول هذا الموضوع غير الشائك، من موقع كل منهما السابق (خارج) حدود التجربة الوحدوية السورية المصرية الميداني العضوي، و(خارج) حدود كارثة التصادم العنيف الذي باعد بين جمال عبد

ناصر وحزب البعث مباعدة نهائية.. أي أنهما ربما كانا (متفرجين) على مشهد أو المشاهد التي كشفت عجز التجربتين الناصرية والبعثية عن الوفاء يعني بالالتزامات التي فرضها عليهما انتماؤهما المعلن لحلم أو مشروع أو فكرة القومية العربية الوحدوية، في مرحلة عربية كانت فيه (العروبة القومية) قد اكتسبت (قدسية) أشبه ما تكون بقدسية أخلاقية ـــ دينية.

وبما أنني كنت موجوداً أمام أو وراء كواليس خشبة المسرح الذي جرت فيه تلك المشاهد؛ وربما أتيحت لي فرص المشاركة بمجموعة من تلك المسرحيات التراجيدية التاريخية في (دور) أو آخر، فإنه قد يكون من حقي وواجبي في آن، التدخل في هذا (الاشتباك) الذي شاغل الدكتور الفقي والدكتور سعد الدين وقطاعاً كبيراً من حجم القراء العرب في جميع الأقطار العربية، عبر الملاحظات الآتية:

1 ـــ في حوار لي مباشر مع الأستاذ ميشيل عفلق، وأنا أجالسه في الطائرة الرئاسية الخاصة التي نقلته والفريق لؤي الأتاسي وصلاح الدين البيطار من دمشق إلى القاهرة يوم 19-3-1963 (بعد أحد عشر يوماً من قيام ثورة الثامن من آذار/ مارس)، لمواجهة جمال عبد الناصر وإقامة حوار حي ومباشر معه، اعترف لي الأستاذ عفلق بأنه على اقتناع عميق بأنه (يتكامل) مع جمال عبد الناصر ولا (يتناقض) معه، فهو ـــ كما قال لي يومئذ ـــ المفكر مؤلف المسرحية، والسيناريو، وجمال عبد الناصر هو (البطل) المؤدي البارع الأقدر على تجسيد الفكرة القومية التي هندسها ووضع منهجها: حزب البعث ـــ التاريخي من قبل قيام ثورة 23 يوليو 1952، سنين على الأقل. فإذا كانت حقيقة كذلك ـــ وهي حقاً كذلك ـــ يسهل اكتشاف حقيقة أن الصراع الذي احتدم بين جمال عبد الناصر وحزب البعث منذ مرحلة ما بعد قيام الوحدة السورية المصرية في 22-2-1958، إنما كان صراعاً على السلطة، بل صراعاً حول سورية تحديداً.

2 ـــ في نهاية الأسبوع الأول من ديسمبر/ كانون الأول 1952، قام أديب الشيشكلي ـــ حين كان لا يزال متستراً برئيس الوزراء فوزي سلو بزيارة للقاهرة، وقد كنت أحد المشاركين بوداعه في مطار المزة. وفي

حفل عشاء أقامه محمد نجيب للشيشكلي في فندق شبرد، حضره جمال عبد الناصر وبقية أعضاء مجلس قيادة الثورة، أسدى الشيشكلي للضباط المصريين الأحرار نصيحتين أخذوا بهما:

أ ــ إقامة تنظيم شعبي يشكل بعداً إيديولوجياً للثورة ــ الانقلاب، على غرار (حركة التحرير) التي شكلها الشيشكلي عقب قيامه بانقلابه على سامي الحناوي أواخر العام 1949، وكلف الدكتور مأمون الكزبري بإمانتها العامة، (وهكذا تم تشكيل (هيئة التحرير) في مصر بناء على نصيحة الشيشكلي تلك).

ب ــ إسناد قيادة الجيش إلى واحد من الضباط المصريين الأحرار (وهكذا أُسندت قيادة الجيش المصري، بناء على نصيحة الشيشكلي، إلى عبد الحكيم عامر الذي اختاره لهذا المنصب جمال عبد الناصر وليس محمد نجيب).

3 ــ ظهرت إرهاصات فكرة تأسيس حزب البعث، أولاً في أنطاكية عبر الأفكار التي طرحها الأستاذ زكي الأرسوزي في أوائل عقد الأربعينيات من القرن العشرين الذاهب. وفي العام 1947 عقد أول مؤتمر عام لحزب البعث في دمشق (لم يشارك به الأرسوزي) قبل قيام ثورة 23 يوليو بحوالي خمس سنوات ونيف، ومن خلال التذكير بهذه الحقيقة التاريخية يمكن ملاحظة أن شعار (حرية.. وحدة. اشتراكية) الذي طرحه جمال عبد الناصر، مقتبس من حزب البعث، وإن يكن الشعار الذي طرحه الحزب في وقت مبكر قد وضع (الاشتراكية) قبل (الوحدة): (حرية: اشتراكية: وحدة)، ثم تبنَّى عبد الناصر الشعار هذا بحذافيره مع جعل (الوحدة) تكون قبل (الاشتراكية).

4 ــ ليس صحيحاً أن حزب البعث هو (صانع الوحدة) بين سورية ومصر في العام 1958، كذلك ليس صحيحاً أن مجموعة الضباط السوريين الاثني عشر الذين تمكنوا من إقناع جمال عبد الناصر بالموافقة على قيام الجمهورية العربية المتحدة برئاسته، هي التي صنعت الوحدة بين

سورية ومصر، إنما الصحيح: أنَّ الشعب السوري بغالبيته وبكافة فئاته، هو الذي فرض الوحدة فرضاً على مصر وجمال عبد الناصر الذي أبدى تردداً بالموافقة عليها لأسباب موضوعية كثيرة... ولم يكن الدور الذي أدته مجموعة الضباط السوريين، ومجموعة السياسيين السوريين المدنيين، ليتجاوز ركوب تلك الموجة الشعبية السورية الضخمة، بمن فيهم أكرم الحوراني وميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وشكري القوتلي وصبري العسلي..إلخ.

5 ـ بل إن الصحيح أيضاً أن سورية التي (عشقت) جمال عبد الناصر منذ خروجه منتصراً من حرب السويس 1956، هي التي ارتمت على صدر وفي حضن جمال عبد الناصر دون أية شروط، وهو الارتماء غير المشروط بمهر ولا صداقٍ الذي أعطى جمال عبد الناصر حق ومشروعية أن يفرض هو شروطه على سورية (العاشقة)، قبل وبعيد قيام الدولة الوحدوية.

6 ـ لم يقبل قادة حزب البعث أن يمارس جمال عبد الناصر عملياً حقه المشروع الدستوري بتفعيله شروطه التي كان حددها قبل موافقته على قيام ورئاسة دولة الوحدة؛ وهي شروطٌ ثم ممارسات سرعان ما أعاقت محاولتهم (الانفراد) بحكم الإقليم الشمالي ولو في ظل جناحي عبد الناصر المبسوطين فوق الإقليمين الجنوبي والشمالي؛ ولهذا السبب تحديداً، آثروا الاستقالة الجماعية من مناصبهم في دولة الوحدة واحداً بعد الآخر، وهي الاستقالة التي أعقبتها سلسلة من التسريح والنقل أصابت البعثيين السوريين في المؤسسة العسكرية وجميع مؤسسات الدولة المدنية الأخرى؛ قادها عبد الحميد السراج لصالحه الشخصي، بتأييد وبتوجيه من جمال عبد الناصر.

7 ـ كان بدهياً بعد إسقاط عهد الانفصال في سورية بتحالفٍ ضم مجموعة القوى الوحدوية القومية (بعثيون/ناصريون/ قوميون عرب/ مستقلون)؛ وبعد تمكن البعثيين من تصفية حلفائهم الذين شاركوهم الزحف العسكري المسلح على دمشق فجر الثامن من آذار/ مارس 1963؛ أن

يرفض جمال عبد الناصر استئثارهم بالثورة وبالسلطة في سورية. استمراراً منه برفضه هذا الاستئثار خلال أشهر السنة الأولى من سنوات عمر الوحدة السورية المصرية، وهو ما كشفت عنه وثائق (محادثات الوحدة الثلاثية) التي أذاعتها ونشرتها أجهزة الإعلام الرسمية المصرية بكاملها، قبيل قيام العقيد جاسم علوان، بتأييد ودفعٍ من جمال عبد الناصر بحركة 18 تموز/ يوليو 1963 (الشهيرة)، وقد أدى فشلها إلى انسحاب مصر الناصرية من الاتفاقية بعد أربعة أيام من فشل حركة جاسم علوان.

8 ــ من ذلك كله يتبين أن (الصراع على سورية) بين جمال عبد الناصر وحزب البعث، كان واحداً من أهم مسببات موت (الجمهورية العربية المتحدة) بالسكتة القلبية، وهو (موت) بدت عوارضه وعلاماته قبل أشهر عديدة من قيام الحركة الانفصالية، نتيجة لتفريط حزب البعث وعبد الناصر بالوحدة.

9 ــ أشار الدكتور الفقي في مقالته عن (البعث وعبد الناصر) إلى تصادم ما وصفه بـ (المزاج الشامي) بـِ (المزاج المصري) خلال سنوات التجربة الوحدوية؛ ولعلي أزعم أن الدكتور سعد الدين إبراهيم قد جانبه الصواب في فهم المقصود بهذا التعبير: (المزاج الشامي/ المزاج المصري)، مُجانبة ورطته بالظن خطأً بأن المقصود هو (مزاج جمال عبد الناصر الصعيدي) و (المزاج الشامي). وما أنا على علم به مؤكد أن الدكتور الفقي قصد بهذا التعبير ما هو أكثر اتساعاً وعمقاً وأهمية، وهو (المزاج الشامي الآسيوي) المترعرع في مناخ جغرافي تاريخي طبيعي أكثر اعتدالاً من ناحية، و(المزاج المصري الأفريقي) المترعرع في مناخ جغرافي تاريخي طبيعي أقرب إلى مناخ الأقاليم الحارة من ناحية أخرى.

10 ــ هذا التعبير عن (تصادم المزاج الجغرافي الطبيعي الآسيوي الشامي بالمزاج الجغرافي الطبيعي الأفريقي المصري)، ورد في مقالة لي عن التجربة الوحدوية السورية المصرية، نشرته إحدى الصحف قبل حوالي ثلاثة عشر عاماً مضت، وقد استحسنه يومئذٍ الصديق الدكتور

الفقي، ووافقني عليه، ثم استخدمه في مقالته عن (البعث وعبد الناصر) استخداماً عابراً لم يتح للدكتور سعد الدين فرصة إدراك مقاصده الأوسع الأعمق بكثير جداً من حدود خصال جمال عبد الناصر ومزاجه الشخصي كإنسان مصري من الصعيد، مفطوراً على طبائع ومزاج المواطن المصري الصعيدي من أهل البلاد الجنوبية المصرية الأقرب إلى خط الاستواء.

11 ـ من خلال موقعي الحيوي الميداني الاجتماعي السياسي الثقافي في التجربة الوحدوية السورية، كان سهلاً عليَّ اكتشاف أن من أهم الأسباب التي ساعدت على سقوط التجربة الوحدوية ـ ولا أقول: إسقاطها ـ سبباً بالغ الأهمية يتعلق بحتمية تأثير ما سماه ابن خلدون في (مقدمة علم الاجتماع) الشهيرة، بتأثير الهواء أي المناخ الطبيعي الجغرافي والنظام الغذائي، بأبدان وطبائع البشر. بمعنى أن الطبيعة النوعية الجغرافية المناخية بمعناها الشامل، هي التي تشارك حتماً بتحديد وتأسيس خصال ومقومات مزاج مجتمعها الإقليمي التاريخي، وهي خصال ومقومات غالباً ما تختلف عن خصال ومقومات مزاج مجتمع طبيعي إقليمي آخر.

12 ـ أطروحة ابن خلدون عن الطبيعة النوعية الجغرافية هذه، تقودنا، بل ينبغي أن تقودنا إلى الحذر من مغبة القفز كالأرنب فوق نوعية الطبيعة الجغرافية المناخية عند التصدي لمهمات الإقدام على إقامة تجربة عربية وحدوية سياسية قومية. بل إن هذا الطرح ليقودنا اليوم إلى اكتشاف وجوب إعادة النظر العروبي في أطروحة أنطون سعادة مؤسس الحزب القومي السوري الاجتماعي ببلاد الشام، وهي الأطروحة التي دعا فيها إلى توحيد الأراضي التاريخية السورية في دولة واحدة (سورية الكبرى)؛ والتي نرى مضمونها اليوم ـ على سبيل المثال ـ مجسداً في (مجلس التعاون الخليجي).

13 ـ يتحاشى المؤرخون العرب، عن جهل أو عن خجل أو عن إشفاق، الإشارة إلى واحد من أهم الأسباب التي أدت إلى أن تُحظى حركة الانفصال السورية في 28-9-1961، بشعبية مؤكدة بمجرد الإعلان عنها

في سورية، وهي شعبية كانت مخصومة من رصيد جمال عبد الناصر الشعبي الذي كان يحظى به قبل ومع وبعيد قيام الوحدة السورية المصرية. فماالذي حدث خلال سنوات الوحدة حتى تحولت غالبية الجماهير السورية التي حلمت بالوحدة مع مصر، وبوصول جمال عبد الناصر إلى دمشق رئيساً لها، إلى مؤيدة للانفصال؟ هل هي حقاً قرارات التأميم الاشتراكية وحسب؟ هل هي حقاً قرارات مصادرة بعض الأراضي ضمن إطار قانون الإصلاح الزراعي؟ أم أنه كان ثمة ما هو أهم وأعمق وأبعد؟

14 ـ هنا، تحديداً، نشير إلى ذلك (التصادم) الذي سرعان ما احتدم بين (المزاج الجغرافي المصري الطبيعي الأفريقي)، و(المزاج الجغرافي السوري الشامي الطبيعي الآسيوي)، ليس على صعيد رموز الحكم في الإقليمين فقط، بل على صعيد الشارع الشعبي في كل من سورية ومصر. وقد برز ذلك التصادم على نحو شديد الوضوح على صعيد المؤسسة العسكرية السورية، وعلى صعيد المؤسسات الإعلامية السورية، بخاصة وأن المزاج الإداري النفسي المصري التاريخي يقوم على (الهرميَّة) ذات البُعدين الفوقي والتحتي، بينما المزاج الإداري التاريخي الآسيوي النفسي السوري ترعرع على الأبعاد (الأفقية) الديمقراطية الاجتماعية التي ليس فيها (فوق) ولا (تحت) كما هو الأمر في تراث العادات والتقاليد والموروثات الإدارية والنفسية والاجتماعية التاريخية المصرية الأفريقية.

15 ـ بغض النظر عن مجموعة الملاحظات هذه التي سقناها في تعقيبنا على مقالتي الدكتور الفقي، والدكتور سعد الدين إبراهيم، (وهي ملاحظات استقيناها من تجربتنا العملية، وممارساتنا الميدانية في تجربتيْ (الوحدة، ثم الانفصال).. فإن ما هو حقيقي، أن الصراع بين حزب البعث وجمال عبد الناصر، كان على السلطة وعلى سورية وليس على سواهما، وأن ذلك الصراع تسبب بإجهاض مرحلة النهوض القومي في العالم العربي، ودفعتها من حال المدِّ إلى حال الجزر التي ما تزال

الأمة العربية قابعة فيها حتى هذا اليوم. (ولئن يكن جمال عبد الناصر قد غيبّه الموت إلى الأبد في يوم الذكرى التاسعة لقيام الحركة الانفصالية في سورية، نفسه؛ فإن حزب البعث الذي رفض جمال عبد الناصر خلال أشهر السنة الأولى من عمر الوحدة السورية المصرية، ثم خلال الأشهر السبعة الأولى من عمر ثورة 8 مارس/آذار، أن يوافق على استئثاره بسورية)؛ قد حقق واحداً من أهم أهدافه الذاتية التي ظهرت إرهاصاتها الأولى في بدايات عهد الوحدة السورية المصرية، ثم تبلورت لتمكنه منذ أواخر صيف 1963 وحتى اليوم من فرض سلطانه وسلطته وهيمنته على (موطنه الأصلي الشامي) سورية، التي ما تزال حتى اليوم وديعةً في حضنه، وأمانة بين يديه، وقد مضت إثنتان وأربعون عاماً، على التضحية بالتجربة الوحدوية السورية المصرية، نتيجة لعنف الصدام بين جمال عبد الناصر وحزب البعث حول سورية...

(7)
صــور من الذاكــرة .. وملاحظات حول شخص جمال عبد الناصر في سورية...

عقب تجريد اللواء محمد نجيب من جميع مناصبه أواخر العام 1954، جئت مصر من دمشق عضواً في بعثة إذاعية سورية لتسجيل عدد من الحوارات الصوتية مع عدد من القادة السياسيين ونجوم الثقافة والفنون والسياسة والفكر المصريين، كان جمال عبد الناصر واحداً منهم؛ وكان مضى على تعييني مذيعاً في الإذاعة السورية حوالي ثلاثة أعوام. وبعودتي إلى دمشق من القاهرة ظل قلبي مقيماً في مصر التي كانت بالنسبة لأهالي بلاد الشام السورية هي (مكة) الثقافة والتقدم والحداثة، يحج إليها المحظوظون منهم.

في خريف العام 1956 تعرضت مصر للعدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي، وقامت الطائرات المغيرة بقصف محطات الإرسال الإذاعي في (أبو زعبل)، وقد أغضبنا أن نُحرم في بلاد الشام من متابعتنا اليومية ما كانت تبثه الإذاعات المصرية في الليل والنهار، فما كاد صوت مصر يغيب عن الأثير، حتى وجدتني أقتحم أحد استوديوهات الإذاعة السورية في مقرّها غير البعيد عن (سوق الحيمدية)، لأطلق لصوتي العنان صارخاً من شدة اللوعة: «هنا القاهرة من دمشق. هنا مصر من سورية. لبيك لبيك يا مصر. لبيك لبيك يا جمال عبد الناصر».. وبعد سويعات قلائل نُسِفت أنابيب البترول (I.P.C) المارة بالأراضي الشرقية السورية الشمالية في طريقها من العراق إلى محطات الضخ في (بانياس) على الشاطئ السوري، في الوقت الذي كان يشهد صمود شعب مصر في مواجهة العدوان الشرس الثلاثي، وهو الصمود الذي كرّس استعادة مصر حقها المشروع في السيطرة على قناة السويس.

بعد انهزام العدوان الثلاثي عقب الإنذار الشهير الذي أصدره (بولغانين) رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي؛ وتدخُّل الرئيس الأمريكي

(أيزنهاور) لصالح مصر، تلقيت دعوة من سفير مصر في سورية الدكتور محمود رياض رحمه الله، للاجتماع به في مقر السفارة في دمشق، حيث أبلغني بتقدير مصر مبادرتي العفوية، بتحويلي الإذاعة السورية إلى إذاعة مصرية خلال أيام العدوان الثلاثي التي تلت قصف محطات الإرسال الإذاعي في (أبو زعبل) بالطائرات المغيرة، وقدَّم إليَّ دعوة شفهية مفتوحة باسم الرئيس جمال عبد الناصر لزيارة مصر. وقد لبيت الدعوة شاكراً فور توقف القتال في السويس، ونقلتني طائرة (داكوتا) عسكرية مصرية على ما أتذكر من دمشق إلى القاهرة، حيث استضفت في جناحٍ في فندق (كونتيننتال) المطلة نوافذه على تمثال إبراهيم باشا ومبنى الأوبرا، ومنه، صباح اليوم التالي، نقلتني إحدى سيارات رئاسة الجمهورية إلى بورسعيد، للمشاركة بزيارةٍ كان يقوم بها جمال عبد الناصر لمقابر الشهداء في (منطقة (الجميل)، حيث انضممت إلى الزميلين حسني الحديدي وجلال معوض رحمهما الله، وهما يتوليان التعليق الإذاعي الارتجالي على زيارة عبد الناصر لمقابر الشهداء، في بث إذاعي مباشر. بعد انتهاء تلك الزيارة التي شاركت الإذاعة السورية ببثها في الوقت نفسه، اقترب مني الأخ محمد أحمد سكرتير عبد الناصر الخاص ليأخذ بيدي إلى حيث كان يقف جمال عبد الناصر الذي أكرمني بترحيب دافئ استثنائي، وسألني عن أحوالي الشخصية والعائلية، وأثنى على المبادرة التي قمت بها عبر الإذاعة السورية عقب تعرض محطات الإرسال الإذاعي في (أبو زعبل) للقصف الجوي. وعلى الرغم من أن صلتي الشخصية والعقائدية بجمال عبد الناصر كانت بدأت بلقائي الأول به في القاهرة أواخر العام 1954، حيث أجريت معه أول حوار إذاعي لصالح إذاعة دمشق، إلا أن لقائي الثاني به في مقابر الشهداء في (الجميل) في بورسعيد أواخر العام 1956، قد وطَّد من جانبي تلك الصلة التي حرصت على أن أكون وفياً لها، ملتزماً بها، حتى آخر يوم في حياته رحمه الله.

في صيف العام التالي 1957، جئت مصر عضواً في الوفد السوري إلى مؤتمر الأدباء العرب الثالث؛ حيث طلب الأدباء العرب (وكان بينهم د.

طه حسين، ود. سامي الدروبي، وعباس محمود العقاد، وأمينة السعيد، ومحمود تيمور، ومحمد أحمد النعمان، ونجيب محفوظ، ومحمد مزالي، وأحمد رامي، وبدر شاكر السياب، ونازك الملائكة، والطيّب صالح، ود. سهير القلماوي، وسامي الكيالي، ورئيف الخوري، وآخرون كثيرون من أدباء العالم العربي) لقاءً يجمعهم بجمال عبد الناصر، وفي اليوم التالي تحقق هذا الرجاء، وبترتيب من يوسف السباعي رحمه الله، توجه الأدباء العرب المشاهير إلى قصر القبة، وأنا معهم، حيث أصاخوا إلى حديث جمال عبد الناصر الذي حرضهم على توظيف الأدب والفن والفكر لصالح قضايا المجتمع الذي ينتسبون إليه (ولا زلت أحتفظ حتى اليوم بصورة فوتوغرافية ثمينة نادرة لذلك الاجتماع التاريخي الذي لا تنساه الذاكرة)...

استناداً إلى ذلك كله كان بدهياً أن أكرّس كل قدراتي من بعد لصالح الدعوة إلى قيام الوحدة السورية المصرية التي تحققت في 22-2-1958. وعقب قيامها، كنت أول مذيع سوري يُنتدب للعمل في إذاعتي البرنامج العام وصوت العرب في القاهرة، كما كنت عضواً في أول بعثة من الجمهورية العربية المتحدة للتدريب على العمل التلفزيوني قبل البدء بالإرسال في كل من القاهرة ودمشق، في ألمانيا الغربية، وبالتحديد في (استديوهات ريال) في هامبورغ التي قمت والزميلة همت مصطفى رحمها الله، بالتدريب فيها على البرامج الإخبارية والسياسية التلفزيونية، وبذلك كله أمست مصر كما هي سورية، وطني، وجمال عبد الناصر هو الزعيم الذي أواليه حتى آخر يوم في حياته.

كان لابد من عبور هذه الأسطر التمهيدية، وصولاً إلى الهدف الذي أحاول اليوم تحقيقه بهذا المقال، في الذكرى الواحدة والخمسين للثورة التي فجرها جمال عبد الناصر الذي أكرمتني الأقدار بأن أكون إلى جانبه في كل مرة زار سورية خلال سنوات عهد الوحدة السورية ـ المصرية في الفترة ما بين 22-2-1958، و 28-9-1961. وبملازمتي سيادته رحمه الله خلال جميع تلك الزيارات، وقد تسنّى لي خلالها أن ألاحظ الكثير مما هو جدير اليوم بأن يروى، ومنه الحكايات والملاحظات الآتية:

في زيارته الأولى دمشق يوم 24-2-1958، بعد يومين من قيام الوحدة السورية المصرية، بل وفي كل زياراته فيما بعد لدمشق وعدد من

المحافظات السورية، كانت الشوارع والدروب والأزقة والشرفات والأرصفة وأسطح المباني السكنية تمتلئ على رحابها بالمستقبلين من جميع فصائل الشعب السوري، إضافة إلى فصائل من الشعب اللبناني، وكانت تلك التجمعات الزاخرة الشعبية تسعى إلى أن تراه وإلى أن تسمع صوته. وكنت ألاحظ، في كل مرة واجه فيها عبد الناصر المستقبلين المحتشدين أمام وحول المكان الموجود فيه، كيف كان يهز إحدى ركبتيه أو ساقيه هزاً متتابعاً عصبياً ذا إيقاع سريع منتظم، تصريفاً للطاقة المختزنة في أعصابه؛ فإذا ما فرغ من أداء كلمته التي غالباً ما كانت مرتجلة، وبالعامية المصرية، توقفت ساقه عن الاهتزاز المتتابع.

دائماً ما رافقه مصور رئاسة الجمهورية الفوتوغرافي حسن دياب خلال جميع زياراته سورية، وكنت ألاحظ كيف كان جمال عبد الناصر يطل على الجماهير المحتشدة من شرفة (قصر الضيافة) في نهاية الجهة الجنوبية من (شارع أبو رمانة) الشهير في دمشق، يرد إليهم التحية الدافئة بتلويحه كفيه في الفضاء. وهو يبتسم منشرح الصدر؛ وكيف كان المصور الفوتوغرافي حسن دياب (يتشعبط) بصعوبة بقضبان حديد شبّاك وراء ظهر جمال عبد الناصر، وكيف كان رحمه الله حريصاً على الأخذ بالاقتراحات التي كان يوجهها إليه المصور الفوتوغرافي بصوت خفيض، قائلاً للرئيس على سبيل المثال: (عَ الشمال يا فندم) أو (عَ اليمين يا فندم) أو (ارفع رأسك قليلاً يا فندم)؛ وكيف كان عبد الناصر يميل برأسه نحو اليمين أو الشمال، أو يرفع رأسه قليلاً تنفيذاً لاقتراح المصور، حتى تكون الصور الملتقطة، أجود وأحسن وأجمل، وهو يتمتم بصوت خفيض موجهاً كلماته إلى المصور: (كويس كده؟).

كثيراً ما استدعاني سيادته رحمه الله، إليه، بعد الفراغ من أدائي مهمتي كمذيع في (إذاعة خارجية) مصاحبة موكبه، إما ليُقرِّظ أدائي كمذيع، وإمّا ليبدي ملاحظة ناقدة توجيهية أفيد منها، حول ما جاء في حديثي عبر (إذاعة خارجية) تصاحب موكبه، وإمّا ليسألني عن معنى مفردة من اللهجة العامية السورية نطق بها ناطق سوري من مستقبليه. وأذكر على سبيل المثال أنه

سألني ذات مرة عن معنى جملة هتفت بها مجموعة زاخرة العدد من المستقبلين المتجمعين أمام (قصر الضيافة)، هي: «لَعْلِعْ يا رصاص، لَعْلِعْ»، وحين أوضحت لسيادته رحمه الله أن (لعلعة الرصاص) على اللسان السوري تعني (أزيز الرصاص)، ابتسم ثم قهقه، معلقاً: (الكلمة دي غريبة قوي)، ثم راح يرددها بصوت خفيض، مقهقهاً.

خلال زيارته الثانية دمشق قبل نهاية العام 1958، توجه وفد من الفنانين المصريين كان يزور سورية إلى (قصر الضيافة) لتحية عبد الناصر، وكان بينهم المطرب محمد عبد المطلب الذي ما إن صافح جمال عبد الناصر حتى سأله الرئيس الراحل: (إمتى جيت دمشق من حلب يا طلب؟؟)، وذهل المطرب محمد عبد المطلب، فقد كان توجَّه إلى حلب من دمشق قبل يوم واحد، وعاد في المساء؛ وفي الصباح نشرت إحدى الصحف السورية خبراً صغيراً عن توجهه إلى حلب، وقد قرأه جمال عبد الناصر، وفاجأ به المطرب عبد المطلب وبقية الفنانين المصريين الذين كانوا في زيارة لسورية. فقد كان رحمه الله يولي مثل خبر أو أمر شخصي بحت، كأمر سفر محمد عبد المطلب إلى حلب، أهمية خاصة، تجعل الطرف الآخر يشعر بأن جمال عبد الناصر غير بعيد حتى عن أحواله الشخصية..

في زيارته محافظة اللاذقية برفقة جوزيف بروز تيتو وسيف الإسلام ولي عهد اليمن، بعد أيام قلائل من تقديم مجموعة وزراء حزب البعث استقالاتهم من مناصبهم، ومن شرفة نادي الضباط، ألقى جمال عبد الناصر كلمة في الجماهير المحتشدة أمام النادي ثم تبعه جوزيف بورز تيتو، ثم عبد اللطيف البغدادي الذي هاجم حزب البعث والوزراء البعثيين المستقيلين، دون أن يذكر اسم أحد منهم، هجوماً عنيفاً جداً. تضمَّن الجملة الآتية: (احنا هنذهشهم بالجزم).. وبعد فراغ البغدادي من إلقاء كلمته المرتجلة، وقد كنت أقف إلى يمينه، ومحسن أبو النور إلى يساره، عاتبه جمال عبد الناصر على هذا التجاوز قائلاً: (ما كانش يصح تتكلم كده يا بغدادي)، ثم انفرد به بعيداً بضع خطوات عن الشرفة إلى الداخل، وراح يؤنبه ويعاتبه على تلفظه بقول جارح للبعثيين شركاء عبد الناصر في التجربة الوحدوية السورية المصرية.

في جميع الزيارات التي كان جمال عبد الناصر يقوم بها للمحافظات السورية كنت ألاحظ حرصه الشديد، ومرافقيه، على أداء الصلوات في مواقيتها، وحدث أكثر من مرة أن توقف ركب عبد الناصر عن السير بأمر منه، ليؤدي جمال عبد الناصر صلاة الظهر أو العصر أو المغرب في أي مكان تواجد فيه خارج حدود قصر الضيافة. كما كنت ألاحظ افتتانه باللون الأصفر.

في رحلة موكب عبد الناصر الشهيرة في العام 1959 من دمشق إلى حمص وحماة واللاذقية وحلب، حدث أن هبت عاصفة ثلجية شديدة، في الوقت الذي كان فيه الموكب قد بلغ منطقة جبلية في منطقة (القلمون) قبل الوصول إلى حمص؛ ثم راحت عجلات بعض السيارات تنزلق، وتقرر توقف الموكب عن الاستمرار بالمسير باقتراح من عبد الحميد السراج، إلى أن تتوقف العاصفة الثلجية عن العصف. كان الموكب عندئذ قد بلغ قرية (قارة) المجللة بيوتها الطينية بطبقات الثلج الكثيف؛ وباقتراح من عبد الحميد السراج ترجل جمال عبد الناصر وجوزيف بروز تيتو وزوجته وسيف الإسلام البدر ولي عهد اليمن، وبقية المرافقين من سياراتهم، ثم فوجئت بجمال عبد الناصر يطرق بقبضة كفه اليمنى باب بيت طيني متواضع، فترد من داخله سيدة كهلة على الطَّرق المتتابع، صارخة: (مين؟)، فيرد الرئيس الراحل على التساؤل قائلاً: (جمال عبد الناصر)، فإذا بصوت السيدة السورية الشائخة داخل الدار المتواضعة يتحول إلى (زغاريد) متتابعة، ثم فتحت الباب الخشبي ليدخل عبد الناصر الدار ونحن وراءه. كانت الدار هي دار (آل قدُّور) التي ينتسب إليها السياسي السوري المعروف عبد الحليم قدور، والوزير السوري الحالي ناصر قدور.. وبعد حوالي نصف ساعة أو أقل حوصرت الدار بأهل القرية، وحاولت مجموعة من التلاميذ الصغار اقتحام باب الدار إلى داخلها حيث عبد الناصر وجوزيف بروز تيتو وزوجته وسيف الإسلام البدر، وآخرون، وهنا انبرى محمود الجيارّ مرافق الرئيس وأنا معه، إلى منعهم من الدخول، وقد اقتضى المنع أن يدفع الجيّار وأنا معه التلاميذ المقتحمين، بالقوة التي قد وصلت حدَّ الركل.. وكان جمال عبد الناصر عندئذ مع ضيوفه يتحلقون أمام مدفئة حطب داخل البيت، وقد رآنا من بعيد ونحن

ندفع بقوة التلاميذ المقتحمين بالأيدي وبالركل؛ الأمر الذي أساءه، ثم دفعه إلى النهوض والتقدم إلى حيث كنت أقف ومحمود الجيار عند باب البيت، وإلى أن يشدني جمال عبد الناصر من كتفي مؤنباً، قائلاً: (لأ.. مش كده.. ما يصحش..) ثم انحنت قامته المديدة لتصبح رأسه، رحمه الله، في علو رؤوس التلاميذ الأطفال الصغار الذين راحوا يرفرفون كالعصافير فرحين والثلج المندوف يتراكم فوقهم، هاتفين بأصواتهم الدقيقة البرئية: (أهلاً ناصر ناصر أهلاً ناصر ناصر).. وهو يداعبهم ويمازحهم ضاحكاً غير عابئ بالثلج المندوف بلونه الأبيض الناصع الذي كسا شعر رأسه ومعطفه الصوفي بغلالة بيضاء، رحمه الله.

خلال زيارته تلك محافظة اللاذقية، اقترح عليه عبد الحميد السراج القيام بزيارة تفقدية غير معلنة للجبال المسماة بجبال اللاذقية، وهي منطقة غابات كثيفة، حيث قرية (كسب).. وقد قضت الترتيبات الأمنية باختصار عدد المرافقين، والاقتصار على عدد محدود جداً منهم، وبحيث لا يزيد عدد سيارات الموكب عن ثلاث سيارات ضمَّت إحداها كاتب هذه السطور، والمذيع السوري المرحوم فؤاد شحادة، ومصور جريدة (مصر الناطقة السينمائية) حسن مراد رحمه الله. قبل وصول الموكب قرية (كسب) الجبلية شبه القريبة من الحدود السورية التركية، ترجّل جمال عبد الناصر من سيارته ومعه عبد الحميد السراج وأكرم الحوراني الذي لم يكن استقال من منصبه كنائب لرئيس الجمهورية، بعد، ورأيته يجلس على صخرة مبللة بماء المطر؛ وترجلنا بعده من السيارتين الأخريين، وتحلقنا حوله جالسين على الصخور المبللة بماء المطر، حيث وزع علينا محمود الجيار عدداً من السندويتش بدءاً بسندويتش الجبن الأبيض الخاص بعبد الناصر، رحنا نتناول طعام الفطور: على صخرة وراء الصخرة التي يجلس عليها جمال عبد الناصر، ورأيته رحمه الله وهو يمسك بكفه اليمنى ثمرة برتقال غير منزوعة القشرة، ثم وهو يقضمها قضماً، نازعاً بقواطعه وأصابع كفه اليمنى قشرتها السميكة، وهنا اقترحت على حسن مراد الحامل كاميرته السينمائية، تصوير مشهد الرئيس وهو يقضم بقواطعه قشرة ثمرة البرتقال، إلا أنه لم يفعل، ويا

ليته كان فعل، فقد كان المشهد ظريفاً ودليلاً على أن السلطة لم تغير طبائع جمال عبد الناصر كإنسان، فقد عاش وهو في السلطة متقشفاً وكأنما السلطة لم تكن طوع بنانه.

في تلك الجلسة المشتركة الطارئة على الصخور في غابة جبلية قرب (كسب) في جبال اللاذقية، لاحظت كيف فرغ عبد الناصر من تناوله سندويتش الجبن الأبيض وثمرة البرتقال، وكيف همَّ بالوقوف إيذاناً بالعودة إلى السيارات، وكيف جال بعينيه فيمن حوله من المرافقين قبل أن ينهض، وكيف عاود الجلوس على الصخرة حين لاحظ أن زميلي المذيع فؤاد شحادة لم يكن قد فرغ بعد من تناول السندويتش الخاصة به، فلما استكمل فؤاد تناوله إياها، نهض جمال عبد الناصر واقفاً ليتوجه ونحن معه إلى السيارات المنتظرة.

ربما كان جمال عبد الناصر مفطوراً على أن يرد على العنف بعنف مضاد، لكنه كان – خارج حدود الفعل ورد الفعل هذه – رؤوفاً، شفيقاً، رقيق الحواشي، متواضعاً غاية التواضع، متقشفاً غاية التقشف، نفوراً من السفاهة والتبذير، وكان (مصرياً شعبياً) بكل معنى هذا التعبير، مسلماً متديناً ملتزماً بالواجبات والفرائض الدينية الإسلامية، محباً للأطفال، عطوفاً على الطفولة، عربياً قومياً وحدوياً حقيقياً سعى إلى (توحيد العرب)، ثم تأكد له عبر الممارسات في نهاية المطاف، عُسرُ، إن لم أقل استحالة، هذا التوحيد.. وإذا كان بعض المحسوبين عليه كرئيس، وعلى تجربته السياسية الملحمية، قد أساء التصرف خلال حياته وبعد مماته، فذلك هو (سوء الحظ) الذي لا يمكن لأي زعيم تحاشيه في أي زمان ومكان...

خلال زيارته الأولى دمشق التي بدأت يوم 24-2-1958، زحف وفدٌ من محافظة السويداء – في موكب من السيارات نحو جمال عبد الناصر وهو في (قصر الضيافة)، تتقدمه سيارة زعيم ثورة 1925 السورية سلطان باشا الأطرش رحمه الله، وكان الوقت ظهراً وقد فوجئ جمال عبد الناصر بأعضاء الوفد يُصرّون على إدخال عدد كبير من (المناسف) التي أحضروها معهم من جبل العرب إلى مقر عبد الناصر. و(المنسف) صينية رقيقة مستديرة من النحاس أو الألمنيوم، قد تبلغ قطر الواحدة منها المتر أو المترين

أو أكثر، يوضع فيها خروف محشي بشحمه ولحمه ودهنه ورأسه وكبده وكليتيه وخصيتيه بالأرز المطهو باللوز والجوز والبندق، إضافة إلى كمية كبيرة من السمن البلدي (سمن الغنم). وقد كان في (المناسف) أكثر من عشرين خروفاً أصرَّ سلطان باشا الأطرش على أن تكون هدية جبل العرب، ذلك اليوم، إلى جمال عبد الناصر، يتناول منها معهم في وجبة الغداء هو وكل من معه في القصر. وقد رأيت جمال عبد الناصر يجالسهم قعوداً على الأرض كعادتهم العربية البدوية، ويشاركهم تقطيع لحم الخراف المحشوة المطهوة بالسمن البلدي الخالص، بأصابعه، ثم يجبل قطع اللحم والدهن بالأرزّ والمكسرات في راحة كفه، ثم يقذفها لقّماً مكوَّرة في فمه، تماماً كعادة البدو في تناولهم هذا اللون الأدسم الأطيب من الطعام.. وكم كان سلطان باشا الأطرش ساعتئذ سعيداً هو وأعضاء الوفد المرافق، وهو يرى جمال عبد الناصر يتناول اللحم والأرز بأصابع يمناه كما كانوا يتناولونه.. لكن سلطان باشا الأطرش ومن معه لم يعلموا من بعد بما حدث لجمال عبد الناصر: فقد أصابه رحمه الله يومئذ تلبك معوي شديد استمر ثلاثة أيام بلياليها، وما أظن أنه عاود تناول (أكلة المنسف) من بعد، حتى آخر يوم في حياته رحمه الله.

هكذا عرفنا جمال عبد الناصر نحن أهل بلاد الشام الذين لا تزال فئة كبيرة منهم حتى اليوم تعلق صوره على جدران غرف البيوت والمحال والدكاكين في جميع أرجاء الوطن الشامي العريق في سورية وفلسطين، كما في الأردن ولبنان والعراق..

سقى الله سنوات عهد عبد الناصر وسنوات عهد الوحدة السورية المصرية بكل ما كان فيهما من إنجازات وأمجاد وأخطاء ومثالب، وبكل ما كان فيهما من حسنات ومثالب.. فقد كانت سنواتٍ عابراتٍ ازدهرت فيها الآمال العربية القومية ازدهار الشجيرات المورقات في بساتين اللوز والكرز في أرض خصيبة في مواسم الربيع، قبل أن تنكب بالانتكاس في اليوم الثامن والعشرين من سبتمبر من العام 1961 الذي زحفت في فجره قوة عسكرية سورية حانقة لتسقط التجربة الوحدوية السورية المصرية، فتذبحها من الوريد إلى الوريد. وقد ظل نزف الدم والآمال العربية القومية المجهضة مستمراً إلى

أن فاضت روح عبد الناصر إلى بارئها، عصر اليوم الثامن والعشرين من سبتمبر من العام 1970، تماماً في عصر ذاك اليوم الذي وقعت في فجره من العام 1961 جريمة الانفصال التي من رحمها تدفّق دم حيض العروبة القومية ذات النزعة الوحدوية، الأسود، تدفقاً شديدا متصلاً حتى هذا اليوم من العام 2003، وإلى الحد الذي بتنا معه نخشى أن تمسي هذه العروبة القومية الوحدوية، عاقراً، بعد موت طفلها الأول الجميل الوسيم البديع المولود في اليوم الثاني والعشرين من شهر شباط /فبراير من العام 1958، المتوفى قتلاً فجر اليوم التاسع والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1961، فمن رحم تلك الكارثة القومية المبكرة، ولدت كارثة 1967 من بعد، وسلسلة من الكوارث القومية المتتابعة مرحلة بعد أخرى، لعل أخرها مما هو منظور مسموح محسوس، كارثة العراق ، وهي كارثة عربية قومية أكثر منها كارثة عراقية قطرية...



جمال عبد الناصر

(8)
الطريق نحو الإحياء العربي القومي*

نشرت جريدة الأهرام في عددها الصادر يوم الجمعة 7-8-1987 افتتاحية تحت العنوان (أحداث الحرم الأخيرة: الهدف والنذير) هي في قناعتنا واحدة من أهم المقالات السياسية التي نُشرت في العالم العربي خلال السنوات القليلة الماضية فقد أعلنت ما كان محظوراً خلال السنوات العشر الماضية إعلانه، ولامست ما كان محظوراً من قبل ملامسته لشدة حساسيته والتأثيرات التي يمكن أن يخلفها هذا الكشف في أوساط الأقليات في العالم العربي، ولأنها كشفت بوضوح عن مخططات عتيقة ـــ متجددة، خاصةٍ بتفكيك دول عربية، شرق أوسطية هي: لبنان، سورية، العراق، السعودية ودول منطقة الخليج، بما فيها إيران، وهو التفكيك الذي يُراد به مسح كل من دولة الإمارات والكويت وقطر والبحرين وسلطنة عُمان مسحاً من الخارطة تماماً، وتقسيم مصر أيضاً إلى دويلة إسلامية، وأخرى قبطية، وثالثة نوبية، كذلك السودان.

ما لم يُشر إليه الأستاذ نافع بمقالته الهامة تلك، هو المخططات السرية الخارجية الخاصة بالشمال الأفريقي بخاصة الجزائر، وهي المخططات المتعلقة بإثارة النعرة البربرية العرقية، وتحريض البربر، وهم من أصل عربي حسب تقديرات عدد من الباحثين المتخصصين، منهم العلامة التونسي الدكتور عثمان الكعاك رحمه الله، على إقامة دولة خاصة بهم، واغتصاب السلطة في بعض المناطق الشمالية الأفريقية، وبخاصة الجزائر، كذلك تحريض البوليساريو، على إنشاء دويلة مقتطعة من وحدة الأراضي المغربية.

وإذا كانت الدول الغربية الأوروبية، وبخاصة فرنسا وبريطانيا، مضافاً إليهما الولايات المتحدة الأمريكية، ما تزال تسعى بين حين وآخر إلى وضع هذه المخططات التفكيكية المدمرة لوحدة العالم العربي موضع التطبيق

* كتبتُ هذا المقال في سبتمبر/ أيلول 1987 وأرسلته إلى رئيس تحرير جريدة (الأهرام) فلم ينشره. ثم أرسلته إلى رئيس تحرير مجلة (الدستور) في لندن، فلم يُنْشر.

في المرحلة الراهنة أو الوشيكة، فإن العديد من المفكرين السياسيين العرب القوميين، دأبوا على محاولات الكشف عن هذه المخططات منذ أكثر من ربع قرن مضى، ومن هؤلاء الدكتور أنيس صائغ الذي كشف في كتابه (الهاشميون) عن صلة مجموعة الأقليات العربية الدينية والمذهبية، والعنصرية القومية؛ بكل من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية منذ أوائل القرن العشرين، وهي صلات قديمة استخدمت باستمرار لإحياء روح التمرد لدى هذه الأقليات، وتفتيت وحدة الدولة القطرية العربية.

ومن هؤلاء أيضاً، السيدة علياء الصلح، كريمة رجل الدولة العربي القومي الزعيم السياسي الراحل اللبناني رياض الصلح، الذي اغتاله الحزب القومي السوري انتقاماً منه لإعدامه زعيم الحزب أنطون سعادة أواخر الأربعينيات.. وهي مطلّقة الكاتب الصحافي الفلسطيني المعروف الأستاذ ناصر الدين النشاشيبي، الذي كان شغل منصب رئيس تحرير جريدة (الجمهورية) المصرية في مرحلة من الستينيات من القرن العشرين في العهد الناصري. فقد نشرت السيدة علياء الصلح مقالة في الصفحة الأولى من أحد أعداد جريدة (النهار) اللبنانية أواخر الستينيات من القرن العشرين وأوائل السبعينيات، في مناسبة تعيين السيد (هولمز) سفيراً للولايات المتحدة الأمريكية (وهو من كبار رجال المخابرات الأمريكية الدبلوماسيين) في المملكة العربية السعودية؛ كشفت فيها النقاب عمَّا أكده من جديد الأستاذ إبراهيم نافع في مقالته الهامة المنشورة في (الأهرام) يوم الجمعة 7-8-1987؛ من أمر وجود مخطط أمريكي موضوع؛ يقضي بتقسيم المملكة العربية السعودية إلى ثلاث دويلات: الإحساء، ونجد، والحجاز، في (الوقت المناسب).

بل إنني لأزعم أنني واحد من هؤلاء الذين نبّهوا خلال السنوات الأخيرة بإلحاح، إلى ضرورة إنشاء (مشروع عربي قومي) ضد المخططات الخاصة بإنشاء دويلات طائفية وعرقية في كل من لبنان وسوريّة والعراق ومنطقة شبه الجزيرة والخليج والجزائر والمغرب بصفة خاصة، بهدف تفتيت القوة العربية بصفة نهائية، مع إضعاف إيران أيضاً بتفكيكها إلى عدة دويلات.

ولعل من المفيد ـــ على هذا الصعيد ـــ الرجوع إلى كتاب (المأزق: مصر والعرب الآخرون) الصادر في القاهرة في العام 1986 عن دار

الموقف العربي، وفي دمشق عن دار طلاس في طبعته الثانية في العام 1987، ففيه تفصيل عن المشاريع الخاصة بإعادة صياغة حدود العديد من دول الشرق الأوسط.

وإذا كان كثيرون من المفكرين والكتاب العرب السياسيين قد دأبوا مؤخراً على التنبيه إلى خطورة هذه المخططات، وإلى ضرورة الكشف عنها، ووضع مشروع عربي قومي لإجهاضها قبل الوصول إلى مرحلة تنفيذها على مراحل أو بصورة مباغتة اليوم أو غداً أو بعد غد، فإن الكثيرين من المسؤولين العرب كانوا وربما لا يزالون يرون عكس ذلك، متذرعين بوجوب عدم الكتابة عنها، وضرورة عدم الكشف عنها علانية بصراحة حرصاً منهم على عدم إثارة الحساسيات في أوساط هذه الأقليات الدينية والمذهبية والعنصرية القومية العرقية.. وخوفاً من أن يؤدي الكشف عنها، هكذا علانية بكل الوضوح والصراحة، إلى المزيد من القلاقل الداخلية في العالم العربي. لكن التطورات العملية تكشف لنا اليوم عن أن (حكمة) هؤلاء، لم تكن مفيدة ولا ناجعة؛ لأنها لم تؤد إلى إجهاض تلك المخططات الخطيرة، ولا إلى إقناع زعامات هذه الأقليات بضرورة الذوبان في الذات العربية القومية، ولا في الدولة القطرية..

وفي جو التغاضي عن بدايات إرهاصات حركات التمرد الانفصالية هذه حرصاً على ظواهر الوحدة الوطنية في بعض الأقطار العربية والإسلامية، تمكنت بعض القوى الخارجية من توثيق وتوسيع الجسور السرية التي تصلها بهذه الأقليات، وتصل الأقليات بها، وبحيث تم تحويل الشعور بالنقص، أو بالضعف لدى هذه الأقليات إلى عداء حقيقي ضد الأكثرية، وبحيث تم ويتم توظيف هذا العداء المتراكم المضمر ضمن برامج موضوعة وخطط وأفعال مدنية مضادة للوحدة الوطنية والوحدة القومية، لصالح هذه القوى والمصالح الأجنبية، تعتمد على مختلف المؤسسات والتنظيمات المؤطرة لفعاليات هذه الأقليات بمختلف أنواعها الدينية والمذهبية والعنصرية القومية العرقية، بصفتها ألغاماً حقيقية موقوتة، موزعة في مختلف أنحاء العالمين العربي والإسلامي، وهي الألغام التي تورّمت مؤخراً بصورة ملفتة للنظر.

ولقد أشار الأستاذ إبراهيم نافع في مقالته تلك الهامة المنشورة في (الأهرام) بتاريخ 7-8-1987 إلى ما هو هام جداً؛ وهو ضرورة التوجه على الفور، إلى محاولة إحياء الطرح العربي القومي، وانتشال شعار القومية العربية الموؤود ظلما وخطأً، وعدواناً على الذات العربية، من اللحد الذي وسَّدته فيه بعض الفصائل العربية منذ ضربة حركة الانفصال في سورية العام 1961 ثم منذ نكبة 1967.. وهذا في رأينا هو الحل الوحيد الممكن، الذي يمكن للأمة العربية بكل أقطارها أن تتوجه بسرعة نحوه قبل فوات الأوان؛ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وللخروج من المأزق الذي حُوصرت فيه خياراً عن سوء تقدير وليس إجباراً، وذلك بفشل التجربة الوحدوية، التي بدأت بتوحيد سورية ومصر بتاريخ 22-2-1958، ثم بفشل الأحزاب والتنظيمات السياسية العربية الملتزمة بالمبدأ القومي، بتحقيق أية تجربة وحدوية أخرى.

ولئن تكن الدعوة للإحياء الإسلامي، بدأت من مصر بالذات منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإن طرح شعار القومية العربية، بدأ في سورية بالذات منذ أواخر القرن التاسع عشر، مواكباً من الناحية التنظيرية، للحركة العربية القومية التي مارسها الشريف حسين، بالتعاون مع (لورنس) والبريطانيين في النصف الأول من القرن العشرين، ضد الدولة العثمانية، وهيمنتها، تحت ظلال الشعار الديني على العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه.

وبتتبعنا حركة الأحداث السياسية خلال تلك الحقبة من تاريخنا العربي الحديث، نرى أن إلحاح كل من الأستاذ زكي الأرسوزري، والأستاذ ميشيل عفلق، والدكتور صلاح الدين البيطار، المؤسسين التاريخيين لحزب البعث (وهو أول مؤسسة تنظيمية عربية شعبية رفعت شعار القومية العربية) إنما كان إلحاحاً تنظيمياً وتنظيرياً وتبشيرياً مثالياً صرفاً، بمعنى أن الدعوة إلى وحدة العالم العربي أو توحيد العالم العربي بكل أقطاره، إنما كانت تعبيراً عن أمل مثالي أفرزه الفكر، والتصوُّر والخيال العربي القومي، وقد صاحبها العجز عن وضع الشعارات القومية المرفوعة موضع التطبيق بعد الهيمنة على السلطة في هذا القطر العربي أو ذاك، لأن أصحاب الطرح القومي في

بل تمثله كونه جزء فقط لا أكثر من مجموعات الحركات الوطنية الأخرى.. فلما تحولت (حركة) 23 يوليو 1952، في مصر بالنيّة، إلى (ثورة) ساندتها الجماهير الشعبية، استلهمت من شعارات حزب البعث، ومشروعه القومي، الأسباب والوسائل التي توسعت بها من كونها ثورة مصرية إلى كونها ثورة قادرة على استقطاب الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج مؤثرة، ومتأثرة به.. وبذلك تكامل التنظير القومي في سورية الآسيوية مع الممارسات الثورية المصرية العربية بقيادة جمال عبد الناصر في القارة الأفريقية؛ وبسبب هذا التكامل والتطابق بين التنظير القومي الثوري السوري الآسيوي، والممارسات الثورية المصرية الأفريقية منذ العام 1956 بالتحديد، أثمرت شجرة القومية العربية ثمرتها الأولى في العام 1958، وهي سرعان ما سقطت من وهنها الذاتي قبل أن تصل إلى مرحلة النضج الكامل. وبسقوط تلك الثمرة بحركة 28-9-1961 الانفصالية السورية انتعشت الدعوات الانفصالية في جميع الأقطار العربية؛ وتمكن أصحابها من المشاركة بصنع القرار الوطني، وتحديد الخيارات الوطنية، في كل قطر عربي، على حدة.. وبهزيمة عبد الناصر والعرب أمام إسرائيل في العام 1967؛ وبوفاة جمال عبد الناصر بعد ذلك وعدم استطاعة حزب البعث توحيد قياداته وفصائله، لَوَت البيارق الوحدوية أعناقها وأُطفئت عن عمد أو عن يأس مصابيح الدعوة القومية العربية؛ وأصبح محظوراً تذكير الجماهير العربية، بجيلها الجديد، بها عبر غالبية الإذاعات العربية ووسائل الاتصال والإعلام العربية الأخرى؛ وبذلك تفتَّت (الكلُّ العربي – المجزَّأ) إلى ذرات رمل مضطربة بعد أن كان هذا الكل العربي مجموعات من الحجارة أو الحصى شبه المتحدة، وأصبح كل قطر عربي يضع سياسته القطرية الخارجية منفصلة تماماً عن سياسات الأقطار العربية الأخرى؛ وبذلك فقد الأمن العربي القومي أهم مقوماته. بل كل مقوماته الأساسية؛ وهذا هو بالضبط ما سهَّل تنفيذ عملية إقدام مصر السادات منفردة على عقد اتفاقية صلح مع إسرائيل، وانفجار لبنان شظايا، وإقدام إسرائيل على ضرب المفاعل الذري في العراق ومركز قيادة منظمة التحرير الفلسطينية (حمّام الشطّ) في تونس، بعد أن تمكنت إسرائيل من

مطاردة الفلسطينيين في لبنان حتى شاطئ البحر، وإخراجهم منه ليتبعثروا في الآفاق العربية الأبعد عن فلسطين؛ ولتتمكن إسرائيل من عقد اتفاقية 17 أيار/ مايو مع لبنان (بشير الجميل)؛ بل إن هذا هو بالضبط ما سهّل دخول العراق ــ وحيدة ــ في حرب طاحنة مع إيران، وما سهّل استمرار الحرب ثمانية أعوامٍ على وجه التقريب، في الوقت الذي تسبَّب غياب مبدأ وحدة الأمن القومي العربي، تغييب شعار القومية العربية.

في زحمة هذه الانتكاسات المتوالية العربية، وفي غياب الشعارات والسياسات القومية، برزت إرهاصات الانبعاث الإسلامي السياسي، وهي الأرهاصات التي تنبه إليها، العالم الغربي ــ الأمريكي من ناحية، والمعسكر الأوروبي الاشتراكي من ناحية أخرى، في وقتٍ مبكر جداً، فإذا بجميع أعداء الأمة العربية والأمة الإسلامية، يسارعون إلى محاولة تفجير العالم الإسلامي من داخله، وذلك بتسهيل عملية إسقاط الشاه أمريكياً، بواسطة الجنرال هويسر الأمريكي، وتسهيل إنجاح الثورة الإيرانية التي سرعان ما رفعت الرايات المذهبية تغري بها المنتمين إليها من مسلمي العالم العربي؛ والتي سرعان ما أفصحت عن عزمها على تصدير الثورة مستغلة بذلك حالة التفكك العربي، وهو سعي منها كان يمكن أن ينتهي إلى قيام سلسلة من الحروب الدينية المذهبية، مع سلسلة من الحروب الإسلامية ــ المسيحية في أكثر من قطر عربي، وبحيث لا يكون ثمة من حل ممكن قد يفرض نفسه فرضاً لإنهاء هذه الحروب المتوقعة المحتملة سوى تفكيك كل دولة عربية إلى عدة دويلات، بما في ذلك إيران، وعلى النحو الذي فصلته مقالة الأستاذ إبراهيم نافع الهامة. فكيف يمكن للأمة العربية، من ناحيتها، أن تمنع تنفيذ مجموعة هذه المخططات الأمريكية الجهنمية الصهيونية، لتردَّ عن ذاتها غائلة السقوط وذل الهوان، وخطر الانقراض؟

نحن نرى، من منظور التاريخ، والتحليل السياسي، والاستقراء، والمتابعة، والتصور؛ أنه ليس ثمة من طريق متاحة أمام جميع الأقطار العربية المتنابذة، لحماية ما تبقى من الذات العربية المعاصرة، سوى الإقدام العاجل على إحياء الطرح العربي القومي من جديد، فهو الآن حاجة للأمة

العربية عاجلة ماسة جداً؛ وليس كما كان من قبل، ترفاً في التنظير، أو مقامرة في الممارسة لتحقيق أمجاد شخصية، لأن الطرح القومي العربي الوحدوي، يستطيع أن يستوعب المسيحي العربي، والمسلم العربي إلى أي مذهب ينتمي، كما أنه لا يتعارض عملياً مع دعوة أنطون سعادة إلى توحيد الأراضي الطبيعية السورية (بلاد الشام)، لأن توحيداً كهذا، يتكامل مع التوجه نحو آفاق الوحدة العربية.

ففي هذا الوعاء يمكن تذويب التناقض فيما بين هذه الفصائل العربية الدينية والمذهبية، كذلك التناقض بين الفصائل هذه وبقية الفصائل القومية ذات الأصول غير العربية الأخرى. وعلى أساس أن يكون العربي هو كل مواطن ولد وعاش ويعيش فوق أرض عربية، لغته هي اللغة العربية، ومصلحته الحياتية جزء من مصلحة العالم العربي في الحاضر وفي المستقبل، من المحيط إلى الخليج، ومن جبال طوروس في الشمال، إلى أدنى شبر من أرض جنوب السودان.. حتى وإن يكن في الأصل كردياً أو أرمنياً أو شركسياً أو ألبانياً... إلخ.

(9)

مــن واقع عربــي مريض نحو مستقبل عربي أفضل *

يقول دستويفسكي في روايته القصيرة (الإنسان الصرصار): «شدة الإدراك مرض حقيقي خطير»؛ فإن تكن هذه المقولة صحيحة، فإن المدرك خفايا السياسات والصراعات العربية على مستوى الدولة القطرية، وعلى مستوى النظام العربي ككل، يصبح في نظر مؤيدي هذه النظرية والمقتنعين بصحتها، مريضاً حقيقياً بالإدراك، أي بالمعرفة التي جعلت الكثيرين من هؤلاء المدركين المرضى، ولعليّ واحد منهم، يختارون الابتعاد عن المشاركة بأي نوع من أنواع الصراع في الساحات العربية؛ والابتعاد ما أمكن حتى عن الأصدقاء والأقرباء المحبين والأعداء الكارهين، ولولا الحاجة الماسة للسعي في سبيل ثمن الرغيف والكساء والطعام، لآثر هؤلاء الاعتكاف التام في منازلهم السكنية حتى وإن تكن من (الشقق المفروشة).

ولقد كان يمكن لهذا الاعتكاف أن يكون التعبير الحي عن يأس هؤلاء من نمو أية حركة إصلاحية حقيقية عربية تربوية سياسية اقتصادية، اجتماعية ثقافية، شاملة؛ بعد أن اختلّت كل الموازين، وتورمت أو ضمرت كل المكاييل؛ وبعد أن بات من الصعب التمييز بين اليمين واليسار؛ الحقيقي والمزيّف، الجيّد والرديء، الصادق والمنافق، الجميل والقبيح، الشمال والجنوب، الباطل والحق؛ فكل شيء اختلط بكل شيء في عالمنا العربي من المحيط إلى الخليج؛ وأصبح للحرية مظهر وبرهان أو دليل يتمثل (بعدم الاعتقال) في بعض الأقطار.

---

* كتبت هذا المقال عقب إعادة العلاقات أواخر العام 1988 بين الإمارات ومصر، ثم بين مصر وعدد من الدول العربية من بعد. وقبل إعادة العلاقات بين السعودية ومصر من ناحية، وبين مصر وسورية من ناحية أخرى. وقد بعثت به إلى جريدة (الأهرام) فلم ينشر، وإلى جريدة (الموقف) من ثمّ. فلم ينشر.

من العناصر هذه كلها، المختلطة اختلاط الماء بالماء، تشكلت غيوم المرحلة العربية السَّوداء، وكان على رجال الفكر والصداقية والمواهب والإخلاص والإبداع أن يفعلوا ما لم يعد في مقدورهم أن يفعلوا سواه، وهو الانسحاب خياراً من كل الساحات، ليعتكفوا مبتعدين عنها وعن الناس جميعاً، بمن فيهم الأقارب والأصدقاء؛ محاولين بذلك الحفاظ ما أمكن الحفاظ على ذواتهم ــ الجواهر، تاركين المسارح والميادين العربية كلها للطامحين من الأقدر على الاقتحام والمداهمة والمصارعة والاحتلال والتزوير...

كانت هذه هي مواقع ومواقف وأحوال الكثيرين من المفكرين والمبدعين والمخلصين العرب في الكثير من الأقطار العربية طيلة السنوات العشرين الماضيات.. وهي السنوات التي جرَّب فيها الأخ مخاصمة أخيه، والعربيُّ أن يكره أخاه العربي الآخر.. إلا أن تجربة الخصام والكره العربي ــ العربي المشتركة المتبادلة هذه قد برهنت لكل الأطراف العربية على أن أي خير للعرب في أي قطر؛ لن يجيء ولن يكون إلا حين تجيء للعرب من العرب؛ وليس من واشنطن أو موسكو أو الصين أو إسرائيل أو باريس..

وإذا كان أي طرف عربي لم يكن هو المتسبب بخروج مصر من ساحة الصراع العربي ــ الإسرائيلي في مرحلة من تاريخ مصر الحديث سابقة، فإن تجربة انفراد مصر بتوقيع معاهدة سلام مع عدو العرب الأول التاريخي إسرائيل؛ أكدت لمصر قبل غيرها أنها ليست في غنى عن العرب الآخرين حتى وإن هم خاصموها وخاصمتهم هي حيناً لأي سبب من الأسباب، وأكدت في الوقت نفسه لكل العرب الآخرين في جميع أقطارهم، أن غياب مصر عنهم هو غياب عظام العمود الفقري عن الجسد، وأنه لا استقامة للجسد العربي بغير عظام العمود الفقري، أولاً. وهو ههنا: مصر بالتحديد.

وإذا كان صحيحاً أن الفترة من 1980 وفترة ما تلاها من سنوات حتى العام 1988، على صعيد العلاقات العربية ــ العربية، والعلاقات المصرية بالعرب الآخرين بصفة خاصة، قد أفرزت كمَّاً ضخماً من التراكمات المؤذية للنظام العربي والأمة العربية، خلال فترة معينة؛ وجعلت الكثير من أجزاء العلاقات العربية ــ العربية، لا ينمو، ولا يتطور نحو الأفضل والأرقى، فإن

ثمة فوائد مؤكدة لتلك المرحلة السوداء التي استمرت ثمانية أعوام على وجه التقريب من 1980 حتى أكتوبر 1988؛ لا ينبغي إغفالها. ومن هذه الفوائد على سبيل المثال لا الحصر:

1 ـ إن مصر اكتشفت بكل مستوياتها، حقيقة أنه لا غنى لها قط عن العالم العربي خارج حدودها.

2 ـ إن العالم العربي اكتشف بكل أقطاره أيضاً خارج حدود مصر، أنه لا غنى له قط عن مصر الأخت الكبرى الرائدة الحاضنة.

3 ـ إن مصر عرفت بالممارسات العملية أن اتفاقية السلام مع إسرائيل بالتنسيق المباشر مع الولايات المتحدة الأمريكية، لا كوسيط وحسب بل كطرف ثالث؛ لم تحقق كما كان مؤمَّلاً في مصر في مرحلة سابقة، الرخاء الاقتصادي، المأمول؛ ولم تؤمن (لكل مواطن مصري شقة سكنية وسيارة خاصة) كما وعد الرئيس المصري الراحل محمد أنور السادات قبيل التوقيع على الاتفاقية غير البعيدة.

4 ـ إن العرب الآخرين، خارج حدود مصر، اكتشفوا أنهم وهم بعيدون عن مصر؛ لم يصبحوا «أقوى» بل «أضعف» مما كانوا عليه حين كانت إلى جانبهم ومعهم مصر، بكل ثقلها السياسي والعسكري والثقافي والإعلامي.

5 ـ إن مصر أدركت، ربما في الوقت المناسب وليس بعد فوات الأوان؛ أنه لا الولايات المتحدة، ولا غيرها من الدول الأجنبية القادرة الصديقة لمصر، أو الزاعمة أنها كذلك بمعنى أصح وأدق، ستمدُّ يد المساندة الكافية الاقتصادية إليها بدافعٍ من مشاعر النبل والشهامة، لتتمكن من الخروج من مأزقها الاقتصادي المعقد؛ وأن المعونات الاقتصادية التي كانت الولايات المتحدة وغيرها من الدول الأجنبية وعدت بها مصر في مرحلة سابقة، ستظل مرتبطة بأهداف سياسية أجنبية تعرف مصر جيداً اليوم أن رئيسها لن يوافق قط على تحقيقها إرضاء لشهوات الطامعين بها.

وشروط صندوق النقد الدولي المجحفة المحرجة جداً لشعب مصر الصبور وقيادته السياسية الوطنية، ما تزال دليلاً على ذلك، يقابله دليل آخر على رد الفعل المصري إزاء سلسلة الضغوط الاقتصادية، والشروط

التعجيزية لصندوق النقد الدولي الذي يمكن اعتباره إحدى رؤوس حراب (النظام الرأسمالي العالمي الجديد) الذي تقوده الولايات المتحدة وأوروبا الغربية وإسرائيل؛ هو رفض الحكومة المصرية الكثير من هذه الشروط التي يمكن تفسيرها (حسب المنهج السياسي المرتبط ارتباطاً وثيقاً على مستوى التعاون الدولي بالمعونات الاقتصادية) على أنها محاولات أجنبية جادة وخطيرة للتدخل في شؤون مصر الداخلية؛ وتركيبها سياسياً في نهاية المطاف.

... ثم إن من الممكن ملاحظة أن انتفاضة الشعب الفلسطيني بسلاح الحجارة داخل الوطن المحتل، انبثقت إلى الوجود في الوقت الذي كانت فيه غالبية الحكومات والأنظمة العربية، متخاصمة، وفي الوقت الذي كانت فيه المرحلة العربية تبدو للجميع وكأنما هي مرحلة لا انفراج بعدها. ولدت ثورة الشعب الفلسطيني المسلح بالحجارة داخل فلسطين المحتلة، من خارج أرحام الأنظمة العربية كلها، بكل أشكالها وألوانها وتوجهاتها؛ وهذا يعني أن الانتفاضة كانت إعلاناً شعبياً باستقلال الثورة العربية الشعبية وانفصالها عن جميع الأنظمة العربية، وعدم حاجتها إليها. لتعبِّر عن ثورة الحرية والحق والعدالة داخل أرض فلسطين. (على هذا الأساس كان وما يزال ينبغي أن نفهم عملية ولادة الانتفاضة) السهلة ـــ العسيرة. وهي ما تزال شديدة النزف الدموي حتى الآن.. وعلى هذا الأساس أيضاً، بل على أساس هذا المحور بالذات، يمكن للأنظمة العربية أن تتجمع، وأن تتفق، وأن تستعيد عصر التضامن العربي الفقيد.. حتى تكون (دولة فلسطين) المعلنة حتى اليوم بلا أرض ولا حدود، دولة ذات حدود فوق أرض، ودولة شعب فوق أرض لها حدود معترف بها دولياً، ولها خارطة معترف بحدودها السياسية على صعيد القانون الدولي؛ وحمايته.

الانتفاضة، ثم الإعلان النظري عن قيام دولة فلسطين؛ ومن قبل ذلك توقُّف رحى الحرب العراقية الإيرانية عن الدوران الساحق الماحق؛ ومن قبل ذلك أيضاً نجاح القيادة السياسية في مصر باستعادة ملامح وجه مصر العربي؛ خطوة حكيمة هادئة، بعد أخرى، ورفرفة أعلام مصر من جديد فوق سفاراتها في جميع الدول العربية ... كل ذلك بدأ يبدِّد فيما نرى الغيوم السود

التي تلبّدت بها السماوات العربية كلها عبر الأعوام الثمانية من 1980 وحتى 1988؛ وجعل الكثيرين من المدركين اليائسين المفكرين العرب يشعرون بما يشبه الانتعاش الوجداني والعقلاني في آن؛ ويرون ضرورة مغادرة مكامن الاعتكاف، للتوجه بالخطى الجادة من جديد نحو الساحات والميادين؛ للمشاركة بالمرحلة العربية الجديدة الوليدة التي هي حتى اليوم جنينٌ انبثق نصفه من رحم أمه في اتجاه الحياة الجديدة، لكنَّ نصفه الآخر ما يزال في رحم الغيب، لم يخرج منها حتى ساعة كتابة هذه السطور في الأيام الأخيرة من العام 1988.

ولقد أسعدنا وأفرحنا كثيراً جداً، ما سمعنا من راديو دمشق من تعليقات سياسية طيبة للغاية، مؤخراً، عن مصر العربية الرائدة. وما قرأناه من تصريحات الناطق الرسمي السوري عن مصر العربية، وما قرأناه وماسمعناه من أقول السيد الرئيس حافظ الأسد عن صديقه وأخيه الرئيس محمد حسني مبارك، وعن مصر، وعن شعب مصر العريق العربي الطيب، وعن دور مصر المؤثر الرائد عبر كل مراحل التاريخ؛ وعن عراقة العلاقات الخاصة التي كانت أبداً تربط دمشق بالقاهرة... وما زلنا ننتظر المزيد من الخطوات المتبادلة المشتركة على الطريق بين دمشق والقاهرة، وعلى الطريق بين القاهرة ودمشق...

الآن ونحن نكتب هذه السطور، نسمع صوت الجماهيرية الليبية الإذاعية واضحاً، عبر الأثير، والشعب العربي الليبي فيما نعلم أنه يتابع الإذاعات المصرية بعد أن توقفت محطات (الشوشرة) عن الإرسال ... وبعد أن تحقق التصالح المصري الليبي الذي نأمل بأن يكون قام على أساس حسن النية المتبادل، الذي على أساسه ستكون الثقة المتبادلة التي نرجو مخلصين أن تكون مستمرة، وليست نزوة طارئة عابرة.

ولعل ثمة احتمالاً شبه مؤكد؛ بعودة الجامعة العربية إلى مقرها في القاهرة في موعد لاحق غير بعيد ومعنى هذا أن تكتمل الفرحة العربية في كل وجدان عربي غيور على مصلحة الأمة العربية العليا التي تعرضت إلى أخطار كثيرة خلال السنوات الثماني الماضيات، لاردها الله مرة أخرى...

وإذا كانت هذه الترتيبات والتطورات والتحولات الإيجابية العربية الجديدة كلها، تتعلق أساساً بالأنظمة العربية، وبعلاقاتها الرسمية المتبادلة المشتركة، وبتعاونها الرسمي المشترك المتبادل الحكومي، فإن ما ينبغي عدم نسيانه هو أن الشعوب العربية ظلت كما كانت عبر كل مراحل تاريخها، مستمرة بتبادل التعاطف المشترك، والاحترام المشترك، والود المشترك، والنزوع المشترك نحو استمرار التواصل والاتصال المشترك، دون انقطاع؛ وهذا ما يحسن بكل الأنظمة والحكومات العربية أن تدركه اليوم، حتى لا تتكرر تجربة أعوام الثمانية الماضية مرة أخرى؛ وهي التجربة المرة الحنظلية التي يمكن لنا استخلاص العبرة الهامة منها اليوم، هي العبرة التي تؤكد أن القوة العربية، هي في التضامن العربي؛ ولعلي أفضلها أن تكون هكذا: هي في الاتحاد أو الوحدة العربية...

فهل سيكون التضامن العربي هو الخطوة الأولى نحو تحقيق حُلم الأمة العربية بتحقيق الوحدة العربية؟ أم أن الوحدة العربية ستظل، كما يراها الكثيرون من المتشائمين العرب، ليست سوى أضغاث أحلام، وصورة بهيجة من (أحلام اليقظة) العربية؟

أشرنا في السطور السابقة إذاً إلى عدة ظواهر ودلائل تشير إلى بروز احتمال أن يصبح التضامن العربي الذي ظل غائباً، طيلة الأعوام الثماني الماضية؛ أمراً عربياً واقعاً بعد أن أكدت أعوام التشرذم والتخاصم العربية الثمانية، المتصلة، أن الاستمرار بالتنابذ هو خسارة لكل الأطراف العربية؛ وأن أي نظام عربي (بغض النظر عن توجهاته على صعيد السياسة الخارجية، ومنطلقاته الأيديولوجية السياسية الاقتصادية والاجتماعية والدينية والمذهبية والحزبية) غير قادر عملياً على التأثير بنظام عربي آخر يخالفه من الناحية النوعية، أي غير قادر على إسقاطه، خاصة وأن اختلاط أوراق النظام القطري وأوراق النظام الإقليمي، وبأوراق المصالح الدولية، شرقية كانت أو غربية، اشتراكيةً ماركسية أو رأسمالية، جعل من العسير أن يتمكن أي نظام عربي من إسقاط أي نظام عربي آخر؛ بل جعل من العسير على أي شعب عربي بصفة خاصة أن يتمكن من إسقاط أي نظام من الأنظمة التي

تحكمه وتهيمن عليه عبر قنوات السلطات التشريعية والتنفيذية والعسكرية والأمنية وأحياناً بمساندة القوات العسكرية المسلحة؛ ما لم تساعد (دولة أجنبية) قوية، على ذلك، بتقديم معونات مالية، وسياسية وإعلامية وربما عسكرية واستخباراتية، إلى مجموعة من الأفراد المتطلعين إلى تحقيق التغيير، في مجتمع من المجتمعات؛ إما عن طريق الانقلاب العسكري؛ أو الانفجار الشعبي، أو باستخدامهما معاً بمساندة قوة أو قوىً أجنبية خارجية بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ولقد انعكست سياسة الوفاق والتقارب بين القوتين العظميين، على واقع الأنظمة العربية، جميعها؛ لصالح هذه الأنظمة التي يلاحظ أنها تمكنت باستثناء لبنان والسودان — من الاستمرار سنوات عديدة، بأعمار مديدة. وما دامت الأنظمة هذه على اختلاف منطلقاتها السياسية وتوجهاتها الاقتصادية، وعلى اختلاف هوياتها الدينية والمذهبية والعلمانية وارتباطاتها الدولية؛ برهنت على قدرتها على الاستمرار وفرض سلطانها على جماهيرها الوطنية بوسيلة أو بأخرى؛ فقد كان من الطبيعي والمنطقي أن تتقارب هذه الأنظمة جميعها خطوة بعد خطوة؛ خاصة وأن هذا التقارب هو في النهاية مطلب أساس للجماهير العربية في كل أقطارها دون أي استثناء.

وإذا كانت موسكو اقتربت من واشنطن، والمنظّرون الماركسيون في بكين وموسكو لم يتخلفوا مؤخراً عن الإسهام بتضييق شقة الشرخ الأيديولوجي الفاصل بين الشرق والغرب؛ وإذا كانت مصر في عهد السادات وقعَّت على اتفاقية سلام مع إسرائيل، رغم أن فرعون مصر (مينفتاح) هو الذي كان طرد موسى وأهله من قبيلة راحيل من مصر قبل ولادة المسيح عيسى (عليه السلام) بألف ومئتين وخمسين عاماً تقريباً.

وإذا كان الذين ظلوا يحلمون بتحرير أرض فلسطين بالبندقية أربعين عاماً، وقاتلوا إسرائيل بالرصاص وبالدم الفلسطيني الشهيد ثلاثة وعشرين عاماً حتى هذا العام (1988)، قد أعلنوا مؤخراً استعدادهم للاعتراف بدولة إسرائيل على أمل أن يكون السلام مقابل جزء من الأرض السليبة (الأرض مقابل السلام).

إذا كان ذلك كله قد حدث، وهو اليوم جزء من الواقع العالمي والإقليمي العربي الراهن؛ فإن أية ذريعة يمكن أن يتعلل بها أي نظام عربي للاستمرار من جانبه بمواقفه الانفصالية بعيداً عن مواقع الأغلبية العربية، باتت الآن غير متوافرة، وليس ثمة من مفرّ أمام أي نظام عربي من المشاركة العملية بتحقيق التصالح العربي على المستوى القومي الشامل؛ خاصة وأن المرحلة المقبلة التي قد يتكامل فيها التضامن العربي بين الأنظمة العربية بمختلف أشكالها وأنواعها وتوجهاتها وهوياتها السياسية والأيديولوجية، لن تشكل خطراً على أي نظام من كل هذه الأنظمة العربية المختلفة الكثيرة، ولن تعطي أية دولة عربية حق التدخل في شؤون الدولة العربية الأخرى الداخلية، وقد تستمر السياسات الداخلية النوعية للأنظمة العربية كما كانت خلال مرحلة ما قبل مرحلة التضامن العربي.

إلا أن ثمة إنجازاً هاماً نريد له أن يتحقق بالسرعة القصوى الممكنة، وهو تحرير المواطن العربي من هموم صعوبة التنقل بين الدول العربية، وتيسير تجديد جوازات السفر للمواطنين العرب المقيمين في دول عربية غير دولهم، ورفع همٍّ نقعهم في قاعات المطارات العربية نقعاً عدداً من الساعات قبل السماح لهم بدخول هذه الدولة العربية أو تلك، عن كواهلهم، ومعاملتهم كأشقاء أو كسيّاح أو كزائرين أبرياء حتى يظهر ما يبرر معاملتهم بنظرات الشكّ والتشكيك والإذلال والإهانات التي لا يواجهون بمثلها في أية دولة أجنبية.. ونحن نريد لمرحلة التضامن العربي هذه أن تكون نهايةً عملية لمرحلة سبقت، حاول خلالها هذا النظام العربي أو ذاك أن يكون (وصيّاً) على الشعوب العربية، متستراً بظلال الشعارات المنشطة للعواطف الوطنية؛ وبقوة الإبهار الإعلامي المجتاح الطاغي، أو بعمليات التخريب والقتل والتهديد والترويع والإرهاب أو بجميع الوسائل هذه كلها مجتمعة، فليس لنظام عربي حق النيل من نظام آخر؛ لأن مهمة التغيير في أي قطر عربي كانت وستظل رهينة بإرادة شعب هذا القطر وحده، وليس لأية قوة خارج حدود أرض هذا النظام الحق في مداهمته، وفرض نفسها وصية عليه.

وما دام لكل المجتمعات العربية صفة ومواصفات المجتمعات الاستهلاكية الاستيرادية، فهي مضطرة إجباراً للتعامل مع الشرق أو مع الغرب، وما دامت كل المجتمعات العربية لم تتمكن بعد من تحقيق إنجاز مشاريع التصنيع، وبخاصة التصنيع الثقيل، فإن أي حلم بالتحرر الوطني والقومي التام، ليس سوى نوع من أنواع (الجنون الجميل) و (العواطف الطيبة)، ومن هنا يصبح مطلوباً من أصحاب الأفكار والمقترحات والمشاريع التحررية العربية أن يستبدلوا أسلوب التآمر على الأنظمة العربية الأخرى، بأسلوب التشاور المباشر، وأن يعينوا شعوبهم وبقية الشعوب العربية الأخرى على تحقيق النهضة التربوية والتخطيطية والثقافية والتعليمية؛ ومن الممكن على أساس هذه المحاور، أن تتعاون كل الأنظمة العربية، في مرحلة التضامن العربي المقبلة، إن أقبلت.

إن الشعوب العربية ليست في حاجة إلى أن تتصالح، لأنها في الأصل، لم تختلف يوماً؟، ولم تفصل فيما بينها إلا الحدود السياسية المرسومة بأقلام وأيد أجنبية، وبالتشريعات القطرية المعقدة الخاصة بمنح أو عدم منح تأشيرات الدخول، أو الإقامة.. للمواطن العربي.. وهكذا فإن الخلاف كان إذاً فقط، بين بعض الأنظمة العربية، وبعضها الآخر؛ بين بعض الحكام العرب وبعضهم الآخر؛ لا بين بعض الشعوب وبعضها الآخر، وقد تحولت الخلافات بين الأنظمة والحكام العرب إلى قيود كبلت حركة ونمو العلاقات الشعبية العربية..

وما نريد أن يتحقق بالسرعة المستطاعة ـ وهي ممكنة ـ هو تحرير الشعوب العربية من هذه القيود التي فرضتها عليها الأنظمة والحكام والخلافات العربية العربية، وتيسير الانتقال ذهاباً وإياباً عبر الحدود العربية....

* * *

انتهينا في السطور السابقة إلى توقع أن تؤدي عملية تكامل التصالح بين الأنظمة والحكومات العربية جميعها إلى تخفيف القيود المفروضة على تنقل المواطن العربي بين دولة عربية إلى دولة عربية أخرى؛ وعلى دخول رعايا بعض الدول العربية إلى بعض الدول العربية الأخرى؛ وعلى مَنْح

تأشيرات الإقامة لرعايا دول عربية في دول عربية أخرى؛ في الوقت الذي أصبح دخول رعايا بعض الدول العربية للولايات المتحدة الأمريكية، على سبيل المثال، أسهل من دخولهم هذه الدولة العربية أو تلك؛ وفي الوقت الذي بات فيه حصول المواطن العربي على الجنسية البريطانية؛ في ظروف معينة، أسهل من حصوله على حق الإقامة في بعض الدول العربية.

ومادام احتمالُ تخفيف القيود المفروضة بشدة وبقسوة مؤذية جداً للمشاعر العربية على تنقل المواطن العربي بين الدول العربية قد أصبح احتمالاً قابلاً للتنفيذ في المرحلة العربية الراهنة وما بعدها كما نتمنى؛ فإن ذلك يقودنا إلى توقّعٍ أن تشهد المرحلة المقبلة طفرة من مضاعفة حجم الزيارات المتبادلة بين شعوب الأقطار العربية جميعها، قد تتنامى وتتضخمُ باضطراد يوماً بعد آخر كما نحلم. ومادام الأمر كذلك، فإننا لنرى فائدة في طرح مسألة نراها بالغة الأهمية في مستقبل العلاقات العربية ــ العربية الشعبية والرسمية هي مسألة (المزاج الإقليمي العربي الجغرافي غير الموحّد)، وهي المسألة التي لم يتنبّه إليها جمال عبد الناصر وهو يدير تجربة لوحدة الدستورية التاريخية بين سورية ومصر، ولا مَنْ ساهم معه بها من موقع أو آخر، كذلك فإن الملاحظ أن جميع الأحزاب والحركات العربية القومية التي انطلقت من مفهوم الأمة العربية الواحدة؛ تجاوزت عن قصد أو عن جهل تجريبي، المسألة هذه الهامة للغاية، وهي المسألة التي لابد مبدئياً من الاعتراف بأنها واقع قائم، كخطوة أولى نحو معالجتها ووضع الحلول طويلة المدى بها، وأعني بها بالضبط (المزاج العربي الإقليمي الجغرافي) المقسم في رأينا كما ذكرنا في أكثر من فصل سابق من كتابنا هذا إلى أربع أنواع من الأمزجة المختلفة[1].

---

[1] قد يقول قائل إن أنطون سعادة مؤسس الحزب القومي السوري كان أول من طرح هذا التقسيم، وأشار إليه كظاهرة تدخل ضمن إطار علم الاجتماع، العربي. لكنني أرى ضرورة توضيح أنني اكتشفتُ أن هذا التقسيم الرباعي قائم عملياً، في العالم العربي، وذلك من خلال ممارساتي وتجاربي الميدانية بصفتي عشتُ خلال السنوات الأربعين الماضية، متنقلاً بين بلاد الشام، وشبه الجزيرة العربية والخليج، والشمال الإفريقي، ومصر.. أي أنني أستند في هذا التقسيم إلى محصلة تجاربي العملية الشخصية الحية الميدانية.

ولعل أول من أشار إلى صلة هذه الهوية المزاجية المميزة لمجتمع معين، بمواصفات الموقع الجغرافي الطبيعي لهذا المجتمع؛ كان هو مؤسس علم الاجتماع (ابن خلدون) وليس مؤسس الحزب السوري القومي أنطون سعادة. وبأي مقياس، تبقى طروحات ابن خلدون أكثر أهمية وموضوعية من طروحات أنطون سعادة على هذا الصعيد، لأن ابن خلدون كان عالم اجتماع مجرّباً تنقّل في أمصار كثيرة، وقد استخلص طروحاته من ملاحظاته المستقاة من تجاربه الحيّة الميدانية. بينما كان أنطون سعادة مفكراً وزعيماً سياسياً وقارئاً ممتازاً للتاريخ ولعلم الاجتماع الألماني بصفة خاصة، وأيضاً طروحات ابن خلدون؛ وهذا يعني أن أطروحة سعادة الاجتماعية كانت تصل بهدف سياسي محدد، وهو إنشاء مفهوم (القومية السورية) المرتبطة بأرض هي الأرض السورية التاريخية الشاملة والأرض اللبنانية والفلسطينية والأردنية، مُقابل الأطروحة الصهيونية المرتبطة بأرض، وهي أرض فلسطين التي يراها الحزب السوري القومي أنها ــ جغرافياً ــ تشكل الجنوب من أرض سورية الكبرى الطبيعية.

ومن يقرأ مقدمة ابن خلدون؛ يلاحظ أن مؤسس علم الاجتماع أكد على أن للموقع الجغرافي لمجتمع من المجتمعات كذلك الهواء، أي المناخ، والنظام الغذائي الإقليمي في هذا المجتمع، تأثيراً مؤكداً فيما وصفه ابن خلدون بــ (أبدان البشر وأخلاقهم). وأن منطقة الوسط في جغرافية الكرة الأرضية، ساعدت على نشوء أول حضارة إنسانية فيها؛ بسبب اعتدال المناخ الجغرافي تحديداً.

واعتدال المناخ، كما يلاحظ ابن خلدون، هو الذي ساعد على انبثاق النبُوّات جميعها من منطقة تتوسط الكرة الأرضية حيث لا برودة شديدة كمنطقة القطب الشمالي، ولا حرارة شديدة كمنطقة خط الاستواء من الأرض.

وبما أن الدخول في عالم ابن خلدون وطروحاته المطبوعة ونظرياته التي قام على أساسها علم الاجتماع؛ هو دخولٌ يُغْري بالتوغل أكثر فأكثر، فإننا نكتفي بما نراه اليوم هاماً، وهو أن عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحَضْرمي الشهير بابن خلدون هو الذي كان أول من أكد على حتمية تأثير الجغرافية الطبيعية، بتحديد هوية وعناصر ونوعية مقومات المزاج الإقليمي لمجتمع من المجتمعات.

وبناءً على المقولة هذه، كذلك استناداً إلى ملاحظاتنا الشخصية المُستقاة مما أتيح لنا خلال السنوات الماضية من مناسبات العيش والتعامل الحي المباشر مع عدة مجتمعات عربية في القارتين الآسيوية والإفريقية؛ فإننا رأينا ضرورة الاعتراف بأنَّ ما أشار إليه ابن خلدون[2] على صعيد التحليل الاجتماعي، العام غير المُسيَّسْ؛ وما أشار إليه أنطون سعادة في طروحاته الاجتماعية منذ أوائل العشرينات من القرن العشرين، على الصعيد السياسي، هو تفسير موضوعي لواقع مادي ــ معنوي، اجتماعي، مؤكد شاء بعض الآخرين الاعتراف بذلك، أم لم يشأ.

هذه مسألة نراها هامة للغاية، ونحن ننبه إليها اليوم جميع الحكام والزعماء وكبار المسؤولين في كل الحكومات والشعوب العربية، في جميع المواقع وفي كل المستويات، بخاصة المؤسسات والأجهزة العربية ذوات الاتصال المباشر بالسياح والزائرين والعاملين والمقيمين العرب في دول عربية أخرى غير دولهم، حتى لا تؤدي تنمية العلاقات العربية ــ العربية الشعبية في المرحلة الراهنة المقبلة إلى إفراز حساسيات في مختلف المستويات قد تؤدي مرة إضافية أخرى إلى إجهاض مرحلة التضامن العربي التي نرجو أن تتأكد وتتبلور وتتكامل وتستمر.

مزاجياً إذاً، ليس ثمة من شخصية عربية واحدة وحسب. واقعياً توجد في عالمنا العربي كما نرى أربع شخصيات مزاجية إقليمية عربية، تفصل بين كل منها والأخرى، عناصر ومقومات مزاجية مختلفة عن العناصر والمقومات المزاجية للشخصيات العربية الثلاث الأخرى. وكم سيكون مفيداً هاماً ناجعاً للغاية، أن يتنبّه المسؤولون المعنيون العرب في كل أقطارهم، إلى

---

[2] من أظرف أو أطرف ما يقرؤه المرء من ملاحظات وطروحات ابن خلدون في كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومنْ عاصرهم)، مقولته بأن اعتماد العربي ابن الصحراء في غذائه على لبن الناقة بصورة أساسية، جعل أمعاءه تكون سميكة ويكون لها خصائص مشابهة لأمعاء الإبل؛ وبسبب ذلك كانت للعربي ابن الصحراء قوة الاحتمال والصبر، وهي صفة الإبل في الأساس. أي أن (قوة الصبر) عند البدوي العربي الصحراوي سببها النظام الغذائي الصحراوي. وهذا صحيح، لأنني أعرف أن حالة التهاب (القولون) تؤدي إلى الإحساس بالخوف المتجرّد من سبب ظاهر، ومن مسبب معلوم، بسبب رقة أمعاء أهل الحَضَرْ الذين لا يحتسون في الصباح حليب النوق.

هذه الظاهرة التي قفز من فوقها عبد الناصر رحمه الله، أو أنه لم يتنبّه إليها، وقفزت مِنْ فوقها أيضاً، ورفضت الاعتراف بها كواقع حي، كل الأحزاب والحركات السياسية العربية القومية الوحدوية. إلا أن تبلور عدد من التكتلات والتوجهات الإقليمية في العالم العربي خلال السنوات الأخيرة؛ برهن وما يزال يبرهن على صحة مقولة ابن خلدون ومن بعده أنطون سعاده، فإن استمرار قيام مجلس التعاون الخليجي على أساس اجتماعي مصلحي عاطفي طبيعي جغرافي – مزاجي إقليمي متجانس معين، يؤكد ذلك.

كذلك قيام مجلس التعاون المغاربي الغامض، في الشمال الإفريقي قد أكد ذلك. وإن التفاهم العملي القائم منذ سنوات بين الحزب السوري القومي وحزب البعث السوري، رغم التناقض القائم بينهما أيديولوجياً منذ سنوات عقد الثلاثينيات من القرن العشرين يؤكد ذلك. بل إن استمرار العلاقات الخصوصية الاجتماعية بين مصر والسودان رغم وَهَنِها خلال السنوات القليلة الماضية، يؤكد ذلك. فعلى أي أساس قامت هذه التكتلات والتحالفات الأربع؟ هل حقّاً على أساس المصالح المشتركة، الاقتصادية وحسب؟ إن هذا التفسير غير كامل ولا دقيق ولا صحيح كما نرى؛ لأن المصالح المشتركة الاقتصادية والمصيرية هي مصالح تشمل جميع الأقطار العربية وليس فقط دول مجلس التعاون الخليجي، أو دول سورية الكبرى، أو دولتي وادي النيل، أو دول الشمال الإفريقي المغاربي. فلماذا إذاً وعلى أي أساس قامت هذه التكتلات؟

نحن نرى أن هذه التكتلات إنما قامت على أساس المجتمع الإقليمي الذي يُحدده الإقليم الجغرافي الطبيعي من ناحية، والمزاج والمقوم الجغرافي الإقليمي من ناحية ثانية.

بل إننا لنرى من مواقع التجربة الميدانية الحية الشخصية، أن التجربة الوحدوية بين سورية ومصر، إنما قد فشلت وتحطمت بسبب جهل كلٍ من قادة الطرفين هوية مقومات مزاج الطرف الآخر، فلا عبد الناصر ومساعدوه من المصريين كانوا تعرّفوا إلى هوّية مقومات مزاج الشخصية الآسيوية السورية التاريخية بصورة علمية موضوعية قبل التعامل معها؛ ولا السوريون كانوا تعرفوا قبل التجربة الوحدوية وبالمقدار الكافي، على مقومات هوية المزاج الإفريقي المصري الإقليمي التاريخي. والذي حدث

خلال تجربة الوحدة بين سورية ومصر هو انفجار التجربة من داخلها، بسبب التصادم الحاد بين مزاج الشخصية السورية آسيوية وطبائعها الخصوصية الذاتية، ومزاج الشخصية المصرية الإفريقية وطبائعها الذاتية الخصوصية، من ناحية أخرى، وهو التصادم الذي كان حدث بسبب عدم تنبه قادة الطرفين إلى المسألة هذه الاجتماعية النفسية ـ المزاجية، وهي في رأينا مسألة هامة للغاية، لأن أسلوب تعامل المصري مع المصري؛ لم يكن جائزاً اعتمادُهْ في معادلة تعامل المصري مع السوري؛ ولأن للشخصية السورية مفاتيح تختلف عن مفاتيح الشخصية المصرية من الناحية المزاجية لأسباب جغرافية طبيعية، مناخية، ربما، وربما لأسباب تاريخية أيضاً. وليس عيباً ولا خَطَراً ولا تدميراً للقومية العربية، أن ننبه إلى ضرورة الاعتراف بوجود هذه الفواصل الأربعة المزاجية الإقليمية العربية مادامت أمراً واقعاً؛ على أمل إيجاد العلاج لها على المدى الطويل إن يمكن ذلك، وهو عِلاج ممكن فيما نرى. إنما العيب والخطر يكمنان في إنكار أنَّ هذا الجانب من الواقع العربي التاريخي الراهن على مستوى المزاج العربي في هوياته الأربع، هو واقع موجود.

ولعليّ أسمح لنفسي بمصارحة القارئ بأن أحد معارفي من شبان الخليج الدبلوماسيين خريجي إحدى الجامعات الخليجية؛ نقل إليَّ منذ أعوام قليلة، وبعد مرور سبْعة وعشرين عاماً على صلتي وارتباطي بجزء من عالم الخليج، «أن الإخوان في الوزارة غير مرتاحين إليك». وسألت: «ولماذا؟ هل أنا متهم بالفاحشة؟ بالسرقة؟ بالخيانة العظمى؟ بالعجز عن التميز بأداء العمل؟». وأجابني الشاب الخليجي المتعلم: «أبداً: إنهم يأخذون عليك أنك صريح جداً، والصراحة عندنا غير مستحبة».

هذا يعني أن (الصراحة) إذاً في عالم الخليج على مستوى المزاج الخليجي الإقليمي، هي وقاحة وهي ذنب، أو ظاهرة سلوك مرفوض مكروه، منبوذ صاحبها أيضاً، بينما الصراحة في مجتمع بلاد الشام ظاهرة من ظواهر الرجولة والفضيلة، بل هي تعبير عن شجاعة والتزام صاحبها بمبادئ الصدق، ونفوره من النفاق والخبث والكتمان. فإذا كانت الصراحة في مجتمع الخليج مثلاً؛ خطأ أو جنحة سلوكية، وهي في الوقت نفسه في مجتمع بلاد

الشام (فضيلة) وعلامة رجولة، وشجاعة تدعو إلى احترام صاحبها، فكيف يمكن لهذين الخطين المتوازيين أن يتلاقيا في نقطة نفسية اجتماعية واحدة؟ هل يتوجب على إنسان عربي ولد وعاش شبابه في بلاد الشام، استبدال الصراحة، والمواجهة، بالكتمان والنفاق، والتظاهر بملامح الوجه وكلام اللسان بغير ما يُبطن القلب والعقل.

في مجتمع بلاد الشام يرون الصراحة هي الصدق بعينه. وهي الشجاعة في كل الأحوال، وهي الوضوح الذي على أساسه يمكن تحديد المواقف الأكثر صحةً وعدلاً؛ لكنَّ الشخصية الخليجية كانت وما تزال نفورة من الصراحة والصريح كما أعرف الآن بعد فوات الأوان. فهل بسبب مثل هذه الحقائق المزاجية ــ الجغرافية؛ الخفية، قامت وتقوم التكتلات الجغرافية الإقليمية الطبيعية العربية، كمجلس التعاون الخليجي، ومجتمع سورية الكبرى، ومجلس التعاون المغاربي، والعلاقات الخصوصية في وادي النيل بين مصر والسودان؟

نحن نريد لهذه الأمة العربية بجميع أقطارها أن تتوحد. ولا نرى أن ثمة طريقاً أفضل لتنمية القوة العربية وتحقيق النهضة العربية المأمولة، من الطريق المفضية إلى آفاق الوحدة العربية.

لكننا نرى أن مُهمّاتٍ هامة ماتزال مهملة، حتى اليوم، لابد من التنبُّه إليها، وإنجازها أيضاً في خطة عربية موحدة قبل فوات الأوان، ومن هذه المهماتِ المُهْمَلَةْ، مهمة الاعتراف بعيداً عن ترف الحساسيات التي عادة ما تفرزها حالة التعصب القطري، بأن الشخصية العربية التاريخية والمعاصرة ماتزال ــ مزاجياً ــ أربع شخصيات؛ وأن من أسباب الخلاف القائم بين بعض الأنظمة العربية وبعضها الآخر، ما هو متعلق بهذا السبب بالذات؛ وبحيث حدث بالتأكيد أكثر من مرة تصادم في المزاج الإقليمي بين هذا الحاكم العربي، وذاك، أدى في النهاية إلى حدوث تصادم بين النظامين السياسيين، ثم انعكس بلاءُ التناقض المزاجي بين زعيمين عربيين أو أكثر، على شعبي البلدين لفترة قصيرة، أو لسنوات عديدة بعد ذلك. وفي رأينا أن العرب كما ذكرنا، لا يعرفون العرب كما ينبغي أن تكون المعرفة. ولعل الوقت قد حان لمعالجة هذا الخطر العربي (المُربَّع)... ولعل من الممكن البدء

بالإسراع بإنشاء لجنة عربية مشتركة تحت إشراف جامعة الدول العربية على أن تكون مهمة هذه اللجنة العربية المشتركة التي نقترح أن تتشكل من ممثلين لجميع دول الجامعة من المتخصصين بعلوم الاجتماع والجغرافيا والسياسة والثقافة والتاريخ والنفس واللغة العربية واللهجات العربية المحلية؛ عقد مؤتمر يُعنى بدراسة خصائص الشخصية العربية المعاصرة؛ وأمْزجتها الأربعة في أقاليم الجغرافية الأربعة؛ على أن تكون هذه الدراسات والأبحاث معلنة مبثوثة عبر الإذاعات ومحطات التلفزيونات العربية جميعها حتى يتمكن المواطن العربي في كل أقطاره وفي كل مواقعه الرسمية والشعبية، بهذه التوعية الاجتماعية، التاريخية، النفسية، الثقافية المطلوبة، من معاملة المواطن العربي الآخر في كل مواقعه الحكومية والشعبية أيضاً؛ المعاملة القائمة على حسن التعامل المتبادل، القائم على حُسن تفهم كل طرف للعناصر التي تتشكل منها عناصر شخصية الطرف الآخر، ومزاجه الإقليمي[3] بصفة خاصة.

ولعل من المناسب إيضاح أننا على اقتناع بأن قيام التكتلات الإقليمية الأربعة، يمكن أن يكون المدخل نحو قيام دولة العرب الواحدة الكبرى فيما بعد؛ على أن يسبق ذلك توفير المناخ الملائم أكثر لتحقيق الحد الأقصى الممكن من التعاون الاقتصادي والثقافي والعسكري والسياسي والإعلامي... إلخ. بين هذه التكتلات الأربعة جميعها، التي تجمع فيما بينها اللغة المشتركة

---

[3] نعني بكلمة المزاج هنا: الطبائع. والطبائع حسب طروحات ابن خلدون، تحددها الجغرافيا بما فيها التضاريس والمناخ وقلة أو كثرة المياه. ويشير الدكتور جمال حمدان في كتابه الضخم المؤلف من أربعة أجزاء (شخصية مصر؛ دراسة في عبقرية المكان) إلى أن الشخصية المصرية التي كان لها فضل ابتداع الزراعة بسبب وفرة الماء، كانت وما تزال ميالة إلى المرح . بينما أدت قلة المياه في بلاد ما بين النهرين (العراق) مثلاً، منذ العصور البابلية والآشورية والكلدانية، إلى أن تكون الشخصية الآشورية البابلية الكلدانية (العراقية الآن) ذات ميل نحو الجد والصرامة بصورة عامة، وهي مستمرة كذلك فيما نلاحظ، حتى الآن، وقد عشت في الستينات سنتين في العراق لاحظت خلالهما أن أهل العراق غير ميالين للمرح والضحك والإضحاك. وعشت في الجزائر، ولاحظت أن أهل الجزائر، وأرضهم ليس فيها أنهار وهي قليلة المياه. ميالون بطبعهم أيضاً إلى الجد لا إلى المرح. ويؤكد (فيليب حتّى) بدوره، ذلك، في المجلد الأول من سفره العظيم (خمسة آلاف عام من تاريخ الشرق الأدنى).

والثقافة العربية الواحدة المشتركة، والأخطار المشتركة، والمصير الواحد المشترك، ربما.

وإذا كان الجزء قوياً، فاتحاد الجزء بالجزء الآخر، تقوية له تشد من أزره.

وإذا كان الجزءان المتحدان، قويين، فاتحاد الجزء الثالث معهما، يضيف إلى قوة ثالثة إضافية كما يضيف إلى قوتيهما الثنائية الموحدة قوة ثالثة إضافية كما يضيف إليه قوتي الطرفين الآخرين، فإن هذا لعَصْر القوة الذي لا تُصان فيه كرامة سوى كرامة الأقوياء..

ولا قوة للمجتمعات العربية الأربعة، إلا بتضامنها تمهيداً لتوحيدها إلى ما شاء الله... لكن، علينا أن نعرف أولاً من أين ينبغي أن تكون البداية الصحيحة لتحقيق هذا الحلم المتلألئ تلألؤ السَّرابْ.

(10)
بَصَماتٌ سوريّةٌ، في الثورة المصريّة..

ثمة واقعتان في تاريخ مصر الحديث أهْمَلَهُما المؤرخون فلم تُبجَّلا في صفحاته على الرغم من أهمية كل منهما، وَصِلَتِهما المؤكدة بالتطورات التي تفاعلت بعدها على صعيد تاريخ مصر وسورية السياسي المعاصر؛ أولاهما: تشير إلى أن محاولات الولايات المتحدة الأمريكية إيجاد موطئ قدمٍ لها في أرض مصر السياسية قد سبقت قيام (الضباط الأحرار) بحركتهم أو «انقلابهم العسكري» أو «انتفاضتهم المباركة التي أسبغ عليها الدكتور طه حسين صفة «الثورة» في مقالة له نشرتها مجلة التحرير بعد أشهر قلائل من قيامها[1]، ولولا مبادرة الدكتور طه حسين تلك لما حظيت حركة الضباط الأحرار العسكرية بتوصيفها بصفة «الثورة» في الوقت الذي كان فيه تعبيرُ «الانقلاب العسكري» شائعاً يحظى باهتمام الجماهير العربية، يَشْفي غليلها منذ أن قام الضابط العسكري السوري حسني الزعيم بأول انقلاب عسكري في منطقة الشرق الأوسط فجر يوم 1949/3/30، وهو الانقلاب الذي زعمت كتب مطبوعة أمريكية نُشرت بعد قيامه بعدة عقود، أنَّ عناصر المخابرات الأمريكية في السفارة الأمريكية في دمشق هي التي خططت له، وَرَعَتْ تنفيذه، لتتمكن من تمرير أنابيب شركة «التابلاين» الأمريكية النفطية عبر الأراضي السورية، تسهيلاً لنقل النفط من آبارها في المملكة العربية السعودية إلى ميناء الزَّهراني في الساحل اللبناني، ومنه إلى الولايات المتحدة

---

[1] في سبتمبر 1952 كُلِّفَ يوسف صديق أحد أهم من نفذوا حَدَثَ 23 يوليو 1952 بإصدار مجلة (التحرير) التي صدرت والأعداد الأولى الثلاثة منها تحت إشرافه ورئاسة تحرير أحمد حمروش. ثم كُلِّفَ الدكتور ثروة عكاشة الإشراف عليها بعد إقصاء يوسف صديق، بدءاً من عددها الرابع. وكما يذكر د. عكاشة في الجزء الأول (ص10) من (مذكراته في السياسة والثقافة) فإن المجلة نشرت في عددها الصادر بتاريخ 1952/12/1 مقالة للدكتور طه حسين قرر فيها أنه: «ليس لهذه الحركة المباركة اسم إلاّ الثورة»... ومنذ ذلك اليوم اكتسبت (حركة الضباط الأحرار)، أو (الانتفاضة المباركة)، اسم (الثورة) التي أخذ طه حسين على اللواء محمد نجيب في المقالة نفسها، نفوره الشخصي من هذا الاسم (الثورة).

الأمريكية، وهو المشروع الذي كان عرضه الملك عبد العزيز على سورية عام 1946 فلم توافق عليه.

كانت مصر خلال تلك الفترة رازحة تحت الهيمنة البريطانية، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية تتحفّزُ للهيمنة على منطقة الشرق الأوسط، وبَسْطِ يدها القادرة على أقاليم في المنطقة التي كان محتملاً أن تعجز بريطانيا عن الاستمرار بفرض سلطانها عليها، بخاصة وأنَّ إرهاصات أفول شمس الإمبراطورية البريطانية كانت يومئذ شديدة الوضوح.

بَعْدَ قيام حسني الزعيم بانقلابه العسكري في 1949/3/30 بمدة ثلاثة أسابيع، حَمَلَتْه طائرة سورية وبرفقته عديلُهُ (مستشارُه) نذير فَنْصَهْ إلى مصر، لتهبط به في مطار أنشاص صباح 1949/4/22 حيث استقبله نائب رئيس الديوان الملكي حسن يوسف باشا، وبرفقته كريم ثابت المستشار الصحفي في الديوان الملكي (وهو لُبناني الأصل) حيث توجهوا دون حراسة إلى قصر أنشاص الملكي ليرحب الملك فاروق بالزعيم حسني الزعيم الذي آثر أن تكون زيارته تلك لمصر سريّة لا تعلن أجهزة الإعلام المصرية والسورية عنها إلا بعد عودته إلى دمشق. وبعد حوار استمر عدة ساعات بين الرئيس السوري والملك المصري، تم الاتفاق بينهما على توحيد مصر وسورية والسودان ضمن إطار «المملكة العربية» على أن تكون عاصمتها مدينة (القاهرة)، وعلى أن يكون ملكها هو عاهل مصر والسودان الملك فاروق بن فؤاد... وبعد الساعات القلائل التي استغرقتها المباحثات في قصر أنشاص قام الملك فاروق بقيادة سيارته الخاصة، إلى جانبه حسني الزعيم، وفي المقعد الخلفي نذير فنصة وحسن يوسف باشا وكريم ثابت، وتوجهوا إلى مطار أنشاص ــ دون حراسة أيضاً ــ حيث كانت طائرة الزعيم السورية رابضة في مدرّجه. وبعودة حسني الزعيم إلى دمشق من القاهرة بعد عقدة اتفاقه الشفهي مع الملك فاروق على قيام «المملكة العربية»؛ تمكنت بريطانيا الباسطة كف نفوذها يومئذ فوق مصر، من التخطيط للانقلاب العسكري الثاني في سورية، بالتنسيق مع عراق عبد الإله ــ نوري السعيد، ومن رعاية تنفيذه، وهو الانقلاب الذي قاده فجر 1949/8/14 العقيد سامي الحناوي في محاولة لإجهاض السعي الأمريكي للسيطرة على سورية، ولوضع النظام

السوري في قبضة المصالح البريطانية ــ العراقية المشتركة. إلا أن نجاح تلك المحاولة سرعان ما تَقوَّضَ بعد مرور مئة وسبعة وثلاثين يوماً فقط، بالانقلاب العسكري السوري الثالث الذي قاده العقيد أديب الشيشكلي فجر 1949/12/19، وهو الانقلاب الذي سيتبيَّنُ بعد قيامه بحوالي ثلاثين عاماً، أنه ما قام إلا بالتنسيق غير المباشر مع الولايات المتحدة الأمريكية عَبْر المملكة العربية السعودية، لإبعاد سورية عن دائرة النفوذ البريطاني الذي كان يَتَستَّرُ بالنظام الملكي العراقي في محاولته السيطرة على سورية.

أما ثانية هاتين الواقعتين اللتين أهملهما المؤرخون العرب فأهملهما التاريخ حتى اليوم، فهي الآتية:

عقب قيام حركة «الضباط الأحرار» العسكرية المصرية التي حظيت بتأييد شعبي عارم فور الإعلان عن قيامها فجر 1952/7/23؛ كان أديب الشيشكلي يُحْكِمُ قبضته على سورية. وبصفته حاكم سورية الفعلي امتطى طائرته الرئاسية التي أقلته صباح الخميس 1952/12/11 إلى مطار ألماظة الحربي في إحدى ضواحي القاهرة، وقد شاركتُ بصفتي مذيعاً بتوديعه في مطار المزة في دمشق، فهو الذي كان أمر بتعييني مذيعاً في إذاعة دمشق في الساعات الأخيرة من العام 1950 حين لم أكن بعد تجاوزت السابعة عشرة، في الوقت الذي كان فيه الشيشكلي قد كرَّس الإذاعة السورية والإعلام السوري بصفة عامة كسلاح لنظامه، وهو التكريس الذي نبَّه جمال عبد الناصر من بعدُ ــ ربما ــ إلى أهمية هذا السلاح واستخدامه لحماية النظام من ناحية، ولشن الحملات الإعلامية ضد مُنَاكفيه وأعدائه على المستوى الداخلي والمستوى الخارجي في آنْ، من ناحية أخرى.

كان اللواء محمد نجيب هو «الواجهة» المقبولة يومئذ مصرياً وعربياً لحركة 23 يوليو /تموز المصرية، ولم يكن أحد في بلاد الشّام قد سمع بعدُ باسم جمال عبد الناصر.

بعد ستة أيام من وصوله القاهرة، عاد أديب الشيشكلي إلى دمشق ظهر الثلاثاء 1952/12/16، وكنت واحداً من المشاركين باستقباله أيضاً، وفي غرفة مدير الإذاعة السورية أحمد عسّة مساء اليوم التالي، عَقَدَ الشيشكلي اجتماعاً مع عدد من مساعديه، أذكر منهم المؤرخ قدري قلعجي، والأديب الكاتب السياسي الذي كان متزوجاً من أختٍ شقيقةٍ لميشيل عفلق هو نزيه الحكيم،

والصيدلي عدنان عناية، وقد حضرتُ جانباً من هذا الاجتماع مصادفة بصفتي الوظيفية التي كانت تخوّل لي دخول غرفة مدير الإذاعة دون استئذان، وبصفتي كنت مقرباً من شخص الشيشكلي الذي كانت تجمعني به رابطة شبيهة برابطة الأبوّة بالبُنوّة، وبذلك أتيح لي سماع ما ظل محفوراً في ذاكرتي السمعية حتى اليوم.

مما أوْضحَهُ أديب الشيشكلي لمساعديه تلك الليلة، أنه فوجئ عقب وصوله القاهرة بأن رؤوس الخيوط كلها في مصر ليست في قبضة اللواء محمد نجيب بل في قبضة ضابط شاب فارع الطول هو البكباشي جمال عبد الناصر، وأنه (الشيشكلي) روى لمحمد نجيب وجمال عبد الناصر ورفاقهما في حفل عشاء أُقيم على شرفه مساء السبت 1952/12/13 بدعوة من الجالية السورية في مصر، في فندق سميراميس، كيف قام بانقلابه على سامي الحناوي، ولماذا، وما هي الأخطار التي أحْدَقَتْ بنظامه وماتزال؛ ونصحهم بوقاية أنفسهم وحركتهم من خطرٍ محتمل سيجيء من الجيش وليس من سواه... وأن جمال عبد الناصر في تلك الليلة تحديداً أولى هذا الجانب من حديث ونصائح الشيشكلي اهتماماً استثنائياً، وأبدى اقتناعه بجدوى الأخذ بفكرةِ أنْ يكون قائد الجيش المصري واحداً من الضباط الأحرار. وسمعت الشيشكلي يقول لمجالسيه في غرفة مدير الإذاعة السورية مساء يوم عودته من القاهرة إلى دمشق، إن جمال عبد الناصر حرص على مَدِّ الحوار من جانبه معه على انفراد، حول هذه الفكرة بالذات، فلما سأله الشيشكلي عمَّنْ يثق به أكثر من رفاقه، أجاب عبد الناصر: «عبد الحكيم عامر، لكنه برتبة صاغ.. ضابط صغير السن والرتبة.. وهو مدير مكتب اللواء محمد نجيب»، وهنا سارع الشيشكلي ـ كما قال لمجالسيه ـ إلى الحسم بالإشكال، مقترحاً ترقية عبد الحكيم عامر إلى الرتبة التي تؤهله لقيادة الجيش. وفي تلك الليلة بدا جمال عبد الناصر مقتنعاً بالأخذ بنصيحة الشيشكلي؛ وبعد إعلان النظام الجمهوري في مصر، تمت بالفعل ترقية عبد الحكيم عامر إلى رتبة لواء، وأُسندت إليه قيادة الجيش[2].

---

[2] في كتاب طارق حبيب (ملفات ثورة يوليو) الصادر عن مؤسسة الأهرام عام 1998، يشير محسن عبد الخالق أحد الضباط الأحرار إلى واقعة زيارة الشيشكلي للقاهرة في سبتمبر 1952 (ص132) وإلى واقعة اقتراح الشيشكلي على جمال عبد الناصر ترقية عبد الحكيم عامر إلى رتبة لواء، وإسناد قيادة الجيش المصري إليه.

حين قام الشيشكلي بزيارته تلك للقاهرة بعد حوالي أربعة أشهر من قيام حركة الضباط الأحرار في 23 يوليو / تموز 1952، كان فرغ من إقامة تنظيم سياسي (حزب) أطلق عليه اسم «حركة التحرير العربي»، وقد تولى الشيشكلي رئاسته، وأسند أمانته العامة إلى الدكتور مأمون الكزبري، وكنت أصغر عضو (عنصر) فيه منذ أواخر 1952.

وقد سمعت الشيشكلي يخبر مساعديه بعد عودته من القاهرة إلى دمشق في منتصف ديسمبر 1952، أنه حرص خلال المباحثات التي أجراها مع محمد نجيب وجمال عبد الناصر ورفاقهما من الضباط الأحرار، على أن ينصحهم بإقامة تنظيم سياسي لحركة الضباط الأحرار بعد نجاحهم بالسيطرة على السلطتين التشريعية والتنفيذية إضافة إلى الجيش، وعلى أن يروي لهم كيفية تمكنه من إقامة «حركة التحرير العربي» كحزب سياسي لنظامه، يُعطيه بُعْداً إيديولوجياً شعبياً مدنياً اجتماعياً سياسياً، أي قوة داخلية مدنيّة رافدة. وبالفعل فإن جمال عبد الناصر سرعان ما أخذ بهذا الاقتراح، وأنشأ ورفاقه ما سُمّي في مصر بـ «هيئة التحرير»[3].

---

(3) يذكر صلاح نصر في الصفحة 110 من الجزء الأول من مذكراته المعنونة بـ (ثورة 23 يوليو بين المسير والمصير) الصادر في العام 1986 عن دار (الاتحاد) للصحافة والنشر في أبو ظبي، أنه قد «أنشئت هيئة التحرير في مصر على غرار تنظيم مشابه لتنظيم حركة التحرير التي أنشئت في سورية بعد قيام انقلاب الشيشكلي» و«بينما أصبحت هيئة التحرير في مصر بمثابة الحزب الوحيد والواجهة لتنظيم سياسي وإيديولوجي للحكم العسكري الذي استمر في فترة الانتقال. ومع أنه كان ظاهراً أن فكرة إنشاء هيئة التحرير في مصر اقتبست من حركة التحرير في سورية، فإن كلا منهما اتخذت خطاً مغايراً. فحينما قام الشيشكلي بزيارة القاهرة أواخر أيام العام 1952، عبّر اللواء نجيب عن ذلك يوم 11/12/1952 في خطاب له في نادي الضباط تكريما للشيشكلي بقوله: إنني أشكرك لأنك كنت البادئ بزيارتنا، ولأنك كنت البادئ انقلاب يُشبهه انقلابنا في ظروفه وأهدافه. إن الثورتين قد وجهتا إلى الغايات والأغراض ذاتها: أن نضع نهاية للفساد، ونعيد بناء بلدينا. وبالتدقيق فيما ذكره صلاح نصر في السطور السابقة يمكن ملاحظة ما يأتي:

أ ــ ذكر صلاح نصر أن أديب الشيشكلي كان في القاهرة يوم 1952/12/11، وهذا التأريخ صحيح لأن الشيشكلي زار مصر في ديسمبر 1952 وليس في سبتمبر كما ذكر محسن عبد الخالق في كتاب طارق حبيب (ملفات ثورة 23 يوليو).

ب ــ إن محمد نجيب ذكر في كلمته لتكريم أديب الشيشكلي في نادي الضباط أن حركة الضباط الأحرار هي (انقلاب)، ثم ــ في الكلمة ذاتها ــ وصفها أنها (ثورة) ←

حين قام الشيشكلي بانقلابه على سامي الحناوي ونظامه العسكري المتحالف مع (العراق – بريطانيا) شتاءَ نهاية العام 1949، تَستَّر بضابط عسكري ذي رتبة عسكرية أعلى من رتبة العقيد التي كانت رتبةَ الشيشكلي، هو اللواء فوزي سلو، وعلى هذا يكون المؤكد أنَّ حِرْصَ جمال عبد الناصر ورفاقه الضباط الشبان ذوي الرتب العسكرية غير الرفيعة، على دفع اللواء محمد نجيب إلى الواجهة – كستارٍ وغطاء – كان محاكاة للُّعبة المشابهة التي ابتدعها أديب الشيشكلي في سورية قبل حوالي نيّف وسنتين ونصف السنة من قيام حَدَثِ 23 يوليو في مصر الذي أسبغ عليه الدكتور طه حسين صفة «الثورة» في مقالة له نشرتها مجلة (التحرير) بتاريخ 1952/12/1 حين كان الصديق الدكتور ثروة عكاشة مشرفاً على إعدادها وإصدارها، وهي اللعبة ذاتها التي مارسها «الملازم» معمر القذافي حين قام بـــ «انقلاب» الفاتح من سبتمبر، فَتَستَّرَ بضابط عسكري ليبي ذي رتبة عسكرية أعلى هو «العقيد» سعد الدين شويربْ الذي نَسِيَتْ اِسمَهُ ذاكرةُ التاريخ، كما نَسِيَتْ اسم اللواء فوزي سلو، وتكاد أن تنسى اسم اللواء محمد نجيب، وأنه هو وليس سواه، كان أول رئيس للجمهورية المصرية بعد تقوُّض النظام الملكي في مصر.

➔ شبيهة بـــ (ثورة) أديب الشيشكلي في سورية؛ وهذا تخبط وتناقض، وخطأ مؤكد، لأن أحداً في سورية والعالم العربي لم يصف انقلاب الشيشكلي العسكري قط، ولا أي انقلاب عسكري سوري آخر، بأنه (ثورة).. علماً أن مقالة طه حسين كانت نشرت في مجلة (التحرير) قبل أيام من وصول الشيشكلي إلى القاهرة في ديسمبر 1952.

في الصفحة 11 من الجزء الأول من مذكرات الدكتور ثروة عكاشة في (السياسة والثقافة) الصادر عن دار مَدْبُولي للنشر، يذكر ما يأتي: انطلقنا حاملين أهدافاً ستة لا تمثل برنامجاً تفصيلياً دقيقاً لكل منها؛ وهذا يعني مرة إضافية أن ما وقع يوم 23 يوليو 1952 لم يكن عند وقوعه (ثورة) بمفهومها وتعريفها العلمي، بل كان (انقلاباً عسكرياً) بحتاً حاول استخلاص (النظرية الثورية) من ممارسات الخطأ والصواب العملية، لكنْ، بعد فوات الأوان. ولعلي أضيف أن الشيشكلي بعدما استمع إلى البيان الأول الذي أعلن قيام حركة الضباط الأحرار من إذاعة القاهرة فجر 23 يوليو، ساءه ركاكة صاحب اللسان الذي ألقاه، وجهْلُهُ بأصول وقواعد قراءة اللغة العربية، وخلال زيارته للقاهرة صارح محمد نجيب بذلك، فأخبره محمد نجيب بأن الضابط الذي ألقى البيان هو اليوزباشي محي الدين عبد اللطيف خلف الله، ثم أعيد إلقاؤه بصوت المذيع جلال معوّض صباحاً... ثم بصوت أنور السادات في الضُحى..

بتطور «هيئة التحرير» إلى «الاتحاد القومي» ومن ثم إلى «الاتحاد الاشتراكي» و«طليعة الاشتراكيين»، بَرَزَ شعار (حرية. اشتراكية. وحدة) في المرحلة المصرية الناصرية التي حظيت بتأييد عربي شعبي مجتاح؛ وإنْ نحن عدنا إلى العام 1947 السابق لقيام حركة الضباط الأحرار في مصر بحوالي خمس سنوات ونصف، (وهو العام الذي عُقِدَ فيه أول مؤتمر عام لحزب البعث في دمشق بعد سبع سنوات من إرهاصات البدء بتأسيسه في العام 1940) فسنكتشف أن الشعار هذا قد ابتدعه حزب البعث على النحو الترتيبي الآتي: (وحدة. حريّة. اشتراكية)، وأن جمال عبد الناصر قد تبنى أو اقتبس هذا الشعار من حزب البعث مع تقديم مبدأ (الاشتراكية) على مبدأ (الوحدة) في شعار مبادئ حزب البعث نفسه. هذا يعني أن مجموعة الضباط الأحرار في مصر الغالية كانوا حين قيامهم بحركتهم العسكرية التي حظيت منذ الساعات الأولى لقيامها بتأييد شعبي مصري عارم حقيقي، في حالِ (تأثُّر) لسبب محدد؛ وهو أنهم كانوا رجال أحداث ووقائع تنفيذية لا ترتبط بمشروع محكم بعيد المدى موضوع، ولا بفكر أو بمنهج سياسي محدد الملامح... فلما انتقلوا من حال (التأثر) هذه إلى حال محاولة (التأثير)، اختَلَّتْ بوصلة (المركب الضَّخْم) الذي ركبه معهم شعب مصر العريق بكل فصائله، ثم بقية الشعوب العربية بكل براءة وحسن النية؛ وبذلك الاختْلال الذي أَمْسى في ذاكرة التاريخِ، أي (الماضي)؛ لطمت الأمواجُ الضخامُ هذا المركبَ من جميع جوانبه، لتلوِّع جميع مَنْ هم داخِلَهُ بالنكسات والنكبات وبالكوارث وبالهزائم العسكرية المتلاحقة، وهي جميعها بناتُ سياساتِ حُسْن النيةِ والغموض والارتجال، وإعلاء (التنفيذ) و(الممارسات العملية) فوقَ قيمة وأهمية ولزوم (التفكير) و(التنظير) و(البرمجة) و(التخطيط)، التي ينبغي أن تكون قبل (التجريب) لا بعده.

في خطابه الذي ألقاه في الاجتماع الأول للّجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني في القاهرة في 22 نوفمبر 1961 بعد أسابيع قلائل من قيام الحركة الانفصالية في سورية، قال الرئيس الراحل جمال عبد الناصر: «تطبيقنا الثوري يمكن سابق للنظرية.. ما كانش مطلوب مني أبداً في يوم 23 يوليو إني أَطْلَعْ معايا كتاب مطبوع وأقول إن هذا الكتاب هو النظرية.. مستحيل.. لو كنا قصدنا لعمل الكتاب ده قبل 23 يوليو، ما كُنّاش عملنا يوم 23 يوليو».

هذا يعني أن ما حدث في مصر فجر 23 يوليو 1952، لم يكن مرتبطاً لا بمشروع محدد الملامح، ولا بفكر سياسي ممنهج، ولا بنظرية مسبقة تحدد مسار السياسيات التنفيذية والتشريعية على جميع مرافقها الداخلية والخارجية، وأنّ ما عبر به هذا الحدث التاريخي من شتى أنواع الاضطراب والإنجاز والانتكاس منذ وقوعه صيف 1952، كان نتيجة حتمية طبيعية لسياسة حسن النية الوطنية التي صاحبها الارتجالُ والرغبةُ في إثارة المشاعر الجماعية الشعبية، واستعذابُ الضجيج الإعلامي العشائري القبليّ الصَّاخب الذي قد يَبْرَعُ بمخاطبة الوجدان الجماعي، لكنه يبقى عاجزاً عن مخاطبة العقل الجماعي الذي هو الضمير السامي الأرفع الأكثر نجاعةً وواقعيةً وجدوى، في حقبة من الزمان تأكدَّ فيها حقيقةُ أن الأمم الناهضة إنما تتسلح بعقولها أولاً لا بمشاعرها وأحلامها وأمانيها وحسب، لتحقيق النهضة التي تتطلع إليها، وللخروج من مرحلة التخلف والتبعية بصفة نهائية.

* * *

اليوم، وبعد حدوث كل ما حدث في مصر وسورية بدءاً من العام 1949 ثم 1952، كَمْ يحلو للعقل العربي أن يدعو إلى استخلاص الدروس والعبر من كل ما فات من الوقائع المصرية والعربية خلالها، والتذكير بحقيقة نراها بالغة الأهمية، وهي حقيقةُ أنه إنْ يكن الشرقُ شرقاً، والغربُ غرباً، وهما لا يلتقيان، فإن الماضي هو الماضي، والمستقبل هو المستقبل، وهما لا يجتمعان؛ فما فاتَ قد ماتْ، وما هو آتْ إنما هو المستقبل الذي ستظل تفصله عن الماضي، مسافة الحاضر... وهي كما نرى مسافة مُتجدّدة فيّاضة شديدة الحيوية وشاسعة، تفرض على كل من فيها أن يختار واحداً من خيارين لا ثالث لهما: إما العودة إلى الماضي، أي إلى الوراء؛ وإما التوجه نحو الأمام، أي نحو المستقبل[4] الذي نريده أن يكون أحسن وأفضل...

---

[4] في عددها الصادر يوم السبت 1999/7/31 أعادت جريدة (العربي) الناطقة بلسان الحزب الناصري في مصر، نشْر جزء من حوار صحفي كان الكاتب الصحفي اللبناني المعروف بتوجهه الناصري الأستاذ فؤاد مطر (حين كان مسؤولاً عن الشؤون العربية في جريدة «النهار» البيروتية)، أجراه مع الأستاذ محمد حسنين هيكل عام 1974. وقد جاء على لسان هيكل في هذا الحوار المنشور، المعلومات الآتية: ←

- «عندما بدأت ثورة يوليو 1952، لم تكن ثورة بالمعنى العميق».
- «في البداية جاءت الثورة بمنطق الحركة الإصلاحية، وليس بمنطق الثورة. المنطق الإصلاحي هو إصلاح ما هو قائم، والمنطق الثوري هو تغيير ما هو قائم، وهناك فارق كبير بين المنطقيْن».
- «إن صورة الوضع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في مصر لم تكن واضحة تماماً أمام الذين قاموا بثورة 23 يوليو. كانوا متمردين على أوضاع قائمة دون أن تكون لديهم عقيدة أو فكرة عقائدية واضحة، أو تصوُرٌ عقائدي واضح لما يجب أن تكون عليه الأوضاع. وتدليلاً على أن الثورة بدأت بالمنطق الإصلاحي: أنّ الشعار الذي طرحته في البداية كان: (الاتحاد. النظام. العمل)، ومثل هذا الشعار ليس ثورياً وإنما هو شعار إصلاحي. ولو كان منطق الثورة ثورياً لكانت طرحتْ شعاراً آخر. باختصار: كانت الثورة في البداية إصلاحية، أي تحسين ما هو موجود، وتصحيح ما هو خطأ، وجمع شمل الناس الذين تمزقهم الأهواء والتيارات والخلافات، وتشغيل الذين يبحثون عن عمل ولا يجدونه. وعلى رغم انتماء جمال عبد الناصر الطبقي، إلا أن الرجل في البداية كانت تنقصه العقيدة المتكاملة».
- «ولقد سمعت من جمال عبد الناصر مراراً أنه لم يكن هنالك وقت لدى الثورة للمناقشات، وأنه ليس عندها برنامج محدد باستثناء بعض الأمور الأساسية ومنها تطبيق الإصلاح الزراعي وحماية حقوق العمال».

... استناداً إلى هذه الحقائق الموضوعية التي ساقها هيكل، يصبح مؤكداً أن ثورة 23 يوليو في مصر بدأت بانقلاب عسكري بحت، لكنها ــ استناداً إلى التأييد الشعبي العارم الفوري الذي حظيت به ــ سرعان ما بدأت تتحول من (انقلاب) إلى (ثورة) استوحت إرهاصات مشروعها وفلسفتها التنظيرية مما كان قبلها: طروحات حزب البعث العربية القومية وتطلعاتها الوحدوية من ناحية، والمنهج الماركسي (الاشتراكية العلمية) من ناحية أخرى، مع ملاحظة أن هذا الخلط كان عسيراً جدا لأن الأممية التي طرحها كل من ماركس وأنجلز ثم لينين كانت ترفض المسألة القومية، وهي المسألة التي تَحوّرتْ حولها طروحات حزب البعث منذ إرهاصات تأسيسه في العام 1940، ثم (ثورة) 23 يوليو منذ أواخر 1954 وهو العام الذي شهد أواخره إقصاء اللواء محمد نجيب، وتركيز السلطة شيئاً فشيئاً في قبضة جمال عبد الناصر الذي مضى إلى رحاب ربّه قبل وليس بعد استكمال عمليات (تحصين جسد وروح الثورة) ضد التآكل الذاتي، والتحلُّل، والذوبان، والتبدُّد... لتبقى المبادئ بعد موت شخص الزعيم.

ولعلي أضيف أنّ افتقار حدث 23 يوليو 1952 في مصر إلى (مشروع) أو (فكر) أو (نظرية) أو (إيديولوجيا ــ مبرمجة) قبل حدوثه كَفعْلٍ مادي انقلابي عسكريٍ ذي نبض تمردي ثوري إصلاحي غامض غير محدد الملامح، هو الذي تسبب حتماً بتضخمِ وتورُمِ ظاهرة الاعتماد على مختلف أنواع الأجهزة المباحثية والمؤسسات المخابراتية، لحماية (الأشخاص) الذين تولوا مهمات تفجير هذا الحدث فجر 23 يوليو 1952، لأن حماية جمال عبد الناصر ورفاقه الضباط الأحرار العسكريين كأشخاص، من احتمالات الاغتيال والتآمر ضدهم كأبدانٍ آدمية، كاف يعني حماية (الانقلاب) الذي سرعان ما أسبغ عليه الدكتور طه حسين صفة (الثورة) أي: ←

لأن اغتيال جمال عبد الناصر ورفاقه إنما كان يعني اغتيال (الثورة) التي دُونَهُمْ يومئذ لا تكون، وهي الحقيقة التاريخية التي فرضت عليهم الاعتماد على الأجهزة المباحثية والمؤسسات المخابراتية المختلفة المتكاثرة سنة بعد أخرى، لحمايةِ (أشخاصهم) حمايةً كانت تعني حماية (الثورة) التي كانت تبحث عن مشروعها بعد وصول مجموعة الضباط الأحرار إلى السلطة وليس قَبْلَهُ. ولعل هذا يكشف لنا عن أن افتقار حدث 23 يوليو 1952 إلى (النظرية) أو (الفكر).. أو (المشروع) أو (البرنامج) الذي يحدد ملامح السياسات والتوجهات، هو الذي جعل الطريق نحو (الديكتاتورية) – وإن تكن مستنيرة – تكون سالكة، بل لعل هذا يكشف لنا عن الأسباب الموضوعية التي أدت إلى (انطواء) التجربة الناصرية بعد رحيل صاحبها جمال عبد الناصر، وإلى عودة (روح – ما قبل الثورة) بعد وفاته، في مصر وبعض الأقطار العربية.

ولئنْ يكن جمال عبد الناصر هو (الصوت)، فما بقي بعد رحيله هو (صداه) ليس أكثر؛ وإنْ يكن جمال عبد الناصر هو (الأصل) فما تبقى من بعده هو (ظلاله) ليس غير... هذه حقيقة موضوعية تفرضُ على كل الأطراف المصرية والعربية الأخرى السعي لا نحو (الماضي) المندثر، بل نحو (المستقبل) الذي دائماً ما يحدّد (الأحياء) هويته وملامحه في مرحلة (الحاضر)، تحديداً يستمد من (الماضي) الدروس والعبر، وكم هي كثيرة[5].

[5] في عددها الصادر يوم الخميس 1999/8/26 نشرت جريدة (العربي) الناطقة بلسان الحزب العربي الديمقراطي الناصري فصلاً من كتاب أحمد مرتضى المراغي – آخر وزير داخلية لعهد الملك فاروق – المعنون بـ «غرائب من عهد فاروق وبداية الثورة»، ذكر فيه أن المخابرات الأمريكية، كذلك المخابرات البريطانية، كانتا على علم بحركة الضباط الأحرار، وبالنشرات السرية التي كانت تصدرها قبل قيام حَدَث 23 يوليو تموز 1952، وأنهما كانتا مقتنعتين بحتمية سقوط نظام الملك فاروق بعد أن استشرى الفساد في جميع أعضائه ومفاصله، بخاصة في وسط الحاشية المحيطة بالملك، وكبار ضباط الجيش الملكي؛ ولهذا ضاعفت أمريكا عددَ رجال السفارة الأمريكية في القاهرة باقتراح من كيم روزفلت، عاضده جيفرسون كافري سفير الولايات المتحدة الأمريكية في القاهرة، في الوقت الذي كانت فيه مصر في حالة غليان شعبي اشتدَّ بعد حريق القاهرة الشهير.

ويذكر أحمد مرتضى المراغي في هذا الفصل من كتابه، مايأتي:

- «لمّا يئس الأمريكان والإنجليز من فاروق توجهوا إلى حركة الضباط الأحرار محاولين الاتصال بها. وقد جرت المحاولة عن طريق ضابطين في الجيش هما البكباشي عبد المنعم أمين، وقائد الجناح علي صبري. فماذا كان موقف الضباط الأحرار؟. كان الأمر كما يقول الشاعر:

«أمْران أحْلاهُما مُرُّ» أو «لابد مما ليس منه بُدٌّ»، فإذا حاول الضباط الأحرار إنكار حركتهم أو رفْضَ اتصال الأمريكان بهم، فسوف يقوم هؤلاء بإبلاغ الملك عنهم، وبكل تفاصيل ما يعرفونه عن حركة الضباط الأحرار وأسمائهم. وكان الملك يستمع إلى الأمريكان ونصائحهم أكثر مما يستمع إلى وزرائه، وعليه تكون النتيجة أن يَعْصِفَ الملك بحركة الضباط الأحرار بمساعدة الأمريكان والإنجليز الذين كان جيشهم رابضاً فوق أرض مصر. وهكذا، طبقاً لقانون ←

اللعب المعروف: «إلْعبْ بالذي تكسب به»، لعب الضباط الأحرار لعبتهم بمهارة، وجاروا الأمريكان، وقام تفاهم على خمس نقاط منها:

أ) إصدار قانون فوري بالإصلاح الزراعي وبتحديد الملكية وتوزيع الأرض على صغار الفلاحين (وقاية لمصر من الشيوعية).

ب) إلغاء الدستور والأحزاب السياسية (وهذا ما يَشْفي غليل إنجلترا من حزب الوفد، ويجعل الأمريكان يتكلمون مع صوت واحد بدلاً من عدة أصوات).

ج) تأميم قناة السويس (لتأزيم المصالح البريطانية والفرنسية في المنطقة تأزيماً يكون لصالح أمريكا ولصالح مصر في نهاية المطاف).

د) أن تعمل الحكومة المصرية جادة على إنهاء النزاع مع إسرائيل في ظرف خمس عشرة سنة، وهذا الشرط لابد أنه أتى من أمريكا وقَبِلَتْه حركة الضباط الأحرار وهي تُضْمِرُ في نفسها شيئاً آخر.

هـ) أن تضغط أمريكا على إنجلترا لإنهاء احتلالها مصر (وقد أُبرمت بالفعل معاهدة بين حكومة الثورة وإنجلترا، احتُفِظ فيها لإنجلترا بحق الرجوع إلى قاعدة قناة السويس في حالة خطر قيام حرب).

هذه المعلومات التي أوردها أحمد مرتضى المراغي في كتابه عن «غرائب عهد فاروق وبداية الثورة»، والتي قد تكون حقائق تاريخية غير معلنة، وقد لا تكون، أفردت لها جريدة (العربي) المصرية الناصرية إحدى صفحات عددها الصادر يوم الخميس 1999/8/26، في مرحلة تعاني فيها الحركة الناصرية بعد مرور حوالي نيّف وثلاثين عاماً على رحيل جمال عبد الناصر، من ريح صَرْصَرٍ تعصف بها قد لا ينتهي إلى إحيائها وبعثها من جديد، لأن (التَجارب) حتى وإن تكن ثورية، دائماً ما تَضْمَحِلُّ إن تكن تجريبية ارتجالية لم يسبقْ ممارساتِها التنفيذيةَ مَشْروعٌ مبرمج، وتنظير تلتزمُ به الممارساتُ التنفيذية ويقيها من مغبة الغموض والارتجال والفوضى، ومن خطر استخلاص الصواب من خطأ الممارسات العشوائية المولودة من رحم النيات الوطنية والقومية الحسنة الطيبة (والنيات الحسنةَ وحدها لا تجدي ولا تكفي).

وإذا كانت (ثورة) 23 يوليو (تموز) 1952 قد بدأت (بانقلاب عسكري) حقاً، سرعان ما حظي بتأييد جماهيري مصري ثم عربي عارم، فإنها تمكنت مع ذلك من تحقيق إنجازات ليس لأحد حق إنكارها أو السُخرية منها؛ وهي إنجازات كبرى طيبة صاحبَها الكثير من الأخطاء التنفيذية الفواحش التي أفرزتها النوازع الاحتكارية الديكتاتورية، وهي أخطاء سوّغت الانقلاب على الناصرية بعد جمال عبد الناصر، وأدخلت مصر والعلاقات العربية ــ العربية في أحوال من الصعوبات والمآزق مازالت مستمرة على الرغم مما قام به الرئيس مبارك من الترميم في وقت مازال فيه إسرائيل تتورم وتتجبَّرُ وتتغطرس على العالم العربي بكل أقطاره، غطرسةَ العدو المخاتل الخبيث الحقود اللئيم الساعي إلى التوسع وفرْضِ المزيد من الهيمنة التي بدأت بالتسلح بالعصابات الإرهابية، وانتهت إلى التسلح بالقنابل الذرية.. في الوقت الذي مايزال فيه العرب منذ سنوات عاجزين عن البحث المجدي عن أشلائهم وقواهم المسحوقة الممحوقة التي بها ــ وهي مبعثرة وشظايا متناثرة ــ يحاولون مواجهة عدوّهم التاريخي الذي بدأ يفترس لحومهم وأراضيهم منذ عام 1948، ولايزال هذا العدو في بدايات القرن الواحد والعشرين ممعناً بكل استكباره وصلفه في إيذائهم وإذلالهم فوق أراضي فلسطين والجولان، وفي سماء لبنان، محاولا تجريدهم ←

حتى من حق الدفاع عن النفس وعمّا تبقى من الأرض، ليفرض عليهم صفقة سلام إسرائيلية، يحقق بها ما عجز عن تحقيقه في ميادين الحروب... وهو (أمر واقع) يدفع العقل العربي غير المخبول إلى التساؤل عمّا إن يكن ثمّة من طريق متاحة أمام العرب أجمعين، غير الطريق التي انتهجتها وتنتهجها المقاومة البطولية في أرض الجنوب من لبنان وفوق أرض فلسطين، وهي وحدها المُفضية إلى الخلاص المُشرّف، إما بالنصر، وإمّا بالاستشهاد وإن يكن محفوفاً باحتمال انقراض وجود أمة قد استبدت بها (أمراض مزمنة) واجهتها، وماتزال، بالتعوُّد عليها، وبمعالجتها غير المجدية غير الناجعة، بذكريات أمجاد عربية يفوح منها عبق روائح التخبط والتحلّل والاندثار..

(11)
زيارة (بلفور) دمشق وبيروت ربيع 1925...

في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني /نوفمبر 2001 حلت الذكرى الرابعة والثمانون للرسالة التي بعث بها وزير الخارجية البريطاني الصهيوني (آرثر جيمس بلفور ـ Balfour) إلى الرأسمالي الصهيوني الملياردير (روتشيلد ـ Routhschild)، تعهدت بريطانيا بموجبها المساعدة على قيام وطن قومي لليهود في فلسطين، وقد أُرِّخَتْ تلك (الرسالة ـ الوعد ـ التعهد) بتاريخ 1917/11/2.

في عام 1930 توفي اللورد بلفور عن عمر ناهز الثمانين، وبعد وفاته بثمانية عشر عاماً، تجسد ذلك التعهد بقيام دولة إسرائيل في فلسطين صيف عام 1948. وقد كان عمر بلفور حين أصدر تصريحه أو وعْده الشهير، يقارب السبعين، وكان يلقَّب بـ (بلفور السفّاح Bloody Balfour) بسبب جرائم القتل الجماعي التي ارتكبها ضد أعمال المقاومة الأيرلندية في الفترة التي تولى خلالها وزارة الشؤون الأيرلندية بدءاً من عام 1887.

قبل وفاته بخمس سنين تلقى اللورد بلفور دعوة من يهود فلسطين، وقد كان عددهم قليلاً جداً لا يتجاوز بضعة آلاف يهودي، للمشاركة بحفل افتتاح (الجامعة العبرية) في فلسطين خلال شهر آذار (مارس) 1925، بعد خمس سنوات من إعمال معاهدة سايكس/ بيكو، وسنتين من تفعيل معاهدة سيفر.. وقد كانت تلك الدعوة الموجهة إليه لزيارة فلسطين بعد وضعها تحت الانتداب البريطاني، بتوقيعٍ وبتمويلٍ من حاييم وايزمان العالم اليهودي الكيميائي، أبرز مؤسسي الحركة الصهيونية العالمية في نهاية القرن التاسع عشر المنصرم.

وصل اللورد بلفور ـ وهو من أتباع مذهب (المسيحية الصهيونية) أو (إسرائيل المسيحية) ـ إلى ميناء الإسكندرية على متن الباخرة (اسبريا) يوم الاثنين 23 آذار /مارس 1925، وكان مراسل جريدة (الأهرام) المصرية بين مستقبليه وهو الذي قام بوصف تلك المناسبة في تقرير صحفي نشرته الجريدة في اليوم التالي، وأسهب تفاصيل استقباله الذي شارك به حاخام يهود

مصر على رأس (اللجنة الصهيونية)، وتلاميذ المدارس الإسرائيلية، وفرقة الكشافة للفتيان اليهود المصريين. وبعد ساعتين قضاهما في الإسكندرية، تم نقل اللورد بلفور ممتطياً قطاراً إلى مدينة القاهرة، حيث نزل ضيفاً على الجنرال اللّنبي والليدي زوجته، في مقر إقامتهما فيها.. وقد كان الجنرال اللنبي يومئذ هو (المندوب السامي) البريطاني في مصر، وهو الذي كان وضَع الخاتمة التراجيدية للحكم العثماني في فلسطين عام 1917.

بعد يوم قضاه في القاهرة، وبعض اليوم الذي تلاه، استقل اللورد بلفور القطار من محطة (سكة الحديد) في القاهرة في الساعة السادسة مساء الثلاثاء 24 آذار /مارس 1925 متجهاً إلى (القنطرة) على الضفة الغربية لقناة السويس التي تقع صحراء سيناء على ضفتها الشرقية. وفي محطة القطار في ساحة (باب الحديد) في القاهرة، تجمهر عدد كبير من المصريين هاتفين على مسمع منه، بعروبة فلسطين، وكان بينهم عدد أكبر من أبناء الجالية السورية المقيمة في مصر، في حين كانت البرقيات تنهال على جريدة (الأهرام) من أبناء تلك الجالية السورية المقيمة في مصر، شاجبة زيارة اللورد بلفور لمصر، منددة بوعده الشهير، وقد كانت إحدى تلك البرقيات التي نشرتها جريدة الأهرام المصرية بتوقيع عشرين مواطناً سورياً مقيمين في مصر، كان شكري القوتلي واحداً منهم.

في اليوم التالي الأربعاء 25 آذار /مارس عام 1925 وصل اللورد بلفور إلى القدس التي سبقه إليها مراسل جريدة (الأهرام) المصرية الذي كان يزودها بتقارير صحفية عن تفاصيل الحفاوة التي لقيها (صاحب الوعد المشؤوم) من اليهود في فلسطين؛ واستناداً إلى ما نشرته (الأهرام) من تلك التقارير، فإن اللورد بلفور دَشّن زيارته لفلسطين بتناول الغداء في مستعمرة (قارة) الصهيونية، ثم توجه موكبه إلى تل أبيب التي خرج سكانها اليهود عن بكرة أبيهم لاستقباله، وقد ازدانت جميع مبانيها بالأعلام الصهيونية والإنجليزية، وجميع صدور أبناء تل أبيب بصورة اللورد بلفور الفوتوغرافية، في الوقت الذي شهدت فيه غزة وقضاء طولكرم ومدرسة المعلمين في القدس إضراباً عاماً سرعان ما شمل جميع مناطق فلسطين، الأمر الذي واجهته قوات الشرطة والجيش البريطانية، بالعنف الذي شارك به

«آلاي من الخيالة بأسلحته المدرعة، أرسله الجنرال اللنبي من مصر إلى فلسطين، لمواجهة الاضطراب الأمني المحتمل». في ذلك اليوم سافر عدد من «أعيان الإسرائيليين وعلمائهم في الإسكندرية» من مصر إلى فلسطين، للمشاركة بحفل افتتاح (الجامعة العبرية)؛ وتنفيذا لتوجيه من الحكومة المصرية، سافر مدير الجامعة المصرية (جامعة القاهرة اليوم) الأستاذ أحمد لطفي السيد ــ الملقب بأستاذ الجيل ــ من القاهرة إلى القدس، ليشارك بالاحتفال مشاركة ندّد بها الفلسطينيون وطلاب الأزهر وعلماؤه، شاجبين أن يشارك مدير الجامعة المصرية بحفل افتتاح الجامعة العبرية في فلسطين.

وفي الخطاب الذي ألقاه اللورد بلفور في ذلك الاحتفال، أكد أن وعده ليس وَعْدَ شَخْصٍ، بل هو وعدٌ أجمعت عليه الهيئة العظمى لمجموعة الدول الأوروبية التي وقَّعَتْ (معاهدة فرساي).

استمرت زيارة اللورد بلفور لفلسطين، وهي تحت الانتداب البريطاني، حوالي أسبوعين، توجه بعدها في قطار خاص إلى دمشق بتاريخ 8 نيسان (إبريل) 1925، في الوقت الذي كان فيه الشعب العربي السوري يتحفز للقيام بما سُمّي من بعدُ بـــ (الثورة السورية) التي اندلعت شراراتها الأولى من السويداء في جبل العرب بقيادة سلطان الأطرش، ومن جبال اللاذقية بقيادة صالح العلي، ومن حلب بقيادة إبراهيم هنانو، ثم انتشرت فشملت جميع المناطق السورية...

بدأ قطار اللورد بلفور زحفه من حيفا إلى سورية يرافقه عدد كبير من عناصر المخابرات البريطانية، وكان أهل القرى السورية التي عبرها القطار وهو يطوي الأرض متوجهاً نحو محطة (الحجاز) في دمشق، يُقابلُون عبور القطار بقُراهم بيافطات الاحتجاج، وبالشارات السود الفاحمة، وبالهتاف بعروبة فلسطين، الأمر الذي دفع حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين إلى إجراء مفاوضات عاجلة مع سلطات الانتداب الفرنسي على سورية، لوضع خطة مشتركة لحماية اللورد بلفور خلال زيارته لسورية...

وقد ورد في تقريرٍ لمراسل «الأهرام» في سورية نشرته الجريدة خلال شهر نيسان/ إبريل 1925 ما يأتي:

□ «وصل القطار إلى درعا في حوران، فخف المسؤولون الفرنسيون لاستقبال اللورد بلفور الذي تناول هو ومرافقوه طعام الغداء في (مقصف درعا)، ثم ركب القطار متوجهاً إلى دمشق، غير أن السلطات الفرنسية وقد شعرت بالغليان يجتاح دمشق بسبب زيارة صاحب الوعد المشؤوم، قررت إنزال اللورد في محطة القطار في (القَدَمْ)، وليس في محطة المدينة (محطة الحجاز)، حَذَراً مما قد يحدث في محطة البرامكة (الحجاز) وهي محطة دمشق. كان في استقباله في (محطة القدم) عدد من رجال الأمن، والقنصل البريطاني، وبعض موظفي القنصلية، وكانوا أعدوا له السيارات اللازمة فركبها، وجرت به تسابق الريح إلى نُزُل (فندق) ڤيكتوريا الذي أُعدت له فيه غرف خاصة يحرسها رجال الشرطة ورجال التحري، ولم يتنبه أحد إلى هذا الأمر. وهكذا ترجَّلَ بلفور من السيارة إلى الفندق بسلام، وبينما كان الوزير البريطاني العجوز اللورد بلفور يخلع ملابسه في الغرفة المخصصة له في الفندق، احتشد في محطة دمشق الرئيسية (الحجاز ــ البرامكة) كثيرون من الشبان والشيوخ حاملين الشارات السُّود، ووقف رجال الشرطة في المحطة، فمنعوا الناس من الدخول إليها، واصطفت ثلة من رجال الشرطة على الرصيف. وقبل أن تأزف الساعة المحددة لوصول القطار (إلى محطة القَدَمْ). وهكذا ما إن وصل القطار دون أن يكون فيه اللورد بلفور إلى (محطة البرامكة ــ الحجاز)، حتى هرع الجمهور المحتشد إلى أمام باب نُزُل (فندق) ڤيكتوريا حيث وقف على بابه رجال الشرطة، ومنعوا دخوله على أيٍّ كان حتى على الصحفيين، وقد اندسَّ (رجال التّحري) بين المتجمهرين الذين أخذوا يصيحون (يهتفون) بسقوط وعد بلفور، وبحياة فلسطين، ويُظهرون استياءهم من قدوم اللورد بلفور إلى عاصمة الأمويين... وقد دامت مظاهراتهم ساعة، ثم انصرفوا إلى سوق الحميدية، حيث تألفت في السوق مظاهرة كبرى من جموع الشعب السوري الذين انبثوا في الشوارع والأزقة والميادين (الساحات) حتى غصت بهم، ثم اتجهت هذه الجموع (المظاهرات) نحو (ساحة المرجة)، وهنا تدخل رجال الشرطة

في الأمر، ومنعوا (المتظاهرين) من عبور (جسر بردى)، فاشتد هياج الشعب وهتافه، وحدث صدام وملاكمة وضرب بالعصي بين الأهالي والشرطة، وشرع البوليس يسوقُ كل من وقع بين يديه من الجمهور إلى دائرة الشرطة. وبعد انصراف الجماهير قرب الساعة الحادية عشرة، أراد اللورد بلفور الخروج من باب النُزُل (الفندق) بقصد التجول في شوارع وأسواق مدينة دمشق، فرجاه رجال الشرطة تأجيل تجواله إلى اليوم التالي، فعاد إلى غرفته، وخرج رجال البوليس والدَّرَكْ إلى المدينة ليجوبوا الشوارع ويطوفوا حول فندق ڤيكتوريا الذي ينزل فيه اللورد بلفور، ومع ذلك فقد تحولت دمشق ذلك اليوم بلَيْله إلى ما يشبه ميدان القتال.

وفي يوم الخميس 9 نيسان /إبريل 1925، حاول الجمهور المحتشد بعد صلاة الظهر، الوصول إلى فندق ڤيكتوريا حيث نزل اللورد بلفور، وقد تمكن الجمهور المحتشد من مهاجمة صفوف البوليس والدرك المحتشدة أمام وحول مبنى الفندق بشدّة وبعنف، ومن الوصول إلى باب الفندق، إلا أن (رجال الجندرمة) صدُّوا الجمهور عن دخول الفندق مراراً دون جدوى، ثم اضطر (رجال الجندرمة) إلى إطلاق الرصاص في الفضاء. وفي الساعة الثانية بعد الظهر وصلت ثمانية أوتومبيلات (سيارات) مدرّعة لإعادة النظام إلى نصابه. وقد أحصت وكالات الأنباء عدد الخسائر في صفوف الجانبين، المتظاهرين والبوليس، فتبين أن عدد الجرحى من المتظاهرين خمسون تمّ نقلهم إلى المستشفى، بينهم ثلاثة جراحهم خطيرة، وأن عدد الجرحى من (رجال الجندرمة) إثنان، وأصيب كثيرون منهم بكدمات ورضوض من جراء الضربات التي انهالت عليهم من جمهور المتظاهرين.

في اليوم التالي الجمعة 10 نيسان /إبريل 1925 حلقت الطائرات فوق مدينة دمشق على ارتفاع مئة وخمسين متراً فقط، وقُدِّرَ عددُ السيارات المصفحة والدبابات التي انتشرت في الشوارع لحماية اللود بلفور، بالعشرات. وكان المشاة والفرسان من الفرنسيين والمغاربة مسلحين بالسيوف، ولذلك فإن العدد الأكبر من الضحايا السوريين الذين أصيبوا بجراح في ذلك اليوم، كان نتيجة إعمال السيوف بهم، أما جراح (الجندرمة) من الفرنسيين والمغاربة، فقد كانت كلها نتيجة لرجمهم بالحجارة.

وهكذا أُرْغَمَ الشعب السوري اللورد بلفور على البقاء في الغرفة التي نزل فيها في فندق ڤيكتوريا، فلم يخرج منها قط ذلك اليوم والذي قبله، وكان معه في الفندق مراسلا (التايمز) و(الديلي ميل) اللذان أرسلا إلى جريدتيهما وصفاً تفصيلياً عما شاهداه وهما مع اللورد بلفور في غرفته في الفندق، بينما المعارك محتدمة على مسمع منه ومنهما خارج الفندق. ولم تنته المعارك بانسحاب المتظاهرين من حول فندق ڤيكتوريا، بل باحتلال القوات العسكرية الفرنسية (ساحة المرجة) الخضراء، حيث عُقِدَ اجتماع مطول بعد ذلك بين (الجنرال ساراي) الفرنسي، واللورد بلفور البريطاني، حضره القنصل البريطاني في دمشق، وقد اقتنع اللورد بلفور في هذا الاجتماع، أن عليه أن يغادر دمشق على الفور، دون تلكؤ ولو لحظة، بعد مرور عشرين ساعة على وصوله مدينة دمشق، لم يجرؤ على أن يبرح خلالها الغرفة التي نزل فيها في فندق ڤيكتوريا، قط».

... ثم يَصِفُ مراسلُ جريدة الأهرام في دمشق في أحد أعدادها الصادرة خلال شهر نيسان /أبريل عام 1925 أي قبل حوالي 76 عاماً سلفت، عملية تسلل اللورد بلفور خفية من فندق ڤيكتوريا، وهربه من دمشق خفية أيضاً، على النحو الآتي:

- «وكما يجري في الأفلام السينمائية البوليسية، أوقف، الجنرال الفرنسي (ساراي ــ المندوب السامي الفرنسي المقيم في دمشق الواقعة تحت الانتداب)، سيارته على جسر بردى (وكان يُسمّى جسر ڤيكتوريا) تجاه فندق ڤيكتوريا الذي نزل فيه اللورد بلفور فأوجد بذلك مظهراً لفت الأنظار وشَاغَلَ الناس، وفي الوقت نفسه حلَّقَتْ طائرات في جو المكان، فازداد انشغال الناس بالطائرات المحوّمة... وعلى إثْرِ ذلك غادر اللورد بلفور فندق ڤيكتوريا دون أن ينتبه أحد إلى خروجه تحت حراسة سيارات فيها 12 شرطياً سرياً، و45 من جنود الدَّرَكْ، في الوقت الذي نبهت فيه الحكومة السورية على جميع مخافر دمشق، أنْ تَجْمَعَ مشايخ الحارات و(مخاتيرها) لإبلاغ جميع الأحياء الدمشقية بأن اللورد بلفور قد برح مدينتهم، وهو لن يعود إليها مرة أخرى».

... بعد مغادرته دمشق في اتجاه لبنان، قاصداً أن يقوم بزيارة لبيروت، وبوصوله إلى بلدة (صوفر) الواقعة على الطريق الجبلية الواصلة بين دمشق وبيروت، تحت الحراسة الفرنسية، بلغه أن مدينة بيروت تتحفز هي الأخرى بدورها لاستقباله استقبالاً غير حسن، ولإعلان الإضراب العام، ولتسيير المظاهرات لشجب وعْده المشؤوم، «مُشاركةً من اللبنانيين آلام فلسطين العربية الشقيقة»؛ وقد دفع ذلك مرافقيه المسؤولين عن حمايته، إلى تعديل برنامج دخوله بيروت من الجهة المقابلة منافذها للحدود السورية؛ وإلى وضع خطة بديلة عاجلة لإدخاله سراً إلى بيروت عبر طريق أخرى تمرُّ بمنطقة (الحَرْجْ) — وهي زاخرة بغابة من أشجار الصنوبر كثيفة — ثم بمنطقة (راس بيروت) فمنطقة (المنارة) ومنها إلى (ميناء الحسن) فإلى (المرفأ)، أي أن الخطة هذه التي تم تنفيذها، قضت بأن تدور سيارات موكب اللورد بلفور وحُرّاسُهُ حول مدينة بيروت دون أن تدخل المدينة، ودون أن يعلم البيروتيون بخطة سيره التي تم تعديلها في (صوفر).

... بوصول السيارات إلى (المرفأ) تم إنزال اللورد بلفور إلى الباخرة الفرنسية (سفنكس) الراسية حذو الشاطئ، تحيط به القوات الرسمية... ثم أقلعت الباخرة دون إجراء مراسم التوديع للّورد بلفور إلى الساحل المصري، وبوصولها ميناء الإسكندرية، هبط منها جميع ركابها باستثناء اللورد العجوز صاحب (الوعد المشؤوم) الذي خشي تكرار ما حدث له في دمشق وبيروت، في الإسكندرية، فآثر البقاء في الباخرة، غير أنه تحت إلحاح الجالية البريطانية في الإسكندرية، غادر السفينة تحت حراسة مشددة بعد بقائه فيها طيلة ساعات الصباح إلى ما بعد الظهر، لحضور حفل أقامته الجالية البريطانية في فندق (كلاريدج) لتكريمه، ثم هرول بعدها إلى السفينة التي أبحرت به في المساء إلى بريطانيا.

.. عقب وصول اللورد العجوز بلفور الذي كان عمره يومئذ السابعة والسبعين، بريطانيا عائداً من مصر وفلسطين وسورية ولبنان، أكدت جريدة (الأهرام) في أحد أعدادها الصادرة خلال شهر نيسان /إبريل 1925، أن زيارة بلفور للمنطقة قد اقترنت بذكرى أليمة؛ وذكرت في مقالة حول تلك الزيارة المجهضة لسورية، ما يأتي:

□ «.. لقد ثارت عواطف الشعب السوري في كل مكان حلّ فيه صاحب التصريح المشؤوم، ولا شك في أن هذه الأمور قد أحدثت تأثيراً في فكر اللورد بلفور، ولا يستطيع إبعاده عنه».

... ومع ذلك، فإن بلفور الذي توفي بعد خمس سنوات من زيارته المجهضَة لدمشق ربيع العام 1925، قد جُسّد وعده على الأرض الفلسطينية بعد 18 سنة من وفاته، بترتيب بريطاني خالص، وبرعاية بريطانية ساهمت فيها مجموعة الدول الأنجلو ـ ساكسونية، ومنها الولايات المتحدة الأمريكية التي تكاد اليوم تنفردُ برعاية هذه الدولة الإسرائيلية الصهيونية التي ولدت من رحم وعد بلفور المؤرخ بتاريخ اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني /نوفمبر عام 1917... ومنذ ذلك اليوم، قبل حوالي ستة وثمانين عاماً، وسورية بمختلف قياداتها وأنظمتها وحكوماتها المتعاقبة، وبمختلف فصائلها الاجتماعية والسياسية والدينية والمذهبية والشعبية والرسمية، ماتزال تعتبر قضية عروبة فلسطين في الدرجة الأولى من درجات سلّم أولويات قضاياها الوطنية والقومية...

القاهرة 2001/11/2

(12)
ما كان من مصر نحو سورية خريف 1925...

بالغوص أعمق في تاريخ العلاقات المصرية السورية، يسهل اكتشاف أن جذورها ضاربة حقاً في مراحل التاريخ كلها: قديمة ووسيطة وحديثة، وأن عمرها قد تجاوز حتى اليوم خمسة آلاف عام ونيف؛ وهي عراقة في العلاقات الثنائية بين دولة إفريقية وأخرى آسيوية، ذات نكهة مميزة زكية، متفردة شديدة الخصوصية، بينهما مساحات جغرافية شاسعة، كل منهما تقع في قارة مختلفة... وأنَّ هذه العلاقات الثنائية المصرية السورية قد قامت بداية في مرحلة من التاريخ القديم، على أساس التصاهر السياسي والاجتماعي والثقافي والتكامل الاقتصادي، تحصنها الخصال والطبائع والنوازع النفسية المتشابهة، والمصالح المشتركة في آن؛ وهو تصاهُرٌ جعل صفاء هذه العلاقات التاريخية المتبادلة هو القاعدة، كما جعل تعكيرها لسبب أو آخر، هو الاستثناء.

وقد لا يعرف كثيرون حتى اليوم أن أمهات جميع الفراعين الرعامسة، كُنَّ فينيقيات سوريات، وأن الكثير من البصمات المصرية محفور في تاريخ سورية القديم والوسيط والحديث، وأن بصماتٍ سوريةٍ محفورة في كل مراحل تاريخ مصر. ولعل هذا العمق التاريخي لهذه العلاقات، هو الذي دفع شاعر مصر العظيم حافظ إبراهيم، إلى الترحيب بوفد سوري جاء إلى القاهرة ربيع العام 1908، لتنشيط العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية بين سورية ومصر، بقصيدة ألقاها في حفل أقيم احتفاءً بالوفد السوري في فندق شبرد في القاهرة، وكان من أبياتها البيت القائل:

إذا ألمت بوادي النيــل نازلــة   باتت لها رواسي الشام تضطربُ»

وثمة صفحة من تاريخ هذه العلاقات السورية المصرية ماتزال مجهولة بالنسبة لكثيرين جداً من المصريين والسوريين، ولسبب لا نعرفه، سقطت هذه الصفحة من أسفار التاريخ الحديث؛ وهي صفحة هامة تكشف النقاب عن المناسبة التي حرضت أمير الشعراء أحمد شوقي على صوغ قصيدته الشهيرة التي جاء بين أبياتها البيتان القائلان:

سـلام مـن صـبَا ردى أرقُّ ودمع لا يكفكف يـا دمشقُ
وللحريـة الحمـراء بـابٌ بكـل يـد مضـرّجة يُـدَقُّ

فحين اندلعت الثورة السورية الشعبية الكبرى من جبل العرب في الأراضي الجنوبية السورية في أغسطس من العام 1925، ضد الهيمنة الفرنسية على سورية ولبنان تفعيلاً لمعاهدة سايكس / بيكو، لم تتورع القوات العسكرية الفرنسية عن قصف مواقع الثائرين، وعدد من المدن والقرى، بقذائف الطائرات والمدافع، فوقع كثيرون من الثائرين والمدنيين شهداء أو جرحى؛ في وقت سبقه إقدام فرنسا على تقسيم سورية إلى أربع دويلات طائفية وعرقية: دويلة حلب السنية في الشمال، دويلة العلويين في الغرب، دويلة دمشق السنية في الوسط، دويلة الدروز في الجنوب (وهو المشروع الذي وضعته ونفذته فرنسا في العام 1920، وتسعي أمريكا المتحالفة مع الصهيونية العالمية وإسرائيل اليوم إلى إحيائه في بدايات القرن الواحد والعشرين)؛ وعلى الفور سارعت مصر إلى إعلان تضامنها مع سورية ضد الغطرسة الفرنسية العدوانية، كما سارع (زعيم الأمة) سعد باشا زغلول إلى إصدار بيانه الشهير الذي جاء فيه: «إن المصاب الذي حل بسورية شقيقة مصر، هو مصاب جلل أوجع قلبي وملأه حزناً وأسى؛ فكان هذا النداء. وإني أشعر أن كل مصري يأسف هذا الأسف، ويُلِمُّ بقلبه هذا الأسى؛ وأن المال الذي يمكن لمصر تقديمه، هو أيسر ما يجب. لكنه مع الأسف جهدُ ما نستطيع».

بل إن مصر، عبر زعيمها يومئذ سعد باشا زغلول، ومليكها فؤاد الأول، لم تكتف بذلك النداء، وتسابق شعبها الشهم إلى المشاركة بمؤتمر جماهيري دعا إلى عقده سعد باشا زغلول في (تياترو الأزبكية) بعد مرور أقل من اثني عشر أسبوعاً على اندلاع الثورة السورية الشعبية الكبرى من أقصى جنوبها إلى أقصى شمالها، ومن أقصى شرقها إلى أقصى غربها، حيث توحَّد الدرزي مع السني والعلوي والإسماعيلي الشيعي، لتبرز زعامات شعبية وحدوية خالدة أسماؤها في تاريخ سورية الحديث: سلطان باشا الأطرش في جبل العرب في الجنوب، صالح العلي في جبال اللاذقية، إبراهيم هنانو وسعد الله الجابري في حلب، سعيد العاصْ في حماة، شكري القوتلي وحسن الخرّاط في دمشق، محمود خيتي في دوما مركز غوطة

دمشق.. إلخ. وعلى نحو باتت معه جريمة تقسيم سورية إلى أربع دويلات، حبرا على ورقٌ، وبرهاناً على أن (الوحدة الوطنية) حين تسمو فوق المصالح الفئوية، تغدو مؤهلة لاجْتراحِ المعجزات في أيام المحن والملمات العصيبة، ولتقديم التضحيات تلوَ التضحيات دون تلكؤ ولا ضجر..

وفي ذلك المؤتمر المصري الشعبي الذي عقد في (تياترو الأزبكية) في يناير 1926، ألقى شوقي قصيدته الشهيرة (من صبا بردى) ــ وشوقي منتسب إلى العِرْق الكردي، لا إلى العِرْق العربي، شأنه في ذلك شأن صلاح الدين الأيوبي، وهو من أم أرمنية، وعبد الرحمن الكواكبي السوري الحلبي، والمفكر الأديب المصري أحمد أمين، وعباس محمود العقاد، والشيخ محمد عبده، وهي حقيقة تؤكد أن العروبة انتماء، أي أنها انتساباً إلى أصول عرقية ــ.

عقب انفضاض المؤتمر الذي دعا إلى عقده سعد باشا زغلول، تسابق الشعب المصري بكل فصائله إلى التبرع بما استطاع من التبرعات المالية لصالح الثائرين وأسر الشهداء في سورية، وقد حملها وفد مصري إلى سورية، وتم توزيعها على مستحقيها ميدانياً. وكان سبقَ هذا التصرفَ الشهم النبيل من مصر إزاء سورية، تصرفٌ مماثل آخر بصدور أمر من مليك مصر والسودان فؤاد الأول، بتكليف طبيبه الخاص رئيس الهلال الأحمر الملكي المصري الدكتور عبد العزيز بك محمود بتشكيل بعثة طبية مصرية توجهت في نوفمبر 1925 إلى سورية، ومعها كمية ضخمة من الأدوية والأدوات الطبية، للمشاركة بعلاج الذين تساقطوا جرحى خلال الفترة الأولى من الثورة السورية الكبرى التحررية الشعبية (ولازلتُ أحتفظ في أرشيفي الخاص حتى اليوم بصورة فوتوغرافية أصلية التُقطت ساعة وصول البعثة الطبية المصرية دمشق برئاسة طبيب الملك الخاص الدكتور عبد العزيز بك محمود وعضوية الدكتور غريني، وبقية أعضاء البعثة من الأطباء المصريين، كما يبدو فيها الزعيم الوطني الشعبي السوري فخري البارودي، والمناضلة السورية سامية المدرس وهما في استقبال البعثة في دمشق. وأنا على استعداد لإهداء أية جهة سورية أو مصرية، معنية بتوثيق تاريخ العلاقات المصرية السورية، هذه الصورة ــ الوثيقة).

في العام 1921، قبل قيام الثورة السورية الكبرى بأربع سنوات، وبعد أقل من مرور عام على تقسيم سورية إلى أربع دويلات طائفية وعرقية، تنادى الزعماء الوطنيون السوريون إلى تأسيس مؤسسة (المؤتمر السوري)، واتخذوا جنيف مقراً له، وقد سارعت مصر في عهد مليكها فؤاد الأول، وزعيمها الشعبي سعد باشا زغلول، إلى نقل المقر الدائم من جنيف إلى القاهرة؛ وعبّرت تلك المسارعة المصرية الحميدة يومئذ عن حيوية ووحدة الرابطة الإسلامية والرابطة العربية القومية أروع تعبير. وحين عقد المؤتمر الشعبي برعاية سعد باشا زغلول في (تياترو الأزبكية) في الخامس من نوفمبر 1925، لنصرة سورية، كان أعضاء (المؤتمر السوري) المؤسسون، في مقدمة المشاركين به، إلى جانب سعد باشا زغلول وأحمد شوقي؛ وألقى رئيسهم كلمة شرح فيها ما يعانيه الشعب السوري من الاستعمار الفرنسي من شتى صنوف الويلات الضارية.

وهكذا كما نرى، فإن العلاقات المصرية السورية الثنائية ثرية بعبر ودروس تاريخية كثيرة أعانت وتعين المؤتمنين عليها أمس واليوم وغداً، في كل من الدولتين الشقيقتين، على الاحتفاظ بحيويتها محصنة ضد التكدير والتعكير الطارئ، وهو تحصين ممكن بمقدار ما هو واجب ملزم للطرفين؛ وبخاصة أن الحضارة الفرعونية المصرية هي أقدم وأعرق بل أم جميع الحضارات الإنسانية قاطبة، وأن الحضارة الفينيقية والآرامية السورية قد عاصرت الحضارة الفرعونية، وتفاعلت معها، وأثّرت كما تأثرت بها، وحفرت كل منهما في ضمير الأخرى ووجدانها التاريخي المتصل الحلقات، بصماتها الباقيات إلى الأبد...

إن الذاكرة المصرية الشعبية فيما نعرف جيداً، لم ولا تنسى استشهاد سليمان الحلبي السوري إعداماً بالخازوق، في سبيل حرية وعزة شعب مصر قبل نيف ومئتي عام، ولا إقدام ضابط البحرية الشهيد السوري جول جمّال على المشاركة العُضوية بإغراق الباخرة الفرنسية (جان بارت) في المياه الإقليمية المصرية خلال أيام العدوان الثلاثي على مصر الغالية خريف العام 1956، ولا إقدام رجال عبد الحميد السراج السوريين على نسف أنابيب شركة النفط العراقية (آي. بي. سي) بثلاثمئة كيلوغرام من أصابع الديناميت في

الأراضي السورية خلال أيام حرب 1956، مناصرة لمصر، ولا كيف صرخ كاتب هذه السطور ملتاعاً عَبْرَ موجات الإذاعة السورية بعد قصف طائرات الاعتداء الثلاثي على مصر في العام نفسه محطات الإرسال الإذاعي في (أبو زعبل) وغياب صوت مصر: (هنا القاهرة من دمشق. هنا مصر من سورية. لبيك يا شعب مصر، لبيك لبيك يا عبد الناصر).. كذلك فإن الذاكرة الشعبية السورية لم ولا تنسى لمصر إسنادَها سورية في كثير من المحن والملمات العصيبة، ولا مواقفها التضامنية الشهمة النبيلة طيلة عهد الرئيس مبارك الزاهر، من عهد حافظ الأسد، ثم عهد شبله الواعد الرصين الرشيد الدكتور بشار، وكم هي كثيرة وجليلة..

علاقات ثرية عريقة كهذه العلاقات الثنائية المصرية السورية، أليْسَت جديرة أن يحميها ويرعاها جميع أطرافها المصرية والسورية بأهدابِ العيون؟

القاهرة ـ الجمعة 2002/1/11

(13)
سليمان الحلبي: بطل من بلاد الشام...

في عدديها الصادرين يومي الثلاثاء العاشر من أكتوبر والتاسع عشر من ديسمبر من العام 2000، نشرتْ جريدة (الوفد) ما يمكن وصفه بـ (دعوةٍ) من أستاذ التاريخ الحديث في إحدى الجامعات المصرية الدكتور عبد المنعم الجميعي، إلى تجريد اسم سليمان الحلبي من شرف الاستشهاد في سبيل مرضاة الله وفي سبيل حرية مصر وعزتها، وإلى وَصْمِهِ بالخيانة والإفك وبالعمالة، وبأنه كان فتى بلا دين وبلا هدف، وبأن إقدامه على قتل الجنرال كليبر بعد ظهيرة يوم السبت الخامس عشر من شهر يونيو 1800 إنما كان مقابل أجْر؛ وفي سبيل تحقيق مصلحة شخصية خاصة بسليمان الحلبي الذي أُعْدِم بالخازوق فوق (تل العقارب) في (القاهرة ـــ المحروسة) في الساعة الحادية عشرة والنصف من ظهر يوم 28 يونيو 1800، وهكذا فإن دعوة الأستاذ الدكتور عبد المنعم الجميعي إلى تجريد اسم سليمان الحلبي من شرف الاستشهاد في سبيل مرضاة الله وحرية مصر، قد جاءتْ كما نلاحظ بعد مئتيْ عام وستة أشهر من استشهاد هذا الفتى السوري المجاهد الذي وهب مصر الغالية حياته، وهو الذي ما انفكت مصر الغالية تعتبره بطلاً شهيداً منذ مئتَيْ عام ونيف، تطلق اسمه على عدد من الشوارع في القاهرة ومدن وقرى مصرية أخرى، وتكرس حكاية بطولته في بعض البرامج التعليمية المدرسية كقدوة جديرة بأن تحتذى، وكبطولة جديرة بالتكريم والتخليد...

ولقد كان بديهياً بعد إطلاق دعوة الأستاذ الفاضل الدكتور الجميعي على صفحات جريدة (الوفد) ذات اللون الأخضر البهيج، أن يتساءل (قارئ عربي)، التساؤل الآتي: لماذا وكيف إذاً ظَلَّتْ مصر الغالية تعتبر سليمان الحلبي بطلاً شهيداً طيلة مئتي عام متصلة، رغم أنه، كما أخبرنا الأستاذ الدكتور الجميعي، لم يكن سوى مجرم أهوج انتهازي عميل وقاتل مأجور بلا دين ولا هدف، وعلى هذا فهو لا يستحق أن يكون قدوة تُقْتدى، ولا بطلاً جديراً بالتخليد؟ وهل كان الأمر يحتاج إلى انتظار مرور مدة مئتي عام، حتى

يتحقق هذا الاكتشاف الهام المثير الذي انْفَرَدَ به أستاذ للتاريخ الحديث في إحدى الجامعات المصرية في نهاية القرن العشرين الذاهب، وقد أسند اكتشافه هذا إلى المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي الذي عاصر عملية اغتيال سليمان الحلبي، الجنرال كليبر، الذي خلف نابليون بونابرت في قيادة الحملة العسكرية الفرنسية التي غزت أرض مصر بدءاً من الإسكندرية، فجر يوم الثلاثاء الثالث من يوليو 1798؟

كان بديهياً أن أسارع من جانبي إلى قراءة ما ورد في تأريخ الجبرتي (عجايب الآثار في التراجم والأخبار)، وبالتحديد في الجزء الرابع منه المعنون بـ (الغزوة الفرنسية: صدمة الغرب)، الصادر في القاهرة عن مكتبة مدبولي في العام 1997، كما أَعَدَّهُ وحقَّقَهُ الأستاذ عبد العزيز جمال الدين؛ وَهو يقع في ألف ومئة وعشر صفحات من القَطْع المتوسط. وقد انكببت على مطالعته مطالعةً مُمحِّصةً متأنية جداً، منقباً في جميع صفحاته عن أي موضوع فيه إشارة إلى سليمان الحلبي، وعن كل كلمة وردت عنه، وقد أعانني ذلك على الإحاطة بأخبار الأحوال المصرية في جميع مناطق مصر العليا ومصر السفلى، وهي الأحوال التي لا يجوز فصل إقدام سليمان الحلبي على اغتيال الجنرال كليبر عنها، على الرغم من وضوح حقيقة أن الجبرتي كتب تاريخ الوقائع التي عاصرها من منظور موضوعي حياديّ صِرْف، وكأنما هو عدسة آلة تصوير تنقل إلى ورقة الصورة، ما قابلها فانعكس عليها، دون أن تضيف أو تنقص منه شيئاً... أي أن موضوعية الجبرتي قد بلغت حد عدم الانحياز إلى حركة المقاومة الشعبية المصرية الوطنية التي كانت ذات هوية وطنية مصرية دينية إسلامية خالصة، تَجْمَعُ فيما بين المصريين والعثمانيين والمماليك، وتتنافر مع الغزاة العسكريين الفرنسيين الذين كان المصريون والأتراك والمماليك ينظرون إليهم كغزاة أعداء أغراب (كفرة). وهكذا، ضمن إطار هذا الفرز أو التقسيم، شارك عَرَب (جُدّه) وعرب (يَنْبُعْ) وعرب (مكة) الحجازيون بحركة المقاومة الشعبية المصرية الإسلامية التي قادها (مراد بك) في صعيد مصر، بعد انهزام جيشه أمام جيش نابليون في معركة (أمبابة يوم الأربعاء 21 تموز/ يوليو 1798.. كما شارك الشوام من أهل فلسطين وسورية ولبنان بهذه

الحركة؛ متحالفين مع (إبراهيم بك) الذي انهزم أمام نابليون على الضفة الشرقية من نهر النيل، ثم انسحب من (المحروسة ــ القاهرة) إلى (المطرية)، ثم إلى (بلبيس في محافظة الشرقية) ثم إلى (القطيه) قرب (الفرما) في منطقة (القنطرة شرق).. ثم إلى غزة في 13 أغسطس 1798 حيث تحالف مع والي عكا أحمد الجزار باشا، ومع (الوزير الأعظم) أو (الصدر الأعظم) في الأستانة، عاصمة الخلافة العباسية..

وفيما هو معروف: أن سليمان الحلبي ولد في العام 1777 في قرية (عِفْرين) في الشمال الغربي من مدينة حلب السُّورية، من أب مسلم متدين اسمه محمد أمين كانت مهنته بيع السمن وزيت الزيتون. فلما بلغ سليمان العشرين من عمره، أرسله أبوه براً في العام 1797 إلى القاهرة لتلقي العلوم الإسلامية في الجامع الأزهر حيث انخرط سليمان في (رواق الشوام) المخصص لطلبة الأزهر من أبناء بلاد الشام، فيه يتعلم ويأكل وينام مع كوكبة من أقرانه الفتيان الشوام من أضرابه... وقد وَطَّد صلته بالشيخ أحمد الشرقاوي أحد الأساتذة الشيوخ الذين تَتَلْمَذَ عليهم، وأحياناً ما كان سليمان يبيت في منزل أستاذه الشيخ الشرقاوي الذي رفض الاستسلام للغزوة الفرنسية فساَهم بإشعال فتيل ثورة القاهرة الأولى بدءاً من يوم 21 أكتوبر 1798، أي أن سليمان الحلبي كان إلى جانب أستاذه الشيخ الشرقاوي حين اقتحم جيش نابليون أرض الجيزة ثم أرض (المحروسة ــ القاهرة)، حيث راح الغزاة الفرنسيون ينكلون بالشعب المصري أشد التنكيل كما يذكر الجبرتي، في الوقت الذي كان فيه (إبراهيم بك) يُحرِّضُ المصريين على الثورة ضد الغزاة (الكفرة)، من مكانه في غزة، و(مراد بك) يَحُضُّ الشعب المصري على المقاومة من مكانه في صعيد مصر، وهو التحريض الذي دفع بونابرت إلى الزعم الباطل في رسالة بعث بها إلى شريف مكة في الحجاز غالب بن مسعود، في بيان وجهه إلى مشايخ وأعيان (المحروسة ــ القاهرة)، بأنه قد هدم الكنائس في أوروبا وخلع بابا روما قبل قدومه إلى مصر، وأنه عاشق للنبي محمد (ﷺ)، نصير للدين الإسلامي!! إلا أن حصافة الشعب المصري لم تكن عاجزة عن إدراك بطلان هذا الزعم الكاذب الذي رافقه التنكيل بالمصريين الذين أججّوا (ثورة القاهرة الأولى) ضد الغزاة (الكفرة)، انطلاقاً من منطقة الجامع الأزهر، وقد رَدَّ عليها الغزاة بقذائف

مدافعهم غير الرحيمة التي نالت من مبنى (المسجد الأكبر) الذي لم تشفع له قدسيته كمسجد للعبادة الإسلامية، فقامت خيول الغزاة المسلحين بالبنادق والسيوف باحتلاله.. وحكمت على ستة من شيوخ الأزهر بالإعدام كان بينهم أستاذ سليمان الحلبي الشيخ أحمد الشرقاوي، الذي اقتيد إلى القلعة حيث ضربت عنقه مع أعناق الشيوخ المجاهدين الخمسة الآخرين، وفُصِلَتْ رؤوسهم عن أجسادهم، ودُفنوا في قبور غير معلوم مكانها حتى اليوم... وبعد تمكن الغزاة من إخماد ثورة القاهرة الأولى، تضاعفت مظالم الغزاة، وطُورِدَ كل مشبوه بانتمائه إلى حركة الجهاد والمقاومة الشعبية الوطنية المصرية الإسلامية، فاختفى من اختفى، وهرب من مصر مَنْ هرب، وبذلك توافَرت الظروف لتوحيد (خطط الجهاد) داخلية وخارجية، وكان ممن غادروا أرض مصر إلى بلاد الشام، سليمان الحلبي، بعد أن أقام في القاهرة ثلاث سنوات؛ حيث توجه إلى مسقط رأسه (عفرين) في الشمال الغربي السوري، وليلتقي في حلب (أحمد آغا) وهو من انكشارية (إبراهيم بك)، وليكتشف أن والي حلب العثماني قد بالغ بفرض غرامة على والده بائع السمن والزيت محمد أمين، وكان من البديهي — وهو منخرط في التنظيم الذي كان الشيخ الشرقاوي قد أنشأه في المحروسة، ثم أحياه (إبراهيم بك) في غزة — أن يحاول السعي لرفع الغرامة عن أبيه، وقد وعده (أحمد آغا) بذلك، وكلفه بالتوجه إلى مصر التي كان أقام فيها ثلاث سنوات، لأداء واجبه الإسلامي الجهادي باغتيال خليفة بونابرت الجنرال كليبر، بعد أن تمكن بونابرت من اجتياح خان يونس والعريش وغزة ويافا، وبعد فشله في اجتياح أسوار عكا التي كان واليها أحمد باشا الجزار متحالفاً مع إبراهيم بك الذي غادر غزة إلى القدس، وجبال نابلس، والخليل، مع استمرار سعيه، بالتحالف مع الأستانة، لإقلاق الغزاة (الكفرة) داخل مصر.. وبعد فشله باقتحام عكا، عاد نابليون بجيشه إلى مصر مدحوراً من بلاد الشام، ومنها توجه سراً بحراً إلى فرنسا ليلة الاثنين 16 آب/أغسطس 1799، تاركاً قيادة جيشه في مصر إلى الجنرال كليبر؛ بعد أن دعا نابليون في بيانه الشهير اليهود إلى إقامة دولة إسرائيل الكبرى بدءاً من أرض فلسطين...

بوصوله القدس، صلى سليمان الحلبي في المسجد الأقصى، في آذار/ مارس 1800 ثم توجه إلى الخليل حيث إبراهيم بك ورجاله في جبال نابلس،

ومن الخليل توجه بعد عشرين يوماً من إقامته فيها في إبريل 1800 إلى غزة حيث استضافه ياسين آغا أحد أنصار إبراهيم بك في الجامع الكبير، وقد سلمه سليمان رسالة حملها إليه من أحمد آغا المقيم في حلب، وكانت تتعلق بخطة تكليف سليمان بقتل الجنرال كليبر باعتبار سليمان عنصراً من عناصر المقاومة الإسلامية التي وضعت على كتفيها عبء النضال لتحرير مصر من الغزاة (الكفرة). وفي غزة أَنْقَدَ ياسين آغا سليمان الحلبي أربعين قرشاً لتغطية كلفة سفره إلى مصر على سنام ناقة في قافلة تحمل الصابون والتبغ إلى مصر، ولشراء سكين من أحد المحال في غزة، هي السكين التي قتل بها سليمان الجنرال كليبر. وقد استغرقت رحلة القافلة من غزة إلى القاهرة ستة أيام؛ انضم بعدها سليمان إلى مجموعة من الشوام المقيمين في رواق الشوام كطلبة في الأزهر، وقد كانوا أربعة فتيان من مقرئي القرآن من الفلسطينيين أبناء غزة، هم: محمد وعبد الله وسعيد عبد القادر الغزي، وأحمد الوالي. وقد أبلغهم سليمان بعزمه على قتل الجنرال كليبر، وأنه نذر حياته للجهاد الإسلامي في سبيل تحرير مصر من الغزاة... وربما لم يأخذوا كلامه على محمل الجد باعتباره كان يمارس مهنة كاتب عربي (عَرْضَحَالجْي).

صباح يوم 15 حزيران /يونيو 1800 كتب الفتى سليمان الحلبي عدداً من الابتهالات والأدعية إلى ربه على عدد من الأوراق، ثم ثبّتها في المكان المخصص لمثلها في الجامع الأزهر، ثم توجه إلى (بركة الأزبكية) حيث كان الجنرال كليبر يقيم في قصر محمد بك الألفي الذي اغتصبه بونابرت وأقام فيه، ثم سكنه بعد رحيل بونابرت إلى فرنسا، خليفته الجنرال كليبر الذي ما إن فرغ من تناول الغداء في قصر مجاور يسكنه (صاري عسكر داماس)، حتى دخل سليمان حديقة قصر محمد الألفي بك الذي يقيم فيه كليبر ومعه كبير المهندسين الفرنسيين (قسطنطين بروتاين)؛ وقد تمكن سليمان من أن يطعن بنصلة السكين التي اشتراها من غزة الجنرال كليبر، أربع طعنات قاتلة في كبده، وفي سرّته، وفي ذراعه اليمنى، وفي خده الأيمن. كذلك تمكن من طعن كبير المهندسين قسطنطين بروتاين ست طعنات غير قاتلة: في الصدغ من ناحية اليسار، وفي الكف، وبين ضلوع الصدر من جهة اليسار، وتحت الثدي الأيمن، وفي الشدق الأيسر، وفي الصدر من الناحية العليا.

وقد تمكن اثنان من العساكر الفرنسيين هما العسكري الخيال الطبجي جوزيف برين، والعسكري الخيال الطبجي روبيرت، من إلقاء القبض عليه في الحديقة، ومن العثور على السكين التي نفذ بها (مهمة القتل) التي كُلِّفَ بها كمجاهد إسلامي وهب حياته لحرية مصر وكبريائها المثلوم...

حوكم الفتى سليمان بعد حرق يده اليمنى خلال التحقيق معه حتى عظم الرسغ، لكنه أنكر صلته بالشيخ الشرقاوي وبحركة المقاومة الشعبية الإسلامية المصرية المختلطة (المصرية ــ العربية الحجازية ــ المملوكية ــ التركية العثمانية ــ الشامية) في رواق الشوام في الأزهر، كانوا أربعة جميعهم من غزة، وليس فيهم مصري واحد، بل وبما أنه لم تكن لهؤلاء الأربعة الفلسطينيين أية صلة بعملية القتل، فقد اعترف سليمان بأنه كان مقيماً معهم مدة 34 يوماً قبل إقدامه على تنفيذ (مهمة القتل) عقب وصوله القاهرة من غزة مكلفاً بقتل (صاري عسكر كليبر).. وبأنه أَسَرَّ إليهم بعزمه على قتل الجنرال كليبر من منطلق جهادي نضالي صرف، لكنهم لم يأخذوا كلامه على محمل الجد. وبذلك أدانتهم المحكمة بالتستر على (الجريمة) قبل وقوعها، وحكمت على سليمان بالإعدام بالخازوق، وعلى أحمد الوالي ومحمد وعبد الله الغزي (عبد الله الغزي كان هارباً) بالإعدام، وبفصل رؤوسهم عن أجسادهم على أن يتم قطع رؤوسهم أمام سليمان قبل إعدامه بالخازوق.

وفي الساعة 11.30 من يوم 1800/6/28، نُفِّذَ حكم الإعدام بالفلسطينيين الثلاثة أمام عيني سليمان، ثم حرقت أجسادهم حتى التفحم، ثم غُرِسَ وتد الخازوق في مؤخرة سليمان الحلبي فوق (تل حصن المجمع ــ تل العقارب) ثم تُرِكَ جثمانه المغروس في أحشائه وتد الخازوق النافذ، عدة أيام، تنهشه الطيور الجوارح والوحوش الضواري، عقب دفْن جثمان الجنرال كليبر في موضع من القاهرة قريب من (قصر العيني)، بعد تشييعه في احتفاء رسمي ضخم، وقد كان موضوعاً في تابوت من الرصاص ملفوفاً بالعلم الفرنسي، وفوق العلم سكين سليمان الحلبي المشتراة من غزة...

مع الإعلان عن مقتل الجنرال كليبر، خلفه الجنرال جاك مينو الذي كان من قبْل (صاري عسكر مدينة رشيد) وفيها شهر إسلامه في لعبة سياسية لا يعسر تفسيرها وسمّى نفسه (عبد الله جاك مينو)، وتزوج من نسائها سيدة

مطلقة اسمها زبيدة بنت محمد البواب، وقد أنجب منها، ورحلت معه إلى فرنسا بعد نجاح الخلافة العثمانية بالتحالف مع بريطانيا في إرغامه على الانسحاب من مصر ومعه كل رجاله، لينضم إلى مسيرة نابليون بونابرت الذي ارتقى إلى منصب قنصل فرنسا قبل أن يغدو إمبراطورها الأعظم... ثم أسيراً في جزيرة إلْبا، ثم في جزيرة سانت هيلانة حيث قضى نحبه مسموماً بسائل الزرنيخ.

وقد حمل الجنرال عبد الله جاك مينو معه إلى باريس عظام الجنرال كليبر في صندوق، وعظام سليمان الحلبي في صندوق آخر؛ وعند إنشاء متحف (أنفاليد ـــ الشهداء) بالقرب من (متحف اللوفر) في باريس، خُصِّص في إحدى قاعات المتحف، رفان: رف أعلى وضعت عليه جمجمة الجنرال كليبر وإلى جانبها يافطة صغيرة مكتوب عليها: (جمجمة البطل) الجنرال كليبر، ورف أدنى تحته وضعت عليه جمجمة سليمان الحلبي وإلى جانبها يافطة صغيرة مكتوب عليها: (جمجمة المجرم) سليمان الحلبي.

والجمجمتان ما تزالان معروضتين في متحف (أنفاليد) حتى اليوم...

هذه بإيجاز هي حكاية سليمان الحلبي التي لا يجوز فصلها قط عن الأحوال السياسية والدينية والاجتماعية المصرية خلال فترة ما قَبْل وما بَعْدَ إقدام ذلك الفتى السوري البطل الذي أُعْدِمَ بالخازوق فوق أرض مصر المحتلة صيف عام 1800، على قتل الجنرال كليبر، بتكليف من أطراف عُضْوية بحركة المقاومة الإسلامية الشعبية المصرية الوطنية.. وقد وصفه الجبرتي في الصفحة 463 من الجزء الرابع من أجزاء تأريخه الخمسة المعنون بـــ (عجايب الآثار في التراجم والأخبار) في سياق امتداحه الغزاة الفرنسيين (المتحضرين)، بأنه: «آفاقي» أي من المشردين شذاذ الآفاق، أي من الغرباء غير المصريين، وبأنه «أهوج»؛ كما وصف المجاهدين الوطنيين المصريين الذين قاتلوا الغزاة الفرنسيين وقاموا بثورة القاهرة الأولى بأنهم «أوباش العساكر الذين يدّعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون»..

كذلك وَصَفَ الجنرال جاك مينو، خليفة كليبر في قيادة الحملة الفرنسية في مصر، سليمان الحلبي، في البيان الذي أصدره بتوقيعه بتاريخ 1800/6/16(أي في اليوم التالي لمقتل الجنرال كليبر) بأنه «أحد المجرمين»،

وقد كلفه الوزير الأعظم (أي الصدر الأعظم في الأستانة) عن طريق آغا الانكشارية (أي أحمد آغا في حلب وياسين آغا في غزة) بعملية اغتيال حالكة السواد، للرجل «الذي ستظل ذكراه عطرة خالدة في قلوب الفرنسيين جميعاً» ــ أي الجنرال كليبر (الصفحة 461 والصفحة 462).

وقد ورد في الصفحة 429 من هذا الجزء الرابع من تاريخ الجبرتي، في الملحق رقم 4 الذي أضافه المحقق الأستاذ عز الدين جمال الدين الذي أعد وحقق تاريخ الجبرتي للنشر كما نشرته مكتبة مدبولي العام 1997، نص رسالة جوابية أرسلها مراد بك من الصعيد إلى الجنرال (عبد الله جاك مينو ــ صاري عسكر أمير الجيوش الفرنساوية)، على رسالة كان الجنرال جاك مينو أرسلها إليه يخبره فيها إقدام سليمان الحلبي على اغتيال كليبر، ما يأتي: «إنه حضر لنا جوابكم، وعرّفتونا بما حصل إلى حضرة مُحبّنا العزيز صاري عسكر كليبر، وهذا أمر الله تعالى لمْ أحداً بيده حيلة، وأمر الله تعالى لابد من نفاذه، والذي سلط على قتله مثل واحد كبير زي ده، لم هو شأن الأميري، ويبقى خاين وقليل المروّة... ولكن من قديم الزمان الخوانة لهم وكل أحداً جزائه على الله تعالى).. إلخ.. (غني عن التوضيح أننا ننقل من نص هذه الرسالة الوثيقة التاريخية كما كتبها وكما وقعها أمير اللواء السلطاني مراد بك، وكما أرسلها هكذا مكتوبة بالعربية ركيكة غير صحيحة الصياغة إلى الجنرال جاك مينو، مع توضيح أن هذا القائد المملوكي مراد بك، بعد فشل ثورات مدن الصعيد جميعها بقيادته، وهو المتحالف مع قبائل عربية من الحجاز، آثر الانشقاق عن رفيق دربه إبراهيم بك في بلاد الشام، وعن الوزير الأعظم في الأستانة؛ ليتحالف مع الجنرال جاك مينو الذي ولاّه أميراً على أرض الصعيد، من (جرجا) حتى (إسْنا)..

هذا يعني أن صفتَيْ (خاين) و(قليل المروة) لم يقصد بها مراد بك سليمان الحلبي، بل الذين كلفوه بتنفيذ عملية قتل الجنرال كليبر، وهما أحمد آغا في حلب وياسين آغا في غزة، وكل منهما كان انكشارياً من رجال إبراهيم بك المتحالف مع الصدر الأعظم في الأستانة، ومع أحمد الجزار باشا في عكا، ومع المسلمين في مصر وجميع أرجاء الدنيا، ومع بريطانيا أيضاً.. التي كسبت الشوط في نهاية المطاف، وقد سبقها إلى الكسب محمد علي

الكبير الذي تمكن إزاحة المماليك، ومن اعتلاء عرش مصر العامَ 1805، ومن إنشاء الدولة المصرية الحديثة، ومن استثمار جميع العلوم وآلات التكنولوجيا الحديثة التي رافقت الحملة الفرنسية على مصر، وهي الحملة التي اندحرت أبشع اندحار في مواجهة تعاظم المقاومة الوطنية الشعبية المصرية الإسلامية المتحالفة مع العثمانيين الأتراك المسلمين، وقد شَيَّعَ المصريون الفرنسيين عند انسحابهم من مصر بهتافات منها: «سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة». و«الله ينصر السلطان، ويهلك فرط الرمان»...

من هذا العرض المقتبس في غالبيّته مما ورد في تاريخ الجبرتي عن الحملة الفرنسية على مصر، وعن الأحوال المصرية السياسية والاجتماعية والنضالية في الفترة ما بين صيف 1798 وأواخر 1801، وعن الظروف السياسية والدينية الموضوعية التي حرَّضت سليمان الحلبي على قتل الجنرال كليبر مشاركةً مجيدة منه لحركة المقاومة الشعبية المصرية الوطنية الإسلامية التي وهبها حياته دون أي تردد، ودون طمع منه في مغنم خاص بشخصه، تتأكد حقيقة أن سليمان الحلبي كان بطلاً حقيقياً، وفتى من شهداء الإسلام والعروبة والحرية، وأنه جدير بالتخليد اسماً وكفاحاً وبطولة، وأن أية محاولة قامت بعد مرور مئتي عام ونيف على استشهاده، لتجريده من مسوّغات التكريم والتخليد، وأية محاولة من هذا القبيل قد تقوم من بعد، ينبغي الرد عليها كما ينبغي أن يكون الرد الموضوعي الصرف، ومحاصرتها كما ينبغي أن تكون محاصرة الحق للباطل...

وما يُحزن القلبَ حقاً، أن تجيء محاولة تجريد اسم سليمان الحلبي من شرف البطولة والاستشهاد، في ذكرى استشهاده المئوية الثانية، من أرض مصر الغالية الحبيبة التي أحبها سليمان الحلبي حتى الموت، ووهبها حياته دون أي تردد تَلْفِظُه الجسارة، وتتناقض معه.

وإذا كانت أطراف سورية غير رسمية قد سعت خلال السنتين المنصرمتين لدى فرنسا معبّرة عن رغبتها بردّ الاعتبار إلى اسم سليمان الحلبي، وتطهيره من صفة (المجرم) اللصيقة بجمجمته في متحف (أنفاليد)، وبالموافقة على أن تسترد سورية رفاته من فرنسا لإعادة دفنها في مسقط رأسه (عفرين) أو في مدينة حلب، بصفته بطلاً من شهداء الكفاح من أجل

الحرية والاستقلال، فإن العدل وفضيلة الوفاء يقضيان بضم جهود مصر إلى الجهود السورية في هذا السبيل، وبخاصة أن مصر الغالية، ملتزمة بفضيلة الوفاء التاريخي في كل العصور... ومن حق روح سليمان الحلبي عليها، أن يكون له نصيب من هذا الوفاء المصري التاريخي الشهير، المُضادّ لكل ألوان الإجحاف والظلم والجُحود...

القاهرة ـــ الخميس 2001/2/1

(14)
الـوَطَـــنْ ...

ما هُوَ الوطن؟

ما هو هذا الكائنُ المعنوي المادي الثابت الصامت الذي قد تُغنّي له بصوتك الرخيم دون أن يسمعك، وتراه دون أن يراك، وقد تُضحّي بروحك دفاعاً عنه دون أن يترحّم عليك، ودون أن يكترث بك، فكأنما أنت قد وهبت حياتك لسواه؟

ما هو هذا الكائن المادي المعنوي الثابت الصامت الذي قد تختار أن تشقى في سبيل إسعاده فيسعد دون أن يُعزّيك في شقائك، وقد تختار أن تنفذ من حدوده الجغرافية إلى خارجه لتدافع عن شموخه وبقائه ووحدة كيانه الدستوري وأنت في شقاء مدارات الاغتراب، دون أن يكترث قط بانسلاخك عن أراضيه بهدف مقارعة عقوق بعض أبنائه غير البررة به، وأعدائه المضمرين سوء النية إزاءه، وهم المقتدرون؟

ما هو هذا الكائن المسمى بـ (الوطن) المفترض بل المفروض أن تحبه جداً وأن تخلص له حاضراً ومستقبلاً حتى ولو لم يكن مكترثاً بك، وأن تعشقه جداً حتى وإن أبغضك أو آذاك أو ظلمك، أو عض عليك يوماً بنواجذ الافتراء والتّجنّي، وأن تكون وفياً له ظالماً كان أو مظلوماً؟

هل الوطن حقاً هو فقط هذا الموقع المادي في جغرافية الأرض، ذو العَلَم الخافق المرفوع، و«النشيد الوطني» المنشود، الذي فيه كان مسقط رأسك لحظةَ انزلقت جنيناً من رحم أمك الوالدة، ثم حَبَوْتَ ثم ترعرعت ثم شببت فيه وأنت متحد به اتحاد عنصري الهيدروجين والأوكسجين اللذين باتحادهما يكون الماء الذي خلق الله منه كل شيء حيّ من نبات وحيوان وطير وأسماك وإنسان؟

هل الوطن حقاً هو فقط هذه الحقول والقرى والجبال والمدن والوهاد والنجود والتلول والتراث والنظام الغذائي المختلف، ولهجة لغة اللسان المحلية المتفردة المميزة، والعادات والتقاليد المتوارثة التاريخية، والحزن والفرح،

والخوف والقلق والأرق والاطمئنان والرعب والفزع والبهجة والرضى والتمرد والرفض، والأُلفة التي نشأتَ فيها فتعودتَ عليها تعوداً فرض عليك الولاء لها، والانتماء إليها، حتى وإن هي مَرَّغَتْ شموخ جبينك في الوحل اللزج الأسود، واتهمتْكَ ظنونُها بما ليس فيك، وأَسْفَلَتْكَ من عُلُوٍّ شاهق، وتعامَلَتْ معك على أنك دجاجة وأنت النسر أو العقاب ذو المنقار المعقوف والمخالب الجوارح الكامنة في غمدها؟

هل الوطن حقاً هو كل هذه وتلك وحسب، أم أنه أيضاً النظام السياسي الحاكم الذي يدير شؤون مواطنيه المحكومين، وهو الأصدقاء المحبّون بعدما أمْسَوا أعداءً كارهين، والأهل وذوو القُرْبى بعدما أضْحوا آبقين؟

هل ينبغي عليك حقّاً محاكاة موقف الشاعر السوري خير الدين الزركلي، من وطنه السوري، وهو في صحارى الاغتراب عنه في نجد والحجاز، حين قال:

لــو مثّلوا لي موطني وثناً   لهمَمْتُ أعبـدُ ذلــك الوطنــا

أم أن من حقك على وطنك، أن يتمعن هو بتعريف مفهوم (الوطن) كما حدده الشيخ محمد عبده، العلاّمة الإسلامي المصري بقوله:

- «الوطن هو المكان الذي تنتسب إليه، ويحْفَظُ حقك فيه، ويعلمُ حقه عليك، وتأمن فيه على نفسك ومالك، فيه من موجبات الحب والحرص ثلاثٌ تشبه أن تكون حدوداً، الأولى: إنه السكن الذي فيه الغذاء والوفاء والأهل والولد. والثانية: إنه مكان الحقوق والواجبات وهما حسبيّان ظاهران. والثالثة: إنه موضع النِّسبة التي تعلو بها الإنسان، ويعزُّ ويسفل»؟

وإذا ما أصابتك مصيبة مقذوفة قذفاً يوماً نحوك ممن هم السادة في وطنك، فهل يكون من حقك الدفاع عن ذاتك بانقلابك عليه، أم بأن تضمد جراحك النازفة بالصمت وبالمصابرة، وبأن تستغفر الله لمن ظلموك من سادة وطنك المعبود، بقولك في سرك المغمور بالحزن النبيل «اللهم اغفر لبني قومي، فإنهم لا يعلمون»؟.

كلُّ وطن في الأرض، أيَّ وطن، اثنان متحدان متكاملان: الوطن المادي الجغرافي الثابت الأصم الأبكم غير المتحول، غير المدرك، غير

المكترث بهوية وشمائل وأصول كل من أقام فوق أرضه؛ والوطن المعنوي المتحوّل المتطور كل يوم باضطراد، الزاخر بالصراع بين الأطراف المقيمة في جغرافيته الأرضية، حكّاماً ومحكومين، ظالمين ومظلومين، خيّرين وأشراراً، أوفياء وجاحدين، انتهازيين ومثاليين؛ أغبياء وأذكياء، موهوبين مبدعين، ومستهلكين مغمورين بروث الضحالة المخمَّر، مقتدرين وعجزة؛ صادقين وكاذبين، سارقين مختلسين وأمناء؟.. إلخ.

على هذا فإن الوطن ــ أي وطن ــ دائماً ما يكون وطناً مزدوجاً حتماً وطن جغرافية الأرض الثابتة الصمّاء البكماء الغارقة في جلال الصمت الأزلي السرمدي الآبد من ناحية؛ ووطن المجتمع المتحرك المتطور الزاخر بالصّراع الحيوي من ناحية أخرى، وإن على المواطن ــ أي مواطن في أي وطن ــ أن يدرك حتمية استمرارية هذه الازدواجية في الوطن الواحد، وديموميتها وخلودها؛ ألا ينسى استحالة الفصل بين الوطن الجغرافي، شق توءم الوطن المجتمعي الزاخر بأسباب ومسببات الصراع بين الظالم والمظلوم، والعاجز والمقتدر، والأمين والسارق، والكاذب والصادق، والحاكم والمحكوم، والصريح والكتوم، والواضح والغامض، والوفي والجحود، والمرتوي والظمآن، والجائع ومَنْ بطرت معدته وأمعاؤه بالتخمة بحدها الأقصى من شدة النهم، عن شقه الآخر. أما الوطن الجغرافي، فهو حق لكل هذه الفصائل التي غالباً ما تكون متناحرة متصارعة؛ تناحراً وتصارعاً يشتد سعيرهما المُضْرَم باضطراد إذا ما بقيت الحرية في حال اعتقال، وإذا ما ظلت الديمقراطية مَوءودة في لحدِ قبرٍ عميق في (مكانٍ ما مجهول) من أرض الوطن ــ أي وطن ــ. ويبقى من حق أي مظلوم ــ فئة أو جماعة أو فرداً ــ في أي وطن، البحث والتنقيب عن هذا اللحد الموءودة فيه هذه الحسناءُ الصبية المسماة بالديمقراطية، حتى لا تزر وازرة وزر أخرى، وحتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود في هذا العالم العربي الذي يأكل بعضُه بعضاً ويعجُّ عَجْعَجةً بأسباب ومسببات الإيلام والأحزان، ويكاد بعضُ مجتمعاته أن ينفصل عن جغرافيته انفصالاً هو إلى (الانفصال الشبكي) في العين البصيرة أقرب..

القاهرة ــ الأربعاء 2002/4/24

ملحق صور الفصل 5

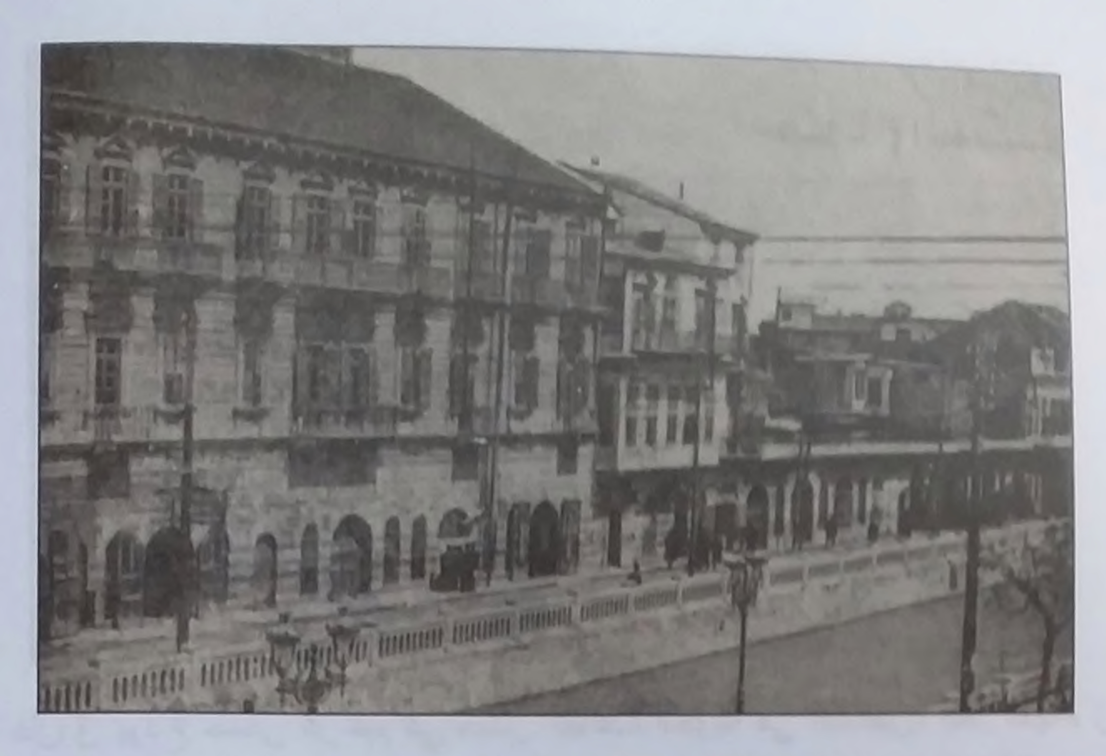




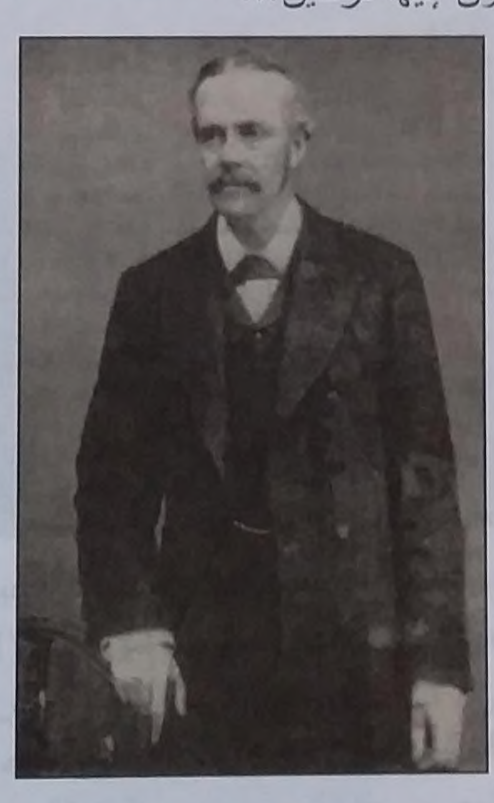
الملك فاروق يودع حسني الزعيم في مطار القاعدة الجوية في أنشاص، بعد انتهاء زيارة الزعيم للقاهرة التي دامت فقط أربع ساعات من يوم 1949/4/22 وتبدو طائرة حسني الزعيم الرئاسية السورية، و(الرفرف) الأمامي الأيمن من سيارة الملك فاروق التي قادها بنفسه بعد انتهاء الاجتماع ومعه حسني الزعيم؛ لتوديعه في المطار.
ويبدو كريم ثابت المستشار الصحفي للديوان الملكي المصري (بالطربوش) في أقصى يسار الصورة، ونذير فنصة مستشار حسني الزعيم الخاص (عديله) بالطربوش وإلى جانب حسني الزعيم، وفي أقصى يمين الصورة حسن باشا يوسف رئيس الديوان الملكي (بالطربوش).



في اليوم الأول لوصول أديب الشيشكلي إلى مطار ألماظة الحربي الساعة الحادية عشرة من صباح الخميس 1952/12/11 قام – بعد ظهر اليوم نفسه – بزيارة الرئيس اللواء أركان حرب محمد نجيب رئيس مجلس قيادة مجلس الثورة في مقر قيادة الجيش.
من اليمين: حسن بغدادي، جمال سالم، زكريا محي الدين، كمال الدين حسين، محمد نجي، عبد اللطيف البغدادي، أديب الشيشكلي، حسين الشافعي، جمال عبد الناصر، خالد محي الدين، وفي أقصى يسار الصورة جمال حماد.
(من كتاب «لعنة الانقلابات في سورية» للضابط السوري العسكري السابق حسين الحكيم)



مبنى فندق ڤيكتوريا على ضفة نهر بردى الشمالية، الذي فيه نَزلَ اللورد (بلفور) يومْ زيارته دمشق ربيع 1925، وكان يقع في مواجهة (السراي ـ دار الحكومة) التي اتخذَتْ من بعد مقراً لوزارة الداخلية حتى اليوم، وكان (جسر ڤيكتوريا) المؤدي جنوباً إلى (محطة الحجاز للقطار)، قائماً فوق عرض نهر بردى من جهته الغربية... وفي هذا الموضع من دمشق، شاهدت إذْ أنا طفل صغير في السادسة، خريف العام 1940، مياه نهر بردى وقد فاضت عن سريرها وعن السور المحيط به طولاً من جانبيه، وألقت الأسماك بأحجامها الضخام من نوع (البوري)، فتكدست متقافزة، تملأ أرض (ساحة المرجة) من الجهة الشرقية، والدمشقيون يتسابقون إليها فرحين...



اللورد جيمس بلفور

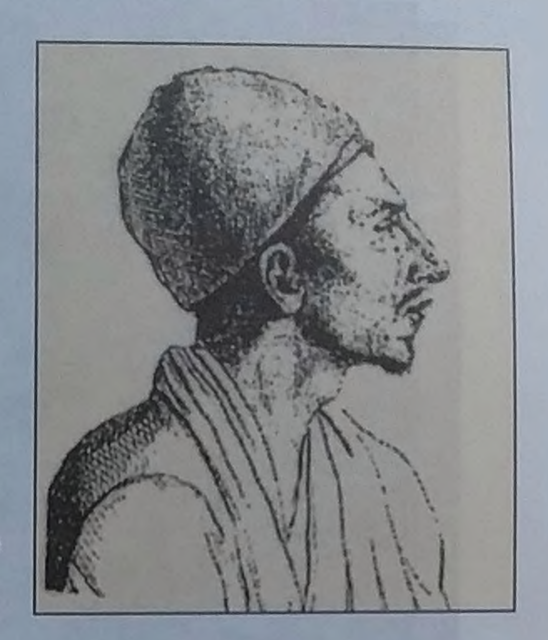


عقب قيام (الثورة السورية) بقيادة سلطان باشا الأطرش في جبل العرب في الجنوب السوري، في آب أغسطس 1925، ضد الاحتلال العسكري الفرنسي، دعا الملك فؤاد الأول، ملك مصر، وسعد زغلول رئيس وزرائها عامئذ، إلى عقد مؤتمر شعبي في (تياترو الأزبكية) لنصرة الثورة السورية، وجمع التبرعات لصالحها، وفي ذلك المؤتمر ألقى أحمد شوقي قصيدته الشهيرة: (سلام من صبا بردى أرقٌ) التي لحنها وغناها محمد عبد الوهاب عندما قُصفَتْ دمشق في العام 1945، بقنابل المدفعية الفرنسية والطائرات القاذفة.

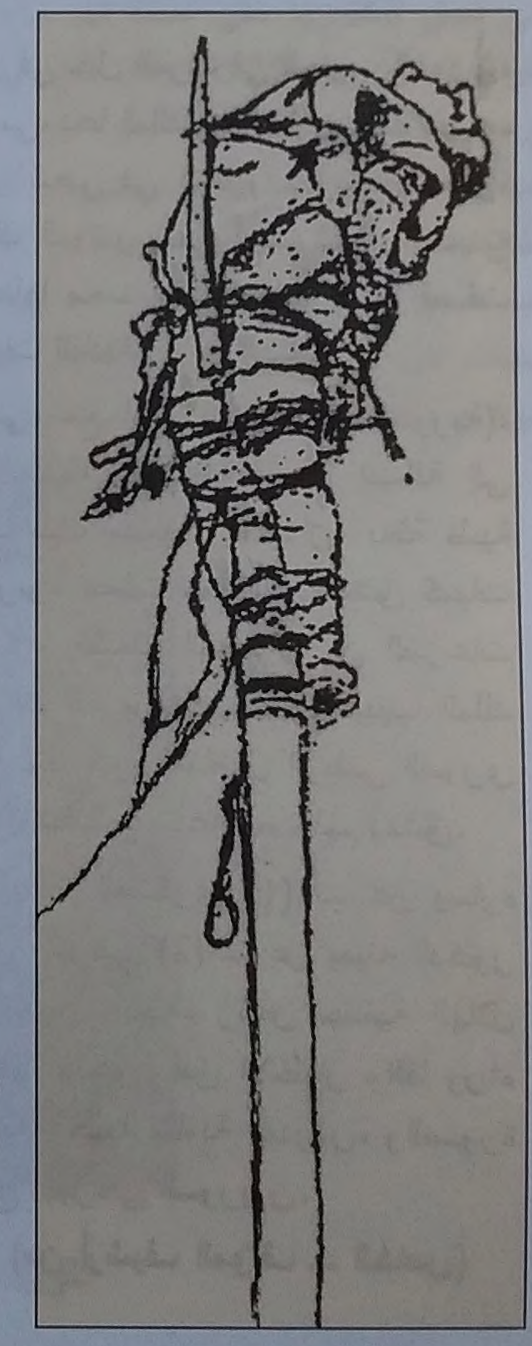
وبعد تكاثر عدد الشهداء السوريين والجرحى، مع استمرار (الثورة السورية)، وتوسعها توسعاً شمل محافظة اللاذقية، ومحافظة حلب، ومحافظة حماه، إضافة إلى محافظتي جبل العرب، ودمشق، أرسل الملك فؤاد مليك مصر والسودان، بعثة طبية مصرية لعلاج الجرحى من المقاتلين السوريين الثائرين، حملت معها إلى دمشق كميات ضخمة من الأدوية والأدوات الطبية، وما جاد به كرم الشعب المصري من التبرعات المالية والعينية. وكانت تلك البعثة برئاسة الدكتور عبد العزيز بك محمود طبيب الملك الخاص، رئيس بعثة الهلال الأحمر الملكية المصرية. وقد كان المناضل الوطني السوري فخري البارودي، في مقدمة الوفد السوري الذي كلف باستقبالهم ساعة وصولهم دمشق.

في الصورة: في الوسط فخري البارودي بلباسه العسكري (1) ــ عن يساره الطبيب المصري رئيس أطباء البعثة المصرية الدكتور غريني (2) ــ عن يمينه الدكتور عبد العزيز بك محمود طبيب الملك فؤاد الأول، رئيس البعثة، رئيس جمعية الهلال الأحمر الملكية (3) ــ في كانون الأول نوفمبر 1925. ويبدو رفيق الاختيار واقفاً وراء الدكتور عبد العزيز محمود، والسيدة المناضلة السورية الحلبية سامية المدرّس، والصورة التقطت في أحد المستشفيات في دمشق حيث كان يعالج الجرحى السوريون.

(من أرشيف المؤلف ــ الخاص)

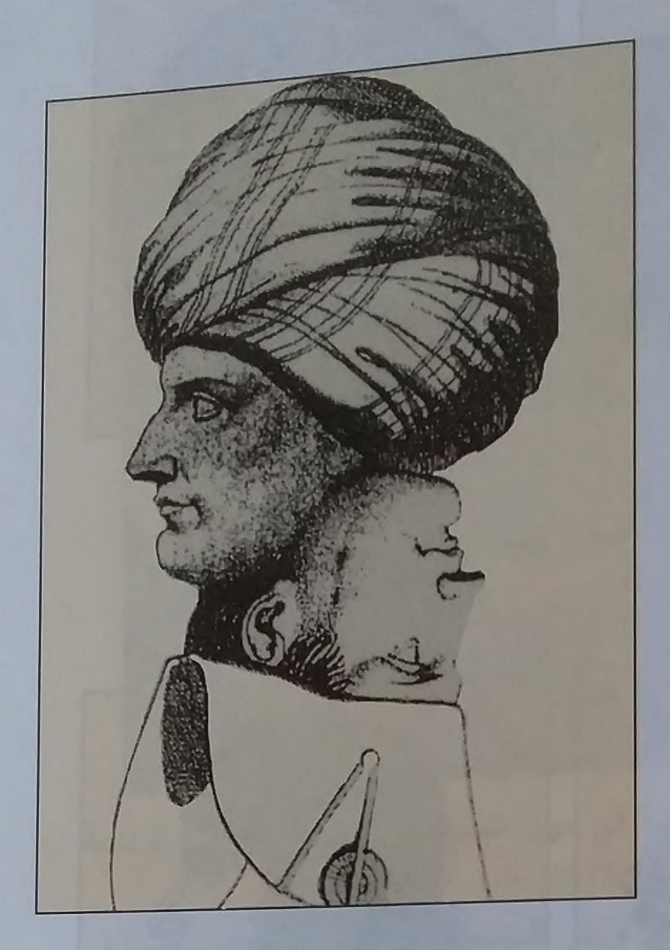


سليمان الحلبي بعد التحقيـق معـه وحـرْق يـده اليمنى.. **(الرسم من وثائق الحملة الفرنسية)**

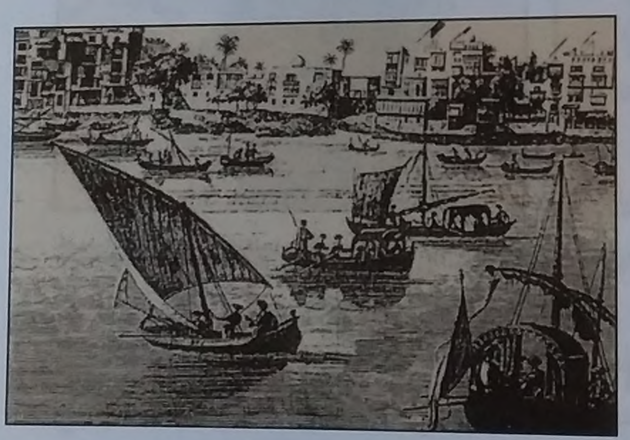


سليمان الحلبي مرفوعاً على الخازوق فوق (تل العقارب) حيث نهشته الطيور الجوارح وافترست لحمه الوحوش الضواري..

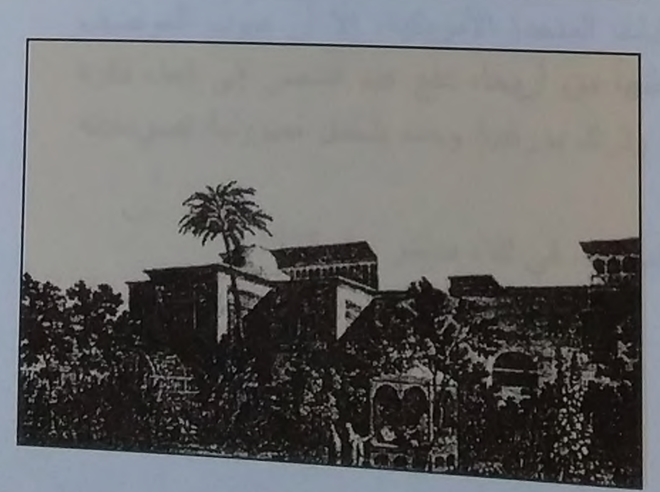
(الرسم من وثائق الحملة الفرنسية)



نابليون بونابرت في مصر..
(رسم من وثائق الحملة الفرنسية)



بركة الأزبكية التي أقام قادة الحملة الفرنسية في قصور شواطئها، وهي اليوم (حديقة الأزبكية)..
(من رسوم وثائق الحملة الفرنسية)



حديقة وقصر محمد الألفي بك (من قادة المماليك) الذي اغتصبه بونابرت وجعله مقراً لإقامته، ثم سكنه خليفته الجنرال كليبر، وفي هذه الحديقة تمكن سليمان الحلبي من قتل الجنرال كليبر..
(من رسوم وثائق الحملة الفرنسية)

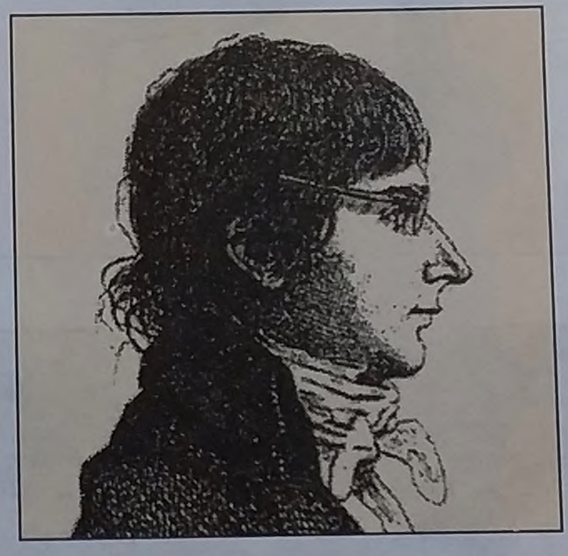


الجنرال كليبر..



جاك مينو..

(من وثائق رسوم الحملة الفرنسية)



قسطنطين بروتاين..

(كبير المهندسين الفرنسيين)



صاري عسكر داماس..

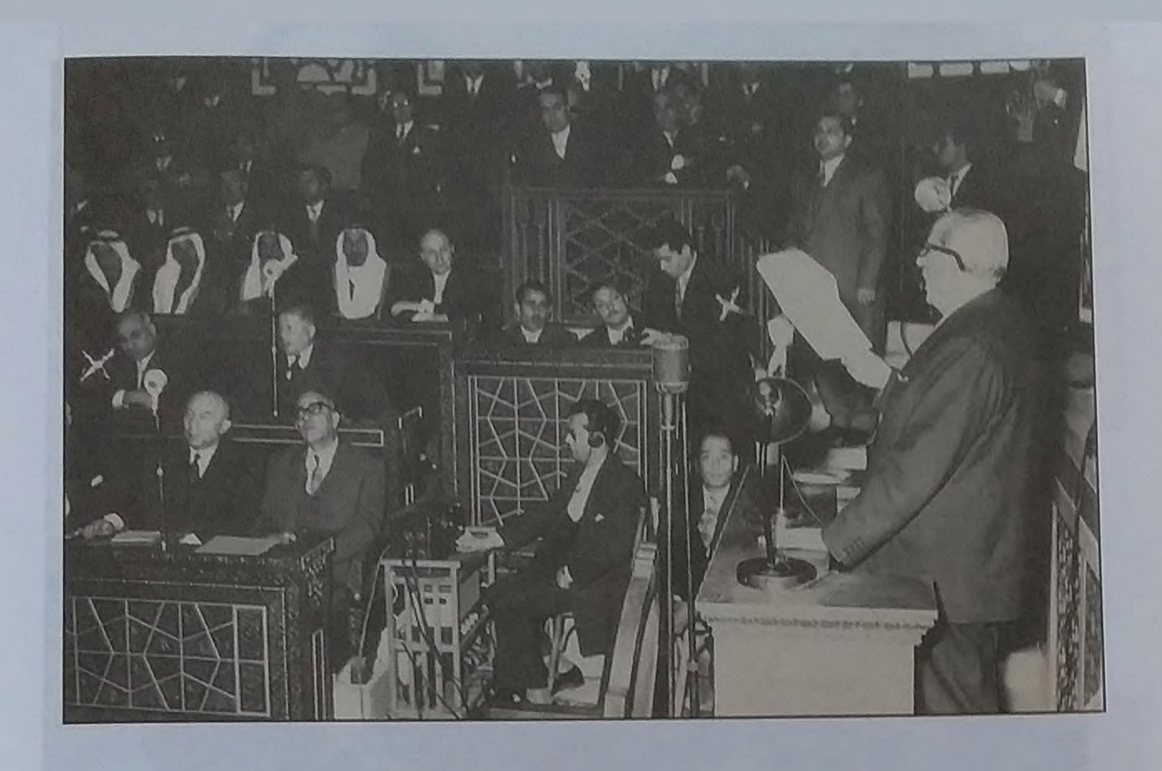
(من وثائق رسوم الحملة الفرنسية)



الرئيس التونسي السابق الحبيب بورقيبة في حوار ضاحك مع المؤلف في قصر الرئاسة في قرطاج في العاصمة التونسية يوم 1975/1/1.

- كان للمؤلف علاقة شخصية به منذ أواخر الخمسينيات حين كان بورقيبة مقيماً في مصر، يتردد بكثرة على سورية ولبنان.
- كان المؤلف في منتصف الستينيات قد شنَّ حملة ضارية ضد بورقيبة من إذاعة بغداد في عهد عبد السلام عارف، بعد أن قام بزيارة أريحا، ومنها دعا العرب إلى القبول بقرار تقسيم فلسطين الذي رفضوه عام 1947.
- في ذلك اليوم الأول من شهر يناير/ كانون الثاني من عام 1975 أكد بورقيبة للمؤلف، في حوار بينهما مطول، أن جمال عبد الناصر هو الذي أوحى إليه بأن يدعو العرب إلى القبول بقرار تقسيم فلسطين خلال زيارة بورقيبة لأريحا، كمحاولة لجس نبض الشارع العربي باعتبار أن عبد الناصر كان في تلك الفترة يفكر بالتفاوض مع إسرائيل عبر طرف ثالث هو الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن هبوب العواصف عاتية ضد بورقيبة ودعوته التي أعلنها من أريحا، دفع عبد الناصر إلى إلغاء فكرة التفاوض غير المباشر مع إسرائيل؛ وترك بورقيبة وحده يتحمل مسؤولية تصريحاته التي أطلقها من أريحا.
- هذا ما صارح به، الحبيب بورقيبة المؤلف، في لقاء مباشر عام 1975.

(تصوير: وكالة تاب ـ تونس).



المرحوم شكري القوتلي رئيس الجمهورية العربية السورية الأسبق

- يعرض على المجلس النيابي السوري صيغة مشروع إقامة دولة الوحدة ين مصر وسورية، يوم الأربعاء 1958/2/5.
- في الصورة يبدو المؤلف واقفاً مشاراً إليه بعلامة X وأمامه مندوب إذاعة صوت العرب المذيع والمعلق السياسي المرحوم سعد زغلول نصار الذي أصبح بعد خمسة وعشرين عاماً تقريباً من تاريخ التقاط هذه الصورة مستشاراً إعلامياً للرئيس أنور السادات في مصر، وكان إلى جانبه يوم ألقى السادات خطابه الشهير في الكنيست الإسرائيلي.
- وفي الصورة شخصيات سياسية سورية كثيرة منها مأمون الكزبري رئيس حكومة الانفصال الأولى مشاراً إليه بعلامة × يسار الصورة، والدكتور فاخر الكيالي وزير الاقتصاد الأسبق، وأسعد هارون رحمه الله، وآخرون.

تصوير: جورج درزي



عبد الهادي البكار يتوسط زميليه في سجن القلعة في دمشق، عن يساره موفق دياب الذي اغتيل في لبنان في العام 1965 برصاص عميل للمخابرات السورية في عهد أمين الحافظ، وعن يمينه المرحوم نواف أبو مغضب، وقد التقطت هذه الصورة أمام باب مكتب مدير السجن ضحى يوم 1963/8/2.

(عدسة: جمعية رعاية المسجونين وأُسَرِهِمْ)

الفصـــل السادس 6

- الخروج من الرقعة الوطنية إلى رحاب القومية الأشمل. ثم الارتداد من رحاب القومية الأشمل، ثم الارتداد من رحاب القومية الأشمل إلى الرقعة الوطنية الأصغر. لماذا؟
- موت مناضل عربي سوري وحدوي بالسكتة القلبية، فوق أحد كباري النيل في القاهرة، وكيف تكرَّم بعض العابرين بوضع ورق الجرائد فوق وجهه قبل أن يوارى التراب في جنازة لم يشارك بها غير زوجه وأطفاله، في المنفى.
- أنت خارج وطنك، غريب، منبوذ، غير مقبول ولا محبوب ولا محترم.
- (الأخوّة العربية) بين الوهم، وحقائق الوقائع.
- أبناء العروبة هل هجروا أمهم المسماة بـ (القومية)؟ ولماذا؟
- الصراع بين دعاة (الدولة المدنية) ودعاة (الدولة الدينية) يتعاظم، وقد ينتهي إلى (بلقنة) ما تبقى من آثار الوجود العربي برمّته..
- إحياء النعرات الدينية الطائفية، والنعرات العنصرية، هو السم الناقع الذي تتجرعه منذ حين (كليوباترا العربية)..
- موت العربي القومي سِركيس بالاجيان (الأرمني) ونفُوقَ كلبه (سوسكي)..

لعلّي لا أجد صعوبةً بتسجيل اعترافي بأنني قد عانيت من صراع ذاتي شديد جداً طيلة السنوات الأخيرة التي وجدتني خلالها مجبراً على الارتداد بمشاعر انتمائي من (عروبتي) إلى (سوريّتي)، أي من (قوميتي العربية) إلى (وطنيتي السورية)؛ ولعل الذي سهّل لي أمر هذا الارتداد، سببين كلاهما مرٌّ مرارة العلقم والحنظل، وهي مسألة أوضحتها بسطور سابقة:

1 ـ حصيلة تجاربي وممارساتي الحية الميدانية مع الشعوب العربية في القارتين الآسيوية والأفريقية خلال الأعوام الأربعين الماضية التي أمضيتها خارج حدود وطني السوري متنقلاً بين ظهرانيها، وهي الحصيلة الفاجعة غير المشجعة على الاستمرار في الطريق نفسه...

2 ـ اقتناعي بعد سلسلة التجارب والممارسات الحية هذه مع شعوب عربية طيلة الأربعين عاماً هذه، بأن من حقي أن (أرفض) بدوري عالم العرب والعروبة ما دام قد (رفض) هو عملياً وتشريعياً تقنين انتمائي إليه، والاعتراف بي (مواطناً) فيه؛ ولم يعطني حق الإقامة المؤقتة فوق أرضه إلا بصفتي (وافداً) أو (أجنبياً) أو بصفتي (عابر سبيل) لابد أن يرحل، أو بصفتي (مواطناً غير محلي) في أحسن الأحوال [1].

إنني أنتمي إلى جيل عربي عاش نهايات مرحلة الاستعمار الأجنبي، وكانت له إسهاماته النضالية في (استقبال) وليس (تحقيق) عهد الاستقلال؛ وكانت له في الوقت نفسه تطلعاته وأحلامه الوردية في تحقيق الوحدة العربية وقيام الدولة العربية الواحدة، ثم إنه كان هو المسؤول بشكل أو بآخر عن المشاركة في وأد شعار القومية العربية، وإطفاء جذوة شعلة الأمل بإمكان تحقيق الوحدة العربية، وإحلال المصالح القطرية في الصدارة في سلم الأولويات، مكان المصالح القومية العربية الأشمل.

لقد عاش جيلنا مرحلة ولادة الأمل القومي العربي الوحدوي، ثم مرحلة ازدهاره واقترابه من التجسيد الدائم، ثم مرحلة اعتلاله ووهنه وهو في ريعان شبابه، ثم المرحلة التي حفرت فيه كثير من الفؤوس والمعاول الأجنبية والعربية أيضا الكثير الكثير من القبور لتحويل المهود إلى لحود زجوا فيها شعار القومية العربية والأمل المزدهر بإقامة الدولة العربية الواحدة، زجّاً، وأهالوا فوقهما التراب غالبا بأيدٍ عربية.

كل هذا فعله جيلنا نحن، أو شارك به من موقع أو آخر، لسبب شخصي أو عام، أو آخر.

وإذا كان كثيرون ممن امتطوا صهوة حصان الشعارات القومية العربية الوحدوية قد وصلوا وهم على صهوة هذا الحصان إلى مؤسسات السلطة في أكثر من دولة عربية؛ فلما (تبخَّر) الشعار العربي القومي الوحدوي من فوق الأرض العربية كما يتبخر ماء البحر عند خط الاستواء، لم يصبهم أي نوع من أنواع الأذى كأفراد، بل تحولت المرحلة الجديدة لصالح مصالحهم المادية والمعنوية كأشخاص؛ فإن الذين لم تتح لهم فُرصُ المشاركة بالمكاسب السلطوية في مرحلة (النضال القومي) الشعبي التحرري، والذين لم تكن المكاسب الشخصية هي في الأصل هدفهم من ممارسة النضال، والذين كانوا ضحَّوا في المرحلة السابقة لاستشهاد أو اغتيال شعار القومية العربية ذي المضمون الوحدوي، بالخروج من أوطانهم الصغيرة، وتمكنوا بنجاح من التخلص من شعور انتمائهم الحاد لمجتمعهم الوطني الصغير في سبيل إنعاش أو بناء أو إنشاء شعورهم بالانتماء الجاد إلى مجتمعهم القومي العربي الأكبر؛ إنّ هؤلاء جميعاً (ماتوا) وهم أحياء، و(تعفنوا) وهم يمارسون السير على الأقدام، و(اختنقوا) وهم يتعاطون الشهيق والزفير، وتاهوا وضاعوا في جحيم المرحلة الجديدة الوليدة، ولم يعودوا قادرين على تحديد الجهات الأربع من حولهم؛ ولا إلى أي مكان عليهم أن يتوجهوا بخطاهم التالية، ولا إذا ما كانت (العودة) إلى أوطانهم الصغيرة مرة أخرى غير محفوفة بممارسة عملية للمبادئ القومية العربية التي بسببها في الأصل كان الخروج أو الإخراج من الأوطان.

كانت أوطان هؤلاء، القطرية ربما ما تزال تنظر إليهم نظرتها إلى عملاء خانوا أوطانهم الصغيرة... وكأن العالم العربي ينظر إليهم وما يزال، بعيون الرفض وعدم الاطمئنان إليهم، بل بعيون الرفض والتشكيك والكره والاحتقار السري في بعض الأحيان. وقد كان من الطبيعي أن يتساقط هؤلاء الشهداء الأحياء واحداً بعد آخر، إما بسبب الفقر المدقع والجوع، وإما بسبب الاضطراب الوجداني والنفسي أو العقلي أحياناً، وإما بالسكتة القلبية المفاجئة كما حدث لمرافق الرئيس السوري الأسبق (شكري القوتلي) الضابط السوري العقيد مأمون تحسين الذي سقط فجأة فوق أحد الجسور المقامة للعبور فوق النيل في القاهرة، بالسكتة القلبية، أواخر الثمانينيات، فإذا ببعض الكرماء من رحماء القلوب يغطونه بعدد من أوراق الصحف اليومية، لأن أحداً لم يكن يعرف يومئذ من هو هذا الغريب الأشقر ذو العينين الزرقاوين، المتوفى فوق أرض مصرية، بسبب الهموم والجوع والإحباط والأحزان واليأس، لكنه كان يبدو من ملامح وجهه أنه (غريب) أي (أجنبي) ليس من أهل البلاد التي مات وحيداً فوق أرضها. وحين حمل بعض الناس جثمانه في اليوم التالي ليواريه التُراب، لم يرافق جثمانه إلى قبره سوى ستة أشخاص. ومضى الرفيق الطيب مأمون تحسين المناضل العربي السوري الذي (غادر) وطنه السوري في سبيل (العروبة)؛ مثلما مضت القومية العربية معه ومن قبل موته إلى قبرها، دون أن يبكي عليه وعليها أحد، غيرنا نحن الملتاعين بهول ما اكتشفناه ونحن خارج حدود الوطن السوري الصغير.

كان مرعباً بالنسبة إليّ أن أحدّق بإمعان شديد في حادث الموت (الفاجع) هذا الذي انتهى إليه الصديق مأمون تحسين، وأن أرفض مسبقاً أن يتوقف قلبي السوري النابض عن نبضه فوق أحد الجسور القاهرية، أو في أي شارع أو زقاق عربي من هذه الشوارع والأزقة التي اكتشفنا طيلة الأعوام الأربعين الماضية أنها ليست سوى شوارع وأزقة قائمة في السجن الذي خرجنا من وطننا السوري لنعيش فيه خارج حدوده، عيشة نضالية عبثية، ما كان أقساها وأشد آلامها غير المسموعة غير المرئية.

وحين تصبح نقطة الموت هي نقطة الفرار، وهي مفترق الطرق، ونهاية طريق في آن، يكون من حقك أن تختار؛ ولقد اخترت يومئذ، ولم يكن خياري لصالح اللعبة العربية (العبثية) القومية. اكتشفت فجأة أن جسدي ما يزال خارج وطني السوري، لكنَّ قلبي وعقلي ونفسي ووجداني، كلها ارتحلت إليه مخترقة كل محظور، وكل أنواع الحدود والأخطار، وكل ما من شأنه أن يمنع هذه العودة، أو يقلل من شأنها أو قيمتها، أو يحول بينها وبين أن تكون.

ولقد ظللت لفترة طويلة سابقة خلال السنوات القليلة الماضية، أفكر على النحو التالي: إن أكن بتجربتي الغنية لم أحقق أية فائدة للأمة العربية ولا لقضية الوحدة العربية ولا للقومية العربية التي كنت كرست لها حياتي منذ العام 1954.. وإذا كان تأكَّد لي أن الأمة العربية في أقطارها خارج الحدود السورية لا توافق على أن أكون من مواطنيها ولا من رعاياها، وهي إذاً لا تحتاج قط إلى نضالي ولا إلى خدماتي، فلماذا إذاً قد حرمت وطني السوري من مشاركتي بالنضال في سبيل قضاياه الوطنية هو أولاً، ومن خدماتي كمواطن أحبه إلى حد الهيام؟ بل لماذا حرمت نفسي إذاً من وطني الواعد؟ وفي سبيل من، كانت التضحية ما دمت طيلة الأربعين عاماً الماضية لم أفد وطني السوري، ولا الوطن العربي الأكبر بشيء يذكر أيضاً، وهل من المنطقي أن يكون الله قد خلقني وزوّدني بعديد من القدرات والمواهب، لابدِّ هذه الطاقات والخدمات عبثاً في سبيل اللاشيء أبداً؟!

في هذا المناخ من الصراع الذاتي الشخصي ــ العام، اتخذت قراري بأن أجعل هوية الوطن تكون عندي هكذا:

(الأرض + الشعب+ النظام + القائد). كان هذا يعني أن تصبح السياسات السورية هي سياستي، والقرار السوري هو قراري، والممارسات السورية هي الممارسات التي أبحث جاهداً عن المبررات التي ستمكنّني لا من مناصرتها فقط، بل ومن الدفاع عنها أيضاً حتى الموت.

كان من الطبيعي أن أفرز الكثير من أوراق السياسة السورية الداخلية عن أوراق السياسة الخارجية، خاصة وأنه ليس ثمة من نظام عربي صفحات

سياسته الداخلية جميعها، ناصعة البياض. (كان يعنيني وما يزال توجهات السياسة السورية الخارجية؛ وضمن إطار الظروف المشروحة بسطور سابقة فقد كنت لا أرى أن لأية جهة الحق في تكريس صلتها العضوية بالمسألتين الفلسطينية واللبنانية بالمقدار الذي يعطي سورية بصفة خاصة هذا الحق.

كانت هذه هي البداية التي قادتني من حيث أريد أو لا أريد إلى بداية الطريق المفضية في النهاية من العالم العربي إلى العالم السوري، أي من العالم الأرحب إلى العالم الأقل رحابة، رغم أن عمري كله قبل اليوم كان قد نزف سنواته وهو يغذ السير في الطريق من دمشق إلى العالم العربي الأرحب خارج الحدود السورية. كان من الطبيعي أن أعود إلى تراث الحزب السوري القومي المطبوع، وإلى أفكار وطروحات أنطون سعادة، وأن أقاوم تورط وجداني بالعروبة، بمزيد من الإقدام بإلحاح وبكل الصدق والحزن على إحياء شعوري الذاتي بانتمائي أولاً وأخيراً لأمتي السورية، أو فلأقلها مخفّفة هكذا: لشعبي السوري.

كنت بدأت أرفض أن أستمر (بحبيّ) هؤلاء الذين اكتشفت أنهم يرفضونني ويكرهونني لمجرد أنني مولود فوق أرضٍ غير أرضهم؛ وكنت غير مقتنع بجدوى الخضوع لأساطين الاستعلاء والكره والاستكبار من هؤلاء العرب الآخرين؛ بل إنني قد وصلت إلى حد أنني وقعت معه في حالة يأس عميق منهم، ومن كل ما من شأنه أن يورطني مرة أخرى بالتضحية العبثية في سبيل أمة ترفض تشريعياً انتمائي إليها، وترفض مواطنتي الشرعية الدائمة فوق جزء من أرضها، وترفض اعتباري أنني ابن من أبنائها..

لكنَّ انكبابي الجاد على المطالعة الدؤوب، يوماً بعد آخر، في بطون التاريخ المدّون عن منطقة الشرق الأدنى بصورة عامة؟؛ بدأ يثير في داخلي صراعاً ذاتياً ــ عقلياً هذه المرة ــ لم أكن أتوقع وقوعه.. كذلك فإن متابعتي الجادة اليومية خلال السنوات العشرين الماضية معطيات ومتغيرات الأوضاع الدولية، بخاصة وما جرى في الاتحاد السوفييتي على يدي غورباتشوف مما كانت له انعكاساته العاجلة في الكتلة الشرقية، وما نتج عن ذلك من محاولات

الولايات المتحدة الأمريكية السيطرة التامة على منطقة الشرق الأوسط ومنطقة حوض البحر المتوسط بصفة أخص، كذلك متابعتي اليومية الدقيقة للتطورات التي حدثت داخل حدود الساحات الفلسطينية، الجغرافية والدبلوماسية التفاوضية السياسية، وللتطورات التي انتهت إليها القضية اللبنانية... كل هذا جعلني أكثر اقتداراً على ضبط النفس وعلى التحكم بالعواطف الذاتية، وعلى الخلود إلى التفكير الأعمق، والتأمل، بهدوء أكثر، ثم وجدتني بعد ذلك كله أنتهي إلى ما رأيت فائدة بإعلام الرأي العام الشعبي العربي به، وهو اقتناعي العميق، مرة أخرى، بأنه قد لا يكون من طريق أفضل أمام الأمة العربية بكل أقاليمها وبكل مجتمعاتها وبكل شعوبها وبكل دولها أفضل من الطريق التي أخرجونا منها خياراً بعد إجبار قسري منذ أن دب اليأس في القلوب من إمكان تحقيق الوحدة العربية، وقد كان لهذا اليأس فيما أرى إطار أخذ شكل أول مؤتمر للقمة العربية دعا إليه جمال عبد الناصر في يناير/ كانون الثاني من العام 1964، وقد انعقد في القاهرة.

منذ ذلك العام بدأت مصر بالانكفاء على ذاتها شيئاً فشيئاً وبخاصة في السنوات الأخيرة للعهد الناصري منذ نكبة العام 1967. دارت عجلات النظام القطري العربي، يوماً بعد آخر، بعيداً عن الهموم العربية القومية، وانعقدت أو تبلورت الشخصية القطرية الإقليمية، وبدأت تتحرك من منطلقات انفصالية خفية، وهكذا تمزَّق نسيج الأمل العربي القومي شظايا، ثم تبدَّد في الزمان والمكان كما يتبدَّد شرر النار المستعرة بانطفاء جذوتها، وكأنه ما أضاء الزمان والمكان يوماً.

كان من الطبيعي، بعد أن أصبحت الحال القومية العربية هي مجموعة أحوال قطرية مبعثرة، أن يبحث كل جزء عن جذوره، عن هويته التاريخية للاستقواء المستجد بها؛ وأن يوظف هذه الهوية التاريخية لتحقيق مكاسب قطرية غير قومية.

ومن هنا فيما أرى، طفت فوق السطح الصراعات الدينية، والمذهبية الدينية، والصراعات الآيديولوجية، والصراعات الفئوية ضمن إطار القطر

الواحد، وبحيث أصبح الجزء المنشق عن الأمة الواحدة الموحدة في نظر الطموح العربي القومي، منقسما بدوره عدة أجزاء. هذا يعني أن الجسد العربي الممدد على رُخامة المشرحة من المحيط إلى الخليج، خضع لعملية تشريح بمباضع أجنبية تستخدمها أحياناً أيد أجنبية تتستر أكفها بأكف عربية، فصلت الأذن عن الوجه، واليد عن الكتف، والرجل عن عظم الحرقف، وفقرات العمود الفقري بعضها عن بعض. تحوّل الجسد العربي الموحد الواحد، إلى أعضاء مفكّكة ثم إلى أجزاء مبعثرة. لكنّ عملية التشريح ظلت عدة سنوات وما تزال مستمرة دون أن يتخرج عربي واحد من مدرسة التشريح هذه بجدارةٍ علمية تعطيه حق احتراف المعالجة والتطبيب. وإذا كان علم التشريح يهدف في الأساس إلى منح الدارسين الفرصة للاطلاع والتحول بعد الحصول على المعرفة التطبيبية والتشريحية إلى ممارسة علم التشريح والطب والتطبيب، لتحويل المرضى إلى أصحاء، والضعفاء إلى أقوياء، فإن الذين مارسوا تشريح الجسد العربي الممدّد واهناً عليلاً فوق الأرض العليلة الممتدة من الخليج إلى المحيط، من الأبناء المولودين أساساً من صلب هذا الجسد العليل نفسه؛ غاب عنهم أنهم إنما أنيطت بهم مهمة التشريح إلى حين، حتى يتمكنوا من أن (يعرفوا) فسيتخدموا معرفتهم في علاج الأحياء العرب من أمراضهم الطارئة أو المستحكمة أن تُزْمن، واستطابوا على ما يبدو اليوم حرفة تقطيع الأوصال، بجدع الأنوف، وشرم الشفاه، وبقر البطون، وسمل العيون.. إلخ.. وهكذا بقيت عملية تمزيق الجسد العربي إلى أجزاء، مستمرة، باسم التشريح العربي الذي ليس هو بفن وليس هو بعلم عربي.

وفي عصر التبعثر العربي هذا الأكبر، راح كل قوي عربي يحاول أكل لحم أخيه الضعيف العربي، نيئاً، أحياناً، وأحياناً مشوياً بنار المدافع والرشاشات والإذلال الاقتصادي.

ووقف كل مواطن عربي غير منتفع بمرحلة التبعثر العربي يتفرج على كل ما يجري من فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن يساره، دون أن يكون قادراً على فهم أسباب ومسببات ما يدور وما يحدث، ودون أن يكون

قادراً على التفاعل الانفعالي بالأحداث هذه المخيفة. لم يكن أمامه من حل سوى أن يشق طريقه عبر وجدانه. نحو الغيبيات مرة أخرى، ونحو القرآن الكريم أو الإنجيل، ونحو النبي محمد (ﷺ)، أو عيسى (عليه السلام)، أو علي كرم الله وجهه، أو بطرس الرسول.. أو مار مارون أو مار جرجس... إلخ...

لكنَّ فئة من المثقفين العرب شقت طريقها لا نحو الماضي الديني الغيبي عائدة إليه تلتمس منه الأمل والشجاعة والصبر، بل نحو بطون التاريخ؛ وكان كل من هؤلاء يبحث عن جذوره الدينية أو القومية، ربما العرقية، ليتشبث بها، وليحاول من خلالها أن يكون من غير الميتين بالقتل أو الاستسلام المحتملين.

ومن هنا تعددت مسوّغات المدارس الانفصالية العربية، وتعددت هوياتها الأيديولوجية، لكنها جميعاً كانت تبحث عن فرص توفير مناخ جديد، وإن يكن مستمداً من أخبار سحاب الغيوب ومطاويها، أو مما تبقى من أخبار وآثار الجدود الذين كانت لهم يوماً أمجاد، ودول وسلطان، وهيبة في الدنيا ذات جلال عظيم.

كنت بدوري واحداً من هؤلاء الذين غاصوا في باطن الأرض، في بطون التاريخ، يبحثون عن تاريخ فينيقيا المجيد. لماذا؟ لأنني خارج وطني السوري كما ذكرت في أكثر من موضع من هذه الفصول، ما سكنت جوانحي يوماً مشاعر الأمان والاطمئنان؛ وما شعرت يوماً إلا بأنني في عالم العرب والعروبة، مطارد مكروه مرفوض، لا ليوم أو اثنين، أو ثلاثة من الأيام أو السنين، بل لمدة أربعين من الأعوام المستمرة .

كان الهدف من ذلك كله، كما أرادته الدول العظمى الأجنبية وإسرائيل، هو أن تنفضَ الشعوب العربية عن أمِّها الرؤوم وحضنها الحاضن (العروبة) أي القومية العربية؛ وحين لا تكون القومية العربية فإن الوحدة العربية لن تقوم. ولقد حاولوا هم أن (يورطونا) بهجر أمنا الرؤوم (العروبة)، ثم اكتشفنا أننا لسنا في حاجة إلى من يدفعنا في الطريق نحو التوريط والتورط هذا، لأننا قادرون على ممارسة هذا الإثم في حق أنفسنا ومصير أجيالنا العربية

التالية، دون أن يدفعنا إلى ذلك أحد؛ ولأننا عباقرة في ايجاد الذرائع والمبررات والمسوّغات التي جعلتنا وتجعلنا نهجر أمنا الرؤوم العروبة، وبيتها الوسيع الرحيم الجامع كلّ أفراد العائلة العربية الواحدة، ليمارس كلٌ منا العنجهية القطرية النرجسية، على أخيه الشقيق الآخر، وليكون هو وحده صاحب القرار الوحيد، والمرجع الأخير.

وإذا كانت الأجساد تفرز جراثيمها عبر الجروح قبل اندمالها، فإن المفكرين دائماً ما يفرزون جراثيم أفكارهم أحياناً عبر الأقلام، فوق الورق الأبيض، فإذا ما خرجت هذه الجراثيم في شكل مقالات أو غيرها من أشكال الكتابة وفنون التعبير أو علوم التعبير، تحرروا وأمتهم منها، وكان بإمكانهم بعد ذلك أن يروا بوضوح أشد ما هو حقيقي وصواب أكثر. هذا هو بالضبط ما حدث لي ومعي وأنا أكتب هذه الفصول في أمكنة متعددة وفي مراحل مختلفة خلال الفترة من 1980 و 2002، وبعد أن فرغت من كتابة الفصول هذه التي بدأت بكتابتها وأنا مرتدّ بدافع من الألم، عن انتمائي العربي، إلى إقليميتي السورية، والتي انتهيت من كتابتها وأنا متطهر بصدق من الارتداد، عدت إلى العروبة القومية لماذا؟ لأن المشاركة بتكريس السياسات القطرية في عالمنا العربي هي اليوم في اقتناعي العميق مشاركة بتدمير الذات القطرية في النهاية، فلا قيمة لأعضاء الجسد ما لم يتكامل بعضها بالاتصال العضوي المباشر بالبعض الآخر. فما فائدة (الأذن) أو (العين) أو (الساق) أو (القدم) إن لم تكن كل منها متصلة بالجسد. وعندي اليوم أن انفصال أي قطر عربي عن الجسد العربي، هو انفصال الذراع عن كتفها. إنها عملية بتر انتحارية ذاتية...

إنّ تغييب شعار القومية العربية الجامع كل أجزاء وأعضاء الوطن العربي الكبير من المحيط إلى الخليج، هو الذي أدى فيما نرى إلى:

1 ـــ انتعاش الدعوة لإقامة الدولة الدينية، وهو انتعاش خطير جدا لأنه يستخدم الحاضر خطوة فقط نحو الوراء، زعماً باطلاً بأنها خطوة نحو المستقبل. وما دام في العالم العربي، مسيحيون، كما فيه مسلمون، فإن التحريض على إقامة الدولة الدينية يعني في آن التحريض على إقامة

الدولة أو الدول الإسلامية وعلى إقامة الدولة أو الدول المسيحية أيضاً في بعض أجزاء عالمنا العربي... بالمقابل.

بل إن انتعاش الدعوة لإقامة الدولة الدينية، أبرز ويبرز وقد يبرز على نحو أوضح غداً إرهاصات التناقضات المذهبية الإسلامية التي قد تقود المسلمين إلى سلسلة من الحروب الإسلامية ــ الإسلامية المذهبية، لا نريد لها أن تكون؛ ولست أرى واجباً يقع على أي مسلم عربي بصفة خاصة أهم من واجبه بالسعي لمنع وقوعها في أي موقع يكون، فإن هي قامت، فإن الطوفان سيكون، ولن يسلم منه مسلم على وجه الأرض العربية، لأي مذهب من المذاهب الإسلامية يكون انتماؤه الديني الموروث.

وها هي ذي سلسلة الصراعات الدينية ــ المذهبية في بعض أجزاء الوطن العربي، ما تزال مستمرة، فهل يسعى دعاة الدولة الدينية إلى (بلقنة) العالم العربي كله؟

أفلا يحسن أن نأخذ العبرة قبل فوات أوانها من تجربة الحرب الأهلية في لبنان، ومن الحروب الدينية والمذهبية المسيحية ــ المسيحية ، والإسلامية ــ الإسلامية، التي ما تزال جمراً داخل طبقة من الرماد؟

إن القومية العربية هي البوتقة التي يمكن أن تنصهر فيها إذاً جميع هذه التناقضات الدينية، والمذهبية، بل وحتى الأيديولوجية في عالمنا العربي كله... وضمن إطارها كبوتقة جامعة، يمكن لكل هذه التجمعات أن تتعايش، وأن تتعاون، وأن تتوحد بالمواطنة السلمية المشتركة. إن هذه القومية العربية التي ندعو اليوم إلى إحيائها ليست هي القومية العرقية. إن ابن هذه القومية العربية الجديدة التي نريد لها أن تكون حية، كمناخ وكإطار للخلاص، هو كل مواطن عربي ولد وعاش فوق أي جزء من الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، من جبال طوروس إلى أقصى جنوبي السودان؛ وتحدَّث اللغة العربية، وارتبط حاضره ومصيره بحاضر ومصير الأمة العربية، واختلطت مصالحه بمصالحها ولم تتناقض معها.

إننا نريد لهذه القومية العربية أن تتسع لأبناء وأحفاد الذين هاجروا من مواقع أقوام أخرى في أحقاب وفترات سابقة؛ ليستقروا نهائياً في أية بقعة من

بقاع الوطن العربي، حتى وإن يكن أجدادهم من الترك أو البربر أو الأكراد أو الأفغان أوالباشتان، أو من فارس أو من القوقاز أو من ألبانيا.. إلخ... إننا نريد لهذه القومية العربية الجديدة التي ندعو إلى إحيائها ضمن إطار المعطيات والمتغيرات الجديدة في عالمنا العربي من المحيط إلى الخليج، أن تتسع لكل هؤلاء، وألاَّ تكون حكراً فقط على أبناء شبه الجزيرة والخليج، أي ألاَّ تكون مطروحة على أساس عرقي أبداً مهما علا وسما هذا الأساس.

2 ـ إحياء النعرة الإقليمية استناداً إلى سلبيات الماضي والتراكمات السلبية التاريخية، وبعث الروح من جديد في قوميات تستند إلى تراث من الأمجاد دفين، ولا تستند إلى ما يمكن أن يشكل عناصر حية تبريرية مقنعة كافية وافية طازجة لصالح الزمن الراهن، والمستقبل. على سبيل المثال فقد رأينا كيف قادت فلسفة السادات المنطلقة من أساس العودة إلى مفهوم القومية الفرعونية المصرية، إلى نسف علاقات مصر بغالبية دول الجامعة العربية، وإلى حرمانها بالتالي مدة عشر سنوات بعد ذلك، من المساندة الاقتصادية العربية في وقت كانت فيه مصر في أمس الحاجة إلى المساندة هذه لتتمكن من التغلب الجزئي على محنتها الاقتصادية الكأداء. والعبرة في التجربة الساداتية هذه، هي في أن مصر، بإحيائها في عهد السادات نعرة القومية الفرعونية المصرية، لم تحقق لذاتها القطرية المكاسب التي تطلع إليها السادات رحمه الله، ومعه كثيرون من أبناء مصر الشقيقة، بل يمكن اليوم القول إنها قد خسرت بذلك أكثر مما ربحت؛ وهي الخسارة التي أدركها الرئيس محمد حسني مبارك، فعالجها بحكمته المعهودة بتوجيه البوصلة المصرية نحو الأمة العربية وليس العكس. هذا يعني أن مصر بعد السنوات العشر العجاف من محاولة إحياء القومية الفرعونية الساداتية الانفصالية، اكتشفت بدورها عدم جدوى الانفصال عن مادية وروح العروبة القومية.

ونحن نرى بعد ذلك كله، أن محاولة إحياء (القومية السورية) في بلاد الشام، وبث (الروح التجريبية) في مشروع (سورية الطبيعية الكبرى)، هي

محاولة تجريبية قد لا يكون من الممكن أن تحقق أهدافها الوحدوية السورية على أرض الواقع، ما دامت إسرائيل تشكل كياناً تحميه مبادئ القانون الدولي، في نظر المجموعة الدولية.

إن (وحدةً) تقوم بأسلوب أو بآخر بين (كل لبنان)، وسورية بحدودها الحالية، لا يمكن أن تتم في معزل عن (التفاهم ــ بلغة المدافع) أو (بلغة الحوار الدبلوماسي) بشكل أو بآخر مع إسرائيل، ومع الولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة، ولا يمكن لها أن تحقق وكل (أذناب العقارب) المذهبية والحزبية اللبنانية والعربية والأجنبية الغربية، متوترة منتعظة محشوة بالسم الزعاف المجهز للقذف باللدغ بقصد القتل.

ونحن كما أشرنا في موضع سابق من هذه الفصول ما نزال نرى أن المسافة بين دمشق وبيروت هي أقصر من المسافة بين القاهرة والإسكندرية، ربما تساوي نصف المسافة أو أقل بين دمشق وحلب؛ لكن الطريق إلى بيروت من دمشق أصبح ــ شئنا أم أبينا ــ يمر بواشنطن ولابد من مروره أحياناً بطهران؛ وإن تكن باريس تحاول وما تزال أن يكون الطريق بين بيروت ودمشق عابراً بها أيضاً... لكنَّ المسافة بين بغداد وبيروت ما تزال بعيدة جداً، وعادة ما كان المصطافون العراقيون يصلون الأراضي اللبنانية عبر الأراضي السورية.. أما القاهرة فهي ما تزال القادرة على منع أو عدم وصول شحنات (سمك المسجوف) و(منِّ السما) من بغداد عبر ميناء العقبة إلى مياه البحر المتوسط حيث يطل تمثال (العذراء) بلونه العاجي من كنيسة (السيدة) في (حريصا) فوق قمة جبل لبنان، عبر غابات أشجار الصنوبر، على زرقة مياه المتوسط.. وكما نرى، فقد كان الطريق إلى لبنان من بغداد، عبر دمشق من قبل أقصر، وكان الانتقال من دمشق إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى دمشق قبل أربعين عاماً، سريعاً يسيراً جداً، لأنه يتم بلا جوازات سفر بالنسبة للسوريين والمصريين في آن.

ولكن، إن لم تبدأ وحدة بلاد الشام بوحدة بين سورية ولبنان أولاً، فكيف سيقدَّر لوحدة سورية الطبيعية الكبرى أن تكون؟ هل يمكن للمسافة بين جبل لبنان، وباريس، أن تكون أقصر من المسافة بين بعبدا ودمشق؟

ولكن أيضاً، من الذي يطلب ممَن، الخروج من لبنان؟ ومن الذي قد يحل محل الهيبة السورية في لبنان إن هي غادرت لبنان؟

هل ثمة من يخطط منذ فترة لجعل لبنان يكون هو سورية، ولجعل سورية الغد تكون هي لبنان 1975-1991؟

هل ثمة من يحاول منذ حين نقل (المسرح اللبناني) للبدء بعرض الرواية المسرحية الدامية فوق الأراضي السورية؟

ومن الذي يحق له أن يسأل من؟ ومن الذي عليه أن يجيب؟ هل تعب اللبنانيون من الحرب الأهلية؟ وهل تعب السوريون من تحمل مسؤولية الأثقال في لبنان؟ [2]

هل الذين كانوا ذهبوا إلى (الطائف) السعودية من محترفي المأساة ـــ الملهاة اللبنانية، قادرون حقاً على ترجمة ما اتفقوا عليه فوق الأرض اللبنانية؟ وما الذي سيقوله (المتصالحون) غداً لأبناء وأحفاد الذين ماتوا قتلاً بالقنص أو بالسيارات المفخّخة أو بشظايا المدافع أو تحت الأنقاض، من جميع الأطراف اللبنانية؟

هل سيقول هؤلاء لكل الأيتام من الأبناء والأحفاد، وللآلاف من المعوقين والمعوقات: لقد خاض أباؤكم حرباً مقدسة في سبيل الحفاظ على كيان لبنان؟ من الذي سوف يفرغ الذاكرة من الذكريات المالحة؟ من الذي سيطهر الصدور من الضغائن المتبادلة؟ من القادر على تطهير الوجدان في لبنان من الأحقاد؟ كيف؟ ومتى؟

هذه أسئلة جميعها، طرحتها على نفسي، بنفسي، فما وجدت لها إجابات وافية موضوعية مقنعة، ومع ملحمة الأسئلة المنهمرة في داخلي كالمطر، سقط التاريخ، وسقطت الجغرافيا؛ وسقطت من صدري كأوراق الخريف مشاعر انتمائي الوليدة (لقوميتي السورية)، ووجدتني أعود ملتاعاً إلى خيمتي العربية... ففي الطائف، العربية؛ كان شمل اللبنانيين مسيحيين من مختلف المذاهب، مسلمين من مختلف المذاهب، قد اجتمع واتفق وتآلف...

كان الطريق من أرض سورية الطبيعية الكبرى إلى الطائف؛ هو الطريق من أرض سورية الطبيعية الكبرى إلى العروبة... إلى القومية العربية...

العروبة؟

القومية العربية من جديد؟

نعم... فتحت خيمة العروبة في الطائف كان التقى المسلمون اللبنانيون بكل مذاهبهم، مع المسيحيين اللبنانيين بكل مذاهبهم، وتحت خيمة العروبة وحدها كان الحوار... وازدهر الأمل بالخلاص، ولو إلى حين..

لا تخلعوا أوتاد الخيمة العربية.. لا تئدوا مرة ثانية شعار القومية العربية.. فإن أنتم فعلتم ذلك، تحوّل كل العالم العربي غداً، إلى لبنان 1975 -1991 آخر.. وإلى بلقان عربية لن تقوم فيها للعرب بعدها قائمة....

موت العربي القومي «سركيس بالاجيان» ونفوق كلبه «سوسكي»...

في الصفحات الآتية، مقالة كنت نشرتها في العدد الصادر بتاريخ 2-4-1990 من جريدة (الشام) التي كانت تصدر من باريس، وهي بكل ما هو وارد فيها من أسماء أبطالها وأماكن وقائعها وتواريخها ـــ حقيقية.

وقد رأيت إضافتها إلى هذا الفصل للكشف عن جانب من مأساة كل من اغترب عن وطنه لأسباب سياسية، حقيقية أو مزعومة، وعن المصير الذي انتهى إليه مواطن سوري أرمني ربط السنوات الأخيرة من عمره بالمسألة العربية القومية، لسبب أو لآخر، على نحو أو آخر.. وهو مصير محزن، بمقدار ما هو مخيف مرعب.

والضحايا على هذا الطريق، كانوا كثيرين، لكنَّ أخبار المآسي التي عاشوها خارج وطنهم الذي فيه كانت مساقط رؤوسهم، وبشاعة المصائر التي انتهوا إليها، كانت وما تزال خافية على الناس، وأسرارٌ دفنت مع جثوم أصحابها...

* * *

بعد اكتشاف عبد الكريم النحلاوي، مخطِّط ومنفذ حركة 28 سبتمبر/ أيلول 1961 في سورية، حقيقة أن بعض الذين كانوا من المشاركين بتلك الحركة لم يكن فقط ضد ما كان اصطلح على تسميته بـــ (أخطاء عهد الوحدة بين سورية ومصر)، بل ضد قيام واستمرار الوحدة بين سورية ومصر حتى ولو حسنت أحوالها؛ وأن بين أولئك من كان من المرتشين المأجورين الذين (قبضوا) مبالغ مالية سراً من جهات عربية أو أجنبية خارجية بهدف أن (يقبضوا) على زمام جميع الأمور في سورية، بالاندساس في حركة 28 سبتمبر/ أيلول 1961...

وبعد أن حاول عدد من السياسيين السوريين التقليديين المحترفين ممارسة غواية الاقتناص السياسي لتحقيق الهيمنة الاجتماعية، والمكاسب

الشخصية المعنوية والمادية الخاصة لا العامة... حرصت من جانبي على عقد لقاء مطول على انفراد بالعقيد عبد الكريم النحلاوي في مكتبه في مقر رئاسة الأركان بترتيب من مدير مكتبه النقيب زهير حموي؛ وهو اللقاء الذي انتهى بخروجي مع النحلاوي من مكتبه إلى مكتب قائد الجيش اللواء عبد الكريم زهر الدين في مقر رئاسة الأركان في دمشق، حيث كان أعضاء مجلس قيادة حركة 28 سبتمبر/ أيلول جميعاً في انتظاري. ولا أزال أتذكر أن كلاً من العقيد الطيار موفق عصاصة، والعقيد محمد منصور كان من بين الذين أنصتوا إلى حديثي الصريح جداً يومئذ، بإمعان شديد؛ إضافة إلى زهر الدين والنحلاوي وبقية أعضاء مجلس قيادة حركة 28 أيلول/ سبتمبر.

في ذلك الاجتماع تم اتخاذ القرار بالبدء بالحوار بين مجلس قيادة الحركة في دمشق، وجمال عبد الناصر في القاهرة، بهدف التوصل إلى اتفاق تعود سورية بموجبه (إقليماً شمالياً) في الجمهورية العربية المتحدة بصورة تكون مطهرة من عبد الحكيم عامر وجماعته، ومن عبد الحميد السراج وزبانيته وأجهزته، ومن عنجهية واستعلاء واستكبار بعض المصريين الذين سينتدبون للعمل في مختلف المرافق في سورية، وبحيث يتحقق مناخ ديمقراطي يصون ذات الدولة الوحدوية المصرية السورية من أخطاء ممارسات تجربة 1958-1961، المنتهية بحركة 28 أيلول/ سبتمبر 1961.

في 13-1-1962 استقبل جمال عبد الناصر في منزله في منشية البكري في القاهرة ممثلي مجلس قيادة حركة 28 أيلول سبتمبر/ أيلول، وكانوا ثلاثة: العميد زهير عقيل، العقيد محمد منصور، المقدم فايز الرفاعي.

كنت أحد الذين كانوا ينتظرون بكل التلهف في دمشق، عودة هؤلاء من زيارتهم السرية تلك للقاهرة، والتي كنا نتمنى مخلصين أن تكون هي الخطوة التنفيذية الأولى نحو عودة سورية إلى مكانها كإقليم شمالي في الجمهورية العربية المتحدة؛ وعلى نحو يكفل استمرار التجربة الوحدوية.

وللتاريخ أسجل اليوم شهادتي من موقعي المتواضع كمواطن عربي قومي وحدوي: إن عبد الكريم النحلاوي من أطهر وأشرف الوطنيين

السوريين المؤمنين بالعروبة وبضرورة تحقيق الدولة الوحدوية العربية الكبرى. وإن غالبية رفاقه من ضباط حركة 28 أيلول، كمهيب الهندي وفايز الرفاعي على سبيل المثال، ما كانوا مع النحلاوي يريدون (فصل) سورية عن مصر، ولا تدمير التجربة الوحدوية؛ وإنما هم حاولوا كما أعلم جيداً، القيام بتلك الحركة العسكرية ليمنعوا بالقوة استمرار تحكم النوازع الديكتاتورية والمباحثية، وذلك الاستعلاء الجارح لطبيعة ومزاج الشخصية السورية، بعد أن اختلط كل حابل بكل نابل في سورية بعد أشهر قليلة من قيام التجربة الوحدوية، وبعد أن بات السوري غريباً في وطنه، محاصراً بالإقلاق والتخويف، وبالقرارات الاشتراكية الارتجالية العشوائية، وبعد أن أصبح مطلوباً من الشاب السوري أن يتجسس على أخيه أو على أبيه أو صديقه أو قريبه من الدرجة الثالثة، وبعد أن حاول عبد الحكيم عامر إزاحة (روبسبير) أو (بيريا) دمشق عبد الحميد السراج؛ ليغدو هو، أي عبد الحكيم عامر، أمير المؤمنين معاوية الجديد في دمشق، حيث طاب له المقام فيها كما كان طاب لمعاوية الزاحف من شبه الجزيرة العربية وصحاراها البلقع الجرداء، ليمارس الحكم في الشام، وكأنما هو مبعوث إلهي، وهو عليل العقل أعني عبد الحكيم عامر بسبب تأثير المخدرات والخمور التي أعرف ويعرف كثيرون غيري كيف كان يعاقرها في الليل وفي النهار أيضاً؛ في الوقت الذي أصبح المناضلون السوريون الذين ساهموا بصنع الوحدة منبوذين أو في السجون أو مطاردين، وفي الوقت الذين تم فيه عن عمد إلغاء تاريخ سورية المجيد العريق من الذاكرة، ومسح جميع أسماء قادة المجاهدين السوريين الذين قاوموا الحكم العثماني والاستعمار الفرنسي، منها، وتغييب تاريخ الحضارة السورية الفينيقية والآرامية العريقة المجيدة التي قدمت للحضارة الإنسانية مثلما قدمت الحضارة الفرعونية، على الأقل.

في 28 آذار/ مارس 1962 قام النحلاوي بحركته العسكرية الثانية مطيحاً رئيس الجمهورية الدكتور ناظم القدسي والحكومة، والمجلس النيابي

الذي كان تحول إلى أداة تشريعية بيد الإقطاعيين. وفيما أعرف جيداً فإن النحلاوي ما قام بتلك الحركة إلا بالتنسيق الجزئي المسبق مع جمال عبد الناصر في القاهرة، وأن هدفها قيام (وحدة ــ مشروطة) بين سورية ومصر وبرئاسة جمال عبد الناصر الذي كان متفقاً في الوقت نفسه مع العقيد جاسم علوان للقيام (بثورة) تنطلق من حمص وحلب، لإعادة سورية إلى (الحظيرة الوحدوية) ودون شروط مسبقة.

تحرك جاسم علوان مع عدد من الضباط كان بينهم عبد الكريم الجندي وصلاح جديد وحمد عبيد ومحمد إبراهيم العلي ومحمد عمران ومحمد سعيد الدباح وعبدالله عمرايا؛ بعد السيطرة العسكرية على حمص، وبعد يومين من قيام النحلاوي في دمشق بحركة 28 آذار1962، نحو حلب، وتمكن علوان ورفاقه من السيطرة على إذاعتها؛ وبوصول الضابط الشاب عبدالله عمرايا إلى مايكروفون استديو إذاعة حلب؛ هاج وماج، وأخذ يصيح: «هنا حلب.. هنا إذاعة الجمهورية العربية المتحدة من حلب. نحن جندك يا جمال. نحن أشبالك يا جمال»... ثم أقدم مدير إذاعة حلب، وهو مدني، على محاولة الاتصال الهاتفي بسفير عبد الناصر في بيروت اللواء عبد الحميد غالب.. فإذا بالقاهرة تنفض يدها فجأة من النحلاوي وجماعته في دمشق، لتتجه إلى الذين سيطروا على إذاعة حلب بقيادة جاسم علوان، بعد أن فوجئت القاهرة بالنداء المبثوث منها: (نحن جندك يا جمال. نحن أشبالك يا جمال). كان من المنطقي خلال تلك الظروف أن (تظن) القاهرة أن (ثورة حلب) تنوي إعادة سورية إلى الوحدة مع مصر دون شروط، وأن الأفضل أن تلغي اتفاقها الشفاهي غير المكتوب مع النحلاوي وجماعته في دمشق، الذين كانوا تحركوا قبل يومين فقط، وقاموا بانقلاب عسكري أبيض تماماً بهدف إعادة سورية إلى الوحدة مع مصر، لكن، بشروط مسبقة .

حين فوجئ بعض المشاركين بثورة حلب بالنداءات التي أذاعها ارتجالاً الضابط الشاب عبدالله عمرايا بصوته، دون اتفاق مسبق مع زملائه؛ وبأنَّ قائدهم جاسم علوان ينوي تسليم سورية إلى عبد الناصر دون أي اتفاق مسبق

على صون سلامة الشخصية السورية ضمن إطار التجربة الوحدوية الجديدة، انسحبوا من مشروع الثورة، فاضطر جاسم علوان إلى الانسحاب بدوره والاختفاء بعد تكليف اللواء لؤي الأتاسي بتدبير الأمور، وهكذا تم إجهاض ثورة حلب التي بقيامها تم إفشال حركة النحلاوي في دمشق، حيث ـــ منعاً لحدوث حرب أهلية ـــ عسكرية ـــ سورية ـــ عقد مؤتمر حمص العسكري بقيادة الضابط بدر الأعسر، لإخراج الجيش السوري وسورية، من ذلك المأزق الخطير المحتمل، وتقرر نفي عبد الكريم النحلاوي وجماعته، بعد نجاحه بانقلابه العسكرية الثاني بالاتفاق مع جمال عبد الناصر، إلا أن القاهرة خذلته مفضلة عليه حركة جاسم علوان في حلب؛ وبذلك خسر عبد الناصر الحركتين معاً، وكانت كل منهما تهدف إلى إعادة الوحدة بين سورية ومصر أوائل 1962، لكن، بشروط من الجانب السوري بالنسبة لحركة 28-3-1963 بقيادة النحلاوي.

بفشل كل من حركة 28 آذار 1962 (وثورة حلب) التي قامت بعدها بيومين فقط، وبنفي النحلاوي وعدد من رفاقه إلى أوروبا، تم الإفراج عن رئيس الجمهورية ناظم القدسي، فأعيد من سجن المزة إلى قصر الرئاسة في دمشق، وعاد الإقطاعيون والسياسيون التقليديون السوريون المدانون بارتباطات خارجية مشبوهة، إلى احتلال جميع المواقع القيادية في المؤسسة العسكرية السورية، وجميع المؤسسات التشريعية والتنفيذية، وبذلك ـــ منذ ذلك اليوم تحديداً ـــ تكرس الانفصال السوري، ولم يكن في عهد النحلاوي منذ 28 أيلول/ سبتمبر 1961 وحتى 28 آذار / مارس 1962 (خمسة أشهر تقريباً) مكرساً بصورة نهائية لأن النحلاوي وغالبية ضباط حركة 28 أيلول/ سبتمبر لم يكونوا فيما عرفتهم جيداً ذوي نوازع انفصالية، ولو لم يقوموا هم بحركتهم تلك في 28 سبتمبر أيلول 1961، لكان محتملاً أن يقوم بها غيرهم من العروبيين الوحدويين السوريين، لأن التجربة الوحدوية كانت أصيبت بحالة تعفن ذاتي في داخلها وفي مواقعها القيادية العليا، وبحالة (غرغرينا) في عظام ساقيها وفخذيها وساعديها وذراعيها، ولم يكن ثمة مفر من حتمية

إجراء عملية جراحية، وإن تكن شديدة الإيلام، ودون استخدام التخدير مع المريض، لأن كل مواد التخدير كان يحتكرها الأمير: عبد الحكيم عامر، ومن قبله: عبد الحميد السراج.

عشت بدوري تلك الأحداث كلها، وكنت أحياناً مشاركاً ببعضها من وراء الستار. كان الرأي العام السوري يعرفني كأديب ورسام وكمذيع وكقاص منذ أوائل الخمسينيات، ثم كنجم تلفزيوني متميز بنكهة شديدة الخصوصية. لكن كل تلك الصفات والنشاطات لم تكن سوى أغطية سميكة لما هو أكثر حقيقية وأهمية في تجربتي الحياتية كمواطن عربي؛ وهو أنني كنت قد كرست حياتي لقضية الوحدة العربية منذ العام 1954، وأنني لم أكن يوماً (موظفاً) كما لا يزال الكثيرون يظنون خطأً، وأن ممارساتي من وراء الستار، كانت تتجاوز دائماً حدود (الموظف) بكثير.

ولا تصدقوا أن (من يصنع القرار) هو دائماً هذا الذي يصدر القرار ويمهره بتوقيعه، أو يتحمل هو مسؤولية تبنّيه بالإعلان عنه أمام الناس، أو عبر المكاتبات، أو أجهزة الإعلام الحكومية أو غير الحكومية.

ساذج من يظن أن الشجرة هي ساقها وغصونها وأوراقها وثمارها السامقة فوق سطح الأرض. إن أصل وأساس وروح وحياة الشجرة: جذورها الساكنة عتمة ورطوبة الطين والتراب تحت القشرة الأرضية. أنت لا ترى الجذور، ولا ترى عيناك سوى ما تنبته هذه الجذور على ما فوق سطح الأرض من سيقان وأفنان وأوراق وثمار.

ومثلما هي الجذور، فإن (صانعي القرار الحقيقيين) غالباً ما يلذ لهم أن يمارسوا أدوارهم الخفية، وهم كامنون تحت قشرة الأرض، بعيدين عن دوائر الضوء، والريح، والنسمات، والمساءلة؛ والضجيج والصخب. وقد لا تعرف إلا القلة القليلة جداً حقيقة أدوارهم الخالقة، المؤثرة، من وراء الستار، في مجال صنع القرار، ولعبة تحريك الشعوب، في الزمان والمكان الذين هم فيه.

منذ سنين عديدة، وأنا أجاور الجذور، والجذور تجاورني؛ ولنا معاً في باطن الأرض التي بلا حدود: وطن.

ولأن الأمر بالنسبة إليّ كان كذلك، وبعد أن تأكد لي أن دمشق بعد فشل حركة النحلاوي الثانية في 28 آذار/ مارس 1962 وإجهاض (ثورة حلب) بقيادة جاسم علوان بعدها بيومين فقط، قد سقطت منذ ذلك اليوم في حضن (انفصال حقيقي)؛ ولأن حياتي لا تعني بالنسبة إليّ شيئاً إلا بمقدار ما يمكنني من خلالها أن أشارك بتحريض هذه الأمة العريقة المكتئبة التي أنتمي إليها على تحقيق وحدتها القومية، فقد أقدمت على (شن هجوم ــ انتحاري) وأنا في كامل تألقي الذهني، ولياقتي البدنية والعقلية والنفسية، ضد حكومة الانفصال في دمشق بعد نفي النحلاوي وبعد فشل ثورة حلب بأسابيع قليلة. وقد اخترت شاشة تلفزيون دمشق ميداناً للانطلاق منه نحو شن ذلك الهجوم ــ الانتحاري الذي أعانني الله على النجاح بتحقيق الهدف الذي قمت به من أجله. (على الهواء مباشرة، ظللت مدة حوالي عشرين دقيقة أرتجل ما أعانني الله على ارتجاله يومئذ، موجهاً الانتقاد إلى الحكومة السورية الانفصالية، وإلى رئيس الجمهورية، كاشفاً النقاب عن مثالب النظام، مؤكداً للجماهير أنه لا تقدم ولا نهضة، ولا نجاح في التنمية دون أن يتحقق في سورية الاستقرار السياسي، وكانت سورية قد فقدته يومئذ على نحو واضح وكنت قد أجريت بعض الترتيبات قبل ذلك بحيث لا يتمكن أي مسؤول غيري لا في مبنى التلفزيون ولا في محطة الإرسال التي كانت في قمة جبل قاسيون، من منع وصول صورتي وصوتي إلى الناس طيلة ربع ساعة على الأقل؛ وليحدث بعد ذلك ما سوف يحدث. خلال تلك المواجهة المثيرة مع الرأي العام الوطني السوري عبر شاشة التلفزيون، أعلنت استقالتي معللاً ذلك برفضي التعاون مع نظام لا يحترم حقوق المواطن، ولا يفكر قادته بمستقبل الوطن، بل بمصالحهم الشخصية.

كان رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، وبقية أركان النظام، يتابعونني على الشاشة في منازلهم وهم مذهولون، وحين كانت وزارة الداخلية تعمم على جميع معابر الخروج الحدودية والموانئ والمطارات في سورية برقية باعتقالي، كان قائد الجيش اللواء عبد الكريم زهر الدين قد تمكن من حمايتي

مدة ساعتين في منزله العائلي، ومن إعداد خطة عاجلة لتسللي بسيارة قام بتأمينها لي يقودها سائق خاص عسكري نقلني بها إلى لبنان، ولم يكن في جيبي بوصولي بيروت سوى أربعمئة ليرة سورية فقط هي كل ما أتيح لي أن أخرجه معي من وطني يوم خروجي منه صيف العام 1962.

في بيروت صباح يوم وصولي إليها برفقة سيدة لبنانية اسمها جنفييف عطا الله، وزوجها الشاب سمير خوري، اللذين كلفهما اللواء عبدالكريم زهر الدين بمرافقتي في عملية تسللي إلى لبنان؛ أخذ مني الشاب اللبناني سمير خوري الأربعمئة ليرة سورية وهي كل ما كان معي، على اتفاق أن يعيدها إليَّ ليرات لبنانية بعد ساعات؛ لكنه بعد أن أخذها مني، ذهب، ولم يعد إليَّ حتى الآن، وأنا لازلت في انتظار عودته، فإن قلبي لم يغفر له حتى اليوم أبداً، فقد تركني بعد أن أخذ المبلغ المالي المتواضع الوحيد الذي كان في جيبي، دون أن يَبقى معي قرش واحد، في الوقت الذي كانت فيه صحف بيروت قد صدرت وفي صدور صفحاتها الأولى بالعناوين العريضة خبر ما كان من أمر تمردي على حكومة الانفصال في الليلة السابقة في دمشق عبر شاشة التلفزيون السوري..

في ذلك اليوم بادرت السفارة المصرية في بيروت بالإسراع بتقديم اقتراح إليَّ بالسفر إلى مصر فوراً، ولم تكن لي بها ولا بالقاهرة أية صلة تنسيقية مسبقة، وإنما كان لقائي بزميل سوري لي مذيع اسمه توفيق حسن (أبو علي)، مصادفةً في (ساحة البرج) في بيروت ذلك الصباح؛ هو المدخل نحو اتصال الملحق العسكري المصري زغلول عبد الرحمن بي، على الفور، ونقلني مساء ذلك اليوم نفسه إلى القاهرة حيث فوجئت بمصر الغالية تعاملني مشكورة وكأنما أنا (جيفارا)؛ وتستقبلني استقبالاً طيباً للغاية، وإلى الحد الذي أصدر فيه الناطق الرسمي المصري وهو عبد القادر حاتم يومئذ بياناً رسمياً ترحيبياً بوصولي القاهرة، وأسبابه السياسية، عممته وكالة أنباء الشرق الأوسط، في الوقت الذي كانت الحكومة السورية تبحث عني في سورية بهدف اعتقالي! فإذا بها تفاجأ بصوتي يخاطبها من إذاعة (صوت العرب)...

وبما أنني كنت أول سوري يصل مصر بعد الانفصال، متمرداً على الحكومة الانفصالية، فقد انتشرت شائعات كثيرة في سورية وفي أقطار عربية أخرى عن حكايات (تكريمي) في مصر بمنحي (فيللا) سكنية، وسيارة فارهة، وراتب وزير! وقد كانت كلها شائعات غير صحيحة، فكم من ليلة كنت طويتها خلال تلك الأيام وأفراد أسرتي الصغيرة على الطوى لأنه لم يكن معي ما كان يمكنني من شراء إلا وجبة طعام واحدة في اليوم الواحد، ولأنني كنت أدفع ثلاثة أرباع راتبي الشهري كمعلق سياسي في (صوت العرب) أجرة سكن في شقة مفروشة متواضعة.. لكن تلك الشائعات جذبت عدداً كبيراً من الانتهازيين من سورية وغيرها من الحالمين بتحقيق المكاسب والشهرة، وغالبيتهم للأسف كانت من الأفاقين الذين اعتمدتهم القاهرة للأسف(لاجئين سياسيين) دون أن يكون لأي منهم في الغالب سابقاً، لا مواقف سياسية، ولا تاريخ نضالي سياسي.

وقد كان بين أولئك، (القومي العربي الوحدوي) سركيس بالاجيان.

بقلبها الطيب، فتحت مصر أبوابها حتى أمام هذه الفئة من النصابين المبتزين الكاذبين، فاعتمدتهم (لاجئين سياسيين)، استناداً منها إلى قلبها الطيب أكثر مما ينبغي أحياناً، وإلى مزاعم وأكاذيب هؤلاء النصابين الكاذبين المبتزين التي كانوا يقدمونها مشافهة إلى العقيد حسن رأفت مدير شؤون اللاجئين السياسيين في مؤسسة الرئاسة في القاهرة، وغيره من بعض كبار المسؤولين في مصر الذين عهدت إليهم مهمة التقويم والحسم في تلك الحالات التي كان يختلط فيها الحابل بالنابل، والنصاب والأفاق الحقير بالمناضلين الجديرين بالاحترام؛ والهاربون من المطاردة في أوطانهم لأسباب اختلاسية مالية أو جنائية أخرى مختلفة، بالمطاردين لأسباب سياسية، والفاشلون في الدراسة الجامعية في أوطانهم بالمحكومين بالإعدام فيها لأسباب نضالية سياسية، وقد اختلط مع هؤلاء عدد من (العشاق السوريين) الذين عطلت حركة الانفصال مشاريع الزواج التي كانوا ينوون بها الارتباط بعدد من المصريات؛ فاختاروا هذا السبيل ليتمكنوا من الإقامة المشرّفة في مصر؛ وليتزوجوا ممن كانوا ينوون الزواج بهنَّ. في عهد الوحدة.

وبالطبع فإن ظاهرة حرفة (اللجوء السياسي) في مصر خلال تلك الحقبة من تاريخ العرب الحديث لم تكن ظاهرة تتصل بالسوريين فقط، بل هي قد توسعت وتطورت حتى أصبحت (ظاهرة قومية) بمعنى أن (حرفة اللجوء السياسي) إلى مصر في تلك المرحلة شملت أعداداً غفيرة من العراقيين والأردنيين والفلسطينيين واليمنيين والسعوديين... إلخ ولا نستثني بعض بلدان الشمال الأفريقي أيضاً.

وبقدرة قادر، تحولت الصالونات المكيفة الهواء، مثل محلات (غروبي) و(لاباس) الشهيرة في القاهرة على سبيل المثال، إلى (خنادق) للنضال يمارسه هؤلاء (المناضلون) الأفذاذ، وبعنف أحياناً ما كان يصل إلى حد الاستشهاد لكن، بالنيات والأحلام الكاذبة المبرمجة في صالونات المقاهي المكيفة الهواء.

وظل هؤلاء يشكلون عبئاً على مصر وجمال عبد الناصر حتى آخر يوم في حياته.. وما تزال مصر الغالية الطيبة تعاني من بعض هؤلاء حتى اليوم، رغم أنه أصبح بإمكان الكثيرين منهم العودة إلى أوطانهم منذ سنين عديدة، لكنهم لا يفعلون، ورغم انعدام مبررات استمرار تواجدهم في مصر كلاجئين إليها لأسباب سياسية، فإنهم لا يغادرون مصر، وغالباً ما يجعلهم وضعهم هذا مؤهلين لممارسة التحريض بين حين وآخر على إذكاء روح الخلاف بين مصر والأوطان التي ينتمون إليها في الأساس.

ولعل أطرف حالة من أحوال هؤلاء، حالة مواطن سوري شاب؛ خفيف الدم، عصبي المزاج، أرمني من أبناء الطائفة الأرمنية في دمشق، اسمه سركيس بالاجيان...

ولسبب أو لآخر كان كثيرون من الأرمن يعملون في حقل التصوير الفوتوغرافي في سورية، وكان سركيس بالاجيان من هؤلاء. حين بدأنا بإنشاء تلفزيون دمشق عام 1960 ، في عهد الوحدة تنفيذاً لأمر جمال عبد الناصر رحمه الله؛ فوجئنا بعدد من مخبري المباحث العامة السورية يُفرضون علينا كموظفين في جميع فروع العمل في النشاط التلفزيوني؛ وكان بين هؤلاء المخبرين الذين زرعهم في التلفزيون؛ عبد الحميد السراج: فتىً اسمه سركيس

بالاجيان الذي كان في الوقت نفسه وثيق الصلة بعدد من المصريين المقيمين في دمشق في عهد الوحدة من عناصر المخابرات المصرية.

بعد أسابيع قليلة تحول سركيس بالاجيان بقدرة قادر الى مصور سينمائي في قسم الأخبار في تلفزيون دمشق: فلما وقع الانفصال وغادر المصريون سورية كذلك عبد الحميد السراج، أصبح سركيس بالاجيان يتيماً بلا سند، أو (مصورا سينمانيا) في مديرية الأخبار في تلفزيون دمشق، لا أكثر.

بعد شهور من وصولي مصر، وتضخُم ظاهرة (حرفة اللجوء السياسي) الشاملة مناضلين حقيقيين ونصابين وأفّاقين وانتهازيين من دول عربية كثيرة، وكالعادة في مناسبة كهذه؛ جرت (الترتيبات التنسيقية اللازمة) بين رئاسة الجمهورية في القاهرة ومكتب وزير الإعلام لاستقبال (شخصية نضالية هامة) ستصل مطار القاهرة الدولي على إحدى طائرات (الشرق الأوسط) اللبنانية يوم كذا، في الساعة كذا...

في الوقت المحدد، كان مندوب الأخبار في تلفزيون القاهرة يستعد مع المصور ومهندس الصوت لإجراء حوار مع الشخصية السياسية التي ستصل بعد قليل على متن إحدى طائرات خطوط الشرق الأوسط من بيروت؛ والتي يقف استعداداً لاستقبالها في المطار رجال آخرون من (أجهزة) متعددة...

حطّت الطائرة.. كانت المضيفة اللبنانية تعرف بدورها أن بين ركاب الطائرة شخصية هامة جداً، نضالية سياسية، ولكن، إمعاناً بإحكام الترتيبات الأمنية ــ لم تخبرها السفارة المصرية في بيروت، باسم هذه الشخصية ولم تحدد لها ملامحها.

فُتح باب الطائرة.. ثم دفعوا نحوها بالسلّم المتحرك...

داخل الطائرة حاول شاب يرتدي البنطال والقميص (السبور) المفتوح، وهو يحمل تحت إبطيه عددا من لفّات القمر الدين وعلب الشاي (الباش) الذهبي والتفاح، وغيرها من المواد التي كانت نادرة في القاهرة متوافرة في سورية، كالجوز واللوز والفستق الحلبي والصنوبر، التقدم من السلم بقصد الهبوط، وحين منعته المضيفة موضحة أن عليه الانتظار حتى تهبط من

الطائرة قبله شخصية نضالية سياسية هامة، أزاحها سركيس بقوة كتفه موضحاً بقوة اندفاع ثورية:

ـ إبعد إنت من طريقي... إنت شو ما بتفهم؟ أنا هوّه الشخصية.. بس إنت ما بتعرف.. روح من قدامي.. روه...

ثم هبط...

وأشار البعض، فتقدم مندوب أخبار تلفزيون القاهرة الصديق حمدي قنديل بالمايكروفون من الشاب الهابط مبتسماً منشرح الصدر من بطن الطائرة، متعثراً بمشيته (كان يحتذي شحاطة ـ شبشب)، وجرى بينهما الحوار التالي:

ـ المذيع: الاسم الكريم، والجنسية؟

سركيس: مخدومك سركيس بالاجيان. محسوبك سو ـ ي.

المذيع: إلى أيّ تيار سياسي تنتمون حضرتكم؟

سركيس: بدك الحقيقة بصراحة؟ أنا قومي عربي وحدوي.

المذيع: طيب. ما هو في رأيكم الأسلوب الناجع لعودة سورية إلى الحظيرة الوحدوية؟

سركيس: إنتي ليش عم تسأليني يا أستاذ هيك أسئلة؟. أنا فعلاً قومي عربي وحدوي، بس أنا ما بيتكلم بالسياسة!.

المذيع: أنا لا أسأل حضرتكم أسئلة سياسية... فقط نحب أن نعرف رأيكم كمواطن سوري كيف يمكن لسورية أن تعود إلى مكانها الطبيعي مرة أخرى في الجمهورية العربية المتحدة.

سركيس: شوفي.. لا تكثري معي كلام كثير أحسن لك هاه.. أنا مو ولد صغير.. أنا وصُّوني ما احكي بالسياسة حتى ما احكي عن الأسرار اللي بعرفها.. ابعدي عني أحسن لك.. بلا سياسة بلا بطيخ.. أنا ما بعرف شيء..

... وانتهى الحوار بين مندوب أخبار تلفزيون القاهرة الصديق حمدي قنديل وسركيس بالاجيان، عند هذا الحد.

بعد أن وزع سركيس حمله الثقيل من القمرالدين و(الشاي الباش الذهبي) والتفاح والصنوبر والجوز واللوز والفستق الحلبي على من أسعده الحظ يومئذ بالحصول على شيء منه؛ تمّ اعتماده لاجئاً سياسياً في مصر، كموظف مصور سينمائي في إدارة الأخبار في تلفزيون القاهرة عام 1962.. وكان يحلو لسركيس أن يزورني بعد ذلك بين حين واخر، ليروي لي تفاصيل إنجازاته النضالية بعد رحيلي من سورية، وكيف كان يتقصّد عدم التقاط صور جيدة لرئيس الجمهورية السورية ناظم القدسي في كل مرة اضطر للمشاركة بتصويره، وكيف كان الرئيس ناظم القدسي يبدو مشوها في مشيته المتسارعة أو البطيئة في جميع اللقطات التي التقطها له سركيس بالاجيان بصفته مصورا سينمائياً في إدارة الأخبار في تلفزيون دمشق.

لم يكن سركيس بالاجيان متزوجا ، وهو لم يتزوج بعد ذلك قط. وحين سقط عهد الانفصال بثورة الثامن من اذار / مارس 1963 حاولت من جانبي العودة إلى دمشق فورا، لكن غالبية اللاجئين السياسيين السوريين اثرت البقاء في مصر. وبسبب استمرار الخلاف بين القاهرة ودمشق بعد ثورة الثامن من آذار تم اعتقالي في سجن القلعة في دمشق؛ ولم يكن أمامي بعد الإفراج عني سوى العودة مرة أخرى إلى القاهرة حيث أكرمني جمال عبد الناصر رحمه الله بمعاملتي كمناضل وليس كإذاعي؛ وكان لذلك أسباب لامجال لشرحها في مناسبة كهذه المناسبة.

وفي الجناح المخصص لي في أحد فنادق الدرجة الأولى في القاهرة زارني سركيس بالاجيان عقب الإفراج عني وعودتي إلى مصر أواخر 1963،؛ وكان يرافقه كلب ضخم الجثة ذو شعر كثيف طويل فاحم جداً، هادئ وديع ودود، كان يناديه سركيس بـ (سوسكي)، وقد قدمه إليّ سركيس قائلاً:

ــ شوف أخ أبدول هادي (يعني عبدالهادي).. هادا الكالب هو أخي وصديقي الوحيد.. ما في غيرو مخلص وحنون.

وعرفت يومئذ من سركيس أن (سوسكي) هو أنيسه الوحيد فعلا في الشقة المفروشة التي كان يسكنها، وفي مشاويره على ضفاف النيل وشوارع القاهرة في لياليها الصيفية البديعة..

كان لون الكلب (سوسكي) فاحم السواد، وكان لون سركيس مائلاً إلى البياض بل إلى الشقرة.. لكن ثمة معنىً مشتركاً كان واضحاً في نظرات العيون الأربع... هو الحزن..

من القاهرة بعد ستة أشهر من وصولي إليها أواخر العام 1963 توجهت إلى العراق تلبية لرغبة عبد السلام عارف؛ وبموافقة من جمال عبد الناصر رحمه الله، كمراقب لبرامج الإذاعة العراقية. كان هذا هو غطاء عملي السياسي الحقيقي في العراق لمدة سنتين مقبلتين بعد ذلك، لكن مهمتي الحقيقية كانت سياسية وليست إذاعية.

في نهاية 1966 رجوت عبد الرحمن عارف بقبول استقالتي فقبلها، وعدت إلى مصر. كان سركيس في استقبالي مع المستقبلين في مطار القاهرة، وحين تأكد لي أنه ليس ثمة من أمل بالعودة إلى دمشق قريبة، آثرت أن أخفف الوطء على مصر، وهكذا تقدمت إلى رئاسة الجمهورية بطلب إلغاء لجوئي السياسي، مع الشكر، وتوجهت إلى إحدى إمارات الخليج لأشغل منصب المستشار الإعلامي في ديوان حاكم الإمارة، بينما ظل سركيس في مصر مع من بقي من اللاجئين السياسيين السوريين ومن العرب الآخرين...

صيف العام 1975 زرت القاهرة، حين كان أنور السادات في أوج مرحلته (وقد كنت أعرف السادات وكان يعرفني منذ عهد الوحدة، حين كان رئيساً للاتحاد القومي وكنت عضواً منتخباً في «لجنة التوجيه القومي» في الاتحاد).

حين كنت أهبط السلم الخارجي لفندق (شيراتون القاهرة) ليلاً، لامتطاء سيارة ستقلني إلى منزل الرئيس السادات المجاور، كما كنت أنوي؛ وكما كانت الترتيبات قد اتُخذت قبل ساعات، فوجئت بسركيس بالاجيان وبكلبه سوسكي في انتظاري؛ ولعله من مصدر أو آخر قد علم بمكان إقامتي لأيام في القاهرة. كانت علامات البؤس واليأس تطبع ملامح وجهه وجسده؛ وقد تحوّل حزنه القديم إلى اكتئاب. ابيضَّ شعره تماماً، وانحسر نصفه إلى منتصف جلدة الرأس. وبدوره تحوّل سواد شعر كلبه سوسكي الأسود الفاحم، إلى شعر بلون الرماد. احتضنني سركيس مجهشاً، وبدت لي الدموع تكاد

تسيل بدورها من عيني كلبه سوسكي الذي شاب شعره الفاحم بدوره هو أيضا، فكأنما رماه رامٍ بسطلٍ مليء بالدقيق أو مسحوق النشاء...

مازحت سركيس بالاجيان كعادتي في ملاطفته كل مرة لقيته، قائلاً:

ـ شو أخبارك يا سركيس.. وشو هي أحوالك مع القومية العربية يا بالاجيان؟

أجابني سركيس بصوتٍ ذبيح، وعيناه تحدقان في اللاشيء في الأرض غير اللامعة:

ـ أي روح.. الله يلعن قومية عربية خربت بيتنا...

لك روح.. الله يلعن أرب (يعني عرب) من مَيْ لَمِيْ! (يعني من المحيط للخليج)!

أما تعبير (الأمة العربية من المحيط إلى الخليج) فهو من ابتداع صديقنا الشاعر العربي السوري الكبير، من أبناء أنطاكية، سليمان العيسى، ولعلي لا أكون على خطأ إذا زعمت أنني كنت أرفع الشاعر سليمان العيسى فوق كتفيَّ، في (لينين ستاد) في موسكو في العام 1957 في محتشد مؤتمر الشبيبة العالمية السادس، حين وُلِدَ هذا الشعار على لسان سليمان العيسى كهتاف يقول: (من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر، لبيك عبد الناصر)، وكنا نحن الشباب العرب من جميع الأقطار العربية المحتشدين يومئذ في (لينين ستاد) في موسكو نردد هذا الهتاف من بعد سليمان العيسى، إلى أن أصبح جزءاً من الهتافات الشعبية العربية لفترة مقبلة طويلة بعد ذلك...

ثم مرت السنون تطوي السنين..

وفي العام 1990 زارني إذ أنا مقيم في القاهرة أحد كبار مخرجي التلفزيون المصري، كنت أعرفه ويعرفني منذ فترة إنشاء التلفزيون في كل من دمشق والقاهرة في منتصف الستينيات. وكنت أعرف أنه كان على صلة بسركيس بالاجيان في مصر منذ العام 1962؛ وكان من الطبيعي أن أسأله عن سركيس وعن كلبه سوسكي.

أجابني المخرج التلفزيوني المصري الكبير:

ـ سركيس المسكين مات وحيداً في الشقة المفروشة التي ظل يسكنها منذ العام 1962 في منطقة (التوفيقية) في القاهرة. لفظ أنفاسه، فلم يعلم بموته أحد، إلى أن فاحت رائحة عفونة جثته من شقته فأدى ذلك إلى أن يقتحم بواب العمارة بابها بالقوة، ليرى جثة سركيس ممدة متعفنة فوق الأرض؛ وإلى جانبها جثة كلبه الأمين سوسكي الذي نفق بموت سركيس.. وقد لاحظ البواب أن الكلب لحظة لفظه أنفاسه الأخيرة، كان يضع رأسه على وجه صاحبه سركيس...

وهكذا نفق سوسكي فوق جثة صاحبه سركيس ليختلطا معا...

وأضاف المخرج الكبير:

ـ كان سركيس يحبك جداً. وكان يعلّق على أحد جدران شقته المتواضعة منذ العام 1962 وحتى يوم وفاته، صورتان صورة لجمال عبد الناصر؛ وصورة لك..

حاولت الرجولة أن تتماسك، لكنّ الحزن العميق قد غلبها، وفي لحظة مباغتة انفجرتُ مجهشاً مثلما يجهش الأطفال حين تغالبهم الأحزان العميقة كبئر...

لم يكن سركيس بالاجيان، الأرمني، المؤمن بجدوى انتمائه إلى العروبة القومية، والذي حاول أن يقدم خدمات، مهما تكن متواضعة، لنضال العرب المزعوم لتحقيق الوحدة العربية: (من الماء للماء) كما كان يقول سركيس، لم يكن يعلم أنني كنت قدّمت قبل سنوات عديدة قبل أن يموت هو، وأنني كنت أمارس الانتحار البطيء دون أن أدرك أنني أفعل ذلك حين غادرت قدماي أرض وطني السوري العام 1962، لأظلَّ في أرض (العروبة الكبرى) حتى اليوم، منذ ذلك العام أعاني الكثير من آلام ومحاولات التحجيم والإذلال، والتهديد بسيف التسريح من وظيفتي، في كل لحظة؛ وبالطرد من منفى إلى منفى عربي آخر.. كل يوم وبالحرمان من رغيف الخبز. كلّما عنَّ لعربيٍ قادرٍ أن يحرمني منه وأنا وأفراد أسرتي الصغيرة في أمس الحاجة إليه.

سركيس: لماذا ظللت تعلق على الجدار صورة عبد الناصر وصورتي حتى يوم موتك في شهر نوفمبر /تشرين الثاني 1969؟ لقد رحل عبد الناصر يا سركيس بعد موتك ونفوق سوسكي، بعشرة شهور، وكنت أنا قد مِتُّ من

قبل أن يموت عبد الناصر بثماني سنين... فلماذا لم تشأ أن تعلم ولا أن تصدق حين أخبرتك بذلك؟

لقد أخبروني يا سركيس أنك كنت تقول لهم عني:

مافي حدا طلع ذكي وقدر يدبر حاله متل هالملعون البكار.. وحده عرف يدبّر حاله وتركنا وراح للخليج منذ العام 1968.

سركيس: ما أشد خطأك.

سركيس: لقد رفضني (عالم العروبة) وما يزال؛ ويبدو أنني مثلك (أرمني) رغم أنني من جدّ بدوي عربي صحراوي، وأن جدودي من عرب الحجاز، وأن (آل البكار) هم أكبر فرقة مستقرة من عشائر النعيم التي يقال إنها سليلة أصلاب و أرحام الأشراف من بني هاشم..

سركيس: منذ العام 1968 وأنا أشتري رغيفي، بالتقسيط، بأثمان باهظة أدفعها قسراً من كرامتي ومن كبريائي ومن رجولتي أيضاً.

سركيس: الآن فقط أدرك أنني قد أعطيت أنا أيضاً عالم العروبة الأكبر كل زهرات سنوات شبابي لأكافأ كما كوفئ كثيرون من المناضلين الصادقين غيري، بالجحود، والإذلال، وبالعقاب على ذنب لم يعرفوه...

سركيس: يا ليتني كنت مثلك (أرمني) ليكون لي غداً دوري ومكاني في (أرمينيا) التي تنتزع اليوم حريتها في عصر التحرر الجديد...

سركيس: لازلت أحاور العروبة، فلا تسمعني، وترفضني، ولا زلت عاجزاً عن أن أهجرها بعد أن غربت كل الشموس...

وداعاً سركيس الصديق الذي رحل قبل أن يتحرر وطنه (أرمينيا)..

وداعاً سوسكي الوفي الذي نفق ورأسه على وجه صاحبه...

أنيس منصور...
والردُّ على الصّاعَ بألف مثْله، وأكثر*...

نشرت مجلة «كاريكاتير» المصرية في عددها الصادر في 1995/9/27 مقالة بقلم الكاتب المصري الأستاذ أنيس منصور عنوانها (السوريون يشترون الترامواي في الأرجنتين) أعلن من خلال سطورها كرهه للشعب العربي السوري رجالاً ونساءً رغم أن أي سوري أو سورية لم يسئ أحدهما يوما إليه باستثناء ناشر سوري كان سرق حقوق أنيس منصور كمؤلف لكتابه الثاني أوائل الخمسينات. وسخر من التجربة الوحدوية السورية بزعامة جمال عبد الناصر، ودعا الله ألا تعود لتجمع بين سورية ومصر في هذا القرن أو الذي يليه، وزعم أن السوريين (ضحكوا على جمال عبد الناصر) حين عرضوا عليه إقامة وحدة دستورية بين مصر وسورية بزعامته، لأن جمال عبد الناصر في رأي أنيس منصور «كان متعطشاً للعظَمة» فقبل بإقامة الوحدة السورية المصرية بزعامته لأن البنات الحلوات السوريات ذوات اللحم الأبيض كنّ يهتفن له في شوارع المدن والقرى السورية. فعبد الناصر كما ذكر أنيس منصور في مقالته هذه كان ــ كالسادات ــ مفتوناً مغروما بلحم النساء الأبيض (!!).

وما يمكن ملاحظته بسهولة أن تاريخ نشر مقالة أنيس منصور هذه في مجلة (كاريكاتير) المصرية، سبق حلول موعد الذكرى الخامسة والعشرين لوفاة أشرف وأطهر وأعظم زعيم عربي جاءت به الأصلاب والجذور المصرية العربية في كل مراحل التاريخ المصري والعربي، قديمها وحديثها. وهو تاريخ 1970/9/28، تماما بعد تسع سنوات من نجاح الحركة الانفصالية السورية بنسف التجربة الوحدوية المصرية ــ السورية الناصرية بمساندة أمريكية ــ أردنية ــ سعودية ــ إسرائيلية مباشرة أو غير مباشرة، فورية أو بعد حين.

---

* نُشرت في مجلة (الكفاح العربي) اللبنانية الصادرة في بيروت يوم الاثنين 1995/10/16.

والذي يمكن ملاحظته أن الحاقدين على عبد الناصر والتوجهات الأيديولوجية الناصرية من يهود إسرائيليين صهاينة، ومن عرب مصريين وغير مصريين، غالباً ما حاولوا ويحاولون اختيار (توقيت معين) لقذف ما في أقلامهم وألسنتهم وأمعائهم من دم الثعابين وسمها الزعاف، وغالباً ما يكون هذا (التوقيت المقصود) متزامناً مع (مناسبة ناصرية) أو أخرى. وإن نحن لاحظنا التاريخ الذي أصدرت فيه «اعتماد خورشيد» كتابها لتفجر عن صلتها المزعومة بجمال عبد الناصر والمخابرات المصرية في أواخر المرحلة الناصرية، نكتشف أن هذا التاريخ سبق بأيام قليلة موعد البدء بمحاكمة البطل العربي المصري محمود نور الدين وتنظيم (ثورة مصر) الناصرية المسلحة السرية. وإن نحن عدنا اليوم إلى كتاب أنيس منصور (عبد الناصر: المفترى عليه، والمفتري علينا)، نلاحظ أنه صدر قبيل حلول موعد الذكرى الثامنة عشرة لوفاة جمال عبد الناصر، أي في شهر أيلول /سبتمبر عام 1988، وهو الكتاب الذي جاء في الصفحة 12 منه مايلي: «لو عاش عبد الناصر لطالب اليهود بحقهم في أرض «جوشن» التي جاءت في التوراة ــ محافظة الشرقية» وعلى غلافه الأخير دعاء أنيس منصور لله سبحانه وتعالى يقول: «اللهم اجعل دمي لعنة عليه إلى يوم القيامة». والمقصود في هذا الدعاء: جمال عبد الناصر. وإن نحن لاحظنا تاريخ نشر أنيس منصور مقالته في مجلة (كاريكاتير) عن السوريين والسوريات وجمال عبد الناصر والوحدة السورية ــ المصرية، نلاحظ أن نشرها جاء في 1995/9/27، أي قبل حلول الذكرى الخامسة والعشرين لوفاة جمال عبد الناصر بيوم واحد. وإن نحن لاحظنا حرص إسرائيل من جانبها على اختيار تاريخ 1995/9/28 لإنجاز عملية (ابتلاع) إسرائيل ياسر عرفات وجماعته في الاحتفال المتلفز المبثوث عبر الأقمار الصناعية من واشنطن، أمكن لنا اكتشاف المعنى والهدف المقصودين من كل ذلك، وكل منهم تعبير عن حرص هذه الأطراف على تشويه جمال عبد الناصر ــ "الشخص ــ الزعيم الراحل، وإنشاء السواتر والحواجز والعوائق أمام التوجهات الإيديولوجية العربية القومية الوحدوية الناصرية في مصر وبقية أرجاء الوطن العربي. وهي اليوم في حالة انبعاث جديد، وجمر متقد في الضمائر.

غير أن ذلك كله، مهما تورّمَ حجمه، وتضخمت لا أخلاقيته، وبُرمجت سيناريوهاته ومخططاته الخبيثة المحكمة، لن يتمكن من إجهاض الانبعاث العربي الشعبي القومي الوحدوي التحرري الناصري الذي نحن اليوم في بدايته، فإن الظروف الموضوعية التي كانت دفعت جمال عبد الناصر ورفاقه العام 1952 للقيام بثورة 23 تموز /يوليو التي حظيت بتأييد شعبي عربي عارم منذ اللحظات الأولى لقيامها، شبيهة جداً بالظروف الموضوعية المفروضة اليوم على الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، مع ملاحظة أن المد التحرري الشعبي الوحدوي القومي العربي كان واجه بالمقاومة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وما كان يوصف بالأنظمة العربية الرجعية، متحالفة، منذ 23 تموز /يوليو 1952 وحتى 1970/9/28؛ وأن هذا المد العربي القومي الشعبي الوحدوي التحرري يواجه اليوم التحالف الأمريكي — الإسرائيلي الذي تسانده أنظمة الاستسلام العربية، مع ملاحظة أن (المؤامرة العظمى) هذه، اليوم، الأمريكية ــ الإسرائيلية المتحالفة مع أنظمة الاستسلام العربية تتزامن مع ظهور دلائل محسوسة عديدة تشير على نحو مؤكد إلى أن الحركة الشعبية العربية التحررية القومية الوحدوية (وهي في مصر يُرمز إليها بالناصرية)، بدأت تخرج ولو ببطء من (مرحلة الجزر) وتلج ــ ولو ببطء ــ (مرحلة المد) الذي سيكون اجتياحاً مباغتاً لكل الأطراف المتحالفة في الحقبة الراهنة، المعادية لمصالح الأمتين العربية والإسلامية، العليا.

وفي هذه المناسبة رأيت فائدة بتوجيه الرسالة المقتضبة التالية إلى أنيس منصور:

الأخ أنيس منصور، العدو الأول لجمال عبد الناصر بعد موته، والكاره للشعب السوري بكل رجاله ونسائه:

«بين يديَّ مقالتك المنشورة في مجلة (كاريكاتير) الصادرة في القاهرة في 1995/9/27. وما أود أن أسجله بداية هو أن مقالتك هذه (السوريون يشترون الترامواي في الأرجنتين)، قد أحزنتني لكنها ما أغضبتني، وإن أكن على يقين من أنها أغضبت كل من قرأها غيري من العرب الآخرين مصريين وغير مصريين، بمقدار ما أحزنت وأوجعت قلبه؛ لكن هؤلاء

الحزانى الغاضبين ما كانوا ليحزنوا أو يغضبوا لو أنهم عرفوا عنك ما يجهلون. والكثيرون من هؤلاء يتابعون منذ الخمسينات ما يُنشر لك من كتب ومقالات، باعتبارك فكراً مصرياً عربياً يكتب وينشر باللغة العربية، وليس باللغة العبرية القديمة أو الحديثة، ولو شئت أن تعدل فتنصف نفسك، لهجرت لغة أجدادك وآبائك العربية، لتكتب وتنشر مقالاتك بإحداهما. فإن ذلك هو الأجدى لك ولغيرك والأنفع؛ ويا ليتك تفعل ذلك، فإن (القومية هي اللسان) كما تعلم ونعلم، وما دمت قد آثرت الانفكاك عن قضايا الأمة العربية منذ خمسة وعشرين عاماً، فأي حق إذن تجيز لنفسك الاستمرار بالكتابة باللغة العربية ما دامت غالبية الصهاينة الذين انحزت إليهم منذ ربع قرن من حياتك المضطربة، لا تقرأ هذه اللغة العربية التي هي لغة أمك وأبيك وأجدادك وشعب مصر الطيب العريق والأمة العربية التي خنت وتخون قضاياها القومية الكبرى المصيرية منذ خمسة وعشرين عاماً، وأنت منتسب إليها؟

إذا كانت لديك «مناعة ضد حُبّ الشعب السوري رجالا ونساء» كما ذكرت في مقدمة مقالتك الجارحة حتى للحجر الصوان. فمعنى ذلك إذا أن الشعب السوري في نظرك هو (الداء المعدي) الذي ينبغي الابتعاد عنه والهروب منه، فلماذا اذا كنت (تورطت) بزياراتك الكثيرة لسورية في سنوات عهد الوحدة المصرية ــ السورية؟ وما الذي كان أجبرك على الأكل من أكل الشعب السوري، وعلى الشرب من شرابه في المنازل التي دُعيت إليها، وفي مطاعم دمشق التي كنت توجهت إليها، إذا كان الشعب السوري برجاله ونسائه هو الجدري أو الكوليرا أو السل أو الطاعون؟ أم أنك كنت تتقبل الدعوات إلى الولائم في المنازل والمطاعم السورية، لتكتسب (المناعة) ضد أصدقائك ومحبيك السوريين المعجبين بما كنت تكتبه وتنشره عن الوحدة السورية ــ المصرية، وعن جمال عبد الناصر، منافقةً وتزلفا ورياء كنا نظنه إيماناً منك وصدقاً؟ أفلم تدْعُني إلى وليمة غداء في بيتك صيف العام 1968 وبرفقتي كنعان الخالدي زعيم عشائر (بني خالد) وكلانا هو وأنا سوريان، «موبوءان» كما نفهم اليوم مما كتبت ونشرت، بجراثيم الداء المعدي؟ لماذا سمحت لنا بدخول دارك إن تكن كارها إلى هذا الحد ومنذ زمن بعيد جداً كل أفراد الشعب السوري، رجالاً ونساءً؟ لماذا سمحت لقلمك بكتابة مقالات

نشرتها في جريدة (الأهرام) وغيرها، حين حان أجل فايزة أحمد، تتغزل فيها بدسم اللحم في شفتيها؟ وما هي خسارة الشعب السوري إن كرهه أنيس منصور، وكانت لديه (مناعة) ضد حبه رجالاً ونساءً؟

لماذا ولمصلحة من تكتب وتنشر مقالتك هذه الموبوءة بسم الكره الزعاف، في هذه الفترة بالذات التي يواجه فيها الشعب السوري بكل فئاته وفصائله السياسية والثقافية الشعبية بقيادة الرئيس الأسد، أعتى وأشرس الضغوط والمؤامرات الصهيونية لإجبار سورية على الرضوخ للشروط الإسرائيلية، وعلى (التشعبط) بذيل قطار السلام المسرع مثل مرعوب خائف قلق يطارده أسد غضنفر؟ هل يشكل موقف الشعب السوري وقائده الحكيم الشجاع الصامد الصابر هذا، خطراً على (مصالح) أنيس منصور السياسية والاقتصادية الشخصية (العليا)؟ هل المطلوب من الشعب السوري سد أذنيه وإسدال جفنيه على عينيه، وقطع لسانه خياراً، ثم (التشعبط) بذيل قطار السلام حتى ينال حب وإعجاب ورضى أنيس منصور وواشنطن وإسرائيل؟

لقد سبق لك زيارة سورية حين كان رجالها وفتيانها وفتياتها ونساؤها وأطفالها يتسابقون للتواجد في أي شارع في المدن والقرى السورية سوف تعبر به سيارة عبد الناصر وهو فيها، بصفة عبد الناصر كان محرر قناة السويس المصرية من الهزيمة البريطانية، منحازاً إلى الفقراء والمغلوبين على أمورهم في مصر والعالم العربي كله، وأملاً تجسد لتحقيق حلم الدولة العربية الواحدة الكبرى. فهل من خصائص ضيائع الشعوب إجلال من جاء إليها بدعوة صادقة منها، على نية أكل لحم نسائها، أسمر كان أو أبيض؟ هل كان عبد الناصر (صربياً كاثوليكياً) أم مسلماً مصرياً عربياً؟ هل كانت النساء الشاميات ذوات اللحم الأبيض في عهد الوحدة السورية ـ المصرية، بوسنيات هيرسيكيات مسلمات، أم مواطنات سوريات أفرحهن قيام الوحدة الدستورية بين سورية ومصر؟ هل اختار السوريون جمال عبد الناصر قائداً وزعيماً لهم خلال سنوات الوحدة السورية ـ المصرية، ليضعوا تحت تصرفه لحم نسائهم وبناتهم وأخواتهم وأمهاتهم، الأبيض، كما ذكرت يا صاحب القلم الناهش أعراض وسمعة الشرفاء والشعوب؟ هل شعب سورية

كله من «البنات الحلوات» ذوات اللحم الأبيض اللواتي بهرن أشرف وأطهر زعيم أنبتته أصلاب وجذور مصر بكل مراحل تاريخها القديم والحديث. فأحب سورية هياماً منه بلحمهن الأبيض حقا (؟!) وأن تكن (حاقدا) على عبد الناصر لأنه أمر يوماً بإبعادك عن موقع قيادي كنت تشغله في الصحافة المصرية، و(عاتباً) على الرئيس الأسد لأنه كما تذكر في مقالتك الجارحة أمر بمنع كتبك ومقالاتك من التداول في سورية (وهي مقالات وكتب مشبعة بمناصرة اليهودية والصهيونية العالمية وإسرائيل على حساب أمتك العربية وأمتك الإسلامية ومصير كل منهما فهل كنت تنتظر من شعب مصر الطيب أن يثور ضد جمال عبد الناصر من أجل مصلحتك الشخصية وهل يتوجب على الرئيس الأسد (استرضاؤك) بتغيير مناهج السياسة السورية الاستراتيجية في مواجهة مناهج السياسة الإسرائيلية الاستراتيجية التوسعية حيث يكون (الموقف السوري) على هذا الصعيد تجسيدا متطابقاً مع مصالحك الشخصية الفكرية والاقتصادية بصفتك (مضاداً حيوياً) لمصالح الأمتين العربية والإسلامية العليا المصيرية؟ هل لحم نساء وبنات سورية الأبيض مستباح إلى هذا الحد؟ وإذا كان أحد الناشرين السوريين قد (لعب عليك) فـرق حصتك من أرباح كتاب لك نشره في سورية في الخمسينيات، فهل يجوز لك أن تحرم الشعب السوري برجاله ونسائه من (ودك) و(حبك) و(عطفك) مدة أربعين عاماً متصلة؟

لعل من حقي عليك أن أخبرك بحادث أو حادثة مماثلة تعرضت لها وأنا سوري مقيم في مصر عام 1986 حيث تولت إحدى دور النشر المصرية إصدار كتابي (المأزق: مصر والعرب الآخرون) في طبعته الأولى، وأشهد الله على أنه لم يصلني حتى اليوم ولو جنيه واحد من أرباح نشر هذا الكتاب، ولم يجعلني هذا الإجحاف أستبدل حبّي واجلالي واحترامي ومناصرتي لمصر وشعبها الطيب، ورئيسها الحكيم مبارك، بعكسها. فمنْ منا كان على خطأ في ذلك يا ترى؟ أنا أم أنت؟ من الذي كان في ذلك على صواب؟ أنت أم أنا؟ وهل يجوز لأحد، في أي زمان وفي أي مكان، أن يجعل أفكاره وتوجهاته وغرائزه ومصالحه ورغباته الشخصية هي (محور) هذا العالم الرحيب؟ وإذا مت أنت، ومت أنا، فهل تتوقف الكرة الأرضية عن الدوران؟

وهل سيكون ذلك نذيراً بنهاية كل شيء حي من نبات وحيوان وطير وسمك وبشر؟ فما أنت، ومن أنت يا أخِ أنيس؟ وما أنا ومن أنا؟ وما ومن أي أحد في هذا الكون سوانا؟ لستَ ولستُ وليس لأحد من مخلوقات الله، سوى ذرات في كثبان هذا الوجود، وقطرات من مياه المحيطات والأنهار والبحور.

لن تستطيع ذرة أن تسيطر على كثبان رمالها، ولا قطرة ماء أن تجر وراءها المحيطات والبحور والجداول والأنهار. فاعرف نفسك. فإن تكن أنت عدو نفسك، فليس من حقك أبداً أن تمارس مواقف تستمر بالمضي في توجهات فكرية سياسية واقتصادية فردية شخصية، مضادة لمصالح ومصير الأمة التي ولدتَ فوق أرضها، وتتحدث وتكتب وتقرأ بلغتها القومية، وقد كان فيها مهدك، وسيكون فيها لحدك يوم يشاء الله لك الرحيل.

إن شعب سورية العاشق رئيساً وحكومة وشعباً مصر العراقة والثقافة والتاريخ والإبداع، هو الذي أقدم على نسف أنابيب النفط (I. P. C) حين ابتليت مصر بالعدوان الثلاثي عام 1956، وهو الذي لم يعاقب كاتب هذه السطور حين صرخ من وراء «مايكرفون» إذاعة دمشق بأعلى صوته ملتاعاً: (هنا صوت مصر من سورية) حين دمرت القاذفات الإسرائيلية والبريطانية والفرنسية محطات الإرسال الإذاعي (أبو زعبل) في الدلتا المصرية، وهو الذي مجّد سليمان الحلبي قاتل كليبر في مصر مثلما مجده ويمجده المصريون جيلاً بعد جيل، وهو الذي منح الضابط البحري السوري جول جمال أعلى وأرفع وسام مصري بعد استشهاده في عملية تدمير المدمرة الفرنسية (جان بارت) في المياه الإقليمية المصرية. وإن أجداد هذا الشعب السوري الذي لا تحبه هم الذين استقبلوا قبل حوالي أربعة آلاف عام (سينوحي المصري) الذي لجأ إليهم في أراضيهم، وسمحوا له أن يتزوج ابنة أمير بلاد الروتنو (البقاع)، ثم ارتضوه أميراً عليهم بعد موت الأمير العربي السوري (عامو نانشي)، مثلما ارتضى أحفادهم بعد أربعة آلاف عام، جمال عبد الناصر رئيساً لهم، يوالونه بصدق وبكل البراءة وحسن النية، ويأتمنونه على حاضرهم ومستقبلهم ومصيرهم، فيبادلهم وداً بود، وإجلالاً بإجلال، واحتراماً عميقاً باحترام عميق، دون أن يخطر ببال أحدهم يومئذ أن يدفع

الكره كاتباً من مصر الغالية الحبيبة، اسمه أنيس منصور، إلى اتهام هذا الشعب الأخ الشقيق لشعب مصر العام 1995، بأنه كان يقدم إلى جمال عبد الناصر لحم نسائه وبناته الأبيض، رغم أن أنيس منصور يعلم حق العلم، أن اللحم السوري الأبيض مُرٌّ مرارة الحنظل والعلقم، وهو غير صالح كلحم الحمام الطري للأكل مسلوقاً أو مشوياً أو محشواً بالفريك الشّهيّ.

أما بعد، فإنني لا أُنصّب نفسي (محامي دفاع ــ تاريخياً) عن الشعب العربي السوري ولا عن الرئيس السوري القائد حافظ الأسد، فالشعب والرئيس في سورية منذ حوالي خمسة وعشرين عاماً، كلٌّ واحد، وهذا (الكل السوري الواحد) ليس في حاجة إلى مرافعة دفاع، لا مني ولا من غيري، فكل ما في العالم العربي اليوم مكشوف عنه الغطاء الساتر بما في ذلك أنت، والشعب السوري لن يتورط قط بالرضوخ للشروط الإسرائيلية والضغوط الأمريكية حتى لو خسر مقابل ذلك (حب) أنيس منصور واحترامه وإجلاله لهذا الشعب المبدع الذكي الصامد العريق الذي ربطته أواصر العروة الوثقى بمصر منذ أكثر من ستة آلاف عام، أي منذ عهد الملك المصري (عقرب) السابق لعهد (ناعرمر)، وهي الحقيقة التي اكتشفتْها منذ أسابيع قليلة بعثة ألمانية برئاسة الدكتور (غنتر دراير)، تمكنت من العثور على مقبرة الملك المصري (عقرب) على بعد حوالي كيلومتر ونصف خلف معبد سيتي الأول في مدينة (ابيدوس) في صعيد مصر، بالقرب من (نجع حمادي). وقد نشرت جريدة (الحياة) الصادرة في لندن يوم الثلاثاء 1995/9/19 تقريراً أكاديمياً عن هذا الاكتشاف، جاء فيه أنه تم العثور في هذه المقبرة الخاصة بالملك المصري (عقرب) السابق لعهد (ناعرمر) بحوالي مئتي عام، على مئات الأوعية الفخارية السورية الكنعانية، مما يؤكد وجود علاقة قوية بين مصر وسورية منذ تلك المرحلة التاريخية الموغلة في القدم. وهذا ما يتبين أيضاً من بقايا عصور ما قبل التاريخ التي عثرت عليها البعثة الألمانية في موقع مصري آخر هو (بوتو) وسط الدلتا، إذ وجدت هناك بقايا فينيقية ترجع إلى الألف الرابعة قبل الميلاد. كما تَبيَّن من نتائج العديد من الحفريات وجود علاقات قوية في ذلك الزمن السحيق بين مصر وبلاد «الهلال الخصيب» (سورية). ويذهب الدكتور لودفيغ (رئيس مؤتمر علماء المصريات المنعقد

في شهر سبتمبر 1995 في جامعة كمبردج في بريطانيا) إلى القول: إن بلاد كنعان كانت تشكل جزءاً من الكيان المصري الذي امتد من أسوان إلى سورية في الألف الرابعة قبل الميلاد. وتوصلت الباحثة الأمريكية «مارغريت سيربيكو» التي قامت بعملية تحليل كيميائي لبقايا الزيوت التي عثر عليها داخل الأوعية التي وضعها المصريون القدماء معهم في قبورهم، إلى أن هذه الزيوت كانت خليطاً من مواد عديدة أهمها زيت أشجار الأرز الفينيقية (السورية) التي استُخدمتْ أخشابها في بناء التوابيت المصرية. وتبيّن وجود علاقات تجارية قديمة بين الموانئ المصرية، والمدن الفينيقية (السورية) إلخ...

هذا هو البرهان التاريخي الموثق الذي يؤكد أن المبادلات التجارية بين مصر وسورية في التاريخ القديم هي التي آخت بين الشعبين ووحّدتهما... فهل كان قدماء المصريين على خطأ؟

هذا هو التاريخ يا ضاناً على الشعب السوري بودك وإجلالك لسبب غامض تعرفه أنت ولا نعرفه نحن، وهو تاريخ يؤكد من خلال التقارير الأكاديمية الصادرة الشهر الماضي عن (مؤتمر علماء المصريات في جامعة كمبردج) في بريطانيا أن العلاقات المصرية ـ السورية كانت موثقة بالعروة الوثقى منذ أربعة آلاف عام قبل الميلاد، أي منذ ستة آلاف عام قبل اليوم. وقد تكون علمتَ بخبر كانت بثته وكالات الأنباء العالمية إضافة إلى وكالة الأنباء السورية منذ شهور قليلة عن اكتشاف أرومة للفرعون رمسيس الثاني في منطقة الكسوة اللصيقة بجنوبي مدينة دمشق، فهل كان رمسيس الثاني قد توجه منذ خمسة آلاف عام إلى (آرام) التي اسمُها اليوم (دمشق) باحثاً عن النحد الفينيقي السوري الأبيض الباهر، أم أنه كان توجه إلى أرض فينيقيا (سورية) لتعزيز أواصر الوحدة بين سورية ومصر؟ هل الذي جذب صلاح الدين الأيوبي أيضاً هو البنات الحلوات في بلاد الشام؟ وهل كانت البنات السوريات الحلوات البيضاوات هن اللواتي جذبن عبد الناصر حقاً إلى سورية؟ وهل لا يسيء هذا التخرص المنشور على الناس في قاهرة صلاح الدين والمعز وجمال عبد الناصر ومبارك، باسم أنيس منصور، إلى موقف

مصر الرسمي اليوم الثابت الإيجابي من موقف سورية العادل الموضوعي الصامد من قضية السلام في المنطقة؟ وهل ليس مثيراً للشكوك والارتياب والتساؤل أن يدعو أي كاتب عربي، بل أي مواطن عربي، إلى التقارب والتلاحم مع إسرائيل، بمقدار ما يدعو إلى التباعد ومن ثم الافتراق بين مصر وأي قطر عربي آخر؟

في عمق تاريخ التَّصاهُر السياسي بين سورية الفينيقية ومصر الفرعونية*

في عددها الصادر يوم الجمعة (1995/4/14) نشرت جريدة (الحياة) عن وكالة (سانا) السورية ووكالات أنباء عالمية، خبراً مفاده أنه «أخيراً تم الكشف في بلدة (الكسوة) جنوبي مدينة دمشق عن نصب حجري بازلتي يثبت مجدداً أن الفراعنة عاشوا فترة من الزمن في سورية، وكانت لهم نشاطاتهم وحياتهم؛ وهذا ما أكده كل من الدكتور محمود عبد الحميد أستاذ التاريخ المصري القديم في جامعة دمشق، و(دومينيك فاليل) مدير معهد البرديات والآثار المصرية عندما اطَّلعا على النصب الحجري البازلتي الذي يتألف من قسمين: علوي يمثل فرعون مصر رمسيس الثاني حيث كتب اسمه بالهيروغلوفية، وقسم سفلي يشتمل على كتابة هيروغلوفية تتضمن تاريخ نقش النصب. وتأتي أهمية هذا النصب الذي يبلغ طوله 96 سم، وعرضه 74سم، وسمكه 30 سم، من اعتباره أول وثيقة أثرية يعود تاريخها إلى السنة السادسة والخمسين من حكم فرعون مصر رمسيس الثاني، أهم فراعنة المملكة الحديثة الذي امتدت فترة حكمه 65 عاماً، واشتُهر بمشاريعه العمرانية الضخمة».

وجاء في مقدمة الخبر: «أشارت اكتشافات أثرية مهمة في كل من سورية ولبنان إلى أن الفراعنة عاشوا فترة من الزمن فيها».. إلخ.

وفي رأينا أن العثور على هذا الأثر الفرعوني في إحدى الضواحي الجنوبية لمدينة دمشق في ربيع العام 1995 يشكل برهاناً إضافياً أثرياً محسوساً على حقيقة تاريخية ما تزال أخبارها حِكراً على المتخصصين في تاريخ الشرق الأدنى القديم، وهي الحقيقة التي تؤكد أن وحدة دستورية كاملة كانت جمعت فيما بين مصر وبلاد الشام في عهود فينيقيا ومصر القديمة منذ

* نشر البحث هذا في العددين الصادرين يوم الاثنين 6-11 ويوم الاثنين 1995/11/13 في مجلة (الكفاح العربي) اللبنانية السياسية.

نيف و5 آلاف ع.م، أي قبل أن يوحدها صلاح الدين الأيوبي في إحدى مراحل التاريخ الإسلامي، وقبل ألوف السنين من قيام الوحدة المصرية ــ السورية عام 1958 التي لم تعمر إلا حوالي 3 سنوات.

قد يكون من العسير على الباحث إدراك الدوافع والأسباب التي جعلت مصر منذ بدايات مراحل التاريخ القديم تتطلع بأنظارها نحو الشمال والشمال الشرقي بصفة محددة، أي نحو بلاد الشام، وجعلت سورية تتجه بأنظارها نحو الجنوب، والجنوب الغربي بصفة محددة، أي نحو مصر، إلا أنه من اليسير على الباحث ــ بالمقابل ــ اكتشاف أن التأثر والتأثير كانا متبادلين بين البلاد المصرية والبلاد الشامية منذ عهود فينيقيا الآرامية الكنعانية من ناحية، ومصر القديمة الفرعونية من ناحية أخرى، وأن تَوَجُّه صلاح الدين الأيوبي من بلاد الشام إلى مصر، ومن قبل ذلك تَوَجُّه الفاطميين من بلاد الشام نحو الشمال الإفريقي عبوراً بمصر، وارتداداً من ثم إليها، كذلك ارتداد صلاح الدين الأيوبي من مصر بعد تمكنه منها نحو بلاد الشام، كذلك تَوَجُّه الشعب السوري في اتجاه مصر العام 1958 الذي أدى إلى وصول جمال عبد الناصر إلى دمشق.. كل ذلك لم يكن ــ من منظور تاريخي بالتحديد ــ سوى محاولات من التاريخ لتكرار أو إعادة نفسه.

وحين يغوص الباحث في العمق التاريخي لمنطقة الشرق الأدنى منذ انبثاق فجر الحضارات الفرعونية والفينيقية وحضارة ما بين النهرين، يلاحظ أن العلاقات الثنائية المصرية ــ السورية كانت منذ بداياتها قبل حوالي 5 آلاف عام ونيّف، وحتى نهايات القرن الــ 20 ذات (هوية استثنائية) على صعيد العلاقات الثنائية بين دولة عربية وأخرى؛ كذلك يلاحظ أن المصالح العليا السورية والمصالح العليا المصرية كثيراً ما اختلطت أوراقها، باستثناء القليل جداً من المراحل التي أصيبت فيها هذه العلاقات بشوائب مُؤقتة عارضة سرعان مازالت، لتعود هذه العلاقات إلى خصوصيتها التاريخية من جديد.

هذا الاختلاط الذي حصَّن هذه العلاقة دائماً ضد التناقض إلا في مراحل عارضة مؤقتة، كرَّسته منذ بدايات تاريخ مصر الفرعونية وفينيقيا

السورية القديم، ظاهرة (المصاهرة السياسية) المتبادلة بين الطرفين، وهي المصاهرة التي كانت أفرزتها أوامر ملكية فرعونية بفتح الحدود الشمالية والشمالية الشرقية أمام المهاجرين إليها مما سمي في العصر الحديث ببلاد الشام، لأسباب كانت في الأساس تجارية، ثقافية، أي غير سياسية. بل أن الأوامر الملكية الفرعونية هي التي كانت شجعت المهاجرين الفينيقيين إلى أرض مصر القديمة على إقامة أول مركز تجاري لهم في (أفارس) المرجح أنها (العريش)، وثاني مركز تجاري لهم في دلتا مصر هو مركز (أشمون) الذي تُعرف به اليوم إحدى قرى الدلتا المصرية، وهو اسم إله النبات المذكر الذي كان يُعبَد في (صيدون ــ صيدا) في تاريخ فينيقيا القديم، وأصل هذا الاسم هو (أشمون عزَرْ) وهما اسمان من مفردات اللغة الفينيقية معناهما (المساعد) أو (يُساعد)، كما يؤكد ذلك المجلد ألأول من مؤلف (تاريخ سورية ولبنان وفلسطين) للدكتور فيليب حتي الذي ترجمه إلى العربية الدكتور جورج حداد وعبد الكريم رافق، وصدر عن (دار الثقافة) في بيروت العام 1982. والمرجح أن الذي شجّع على تلك الهجرات الفينيقية إلى مصر الفرعونية هو اكتشاف الفينيقيين مبدأ (العجلة) التي كان لها تأثيرها الأعظم في تطور الحضارات القديمة، وقد جاء ذكر الاكتشاف بالمصادفة وحدها في العصر الذي كان فيه التنقل من مكان أرضي إلى آخر يقوم على أساس (المبدأ المفصلي) باعتبار أن الإنسان كان ينتقل من مكان في الأرض إلى آخر استناداً إلى حركة (المفاصل) في الساقين والفخذين. فقد كانت بلاد فينيقيا زاخرة بالغابات التي كانت أخشاب مصر القديمة جميعها تستورد منها في المراكب البحرية، باعتبار أن مصر القديمة كانت دائماً في حاجة ماسة إلى هذه الأخشاب، خصوصاً أخشاب أشجار الأرز والأبنوس، وهي الأخشاب التي كانت تصنع منها المراكب البحرية والنهرية والتوابيت المصرية، وكانت تستخدم كذلك في إنشاء البيوت المصرية جميعها.

ولاكتشاف الفينيقيين العرب مبدأ (العجلة) قصة طريفة تُروى. فقد كان أحد الصيادين الفينيقيين يجر وعلاً ضخم الجثة ثقيل الوزن حين لاحظ ذلك الصياد الفينيقي أن ثقل الوعل المجرور قد خفَّ حين عبَر جثمانه المجرور من فوق ساق شجرة مقطوعة ممدة فوق الأرض وهي محررة من جذورها

الغارقة في عمق الأرض. وقد (دارت) ساق الشجرة حين عبَر فوقها الوعل الثقيل المجرور. وهكذا من خلال تلك الملاحظة بالتحديد، تمكن الفينيقيون من اختراع (العجلة) التي بدورانها فوق الأرض تحقق للإنسان ما كان يحتاج إليه، وهو الانتقال عبر المسافات لا استناداً إلى حركة (المفاصل) في الساقين والفخذين والقدمين، بل استناداً إلى حركة (دوران) (العجلة) التي حققت السرعة المطلوبة في حركة الانتقال. وقد سميت (العجلة) بهذا الاسم، لأنها (تُعجِّل) في قطع المسافات. وهكذا تمكن الفينيقيون العرب المهاجرون أصلاً من الأرض المسماة اليوم ــ (سلطنة عُمان) في شبه الجزيرة العربية إلى أرض فينيقيا، بعد أن أقاموا أولى حضاراتهم في (دلمون) أو (أوال) وهي المعروفة اليوم باسم (البحرين) قبل وصولهم إلى الشاطئ السوري من استخدام (الحصان) لجرّ هذه (العجلة) التي اخترعها الفينيقيون، فسهلت لهم عمليات أسرع للانتقال والهجرة إلى مصر القديمة لأغراض تجارية لا سياسية، وبذلك دخل (الحصان) مصر من بلاد فينيقيا لأول مرة في تاريخ مصر القديم، ولم تكن مصر قد عرفت الحصان من قبل كما يؤكد (أبو التاريخ) جيمس هنري بريستد في سِفره القيّم (تاريخ مصر القديمة) الصادر في نيويورك العام 1905. وبما أن الفينيقيين عرب، فقد سمَّى المصريون في العصر الحديث هذه (العجلة) التي تطورت إلى (السيارة)، بـ (العربية). فنحن نقول على سيل المثال: (الصينية) التي نضع فوقها أكواب الشاي أو الماء أو فناجين القهوة وغيرها، لأنها قدمت إلينا من الصين. ونقول عن نوع من شجر المانجو إنه (هندي) لأن شتلته جاءت أصلاً إلى مصر من الهند. وهكذا فإن إطلاق المصريين على السيارة اسم (العربية) هو الدليل القاطع على أن (العجلة ــ التي تطورت من بعد إلى السيارة) إنما جاءت إلى مصر من فينيقيا العربية، ولولا ذلك لما أطلق عليها المصريون اسم (العربية).

أما الفينيقيون الذين استوطنوا دلتا مصر بتسهيل من فراعنتها، فقد كانوا منتسبين إلى قبائل الــ (كا) أو (الخا)، وهم الذين، بعدما (اخترعوا) من خلال صناعة التعدين معدن البرونز بصهر النحاس مع القصدير، انتشروا في الشمال الإفريقي وأبحروا عبر الأطلسي إلى (كورن ويل) غربي بريطانيا، فكانت منهم أصول العائلة الملكية البريطانية الحاكمة جيلاً بعد جيل

حتى اليوم في بريطانيا، كما أكد الكاتب الأستاذ أنيس منصور الذي أشار إلى هذه الحقيقة التاريخية أكثر من مرة خلال السنوات الثلاثين الماضية في كتاباته غير السياسية. ومن المرجح أن الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين هم واحدة من الهجرات الفينيقية التي أبحرت من شواطئ (لوبيا الفينيقية العربية) المسماة اليوم بـ (ليبيا) واستوطنت القارة الأمريكية.

وإذا عدنا إلى تاريخ عهد تحوتمس الثالث الفرعوني الذي شهد تطوراً أفضل طرأ على العلاقات الوحدوية بين مصر الفرعونية وفينيقيا السورية، سنجد أن أبناء الأمراء السوريين كانوا يجيئون إلى مصر في بعثات متتالية لتلقي التعليم العالي في (كلية الأمراء) داخل البلاط الملكي الفرعوني، ليعودوا بعد ذلك إلى سورية وهم مزودون بخلاصة العلوم والثقافة المصرية، وكثيراً ما بقي بعض هؤلاء في مصر بصفة نهائية ليتولى فيها أرفع المناصب الثقافية والسياسية والعسكرية.

بل إن مصر، منذ عهد الفرعون تحوتمس الأول ثالث ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية، اتخذت قرارها بإرساء قواعد السياسة الخارجية على أساس (توحيد دائم) للبلاد المصرية والبلاد الفينيقية (سورية الحالية ولبنان والأردن وفلسطين وجزء من الأراضي الواقعة اليوم تحت السيادة العراقية)، وقد كان لذلك الدمج الوحدوي المصري ـ السوري أسباب موضوعية وحاجات ضرورية، منها حاجة كل من سورية ومصر مجتمعتين متوحدتين إلى صدِّ الغزو الخارجي عنهما.

في نهاية عهد الأسرة الفرعونية التاسعة عشرة، كاد الغزاة القادمون من آسيا الصغرى، ينجحون بفصل سورية عن مصر، لولا تحالف ملك سورية الشمالية (بيتشينا) مع رمسيس الثاني، وقد أدى ذلك التحالف إلى عقد أول معاهدة في تاريخ المعاهدات الدولية بين الفرعون رمسيس الثاني وملك سورية الشمالية (بيتشينا)، خوفاً من خطر الآشوريين على كل من فينيقيا ومصر القديمة. وبموجب تلك المعاهدة ظل جنوبي سورية حتى وادي بردى ودمشق متحداً مع مصر اتحاداً كاملاً دستورياً طوال الفترة من 2400 قبل

الميلاد وحتى حوالي 1200 قبل الميلاد. وكانت العلاقات الثنائية بين مصر القديمة وفينيقيا بدأت منذ عهد الفرعون سنفرو عام 2750 قبل الميلاد.

ومن الممكن ملاحظة أن سورية ومصر توحدتا في أواخر النصف الثاني من خمسينات القرن العشرين في ما سمي بـ (الجمهورية العربية المتحدة)، لمواجهة خطر ما كان يسمى حتى عام 1958 بـ (حلف بغداد) في أرض (أشور) القديمة.

وفي العام 1990، كرر التاريخ نفسه عقب غزو العراق الكويت، وكأنما آشور ومصر الفرعونية القديمة وفينيقيا، ما تزالان حيتين تمارسان الشهيق والزفير، في وقت يكاد فيه الصراع بين ذرية بني إسرائيل وذرية مصر القديمة يتجدد بعد وأده في قبر (كامب ديفيد) الشهير.

عقب إبرام الاتفاقية التحالفية التي أشرنا إليها في سطور سابقة بين حكام سورية الشمالية ورمسيس الثاني، تزوج فرعون مصر ابنة الملك السوري (خيتا سارا) الذي أحضر ابنته بنفسه إلى رمسيس الثاني في طيبة (التي سماها الفاطميون بالأقصر وهي جمع تكسير لكلمة قصر). والفاطميون العرب هم من أصل عربي سوري، وقد انطلقوا عبورا بمصر في اتجاه الشمال الإفريقي من مدينة (السلمية) القريبة من حمص، ثم ارتدوا إلى مصر بعد إنشاء دولتهم في الشمال الإفريقي، فاجتازوا (نهر النيل) إلى (الفسطاط) التي أطلق عليها مؤسس علم الاجتماع ابن خلدون – وهو من أصل حضرمي يمني – اسم (القاهرة). ولذلك سميت هذه المنطقة القاهرية بـ «الجيزة»، ليؤسسا الدولة الفاطمية في الأراضي المصرية، ولينشئوا فيها جامعة الأزهر، أول جامعة في العالم.

وقد تم تخليد تلك المصاهرة السياسية السورية – المصرية القديمة بحفر صور عنها وبنقش أخبارها في أحجار ماتزال حتى اليوم قائمة في مدخل معبد رمسيس في «أبو سنبل»، علماً أن الفرعون تحوتمس الرابع كان تزوج من قبل عهد رمسيس الأعظم، بابنة ملك مملكة (ميتاني) الواقعة وراء نهر الفرات في الأراضي السورية، وقد كان زواجاً بين سورية ومصر يصفه كتاب (مصر القديمة – مراجعة الدكتور شفيق غربال) المصري، بأنه

«كان أول اتحاد سياسي يقوم على المصاهرة بين أسرتين ملكيتين في مجمل تاريخ الاتحادات السياسية». وقد أنجبت تلك الأميرة السورية من زوجها تحوتمس الرابع، ولداً اختلطت في عروقه الدماء المصرية والسورية. هو صياد الأسود الماهر القائد الفرعوني الفذ امنحوتب الثالث الذي أنجب من زوجته السورية ابنه (امنحوتب الرابع) المعروف باسم (أخناتون) الذي حكم مصر الفرعونية في الفترة ما بين 1375-1358 قبل الميلاد. أي مدة 17 عاماً فقط.

وإن نحن توغلنا على نحو أكثر عمقاً في تاريخ مصر القديم، فسنجد أن العلاقات المصرية ــ السورية كانت شهدت، بدءاً من عهد (زوسر) مؤسس الأسرة الملكية الثالثة الفرعونية حوالي العام 2650 قبل الميلاد، وفي عهد الفرعون (سنفرو) مؤسس السلالة الملكية الفرعونية الرابعة حوالي عام 2600 قبل الميلاد، تطوراً هاماً حيث أرسل الفرعون (سنفرو) أسطولاً بحرياً من أربعين سفينة مصرية إلى شواطئ فينيقيا السورية لوضع أسس التعامل التجاري الاقتصادي التكاملي بين مصر وسورية بصورة عملية، عندما نجح الأسطول المصري في عهد الفرعون زوسر بجلب الأخشاب إلى مصر من فينيقيا.

وفي عهد الفرعون سنوسرت الثالث قامت أول محاولة سياسية مصرية لتوحيد أرض كنعان (فلسطين ــ جنوب الأراضي السورية)، بالأراضي المصرية، ثم تمكن الفرعون أمنحوتب الثالث (الأسرة الثامنة عشرة الملكية) من توحيد سورية ومصر إلى حيث الأراضي الممتدة من نهر الفرات حتى نهر (الأورنط) المسمّى اليوم بنهر العاصي.

ويقرر المؤرخ فيليب حتي في المجلد الأول من مؤلفه القيّم (خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى) أن عبادة أوزيريس مأخوذة أصلاً من عبادة الآلهة المؤنثة (عُزير)، وهذا الاسم يُطلق حتى اليوم على بعض المواليد في بلاد الشام، وبما أنه ليس ثمة من حرف (العين) في اللاتينية واليونانية القديمة، فقد تحولت الكلمة (أُزير) إلى (عُزير) أو (أوزيريس) باللغة اليونانية القديمة التي كتب بها هيرودوت تاريخ مصر القديمة، باعتبار أن حرف السين أو الــ (S) هو حرف زائد أو هو علامة الرفع، وهو ما نلاحظه على سبيل المثال في كلمة (ممفيس) التي أصلها (منف) ومنها

المنوفية وهو اسم إحدى المحافظات في الدلتا المصرية، ونُرجّح أنها في الأصل كلمة عربية مشتقة من اسم (مناف) العربي (عبد مناف).

في عهد الفرعون (نخاو) أو (نكاو) قامت مصر بتكليف عدد من البحارة الربابنة الفينيقيين بقيادة أول رحلة بحرية في تاريخ البحث العلمي. مؤلفة من أسطول مصري بحري لاستكشاف الشواطئ الإفريقية جميعها. الشمالية والغربية والجنوبية والشرقية، وقد كان قائد هذا الأسطول المصري الرُّبان العربي الفينيقي السوري (حنّون) الصيداوي. وهذه حقيقة تاريخية موثقة في كتب أجنبية وعربية كثيرة.

من الشواهد التي سقناها في أسطر سبقت يمكننا اكتشاف المسوغات الموضوعية لهذا التجاذب أو الانجذاب المصري ـ السوري المتبادل المشترك منذ أحقاب التاريخ القديم، ولماذا انتقلت كوكبة من أدباء وعلماء ومفكري بلاد الشام إلى مصر خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين في العصر الحديث، لمقارعة الاستعمار العثماني الذي كان ألح على (التتريك) وتدمير الشخصية العربية، خصوصاً في كل من سورية ومصر التي كان محمد علي الكبير بدأ يصرف جهوده المبرمجة فيها لإنشاء الدولة المصرية الحديثة بدءاً بالنهضة الثقافية والنهضة العمرانية، أما (الشيوخ) الذين انتقلوا من بلاد الشام إلى مصر، كعبد الرحمن الكواكبي، ورشيد رضا صاحب (المنار)، فقد كانوا دعاة وجوب عدم الفصل بين العروبة والإسلام، وكانت مجلة (المنار) هي الأداة الصحفية الثقافية التي تولت نشر دعوة الشيخ محمد عبده الأشهر في مصر والعالم الإسلامي، حتى الصين طوال 37 عاماً متصلة. أما عبد الرحمن الكواكبي الذي سجنه الأتراك العثمانيون بسبب دعوته إلى وجوب عدم الفصل بين العروبة والإسلام، فقد لجأ إلى مصر بعد الإفراج عنه في سورية ليستمر بدعوته العروبية ـ الإسلامية فوق أرض مصر.

ولست أجد ثراءً أهم وأغنى من هذا الثراء الذي تتصف به العلاقات الثنائية المصرية ـ السورية التاريخية في أية علاقات ثنائية عربية أخرى.

واستناداً إلى أهمية هذه التراكمات التاريخية التي تتميز بها العلاقات المصرية ـ السورية الثنائية، دعونا وندعو إلى استخلاص الدروس والعبر منها، خصوصاً أن تاريخ مصر وفينيقيا القديم يخبرنا بأن اللغة السامية الفينيقية كانت لغة التخاطب والمكاتبة الدبلوماسية المصرية، وأن أمهات الرعامسة جميعاً كن أمهات فينيقيات سوريات، وأن اسم (سفينكس ـ Sphinx) الذي هو (أبو الهول) شرقي هرم خوفو هو من مفردات اللغة السامية الفينيقية ومعناها (السيد المعظم) كما يشير إلى ذلك الدكتور أحمد داوود في مؤلفه القيّم (تاريخ سورية القديم)، وأن كلمة (النيل) هي من مفردات اللغة السامية الفينيقية واصلها (النهيل) بمعنى (الجريان) أو (الماء الجاري). كما يشير إلى ذلك الدكتور فيليب حتيّ في المجلد الأول من مؤلفه القيّم (خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى)، علما بأن حرف (اللام) غير موجود في حروف اللغة الفرعونية، وأن امنحوتب الرابع حين كان ولياً للعهد، والذي سيسمي نفسه (أخناتون)، كان قام بزيارة لفينيقيا التي منها أمه زوجة أبيه أمنحوتب الثالث، حيث (جبيل) و(صيدون ـ صيدا)، حين كان الساميون الفينيقيون في الشاطئ السوري يعبدون الإله (أدون) أو (اودناي) الذي تلفظ باليونانية القديمة (أدونيس)، وبتسلمه الحكم بعد وفاة أبيه سمى نفسه (أخن ـ أدون) ومعناها (الخادم) أو (المفيد) للإله أدون (أتون)؛ وبقيامه بثورة التوحيد في مصر في الحقبة التي كانت فينيقيا خلالها مرتبطة بها بعلاقة وحدوية كاملة، كتب أناشيده الشهيرة التي أخذها عنه من بعد النبي داوود (عليه السلام) في (مزاميره)، وقد كان من بين تلك الأناشيد أنشودة تقول:

ـ في بلاد سورية والنوبة وأرض مصر، تضع أيها الإله آتون كل شيء في مكانه. أنت الذي يعطي سورية والنوبة ومصر كل ما تحتاج إليه هذه الأراضي. فبإرادتك يا أيها الإله آتون، خلقت الأرض والإنسان والحيوان وجميع المخلوقات، وخلقت أرض سورية كما خلقت أرض مصر. فاعط سورية مثلما أعطيت مصر..

وجاء في سفر (مصر القديم) لجيمس هنري بريستد الصادر في نيويورك العام 1905، والذي ترجمه عالم الآثار المصري الدكتور حسن كمال إلى العربية في عهد الملك فؤاد الأول، ثم صدر العام 1990 عن (مكتبة مدبولي) المصرية، أن (أرسو السوري) اعتلى عرش مصر السنوات الخمس الفاصلة بين تاريخ نهاية الأسرة الملكية الفرعونية التاسعة عشرة وهو العام 1205ق.م، وبداية تاريخ الأسرة الفرعونية الملكية العشرين وهو 1200ق.م. وأن أعظم ملوك الأسرة الملكية الفرعونية الخامسة عشرة، وهو (خيان)، كان من أصل فينيقي سوري، في عهده توطدت أركان الوحدة المصرية ــ السورية، وقويت شوكتها، وتوسعت رقعتها، وتحولت إلى إمبراطورية سلطتها المركزية في مصر، فكان لها في الشرق الأدنى سلطان، وتأثير عظيم، وقد أدى ذلك إلى نشر الثقافة والعادات والتقاليد المصرية في البلاد السورية.. وفي هذا الصدد يشير الدكتور فيليب حتي في المجلد الأول من مؤلفه القيم (تاريخ سورية ولبنان وفلسطين) إلى أن الإله (حورون ـ Hawron) الذي كان يعبد في جنوب سورية، أدخل إلى المعابد المصرية في عهد أمنحوتب الثاني (حوالي عام 1450ق.م) وأن ذلك يظهر في اسم (حور محب) مؤسس السلالة الملكية الفرعونية التاسعة عشرة 1350ق.م. ويمكن الاستدلال إلى عبادة (عشتاروت) في منتصف القرن الثالث عشر من اسم أحد أبناء رمسيس الثاني وهو اسم (ميري استروت) أي (محبوب عشتاروت) علماً أن زواج رمسيس الثاني بالأميرة السورية (ماعت حور نفرورع) المعروفة في أربيات الآثار المصرية القديمة باسم (موت أمويا)، أدى إلى إنجاب عدد كبير من البنات والبنين الذين اختلطت في عروقهم وعروق أبنائهم وأحفادهم الدماء السورية ــ المصرية المشتركة وإلى تأثر الفرعون رمسيس الأعظم بدوره بالثقافة والتقاليد والعبادات السورية الفينيقية، وإلى تقديسه للإلهة السورية (عنات ــ ANAT)، وإلى أن يطلق اسمها على إحدى بناته، واسم (عنات ــ حرت) أي (عنات ــ المعطرة) على خيوله الملكية، وعلى كلبه الوفي؛ كذلك تزوج أحد أبناء رمسيس الأعظم ابنة ضابط بحري

سوري اسمه (بن عنات)، بينما أصبح الشاب الفينيقي (بن عوزن) رئيساً للشرطة في القصر الملكي في عهد الفرعون (منفتاخ).

وقد كشفت في تركيا منذ حوالي خمس سنوات، وثائق تثبت أن رمسيس الثاني لم ينتصر في (قادش) في (الروتنو) التي هي (البقاع) في لبنان اليوم، على الحثيين، إلا بعد أن أنجده الأمراء السوريون الفلسطينيون من أرض كنعان. ومعروف اليوم لكل قاصٍ ودان أن أخشاب (مراكب الشمس) في سفوح هرم (خوفو) وكذلك أخشاب التوابيت المصرية الفرعونية كانت جميعها من خشب الأرز أو الأبنوس المستورد من فينيقيا، وأن أعمدة (بعلبك) هي من غرانيت أسوان.

وفي عهد الفرعون أمنمحات الأول (عام 1960ق.م)، لجأ الضابط (سنوحي) إلى بلاد الروتنو (البقاع) عقب محاولة انقلابية شارك بها ضد مليكه امينمحات الأول في مصر، وفي (الروتنو) عاش سنوحي المصري عزيزاً مكرماً، وأحب ابنة الأمير العربي الفينيقي (عاموناشي) وتزوجها، وعندما مات الأمير حاكم (الروتنو)، خلفه سنوحي في حكم الإمارة، قبل أن يستدعيه الفرعون (سنوسرت الأول) عقب وفاة (أمينمحات الأول)، إلى مصر التي جلب إليها سنوحي معه من فينيقيا شتلات الرمان والعنب والتين كذلك الدجاج، ولم تكن مصر عرفتها من قبل.

في سورية حتى اليوم (آلة بدائية) لحرث أو فلاحة الأرض يطلق عليها السوريون اسم (مر) ــ بفتح الميم وتسكين الراء مع تشديدها ــ وهي من مفردات اللغة المصرية القديمة. كذلك فإن في سورية قرية تقع على بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً من دمشق اسمها (ضمير) ــ بتسكين الضاد ــ وقد تأكد لي من خلال بحث أجريته حول معنى هذه الكلمة، أن معناها هو (مصر) التي كان اسمها في إحدى مراحل التاريخ القديم: (دمير أو ضمير ــ Damer).

وفي مناسبة اكتشاف نصب رمسيس الثاني في (الكسوة) إحدى ضواحي مدينة دمشق الجنوبية، نشير إلى أن الطفل الشامي ما يزال يعبر حتى اليوم عن حاجته إلى شرب الماء حين يحس بالعطش بترديد كلمة

(إمبوه) ــ بتشديد وفتح الواو ــ، ونرجح أنها من مفردات اللغة المصرية القديمة بدليل وجود آثار مدينة في صعيد مصر اسمها (كوم امبو).

ونشير في هذه المناسبة أيضاً إلى أن أهل البلاد المصرية يعبرون بلغة المخاطب، في حالة إخفاقه: (تيتي تيتي زي مارحتي زي ما جيتي)، وهو التعبير الذي يستخدمه اليوم أهل بلاد الشام تعبيراً عن الإخفاق: (تيتي تيتي مثل ما رحتي مثل ما جيتي) باستخدام كلمة (مثل) بدلاً من (زي) المصرية.

وجاء في تاريخ اليازجي أن معنى (تيتي) هو (تعال) أو (تعالي) أو (المقبل) أو (المقبلة)، وهي من مفردات اللغة الفينيقية أصلاً، كذلك كلمة (نفر) ــ بكسر النون والفاء وتسكين الراء ــ ومعناها (حلوة) أو (جميلة) أو (حسناء). وهذا يقودنا إلى ما ذكره فيليب حتي في الصفحة 744 في المجلد الأول من كتابه (تاريخ سورية ولبنان وفلسطين) الصادر في مجلدين عن (دار الثقافة) في بيروت عام 1982 مترجماً عن أصله المطبوع بالإنكليزية إلى العربية تحت إشراف الدكتور جبرائيل جبور، من أن (نفرتيتي) زوجة أخناتون هي سورية فينيقية، وكانت تلميذة في (مدرسة البنات) في (صيدون ــ صيدا) حين ذهب امنحوتب الرابع (أخناتون فيما بعد) خلال زيارة قام بها لأقارب أمه، في (صيدون) من (جبيل) لتفقد هذه المدرسة، حيث كلفت أحلى التلميذات إلقاء كلمة الترحيب بولي العهد، فلما فرغت من إلقائها، ناداها ولي العهد بمفردتين من اللغة الفينيقية الآرامية، لغة أمه: (نفر ــ تيتي) أي (يا حلوة تعالي) أو (يا حسناء أقبلي)؛ أو (يا جميلة اقتربي مني)، وكانت تلك هي المناسبة التي أدت إلى زواج امنحوتب الرابع (اخناتون) بتلك الصبية الحسناء الفتية الفينيقية. ومنذ زواجه إياها دخلت هاتان المفردتان من اللغة الفينيقية، اللغة المصرية القديمة. وما يجعلنا نرجح الأخذ بهذه المعلومة هو أن زوجة رمسيس الثاني، السورية، كان اسمها (ماعت نفر ورع) المعروفة بأدبيات الآثار المصرية بـــ (موت أمويا) كما أشرنا في موضع سابق من هذا البحث.

ولعل من المفيد أن أضيف إلى ذلك كله أنني كنت سمعت بأم أذني مدير المتحف الوطني في دمشق يقول لرئيس وزراء الهند الأسبق جواهر

لال نهرو خلال زيارته للمتحف في صيف العام 1954، وخلال وجوده في قاعة الآثار المصرية أن نفرتيتي فينيقية المولد والنشأة، وقد كنت رافقت جواهر لال نهرو خلال زيارته الرسمية سورية ذلك العام، بصفتي مرافقاً إذاعياً. ثم إنني كنت إلى جانب جمال عبد الناصر حين قام عام 1959 بزيارة لمحافظة اللاذقية، وفوق أطلال (أوغاريت) الفينيقية، سمعت مدير الآثار في سورية الدكتور سليم عادل عبد الحق، يؤكد هذه المعلومة لجمال عبد الناصر ولقد كان لجزيرة (أرواد) غير البعيدة عن شاطئ أوغاريت وأفاميا، شأن في التاريخ القديم يضارع شأن صور وأوديسه و(صيدون ـ صيدا) و(بيريتوس ـ بيروت) و (جوب إيل ـ جبيل)؛ ولولا ذلك الشأن العظيم لجزيرة أرواد القريبة من طرطوس من الشاطئ السوري، لما تفاخر الفرعون تحوتمس المصري حين تمكن من إحكام قبضته عليها بعدما أحكم قبضته على الساحل الفينيقي، بإصداره بيانه المعروف في أدبيات الآثار المصرية القديمة الموثقة، وهو البيان الذي أعلن فيه:

«انظر: إن جلالته قهر مدينة أرواد، وما فيها من قمح، وقطع جميع أشجارها الجميلة. انظر، لقد كان فيها قمح كل بلاد زاهي (أي بلاد سورية). لقد كانت جنائنهم ملأى بثمارها، وحبوبهم على الجلول كانت أكثر من رمال الساحل. وقد غمر الجيش بالحصة التي نالها من الغنائم».

وكان الروم يطلقون على هذه الجزيرة اسم (سيزيكس)، ثم أطلق عليها الصليبيون اسم (تورتوسا)، وفي العصر الهلنستي سميت بـ (إنتارادس) أو (أرادوس)، وفي عهد الأشرف بن قلاوون سميت بـ (آرواد)، ومن ذلك نكتشف أن اسم مدينة (طرطوس) مشتق من اسم جزيرة أرواد في العهد الصليبي ـ وهو (تورتوسا).

.. وهكذا استناداً على هذا الثراء العريق الذي طبع علاقة بلاد الشام بمصر في مختلف مراحل التاريخ القديم والوسيط والحديث، سلباً حيناً، وإيجاباً في غالبية الأحيان، رحَّب أهل البلاد الشامية بإبراهيم باشا ابن محمد علي باشا الكبير حين زحف إلى بلادهم من مصر بهدف الوصول إلى مقر

الخلافة العثمانية في (الآستانة)، خصوصاً أن أمه سورية من حلب، واستناداً إلى هذه التراكمات التاريخية بالتحديد، كان المصريون تقبلوا الحكم الفاطمي الذي كانت رموزه وقادته من أصول سورية عربية، ثم تقبلوا صلاح الدين الأيوبي الذي أرسله حاكم حلب والموصل من بلاد الشام إلى مصر بعد اشتداد الخلاف بين (النزاريين) في أواخر العهد الفاطمي، وبالمقابل، وبسبب هذه التراكمات التاريخية بالتحديد، قام السوريون بنسف أنابيب النفط، حين تعرضت مصر إلى الاعتداء الثلاثي العام 1956؛ وحولوا الإذاعة السورية إلى إذاعة مصرية بعد نجاح القوات الجوية البريطانية ـ الفرنسية ـ الإسرائيلية بنسف محطات الإرسال الإذاعي في أبو زعبل؛ في حين شارك الضابط البحري السوري جول جمال، رفاقه المقاتلين البحارة الفدائيين المصريين في عملية إغراق المدمرة (جان بارت) مشاركة شجاعة وصلت حد الاستشهاد، ثم إن هذه التراكمات التاريخية ذاتها هي التي كانت دفعت الشعب السوري إلى اختيار جمال عبد الناصر المصري رئيساً لهم كما للمصريين في عهد الوحدة السورية ـ المصرية، وإلى أن تدخل مصر حرب 1967 ضد إسرائيل دفاعاً عن سورية، ثم إلى أن تتكاتف كل من سورية ومصر لخوض حرب 1973 ضد إسرائيل دفاعاً عن الأراضي المحتلة السورية والمصرية. وبالتدقيق جيداً في ما انتهت إليه قضية السلام في المنطقة خلال الأشهر القليلة الماضية حتى اليوم يمكننا ملاحظة أن هذه التراكمات التاريخية بدأت تفرض نفسها من جديد، لتدفع مصر على مساندة سورية في موقفها من هذه القضية؛ في الوقت الذي كان السوريون ولا يزالون منذ عهد محمد علي باشا، بل منذ وصول جيش ابنه إبراهيم باشا إلى بلاد الشام، يطلقون على (النقود) اسم (مصاري) أو (مصريات) نسبة إلى مصر التي كانت تسك نقودها ونقود السوريين في مطبعة بولاق الشهيرة؛ والتي كانت خلال الفترة التي حكم خلالها إبراهيم باشا بلاد الشام عملت على فتح أول ثلاث مدارس للتعليم في تاريخ التعليم في سورية: واحدة في أنطاكية، وأخرى في حلب، وثالثة في دمشق.

خلال تلك الحقبة من التاريخ الحديث، وفيما تلاها من مراحل حتى أواخر عقد الأربعينيات من القرن العشرين، فتحت مصر أبوابها أمام عدد كبير جداً من رجال الفكر والقلم والعلماء والتجار والشيوخ السوريين، مسلمين ومسيحيين، ليستقروا فيها، وليشاركوا بأداء أدوارهم الفاعلة في حركة التنوير المصرية. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ عبد الرحمن الكواكبي صاحب (طبائع الاستبداد) و(أم القرى) الذي كان أول من بث الدعوة إلى وجوب عدم الفصل بين العروبة والإسلام، وإلى أن تكون الخلافة الإسلامية عربية قرشية، وهي الدعوة التي أثارت الأستانة مقر الخلافة العثمانية، وتسببت باعتقاله في حلب، فلما أُطلق سراحه، هاجر من سورية إلى مصر ليستمر بدعوته الإسلامية الإصلاحية، قبل أن يأمر خديوي مصر وهو من أصل بلقاني ـ عثماني، بقتله بدس السم في طعامه، وبذلك فاضت روحه إلى بارئها فوق الأرض التي لجأ إليها، مثلما هاجر إليها من بلاد الشام الشيخ رشيد صاحب مجلة (المنار) التي تولت بل تبنت دعوة الشيخ محمد عبده الإسلامية الإصلاحية من مصر حتى الصين، وقد استمر إصدارها 37 عاماً متصلة. وعلى هذا الصعيد يمكن أن نذكر اسم طالب الأزهر السوري الحلبي سليمان الحلبي الذي يصفه الكاتب الصحفي المصري الأستاذ عبد الله إمام في كتابه (ثوة مصر) الصادر عام 1988 عن دار سنا للنشر المصرية، بأنه كان بطل «أول صورة للنضال المسلح في مصر، من خلال تنظيم يجمع المؤرخون على وجوده» وقد كان هذا التنظيم السري الذي كلف سليمان الحلبي اغتيال الجنرال (كليبر)، برئاسة الشيخ الشرقاوي؛ وعلى الرغم من كل ما تعرض له سليمان الحلبي من أهوال التعذيب قبل إعدامه بـ (الخازوق) بعد اعتقاله، لم يعترف بما كان يعرفه من أسرار ذلك التنظيم السري السياسي الوطني المصري. ومن هؤلاء الشوام الذين أسهموا بنصيب وافر من النشاط في حركة التنوير المصرية: سليم وبشارة تقلا مؤسسا (دار الأهرام) للصحافة والنشر، هنري نجيب متري مؤسس (دار المعارف)، إميل وجرجي زيدان مؤسسا (مرآة الشرق) المصرية، فارس نمر مؤسس (المقتطف)، أديب إسحق صاحب جريدة (مصر)، فرح أنطون صاحب مجلة (الجامعة)، يعقوب صروف وابن أخيه

الدكتور فؤاد صروف الذي كان من مؤسسي (المجتمع المصري للثقافة العلمية) وعضواً في اللجنة المشرفة على إصدار كتاب (إقرأ) الشهري عن (دار المعارف) وكانت تضم إلى جانبه طه حسين وعباس محمود العقاد. وكان من هؤلاء المهاجرين إلى مصر من بلاد الشام العالم نقولا حداد الذي نزح إلى مصر العام 1903 ليساهم بتحرير جريدة (الرائد المصري) لصاحبها الشامي نقولا شحادة؛ روز أنطون حداد شقيقة فرح أنطون؛ عقيلة نقولا حداد، صاحبة مجلة (السيدات والرجال) التي صدر منها في القاهرة أحد عشر مجلداً، سامي الجسر الذي ظل يرأس تحرير (المقتطف) حتى توقفت عن الصدور نهائياً العام 1952؛ فاطمة اليوسف مؤسسة دار (روز اليوسف) وهي أم إحسان عبد القدوس؛ الدكتور زكي المحاسني وزوجته الأديبة السورية وداد سكاكيني، خليل ثابت، وكريم ثابت المستشار الصحفي في القصر الملكي المصري، وهو أول مدير للإذاعة المصرية عقب تمصيرها، فارس الشدياق أحد أعمدة اللغة العربية في مصر، سليمان البستاني الذي عرَّب وهو مقيم في مصر (إلياذة هوميروس) تعريباً شعرياً، خليل مطران أول من وضع أسس النقد الأدبي الحديث في مصر وكان له دوره في الحركة الوطنية التحررية المصرية، سليم النقاش، جورج أبيض مؤسس مسرح التراجيديا في مصر، أبو خليل القباني مؤسس المسرح الغنائي فيها (وهو جد الشاعر نزار قباني لأمه).

قسطاكي الحمصي الذي وضع وهو مقيم في مصر (منهل الوارد في علم الانتقاد) الذي به وضع بين أيدي النقاد المصريين تاريخ النقد العالمي للمرة الأولى في تاريخ النقد الأدبي في مصر، روحي الخالدي، يعقوب صنوع الذي اشتهر في الصحافة المصرية باسم (أبو نضارة)، الطبيب الشامي شبلي شميّل الذي تتلمذ على يديه، المفكر المصري العلماني سلامة موسى، كذلك كان منهم المفكر بولس غانم، والأديب سليم عبد الأحد، ومي زيادة، والمؤرخ حبيب جاماتي صاحب سلسلة مقالات (تاريخ ما أهمله التاريخ) الذي كانت مجلة (المصور) الصادرة عن (دار الهلال) تنفرد بنشرها منذ صدورها وحتى الستينيات من القرن العشرين إلخ.

إضافة إلى كوكبة الشيوخ والعلماء والمفكرين والأدباء والصحفيين هؤلاء الذين هاجروا من بلاد الشام، دفعة بعد دفعة، منذ المرحلة التي تسلم في نهايتها محمد علي باشا الكبير كامل السلطات التشريعية والتنفيذية في مصر، ليستقروا في أرض الكنانة كمواطنين مصريين بالتجنيس؛ استقبلت مصر عدداً من الأسر الشامية الثرية التي ساهمت في حقلي التجارة والصناعة في مصر، ومن هذه الأسر: آل صيدناوي، وآل توتونجي، وآل قويدر، وآل تاجر، وعائلة غبور وهي من قرية (عقربا) السورية، على سبيل المثال، إضافة إلى عدد آخر من رجال القانون الشوام، الذي كان منهم موريس أرقش، عزيز وجميل خانكي، وإميل لبنان.. إلخ.. وقد كان هؤلاء الشوام، أسسوا في ميدان سليمان باشا في القاهرة (طلعت حرب اليوم) نادياً لممارسة النشاط الأدبي والفكري والموسيقي والاجتماعي كان يعرف باسم (النادي الشرقي) الذي كثيراً ما كانت تقام فيه الندوات، والأمسيات الموسيقية التي كان يحييها عازف الكمان الشامي الشهير سامي الشوا وأخوه فاضل الشوا وهما من حلب.

ومن الشوام المهاجرين إلى مصر منذ بدايات القرن عائلة شلهوب التي ينتسب إليها النجم السينمائي عمر الشريف، وعائلة شاهين التي ينتسب إليها المخرج يوسف شاهين، وعائلة السباعي السورية الحمصية التي ينتسب إليها الكاتب المرحوم يوسف السباعي، وعائلة عبد الدايم الحمصية التي ينتسب إليها الفنان التشكيلي العبقري صلاح طاهر، وعائلة داغر التي تنتسب إليها المنتجة السينمائية آسيا داغر وابنة اختها ماري كويني، وعازف العود زكي مراد والد الملحن المرحوم منير مراد، وأخته ليلى مراد، وهم من يهود مدينة حلب السورية التي منها الكسندرا بدران اليهودية السورية المعروفة باسم نور الهدى التي اكتشفها يوسف وهبة في أواخر الثلاثينيات، ودفعها إلى التمثيل السينمائي والغناء في فيلمي (جوهرة) و(برلنتي) في وقت كانت فيه الشامية بديعة مصابني ملكة المسارح في القاهرة. ومن الشوام الذين نزحوا إلى مصر من سورية بشارة واكيم والياس مؤدب، وأنور الفتال المعروف باسم

أنور وجدي، وعبد السلام النابلسي وهو من أب فلسطيني كان يقطن دمشق، وحسني البابا الخطاط (عم الممثل السوري المرحوم أنور البابا المعروف باسم «أم كامل»)، وقد تزوج حسني البابا بأكثر من مصرية في مصر، وأنجب من زوجاته: سعاد حسني البابا، ونجاة الصغيرة، وعازف الكمان عز الدين حسنى، الذين اشتهروا في عالم الغناء والموسيقى في مصر، كما اشتهر فريد الأطرش، وأخته آمال الأطرش المعروفة باسم أسمهان التي كانت لها صولات وجولات في عالم السياسة، وكانت على صلة بالجنرال ديغول حين كان من غلاة المستعمرين الفرنسيين في سورية ولبنان بداية من نهاية الحرب العالمية الأولى. والمؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي من طربلس.

وربما لا تعرف الغالبية أن الممثلة المرحومة ماري منيب، شامية من مدينة زحلة الشهيرة بواديها الظليل وجدول (البردوني) الرقراق ومناخها العليل، وبالاسم الذي أطلقه عليها الشاعر الأخطل الصغير: (جارة الوادي)، كذلك الأديب مصطفى صادق الرافعي فهو من طرابلس.

وقد اشتهر في مصر خلال عقد الخمسينيات اسم موسيقي كان يرأس أوركسترا الإذاعة المصرية، هو حسين جنيد، وهو من السوريين النازحين إلى مصر منذ عقد الثلاثينيات من القرن العشرين. كذلك فإن مؤلف مسرح الكوميديا الأشهر في مصر المرحوم بديع خيري والد الممثل المسرحي عادل خيري اللذين عملا في (مسرح الريحاني)، هو من أهل بلاد الشام المتمصرين، علماً بأن نجيب الريحاني مسيحي عراقي من الموصل في العراق. وغني عن التذكير أن الفنانة جانيت فغالي المعروفة باسم صباح هي ابنة أمير الزجل (شحرور الوادي)، وأن نجاح سلام منشدة أغنية (يا أحلى اسم في الوجود) التي يرددها شعب مصر العربي، هي شامية لبنانية من أم مصرية، كذلك محمد سلمان الذي كان له إسهاماته في إذاعة (صوت العرب) منذ اليوم الأول لإنشائها، هو من لبنان، كذلك فايزة أحمد فهي من مدينة صيدا اللبنانية.. وربما كان اسم المايسترو سليم سحاب هو آخر الأسماء التي

تتضمنها قائمة أسماء الشوام الذين نزحوا إلى مصر، منجذبين بالعشق إليها، منذ القرن السابع عشر، وحتى نهايات القرن العشرين.. فهل يتقبل الأخ الكاتب المصري الكاره كل الشوام السوريين رجالاً ونساء، أنيس منصور، أن نهديه هذا الكمَّ من هذه المعلومات ـ الحقائق ـ التاريخية؟! أم تُراه سيظل عزوفاً عن الإلمام بهذا النوع الذهبي من الحقائق التاريخية المصرية ـ السورية الذهبية؟!؟

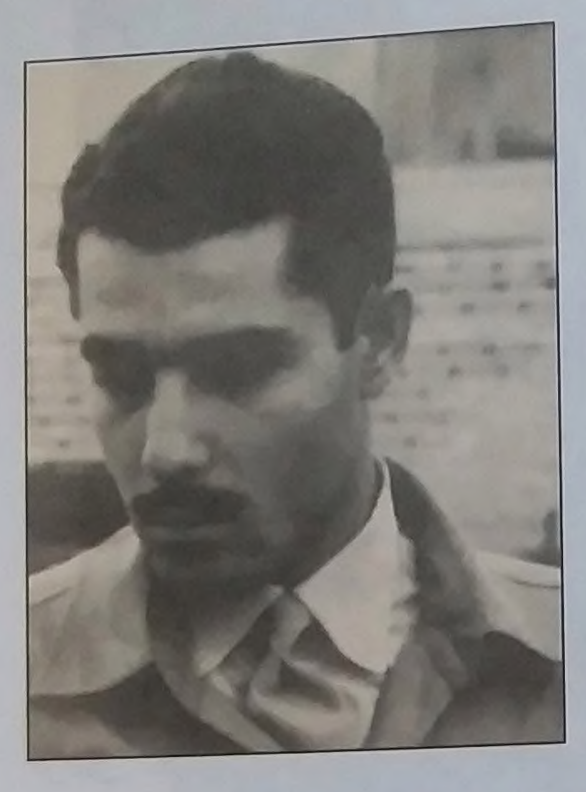
حواشي الفصل السادس

(1) هذا الفصل كتبته عام 1988. أي قبل حوالي ثلاث سنوات ونيف من إصدار صاحب السمو الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، أمراً بمنحي جنسية دولة الإمارات، وذلك بعد حوار مباشر مع سموه استمر حوالي خمس ساعات في الجناح الذي كانت تستضيفه فيه مصر خلال زيارة رسمية قام بها لأرض الكنانة؛ وكان حوارا حول مختلف الشجون العربية، والحقائق التاريخية القديمة للمنطقة العربية. وبناء على هذا الأمر الصادر عن صاحب السمو الشيخ زايد، زالت عني صفة (الوافد) و (الأجنبي) منذ منتصف شهر تشرين الثاني / نوفمبر 1991، وبذلك أصبحت منتسباً إلى دولة الإمارات بأمر من صاحب السمو رئيس الدولة، لي حقوق المواطن، وعليَّ واجباته جميعها، بعد مرور نيف وعشرين عاماً على بداية علاقتي الوظيفية بهذه الدولة العربية الفتية الخليجية التي واكبت كل مراحل تطورها من نقطة الصفر تماماً، وحتى باتت واحدة من أجمل وأهم الدول العربية على صعيدي العدالة الاجتماعية، والديموقراطية الحقيقية التي هي (غريزة اجتماعية) في دولة الإمارات، يلتزم بها الشيخ زايد التزاماً عفوياً صادقاً جداً، ولا يحيد عنها في كل الظروف والأحوال؛ وأشهد أن الشيخ زايد كان يتصرف كإنسان من منطلق غريزته الديمقراطية منذ أول لقاء جمعني به العام 1968.

(2) سبق أن أوضحت أن هذا الفصل كتب في العام 1988؛ وقد جدَّت بعد ذلك متغيرات ومعطيات كثيرة، وتحولات متلاحقة، شكلت جميعها منعطفات وصفحات من تاريخ سورية ولبنان الحديث؛ بل من تاريخ (الوطن العربي) بكل دوله ودويلاته وأقاليمه، التي استطابت التورط بالتعود على التنابذ والتخاصم، وبالاحتلام بسلام هش تكون معه إسرائيل هي السيدة، والرئيس الأمريكي هو العرّاب؛ وبالاستسلام إلى الوهن والضعف المنذرين بما هو أعظم بكثير جداً من كل ما كان وقع من قبل...

ملحق صور الفصل 6





عقب الاعتداء الثلاثي على مصر خريف العام 1956، فتحت في سورية أبواب المعسكرات أمام المتطوعين للتدرب على القتال المسلح. عبد الهادي البكار بلباس (المقاومة الشعبة المسلحة) في أحد معسكرات التدريب في إحدى ضواحي دمشق في تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 1956.

(عدسة: آزاد ـ دمشق)



الرئيس شكري القوتلي يصغي إلى عبد الهادي البكار في مدخل سُكنى الرئيس السوري الراحل في فيللا أبو سمير رفعت في شارع أبو رمانة في دمشق يوم الثلاثاء 3-2-1958 قبل قيام الجمهورية العربية المتحدة بـــ 19 يوماً.



الرئيس شكري القوتلي أمام مقر المجلس النيابي في دمشق، عقب جلسة موافقة المجلس على قيام الجمهورية العربية المتحدة بجناحيها السوري الشمالي، والمصري الجنوبي، يوم الأربعاء 1958/2/5 وقد تجسدت عملياً يوم السبت 1958/2/22.

في الصف الأول: الرئيس شكري القوتلي وإلى يمينه في الصورة صبري العسلي رئيس الوزراء، وإلى يسار الرئيس القوتلي أكرم الحوراني، ثم مرافقه العسكري مأمون تحسين، ثم عبد الهادي البكّار. **(عدسة: جورج درزي)**



جمال عد الناصر في نادي الشرطة في الاسكندرية صيف العام 1958، يتضاحك مع عبد اللطيف البغدادي، وبينهما: عبد الحكيم عامر، محمد أنور السادات، جزء من رأس كمال الدين حسين، حسين الشافعي. ويبدو وراء جمال عبد الناصر، عبد الهادي البكار، ومحمود سالم (بالنظارات السود) والمهندس محمود يونس، ومحمد عبد القادر حاتم. (عدسة: ألبير أنطون كبير مصوري «الأهرام»)



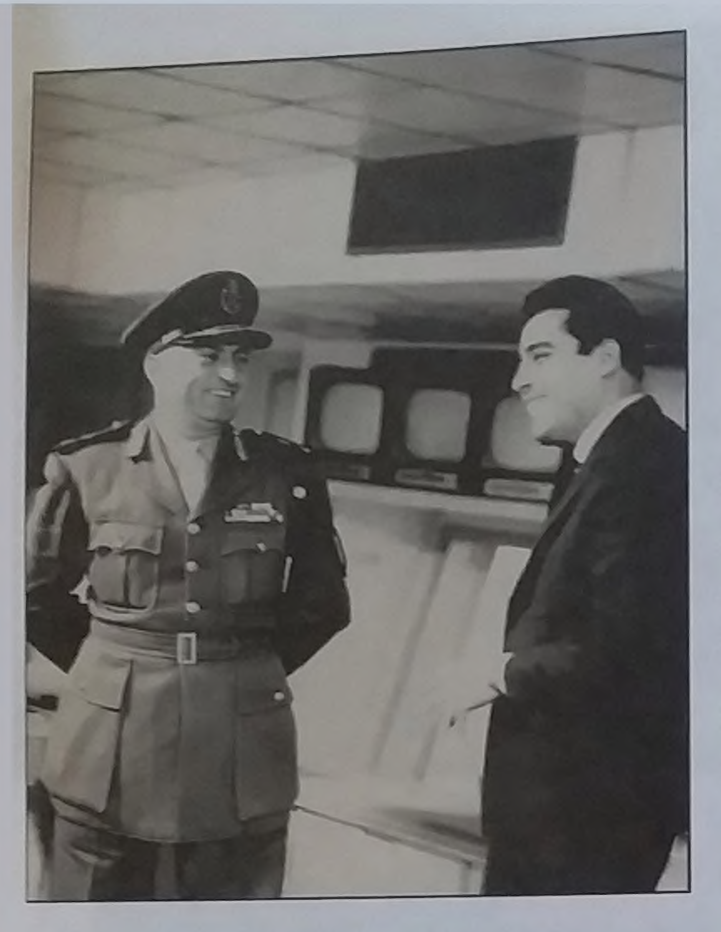
بعد أيام قليلة من قيام الوحدة الدستورية بين مصر وسورية في 1958/2/22 وتخلي الرئيس السوري الراحل شكري القوتلي عن منصبه، وصل جمال عبد الناصر إلى (مطار المزة) السوري، صبيحة يوم الاثنين 1958/2/24، دون أن يسبق وصوله إشعار بذلك. ومن مطار المزة توجه عبد الناصر إلى مقر سكنى الرئيس القوتلي في شارع أبورمانة في دمشق، وكانت تلك أول زيارة قام بها عبد الناصر لسورية. في اليوم التالي توجه ناصر والقوتلي إلى مسجد بني أمية، وأمام ضريح صلاح الدين الأيوبي، تصافحا، وقال الرئيس القوتلي لعبد الناصر ممازحاً: «وها أنذا أُسلّمُك قيادة دولة فيها خمسة ملايين زعيم»... وكان عدد سكان سورية يومئذ، فقط، خمسة ملايين نسمة.

هكذا وصفت مجلة (المصور) المصرية اللحظات التي حط جمال عبد الناصر خلالها في أرض (مطار المزة) في دمشق على نحو مفاجئ، عقب يومين من قيام الوحدة المصرية السورية يوم السبت 1958/2/22.



في 25 آذار/ مارس 1959، وفي مكان من الحدود السورية ــ اللبنانية في منطقة شتورا، وفي كوخ صغير من الصفيح، نصفه فوق الأرض السورية، ونصفه الآخر فوق الأرض اللبنانية، تم اللقاء الأول ــ الأخير، الوحيد، بين جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة؛ وفؤاد شهاب رئيس الجمهورية اللبنانية؛ بعد إرغام الحركة العربية القومية الشعبية، كميل شمعون، على مغادرة قصر بعبدا الرئاسي في لبنان، إلى الأبد. ويبدو جزء من أكرم الحوراني وراء عبد الناصر.

كان فؤاد شهاب يحظى باحترام عبد الناصر ومحبته، وقد أمر عبد الناصر بإطلاق اسم فؤاد شهاب على واحد من أكبر شوارع منطقة المهندسين القاهرية، وهو الشارع المعروف حتى اليوم باسم (شارع شهاب).



اللواء عبد الكريم زهر الدين واجهة عهد الانفصال في الفترة ما بين 1961/9/28 و1963/3/7، وعبد الهادي البكار في غرفة (الكونترول) في مقر التلفزيون السوري في ساحة الأمويين في دمشق، أواخر العام 1961.

(عدسة: عادل تغلبي)



حين كان جمال عبد الناصر يقوم بزيارة للإقليم الشمالي (سورية) من الجمهورية العربية المتحدة، كان الشعب السوري يكاد يخرج إلى الشوارع التي سيعبرها جمال عبد الناصر عن بكرة أبيه، للمشاركة بالترحيب به؛ وكانت جميع موجات الإذاعات السورية والمصرية (تنضمُّ) إلى بعضها بعضاً في بثٍّ موحد، كلما تحدث جمال عبد الناصر إلى جماهير الشعب السوري.

الصورة للبكار وهو في موكب جمال عبد الناصر خلال زيارته لمدينة حلب عام 1959، وبيده مايكروفون الإذاعات المصرية السورية الموحدة. وقد التقط هذه الصورة مواطن من حلب اسمه حسين علي منصور وأرسلها إلى المؤلف هدية عبر البريد.



إحدى جلسات اجتماع مجلس جامعة الدول العربية الطارئ الذي عُقد في فندق (شتورا بارك) في لبنان بتاريخ 26-8-1962 للبحث في شكوى سورية ضد ج.ع.م. من تدخلها بشؤونها الداخلية (في عهد الانفصال)، ويبدو في منتصف الجانب الأيسر من الصورة عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة وسيد نوفل الأمين العام المساعد، وفي الجانب الأيسر أكرم ديري ثم جادو عز الدين (رئيس وفد ج.ع.م)، ثم اللواء عبد الحميد غالب سفير ج.ع.م في لبنان، ووراءهم ضابط المخابرات السوري المتمَّصر طلعت صدقي. ويبدو من الصحفيين السوريين في الجانب الأيسر وقوفاً نصوح بابيل صاحب (الأيام) ومطيع النونو، وفي الجانب الأيمن غسان الإمام ومصطفى نجيب مدير مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية في لبنان وسورية، وسعد القاضي مندوب إذاعة صوت العرب وهو اليوم أحد مستشاري وزير الإعلام في مصر.



في ضحى يوم الخميس 1971/12/2، رفع الشيخ زايد حاكم إمارة أبو ظبي ومن حوله حكام إمارات دبي والشارقة وعجمان وأم القيوين وعجمان، في باحة قصر الجميرة في دبي، علم الدولة الاتحادية، وبعد بضعة أسابيع انضمت إمارة رأس الخيمة إلى الدولة الاتحادية.

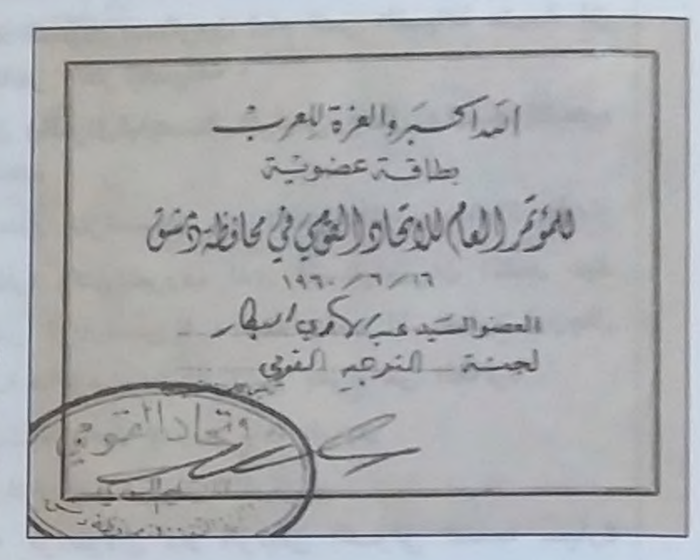
في الصورة: الشيخ زايد عقب رفعه علم الدولة الاتحادية، وإلى يساره في الصورة مرافقه العسكري الضابط سعيد البادي (وزير الداخلية الحالي في دولة الإمارات) وبينهما عبد الهادي البكار، ووراءهم الدكتور حسن عباس زكي وزير الخزانة، يومئذ، في مصر.

(عدسة: الياس جمّوعة)



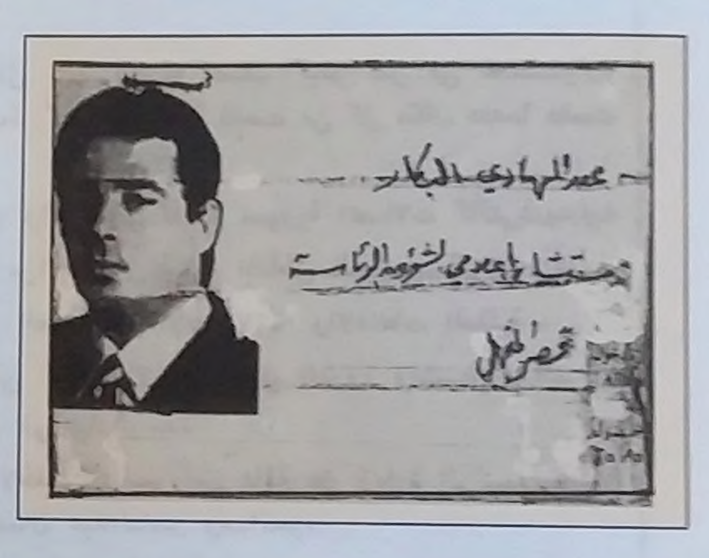
التقطت هذه الصورة لصاحب السمو الشيخ زايد وهو يودع المغفور له الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم إمارة الشارقة السابق قبل مقتله أوائل 1972 بأيام قليلة، ويبدو نجل الشيخ خالد، الشيخ فيصل (أكبر أنجاله الذي كان يومئذ يعد لولاية العهد) إلى جانب والده؛ وصاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد ولي عهد إمارة أبو ظبي وراء والده؛ ويبدو عبد الهادي البكار وراء الشيخ خالد مباشرة.

(عدسة: الياس جموعة)



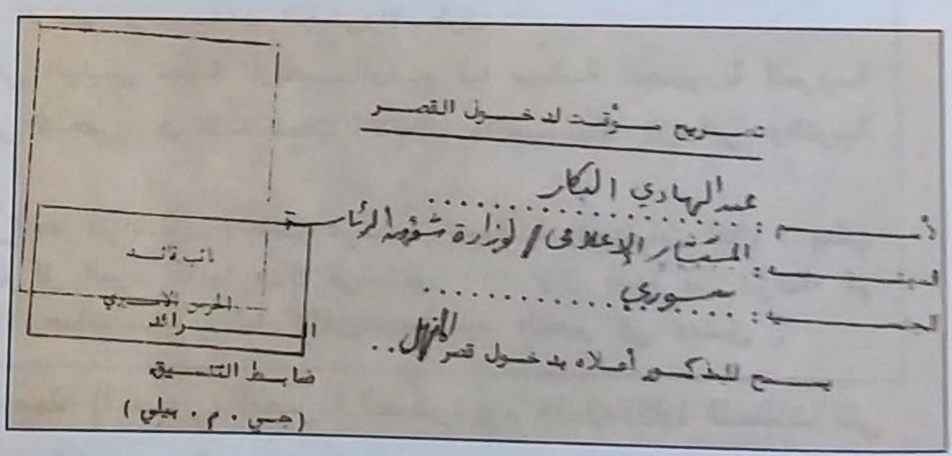
الله أكبر والعزة للعرب
بطاقة عضوية
للمؤتمر العام للاتحاد القومي في محافظة دمشق
١٦/٦/١٩٦٠
العضو السيد عبد الهادي البكار
لجنة التوجيه القومي

بطاقة عبد الهادي البكار بصفته عضواً في لجنة التوجيه القومي لفرع تنظيم (الاتحاد القومي) في الإقليم الشمالي (سورية).



عبد الهادي البكار
مستشار إعلامي لشؤون الرئاسة
قصر المنهل

البطاقة الشخصية الممنوحة إليَّ في العام 1970 بصفتي الوظيفية كمستشار إعلامي لوزارة شؤون الرئاسة في أبو ظبي (ديوان حاكم الإمارة).



تصريح مؤقت لدخول القصر
الاسم: عبد الهادي البكار
المهنة: المستشار الإعلامي / لوزارة شؤون الرئاسة
الجنسية: سوري
يسمح للمذكور أعلاه بدخول قصر المنهل ..

نائب قائد
الحرس الأميري
الرائد
ضابط التنسيق
(جي . م . بيلي)

التصريح الأمني الذي كان يُجيز لي دخول قصر المنهل (الديوان الأميري) في أبو ظبي عام 1970، وهو صادر عن نائب قائد الحرس الأميري ضابط التنسيق الرائد جي. إم. بيلي (بريطاني)، وكان ذلك قبل الاستقلال وقيام دولة الإمارات العربية المتحدة بحوالي سنتين إلا بضعة شهور.

آلاف من أبناء الشـــــعب السوري يعسكرون امام قصر الضيافة منـــذ ان وصل الرئيس جمال عبد الناصر قصر الضيافة ،

واتى الآف من لبنان والاردن والعراق لمبايعـــة الرئيس جمال وتهنئة الشعب العربي بالجمهورية العربية المتحدة

وكان وصول الرئيس الى مطار المزة صباح يوم الاثنين الماضي مفاجأة مذهلة لجميع الذين يعملون فى المطار، وكان المعروف لدى المستقبلين ان المشير عبد الحكيم عامر هو الذى سيحضر لزيارة سوريا ، وقد وقف المستقبلون ورجال المطار تعلو وجوههم الدهشـــة ، وهم يرون الرئيس يخرج من الطائرة ،

وأسرع الناس فى كل اتجـــاه وهم لا يدرون ماذا يفعلون .

● وأخيرا تمكن البعض من ابلاغ قصر الرئيس القوتلي .

● وغادر الرئيس المطار ومعه مرافقوه الى دار الرئيس القـوتلي تتقدمه سيارة اللواء عفيف البزرى .

وقطع عبد الناصر الطريق الى القصر وطوله نصف كيلو متر فى ســــيارة مكشوفة فى ثلاث ساعات وسط كتـل متراصة قدمت من كل مكان عندما علمت بوصول عبد الناصر .

• لم تشهد مصلحة البرق والبريد فى تاريخ سورية اتصالات كالتي شهدتها فى هذه الايام التاريخية سواء من الاهالي من جميع المناطق الذين يسألون عن موعد زيارة الرئيس لهم ومن ممثلي الصحف ووكالات الانباء والاذاعات العالمية .

• تدفقت الى دمشق وفود من لبنان والاردن وجبل الدروز وفلسطين والعراق والخليج العربي ومصر للاشتراك فى أعياد الوحدة.

• حرص أبناء الزعماء والاطفـــال السوريين عامة على زيارة الرئيس ليقولوا لاخوانهم وزملائهم انهم رأوا جمال عبدالناصر وصافحوه .

• زار الرئيـس وحـــــدات الجيش والاسطول .

• والقى الرئيس خطابا تاريخيـــا اوضح فيه سياسة الجمهورية العربيـة المتحدة وهي تتلخص فى ثلاث كلمات : الاتحاد والحيـــاد الايجابي والقومية العربية ...

• عبر أحد المراسلين الاجانب عن شعور وحماسة المستقبلين فقال : يمكن أن تقول ان كل العرب كانوا هناك فى دمشق ... وان أحدا من الزعماء لم يلق استقبالا حماســـــيا رائعا كالذي شهده عبد الناصر فى دمشق .

هكذا وصفت مجلة (العصور) المصرية الصادرة يوم 28-2-1958 اللحظات التي حط خلالها عبد الناصر على أرض (مطار المزة) في دمشق على نحو مفاجئ، عقب قيام الوحدة المصرية السورية يوم 22-2-1958، بيومين.

الفصل السابع 7

- توضيح أوّل...
- توضيح ثان...
- توضيح ثالث...

توضيـــح أوّل...

حرصتُ على أن أوضح في مقدمة كتابي هذا، أنني قد عثرت مؤخراً على فصول منه أعددتها إذ أنا مقيم في بلجيكا عام 1985 وهي مخزونة في صندوق كرتوني من هذه الصناديق الكرتونية التي اعتدتُ منذ ثلاثين عاماً ونيف مضت، على أن أُودِعَ فيها كل ما دفعني العزوفُ الغامضُ إلى عدم نشره، بعد إعداده وكتابته. ولسبب ما زلت أجهله، داهمتني رغبةٌ أنْ أدفع بالصفحات المخطوطات هذه إلى النشر عام 1996، على أمل أن تتيح لي ظروف ملائمة مقبلة لنشر ما تبقى مخزوناً من مخطوطاتي الكثيرة غير المنشورة.

وربما تَعوّد الكثيرون من المفكرين والكتّاب على أن يكتبوا بهدف النشر الفوري، إلا أنَّ تعوُّداً كهذا لم يتمكن من السيطرة عليَّ لسبب محدد هو أنني، كما قد أكون أشرت في موضع سابق من المقدمة، لا أكتب إلا حين يفرِضُ عليَّ إحساسي الذاتي الصرف (بالفيضان)، ذلك. وعادة ما تتكرر مواسم الفيضان في حياة المفكر الكاتب الأديب الفنان حين يكون من فصيلة هؤلاء الذين يمتَصون أكثر مما يفرزون. أما الذين يكتبون أكثر مما يقرؤون قراءات متأنية جادة، فإن كتاباتهم في أحسن الأحوال لا تترك في عقل ونفس ووجدان القارئ إلا تأثيراً مؤقتاً لا تستمر فعاليته سوى دقائق أو سويعات، ثم إن هذا التأثير يزول ويتبخر ربما بدايةً من اللحظة التي يطوي فيها القارئ صفحات الكتاب المطبوع أو الجريدة أو المجلة المطبوعة.

أما الكتاب ـ الولادَة، وهي الكتابة الوليدة من جيشان واحتدام واضطرام الفيضان، فإنها وحدها الأقدر على التأثير غير العابر، غير المؤقت، أي التأثير الفاعل الباقي؛ ربما التأثير الخالد. وهذا النوع من الكتابة، ربما يكون وحدَه الأقدرَ على المشاركة بصنع التحولات، والمشاركة بتحريك الجموع والعقول والضمائر، بل والمشاركة بصنع الأحداث التي منها يتشكل التاريخ منذ فجره حتى لا نهائياته...

إلا أن ثمة حَرَجاً كثيراً ما وقع ويقع فيه الكاتب الذي لا يكتب ما يكتب إلا حين يداهمه الشعور أو الإحساس بالفيضان، هو هذا الحرج الذي يتمثل في ارتباك الكاتب حين يداهمه موعد الفيضان المفاجئ، وهو حرج شديد

الشبه بحالة المخاض (الطَّلْق) التي تعاني منها المرأة الحامل قبل أن تُسقط من رحمها جنينها السجين المحبوس في رحمها تسعة أشهر متصلة، بحيث يمكن خلال فترة المخاض أن تَعجز الحامل عن (ترتيب شؤونها) بلا مُعين، وأن ترغمها الآلام على الصُراخ، وأن تشعر بعياء شديد لا يتبدد إحساسها به إلا حين ترى مولودها مكتمل التكوُن، بأصابع كفيه وقدميه المقبوضة، وبصوت بكائه أو صراخه المؤثر.

أريد أن أشير بهذه السطور إلى أنني عانيت من اضطراب وارتباك حقيقيين وأنا أُعد هذا الكتاب للنشر طوال الفترة من العام 1985 حتى نهاية العام 2002، وهما اضطراب وارتباك لم يسبق لي أن أصبت بهما من قبل ككاتب: وربما كان سبب ذلك أنني بدأت بكتابة فصول هذا الكتاب كما أشرت في موضع سابق وأنا مقيم في بروكسل عام 1985 بعد فراغي من قراءتي ما أمكنني الحصول عليه من مؤلفات أنطون سعادة المطبوعة، في وقتٍ كانت فيه الحرب الأهلية اللبنانية في ذروة استعارها، والحرب العراقية ـ الإيرانية في اشتداد، ووطني السوري يحاول إنقاذ لبنان من التدمير الذي شاركت به فصائل المجتمع السياسي اللبناني بلا أي استثناء، فلبنان وسورية واحد لا اثنين.

ثم حدث ما دفعني إلى الانتقال من بلجيكا إلى مصر للإقامة شبه الدائمة فيها، في وقت كانت فيه علاقات غالبية الدول العربية الدبلوماسية ومنها سورية، بمصر في حالة تهتُك تام؛ حيث كانت فئة من الأخوة المصريين تحاول اضطراراً استبدال (عروبة مصر) بالمصرية الفرعونية، وهو استبدال عسير بل مستحيل، لأن الفرعونية نوعٌ من أنواع نظام الحكم، وليست هي جنساً ولا عِرقاً يمكن اليوم الزعم بالانتماء إليه ولأنه ماض وليس حاضراً وليس هو بالمستقبل. وقد ترافَقَتْ مغامرة محاولة الاستبدال تلك بظواهر من النرجسية الانفصالية الاستعلائية في السلوك والتصرف، كادت أن تجعل العرب الآخرين في نظر بعض المصريين، هم الأعداء، في الوقت الذي كان فيه بنو إسرائيل في نظر هذا البعض، هم الأصدقاء الطيبون المخلصون، و«أبناء العم» أيضاً.

في تلك المرحلة كنت على ارتباط وظيفي بدأ صيف العام 1968 بإحدى الدول الخليجية التي واكبتُ خطوات نهضتها الاجتماعية والتنموية

يوماً بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة؛ فقد كنت أُحِبُّ زعيم هذه الدولة، وأُجِلّهُ، ولا أزال، وكان شعوري بالانتماء إلى مجتمع هذه الدول الخليجية الوليد شعوراً صادقاً حميماً جداً؛ بخاصة وأن قيامَ هذه الدولة الخليجية على أساس الفكرة العربية الوحدوية القومية ذات الروح الإسلامية، كان بالنسبة إليَّ هو البديل المحسوس، لاغتيال (الجمهورية العربية المتحدة) التي كانت جمعت فيما بين سورية ومصر منذ 1958/2/22 وحتى 1961/9/28.

وعلى الرغم من زخم اندفاعي الصادق لتكريس كل قدراتي لصالح هذه الدولة الخليجية التي اخترتُها من جانبي وطناً بديلاً لي منذ صيف العام 1968، بل وعلى الرغم من أنني بدأت صلتي الوظيفية بها كمستشار إعلامي في ديوان حاكم إحدى إماراتها الذي أصبح رئيساً للدولة الاتحادية بعد ذلك بحوالي أربع سنوات، فقد واجهتُ واقعاً نفسياً اجتماعياً بالغ الإرهاق والضراوة راح يتعاظم يوماً بعد آخر، وسنةً بعد أخرى. فقد كان الكثيرون من جيل الشباب بصفة خاصة يرفضون اعتباري (واحداً منهم)، و(عضواً قادراً مخلصاً في أسرتهم)، ويصرون على اعتباري (وافداً) مؤقتاً، أجنبياً غريباً ليس من حقه الذوبان في مجتمعهم الصغير.

وقد حاولت التسلح بالصبر سنوات كثيرات، ضاعفتُ خلالها جهودي لصالح هذه الدولة العربية الخليجية التي كنت منذ العام 1968 أحد الذين ناصروا الدعوة إلى قيامها، إلا أن ذلك لم يشفع لي عندهم، وبقيتُ في نظرهم وافداً غريباً ينبغي عليه حتماً أن يرحل يوماً عنهم، وأن لا يشاركهم مصيرهم أو مستقبلهم، وقد كنت ولاأزال أراه مستقبلاً ومصيراً محفوفين بأخطار حقيقية.

كنت أُعطي هؤلاء الود والحب صادقاً من جانبي، وكانوا يحاصرونني كل ساعة وكل لحظة بمشاعر عدم الود المتستر بجلباب المجاملات؛ ولكم كان ذلك يحزنني ويشقيني، بخاصة بعدما اكتشفتُ لا جدوى أية محاولة أقوم بها للفوز بودهم الصادق، وباحترامهم العميق، وباقتناعهم بأنني مثلهم عربي منهم وإليهم، وأنني لست الوافد الأجنبي الغريب عنهم.

كانت جراحي تنزف شعوراً بالمرارة، لكنني كنت أداريها بمزيد من زخم الاندفاع نحو المزيد من أداء الخدمات المتميز، وكانت كرامتي كإنسان تتعرض كل يوم للإهانات المتتالية المقصودة، وكنتُ أداريها بمزيد التسامي

والتسامح والغفران.وحين كانت آلامي تشتد وتكاد أن تصبح فوق طاقتي على التحمّل، كنت أحاول اللجوء إلى كتابة المزيد من فصول هذا الكتاب، دون أن تكون لديّ نية نشره.

كان اقترابي من موضوع المسألة السورية، وعلاقتها بالمسألتين الفلسطينية واللبنانية، هو اقتراب مني، اضطراري، من وطني الذي كان فيه مهدي، بل إن هذا الاقتراب كان (تمسحا) مني بوطني الذي فيه كان مهدي، فوق أرضه وُلدْتُ وترعرعْتُ طفلاً ثم شابا يافعا، قبل أن أُضحّي بشعوري بانتمائي إليه وحده، لتكريس انتمائي إلى عالم العروبة القومية الأرحب.

لم يكن خروجي من وطني الذي كان فيه مهدي، دون أسباب أو مسببات سياسية ضاغطة في العام 1962. فقد كان استمراري بمناصرة حكم الانفصال السوري بعد أن تأكد لي عدم جدارته بتحقيق ولو الحد الأدنى من الاستقرار السياسي في سورية، مخالفة لما يلزمني به ضميري. وهكذا غادرت وطني صيف العام 1962 للمساهمة بالجهود التي كانت بدأت تُبذل لإسقاط حكم الانفصال، وقد حدث ذلك في 1963/3/8 كثمرة لجهود عدد من الفصائل الوطنية السورية الشعبية والعسكرية؛ ربما كانت فصيلة الوحدويين القوميين المرتبطين عاطفياً بالبطل جمال عبد الناصر يومئذ، أكثرها عدداً؛ وكنت فرداً في هذا الفصيل.

كنت أعتبر نفسي شريكاً في هذه الثورة التي قضت على عهد الانفصال اليميني في سورية، ومن المشاركين من موقع أو آخر في عملية الإعداد لتفجيرها، وكانت لديَّ حين قامت الثورة فجر 1963/3/8 في دمشق، أسبابٍ ومبررات ومسوغات لتباعدي عن القيادة الناصرية بعد السنوات التي أمضيتها في مصر خلال عهد الانفصال السوري؛ لكنَّ تباعدي عن القيادة الناصرية يومئذ كان يعني في نظر الكثيرين ممن لم يعرفوا ما عرفت، ولم يعيشوا ما عشته في مصر وأنا لاجئ سياسي غير بعيد عن عبد الناصر، غدراً مني بعبد الناصر لم أكن أرضاه لنفسي؛ وخيانة مني للقيادة الناصرية رفضها التزامي الغريزي بالمبادئ الأخلاقية التي تربيت عليها؛ رغم أنني كنت ولا أزال أرى أنه ليس ثمة من (ناصرية)، فقد كنا عرباً سوريين وحدويين قوميين من قبل وصول عبد الناصر إلى الحكم في مصر بعهود كثيرة؛ وظللنا هكذا بعده.

كنتُ خلال تواجدي في سورية عقب شهر من نجاح ثورة 1963/3/8 سعيداً جداً بنجاحها، عاقداً العزم على أن أكون أحد جنودها الصادقين المخلصين؛ وكنت أرى أن سقوط أو إسقاط عهد الانفصال إنما كان يعني — عندي — عودة سورية إلى مكانها السابق كإقليم شمالي في الجمهورية العربية السورية. إلا أن من كانوا قد هيمنوا على قيادة الثورة في مرحلتها الأولى، كانوا يُبيِّتون أهدافاً أخرى؛ فلم يكن كل من ميشيل عفلق وأمين الحافظ وصلاح البيطار وصلاح جديد وأنصارهم، ينوون اعتبار ثورة 1963/3/8 عودة إلى ما قبل 1961/9/28 وهو تاريخ قيام الحركة الانفصالية في سورية.

في المرحلة تلك سمحت لنفسي بممارسة أكثر من مبادرة قمت بها دون تكليف من عبد الناصر لمحاولة رأب الصدع الذي كان بدأ يباعد بين القاهرة ودمشق عقب قيام ثورة 1963/3/8. إلا أن محاولاتي تلك باءتْ بالفشل، فلا عبد الناصر كان على استعداد لمنح ثقته إلى ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وأمين الحافظ وصلاح جديد وأنصارهم في المؤسسات المدنية والعسكرية والحزبية، ولا هؤلاء كانوا على استعداد لتنفيذ ما أراده عبد الناصر كأسلوب وكشروط لعودة سورية إلى مكانها السابق في الجمهورية العربية المتحدة. بل إن عبد الناصر لم يكن يرتاح قط لقيادة حزب البعث العراقي كما أعلم جيداً، وكان يرى من جانبه أن حزب البعث العراقي بدأ محاولاته المبرمجة لابتلاع سورية، ولعدم السماح لسورية بالالتحاق بالجمهورية العربية المتحدة. ربما لهذا السبب بالتحديد، لم يكن جمال عبد الناصر ينوي المشاركة بإقامة الوحدة بين سورية ومصر والعراق، وهذا ما أعرفه من جانبي جيداً. فقد سمعت أن جمال عبد الناصر قال في اليوم التالي لتوقيع كل من سورية ومصر والعراق على اتفاقية الوحدة الثلاثية ربيع 1963، ما معناه: إنه كان يشعر — وهو يوقع على الاتفاقية — بأنه في مأتم.

كان عبد الناصر بعد ساعات من نجاح حركة الانفصال في سورية فجر 1961/9/28، قد اتخذ قراره باسترجاع سورية بالقوة العسكرية؛ وبدأ على الفور بتنفيذ ذلك القرار خطوة بعد أخرى. أمر بمصادرة جميع السفن المدنية المصرية الكبيرة للانضمام إلى الأسطول الحربي البحري المصري لنقل القوات العسكرية إلى شواطئ اللاذقية، وتحركت السفن بمن فيها. ومن

مطار أنشاص الحربي تحركتْ سبع طائرات حربية قبل تحرك السفن مبحرة نحو الشاطئ السوري، ناقلةً قادةَ وجنودَ ثلاثة من الألوية المظلية (الصاعقة)، في اتجاه الأجواء السورية. في مساء ذلك اليوم، وقبيل وصول الطائرات السبع إلى اللاذقية، وقبيل تحرك الأسطول الحربي المصري البحري من الشواطئ المصرية في اتجاه المياه الإقليمية السورية؛ رقد جمال عبد الناصر في غرفة نومه في منزله في (منشية البكري)، بعدما اطمئن إلى وصول عبد الحكيم عامر من دمشق إلى مصر، وبعد لقاء مطول بينهما تم ظهر 1961/9/28، فما كاد عبد الناصر يغفو في فراشه، حتى قام سفير الاتحاد السوفييتي في القاهرة بإجراء اتصال هاتفي بمكتب جمال عبد الناصر، فلما قيل له إن الرئيس قد أخلد للنوم، أصر السفير السوفييتي على إيقاظه، لينقل إليه رسالة هامة عاجلة جداً من الكريملين. وباستيقاظ عبد الناصر، خاطبه السفير السوفييتي عبر الهاتف قائلاً ما معناه:

«سيادة الرئيس إنني مكلف بنقل الرسالة العاجلة التالية من الكرملين إلى سيادتك وهي تقول: سيادة الرئيس ناصر: دع سورية وشأنها».

لم يكن أمام عبد الناصر غير المسارعة إلى إصدار أمره الفوري بعودة الأسطول الحربي البحري المصري إلى المياه الإقليمية المصرية، والاتصال بقائد الحملة الجوية المظلية جلال هريدي الذي كان تحت إمرة عبد المحسن أبو النور يومئذ في تلك المهمة، والذي كان بدأ الهبوط بالطائرات السبع في مطار (حْميميم) في اللاذقية، يأمره بتسليم نفسه وجنوده من أفراد الصاعقة المظلية إلى السوريين دون التورط بإطلاق رصاصة واحدة، حتى ولو دفاعاً عن النفس. فقد كانت رسالة الكرملين إلى عبد الناصر تعني بكل الوضوح أن موسكو لن تساند القاهرة في عملية استرجاع سورية.

ثم، بعد أيام قليلة، أمر عبد الناصر مندوبي مصر (ج.ع.م) في كل من القاهرة ونيويورك، بعدم تعويق محاولة سورية استرجاع مقعديها في كل من هيئة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية.

إلا أن جمال عبد الناصر مع ذلك، ظلَّ يعاني من (العقدة السورية)، فلما قامت ثورة 1963/3/8، كانت سعادته بها سعادة عظيمة، فقد عاوده الأمل من جديد. فلما تبيَّن لعبد الناصر أنه لا نية لدى ميشيل عفلق وصلاح جديد

وصلاح الدين البيطار وأمين الحافظ وانصارهم بعودة سورية إلى التوحد مع مصر، وأن حزب البعث العراقي يخطط لابتلاع سورية، عاوده الحزن والقلق من جديد، ثم وقع شبه مرغم على اتفاقية الوحدة الثلاثية، لكنه، في السرّ، كان بدأ يعد العدة لاسترجاع سورية بعملية شبه عسكرية خطط لها وقادها العقيد السوري جاسم علوان (كان خارج الجيش) بالتنسيق مع جمال عبد الناصر.

في يوم 1963/7/17 أعلن عبد الناصر انسحاب مصر (ج.ع.م) من اتفاقية الوحدة الثلاثية. وقبل ظهر 1963/7/18 تحرك جاسم علوان لمحاولة إسقاط نظام الحكم السوري على نية إعلان عودة سورية إلى مكانها السابق كإقليم شمالي في الجمهورية العربية المتحدة، إلا أن هذه الحركة فشلت فشلاً ذريعاً لأسباب كثيرة. فقد روى لي جاسم علوان بعد مرور حوالي عشرين عاماً على حركة 1963/7/18 الفاشلة، أنه كان التقى جمال عبد الناصر في القاهرة سراً قبل عدة أسابيع من البدء بالقيام بالحركة المسلحة، وأن جمال عبد الناصر سأله عن نسبة النجاح المتوقعة لحركته المسلحة، فأجابه بأن نسبة النجاح لا تتجاوز نسبة 30% فقط. ومع ذلك قال له عبد الناصر:

ـــ على بركة الله ...

وهكذا قامت حركة 1963/7/18 في وقت كانت نسبة احتمال فشلها 70%.

عقب فشل الحركة التي لم تكن لي صلة بها قط، ولا بأيٍ من الذين شاركوا فيها، اعتُقلتُ في سجن القلعة في دمشق حيث أتيح لي التلاقي بالدكتور عصام الدين المحايري وجولييت المير أرملة الشهيد أنطون سعادة، وعدد من القوميين السوريين. هناك، وأنا سجين الزنزانة الانفرادية رقم (1) في سجن القلعة الذي سمعت وقرأت منذ سنين أن الرئيس الراحل حافظ الأسد، أمر بتحويله إلى متحف أو مزار سياحي؛ بدأتُ أعاني من صراع ذاتي بين (سوريتي) و(عروبتي)، ومايزال هذا الصراع مستمراً حتى يومنا هذا. إلا أن ما عانيته بعد ذلك، ومنذ العام 1962 جعلني أكتشف أن العروبة القومية ماتزال عملياً مجرد حالة ثقافية لم يتم تسييسها بعد كما أشرت في أكثر من موضع سابق من هذه الفصول، وأن أحداً في بقية أرجاء الوطن العربي خارج حدود وطني السوري الذي كان فيه مهدي، لم يقبل قط باعتماد

أوراقي كمواطن عربي له حق الإقامة والتنقل في العالم العربي الذي نريد له ألا يكون مجزءا مبعثر الأطراف؛ وكلما حاولت تأكيد انتمائي لهذا العالم القومي العربي ردني العرب الآخرون رداً قسرياً إلى وطن مهدي، سورية، التي من ضرعها شربت حليب العروبة ونسغ المسألة القومية العربية الوحدوية التي كرست لها حياتي منذ كنت طفلاً صغيراً.

كان من الطبيعي، وقد تضخمت تجربتي السياسية العملية الميدانية إلى هذا الحد التي هي عليه اليوم، أن ألجأ إلى الكتابة كلما داهمتني حالة الفيضان، وأن أغوص في تاريخ الشرق القديم حتى أعماقه، وأن أحاول كتابة صفحات وفصول عن المسألة السورية التي هي مسألتي الوطنية، وأن أعمد إلى تخزين هذه الفصول والصفحات المخطوطة دون أن أفكر أو أعمد إلى نشرها... فلما انفرط عقد العالم العربي انفراطه هذا الخطير، ولما بدأتْ بعض الأطراف العربية بالزحف على بطونها وجباهها منفردة نحو حضن أمريكا وإسرائيل دون أي نوع مُجْدٍ من الحذر المطلوب والبرمجة الحذرة، بل وحين فوجئت بأنَّ أطرافاً عربيةً راحت (تستأجر) الاستعمار استئجاراً، كأنما هو السلعة المربحة، وترى أن إسرائيل وأمريكا وبريطانيا أقرب إليها من كل أخواتها العربيات؛ وبأن سورية، وحدها منفردة لم تفرط قط بكبريائها ولا بحقها ولا بكرامتها ولا بشروطها العادلة لتشارك بعملية السلام في الشرق الأوسط مشاركة غير ساذجة، نهضتِ الفصول التي كتبتها على مراحل متعددة متتالية، والصفحاتُ التي خططتها في أمكنة متعددة سنة بعد أخرى عن المسألة السورية والقضيتين الفلسطينية واللبنانية؛ نهضتْ من قبورها الكرتونية التي كنتُ وأدْتُها فيها سنوات عديدات ماضيات، ولكم أفرحني هذا النهوض الذي دفعني إلى أن أستقبلها بكل السعادة والتلهف وإلى أن أعيد اكتشافي إياها، وإلى أن أحاول أن (أشكِّل) منها كتابي هذا الذي قد يلاحظ القارئ أنه مجموعة فصول غير مترابطة، وأن ما ورد في فصل سابق قد يكون تكرر بشكل أو بآخر في فصل لاحق، وأنه مع الصور المنشورة فيه، يشكل (طبق سلَطَةْ) غير ضار تناوله على أية حال، بل طبقاً من السلَطةْ المتنوعة العناصر فاتحة للشهية، بخاصة وأن ارتباط القضيتين الفلسطينية واللبنانية بالمسألة السورية، هو ارتباط فرضته الجغرافية ويفرضه

وسيظل يفرضه التاريخ؛ وتفرضه أيضاً (العروبة القومية) حتى وإن تكن ماتزال حتى اليوم حالة ثقافية، ومشروعاً غير مبرمج لتحديد ملامح المستقبل والمصير، العربيين.

وإنني لأكتب هذه الصفحات الأخيرة من كتابي هذا، وسورية تقف اليوم في مفترق طرق متعددة؛ لكنني مقتنع من جانبي عميق الاقتناع، بأن خيوط الحاضر السوري مستقرة اليوم في يد ذكية مخلصة أمينة؛ وربما لهذا السبب أولاً، أحاول منذ حين عقد العزْم على أن أعود إلى هذا الوطن الغالي الذي رحلت عنه منذ أربعين عاماً، دون أن يغادرني هو لحظة واحدة وأنا في سنوات الاغتراب في المنافي العربية. لكنَّ ما يكسر خاطري أنني سأعود إليه، إن عدتُ إليه وأنا كهل مايزال فيه بعض الرمق، بعد أن نزفت سنوات شبابي الزاهرات جميعها خارج حدوده، وسقيت الأرض العربية برمالها الجائعة بأحلامي القومية وبعرق جبيني طيلة سنوات الاغتراب، دون أن أتلقى شكراً، ودون أن أفوز برضىً من أحد، ودون أن أجازى ولو بالاحترام. وسأعود إلى الوطن، إن شاءت لي الإرادة الربانية عودتي إليه، بعد أن خلعوا في العالم العربي، وأنا خارج حدود وطني السوري، عن كتفيَّ، عباءة العروبة، وعن رأسي عقاله المضفور من شعر الماعز الأسود؛ ودون أن يكون في جيبي ثمن رغيف دائم أقتات وأفراد أسرتي الصغيرة به؛ فلقد خرجت من وطني في سبيل نصرة القضية العربية القومية الوحدوية، وما توجهت منذ العام 1968 إلى إحدى الإمارات الخليجية إلا لُهاثاً مني نحو سراب العروبة القومية، بالتحديد. لم أسعَ إلى مالٍ أكتنزه، ولا إلى شبر من الأرض أمتلكه، فقد كانت قضية العروبة القومية الوحدوية دائماً، فوق قضيتي الشخصية، وربما ماتزال وليس في الفوز بمكاسب وأرباح شخصية. وكان صبري على الجحود ومحاولات التحجيم والإذلال والإيذاء وأنا أمارس عشقي الصادق للعالم العربي خارج حدود الوطن الذي كان فيه مهدي قبل تسعة وستين من الأعوام، هو سلاحي وهو عزائي وهو وحده الملاذ. إلا أنني، وقد عشت طيلة مراحل حياتي صادقاً مع نفسي، ومع الآخرين، لأشعر اليوم برغبة الاعتراف بأنني أعاني اليوم من شعور لم أذُقْ طعمه من قبل أبداً، في المرحلة هذه الصعبة المضنية التي أعد نفسي خلالها حائراً، للعودة

ذات يوم مقبل مجهول الموعد والتاريخ، إلى الوطن الذي كان فيه مهدي وسنواتُ طفولتي وشبابي الذاهب التي أهدرتها وأهرقتها وأرّقتها في سبيل هذه العروبة القومية المتلألئة تلألؤ السراب..

ولكم يشقيني أنني قد غامرت فطلَّقْتُ (سوريّتي) لأتزوج هذه (العروبة القومية) الحسناء الخادعة، وأنني عاجز اليوم عن أن أطلق هذه (العروبة القومية) لأسترد (سوريتي) الحسناء الشهية، فأنا لازلت أعشقهما معاً، عاجزاً عن الابتعاد عن إحداهما بقصد الانحياز إلى الأخرى... فكيف لي الجمع بين الاثنتين معاً في آنْ؟

لقد حاولت جاداً صادقاً أن أرْضَعَ من (ثدي العروبة القومية) حليبها وأنا خارج حدود وطني الصغير، فإذا هي ترضعني حليباً به مذاق الحليب السوري، فقد كنت قبل بلوغ سن الفطام قد رضعت من (الضرع السوري) حليب العروبة القومية، لا حليب السورية القطرية وحسب...

والذي يبدو لي اليوم بوضوح، هو استحالة أن تكون وطنياً فقط، واستحالة أن تكون قومياً فقط، لأن الوطنية كما أراها إنما هي الخطوة الأولى نحو ما هو أرحب منها وهو المسألة القومية، ولأن انتماءك للعروبة القومية لا يكون مفيداً ولا ناجعاً، ما لم تتوجَّهُ إلى آفاقه البعيدة الرحيبة من حيث ينبغي أن يكون هذا التوجه، أي مِنْ شعورك الصادق بانتمائك الغريزي المخلص للوطن الصغير الذي أنْجبك، وعلَّمَكَ، وكساك وأطْعَمَكْ، وأرضعك من ثديه المدرار حليب العروبة القومية...

وفي التاريخ العربي وفي التاريخ السوري الحديث، شاهدان يؤكدان هذا المعنى الذي أشير إليه؛ أولهما: ذلك الارتباط الحميم الذي كان بين الضمير الشعبي السوري وجمال عبد الناصر المصري. ثانيهما: هذا الارتباط التلاحمي بين الضمير الشعبي العربي السوري خاصة والزعيم الراحل حافظ الأسد الذي كان دعا إلى أن تدخل الأطراف العربية مجتمعة مرحلة السلام في الشرق الأوسط، من (البوابة العربية القومية) الكبرى.. لكنَّ المصابة عقولهم بالحَوَلْ، وضمائرهم بالصدأ، لم تجذبهم ولم تقنعهم هذه الدعوة المخلصة الرشيدة بعيدة النظر.

ولست أظن أن ضمير الشعب العربي السوري، ارتبط في كل مراحل تاريخه، مثل هذا الرباط الذي جمعه في الخمسينيات والستينيات بجمال عبد الناصر؛ ثم جعله يتلاحم طيلة سنوات السبعينيات والثمانينيات والتعسينيات من القرن العشرين، مع حافظ الأسد الذي حاول خليفته الأمين ابنه الدكتور بشار ولايزال يحاول، الحفاظ على الكرامة السورية باعتبارها نواة الكرامة العربية القومية الباقية في مرحلة الحاضر العربي الذي هو الطريق نحو المستقبل العربي، وهو وحده الطريق إلى المصير العربي القومي المحفوف بخطر التدمير والانقراض، إن نحن جميعاً دون أي استثناء، لم نصحُ من السُّباتِ الذي نخره السوس، وافترسه الصدأ..

توضيح ثان...

الآن، في الساعة الثالثة من فجر يوم الجمعة 1996/5/10، انتهيت من مراجعة أوراق فصول كتابي هذا، بعد سنوات عديدة من فراغي من كتابتها في أوقات وأمكنة وظروف مختلفة متعددة؛ وقد حرصت على عدم تعديل نصوصها، فإن التعديل افتعال. وقد كتبتها كما تضَعُ الدجاجة بيضها، دون أن يَعنيها مصيرُ هذا البيض... هل سيؤكل؟ هل سيُلقى؟ هل سيُسلَقْ؟ هل سيُحْضَنُ؟ أم تراه سوف يُكَسَرُ أو ينكسر... وتعاملت معها مثلما تتعامل الدجاجة مع بيضها بعد إسقاطها إياه: هل ستُنشر؟ هل لن تُنشر؟ أم تُراها ستبقى إلى جانب غيرها من أوراقي المخطوطات المكنوزات لديَّ منذ نيّف وعشرِ سنين، في انتظار «ناشر» يعقد عليها أو على بعضها القِران؟.

كانت أوراق الفصول هذه، وفصول مخطوطات عشرين أخرى، مكدّسة في الدّروج وصناديق الورق المُقوَّى في غرفة نومي، سنين عديدة مضت، ظلت تطورات الأحداث على الساحات العربية والدولية خلالها تتحرك وتتغيَّر دون لهاث ولا انقطاع؛ تحركاً خلّف وراءه عدداً من القضايا العربية والدولية «المَيْتَةْ»، تتراكم، ثم تحتل أمكنتها في صفحات التاريخ... بل تحركاً نتجت عنه قضايا طازجة مفاجئة جديدة، في الساحات السياسية والاقتصادية والعسكرية الدولية والعربية؛ هي «طَزَاجةٌ» تُوجِبَ، بداهةً، إعادة نظر المؤلف في كل ما كتبه من صفحات وفصول مخطوطة عن أحداث «الماضي القريب»، ولم يُنْشَرْ. لكنني آثرتُ من جانبي الإبقاء على ما كنت كتبت من صفحات وفصول لم تنشر، كما هو تماماً، وعدم تعديل النصوص، رغم وقوع المستجدات الطازجة، فإنَّ «ما كان حَدَثْ» قبل خمسين أو عشرين أو عشرة أو خمسة من الأعوام، يظل جديراً باحتلال صفحات من «كتاب التاريخ»، وليس لأحد حق تجريده من هذه الجدارة.

ولست أخفي عن القارئ أن فكرة إقدامي على تمزيق أو حرق كل ما كنت كتبته من مخطوطاتي المخزونة التي تجاوز عددها العشرين مخطوطة حتى اليوم، قد خامرتني خلال السنوات القليلة الماضية أكثر من مرة؛ وكان لذلك، عندي، مبررات وأسباب ومسببات أؤثر الاحتفاظ بها لنفسي؛ وقد كانت

فصول كتابي هذا، مرشحة بدورها، للتمزيق أو الحرق، بعدما تتابع فوق رأسي، طرق المطارق الملحّ المضني، عبر أسئلة وتساؤلات من هذا النوع: لماذا أكتب؟ ولمن أكتب؟ وما الجدوى من الكتابة؟ تحت طائلة «قوانين العقوبات»، غير مسموح بنشرها على الناس إلا بعد «المراقبة» و «التعديل» و «الحذف» و «الفلترة»؟ بل كيف للكاتب أن يقتنع بتحوله إلى «قطعة لحم» يفترسها هذا «الناشر العربي» أو ذاك، دون أن يدفع «ثمنها العادل»؟

كانت هذه هي حالي ككاتب عربي ملتزم جاد غير عابث، قبل أن أتلقى رسالة خطية جوابية، عبر البريد السريع .D.H.L من الأخ العماد أول مصطفى طلاس، نائب القائد العام للجيش والقوات والمسلحة السورية، وزير الدفاع، في الجمهورية العربية السورية، وهي أرض مهدي التي وحدها ستكون أرض لحدي في موعد أحدس بأنه بات غير بعيد.. على رسالة كنت بعثت بها إليه راجياً أن يمدّني بالكتاب الأول والثاني، من سلسلة سيرة حياته الذاتية المعنونة بـ (مرآة حياتي)، بعد أن قرأت في جريدة (الحياة) اللندنية، تعليقاً لقارئٍ، حول ما ورد في الكتاب الأول للعماد أول طلاس عن صلة مفترضة لكلٍّ من عبد الحميد السراج ومحمود رياض بقضية اغتيال عدنان المالكي التي أعطت الضوء الأخضر لكل من دمشق والقاهرة في منتصف عقد الخمسينيات من القرن العشرين الذاهب، لتصفية الحزب القومي ومطاردة قياداته، واعتقال بعضها، سنين عديدة بعد ذلك استمرت خلال عهد الوحدة السورية المصرية، وعهد الانفصال، والسنوات العشر الأولى من عهد ثورة الثامن من مارس/ آذار 1963.

وعلى الرغم من أنني لم ألتق العماد أول طلاس حتى ساعة كتابة هذه السطور، فإن مطالعتي الكتاب الأول من مؤلفه (مرآة حياتي) كشفت لي عن خصالٍ في تكوّنه الشخصي كإنسان، جذبتني إليه، فهو عفوي، صريح، كريم، غير مراوغ ولا مخاتل، وهي عناصر تتشابه إلى حد التطابق مع مقومات وخصال هويتي الشخصية كإنسان.

وقد كان سهلاً عليَّ وأنا أطالع الكتاب الأول من (مرآة حياتي) اكتشاف أنه أرّخ في كتابه الأول هذا، لجوانب من أحداث وواقع سورية عاشها أو عايشها معايشة عضوية، هي الجوانب نفسها، من الأحداث ذاتها التي عشتها أو عايشتها بدوري معايشة عضوية منذ العام 1948، و1958، وما بعد ذلك

أيضاً، لكن، من موقع آخر، في عملية التأريخ التي تصدى لها العماد أول طلاس في مؤلفه الهام هذا، الذي يمكن اعتباره أول محاولة لتأريخ أحداث ووقائع الفترة من 1948 و 1958، وما بعد ذلك، السياسية ــ الاجتماعية ــ الاقتصادية ــ السورية، محاولة تميزت بالبساطة والعفوية والصراحة في آن.

أرسلت إلى العماد أول طلاس بحصاد ملاحظاتي كقارئ، وكشريكٍ له في معايشة الأحداث والوقائع السورية ذاتها، في موقع آخر مختلف عن موقعه، مقترحاً الإفادة منها في الطبعات التالية من مؤلفه هذا، فما كادت تمر أيام قليلة، حتى فوجئت برسالة بخط يد العماد أول طلاس أرسلها إلي من دمشق عبر البريد السريع، يشعرني بها بوصول رسالتي المبعوثة إليه مني عبر البريد، وبعزمه على الأخذ بملاحظاتي في الطبعات التالية للكتاب، وقد أسعدني وصول رسالته إليّْ، وتأكيده على أنه سوف يأخذ بالملاحظات التي بعثت بها إليه.

إنني أكتب السطور هذه الأخيرة من صفحات كتابي هذا، بعد «مراجعتي» نصوص الفصول المخطوطة، مراجعة التزمت بحرصي على عدم إجراء أي تعديل عليها؛ على أمل أن تصل إلى القارئ العربي هكذا كما كتبتها على مراحل مختلفة، وفي أمكنة متعددة، وظروفٍ عربية ودولية سبقت، دون أي حذف أو تحوير أو تعديل.

فإن شاءت الأقدار لكتابي هذا، الصدور من دمشق، فإن فضل ذلك يعود إلى العماد أول مصطفى طلاس وحده، أولاً وأخيراً، وهو فضلٌ يوجب عليّ الشكر؛ والإعلان عن الامتنان؛ وها أنذا أؤدي الواجب هذا عرفاناً بالجميل؛ وأنا بعيد عنه وعن الوطن الغالي ألوف الأميال منذ نيف وتسعة وثلاثين من الدهور؛ تحولت خلالها من شاب يافع، إلى مشروع شيخٍ كهل، ومن شفق إلى غسق، ومن جمرة متقدة إلى مايشبه رماداً آدمياً لم يفقد سخونته كلها بعد.. ومن شجرة مثمرة، إلى خشبٍ وحطب يضيء وهو يحترق، ويموت ويتبدّد ببطء، دون أن يطلق صرخة تألم واحدة، ولا أنّة توجع هامسة...

ومن خصال بعض الشجر، تحوّله بعد التخشب والتيبس إلى مركب أو زورق، أو إلى حطبٍ منه ينبثق النور، أو تندلع النار...

ذلك هو العزاء.. يا وطني الأغلى عندي من قُرّة عيني...

توضيح ثالث... أخير...

القاهرة ــ الساعة الثانية من بعد ظهر الأحد الأول من كانون الأول /ديسمبر من العام 2002، بعد مرور ستة أعوام وأربعة شهور على إعدادي الصيغة النهائية لفصول كتابي هذا الذي كنت أرسلت مخطوطته إلى الصديق العماد أول مصطفى طلاس في شهر أيار /مايو من العام 1996، لدفعها إلى النشر في كتاب مطبوع كما ذكرت في (توضيح ثانٍ)، وكما كان عليه الاتفاق الشفهي بيننا عبر اتصالات هاتفية بين القاهرة ودمشق قبل حوالي سبعة أعوام قد مضت بكل ما فيها من معطيات جديدة أفرزت تطورات مستفزة طرأت على الأحوال العربية والدولية، ومنها الأحوال السورية.

... ثم راحت الأعوام تتعاقب، والأحوال العربية والدولية تتغير باضطراد. تبلورت القطرية العربية على نحو غير مسبوق، وتكرست بتوجّه ياسر عرفات أيضاً إلى (أوسلو)، والملك حسين إلى (وادي عربة)، في حين لم تنطفئ جذوة النار الكامنة في لبنان، وتقوس ظهر العراق تحت الضربات العسكرية الأمريكية غير الرحيمة شبه اليومية، وجفت أمعاؤه من أهوال الحصار والتجويع، وفي غمرة هذه الكوارث العربية المتعاقبة التي راحت تتراكم، لم تتردد سورية ــ حافظ الأسد، في التوجه نحو آفاق التفاوض المباشر مع العدو التاريخي للأمة العربية تحت الرعاية الأمريكية، فتوجهتْ، ثم اكتشفتْ أن هذا العدو الأشرس مصرّ بل عازم على أن ينال بالسلام ما لم ينله من سورية بالحرب، ثم أعلنتْ أنها لن تفرط قط بشبر من الأراضي السورية التاريخية، وأنها لن تعقد اتفاقية سلام مع إسرائيل إلا مقابل استرداد سورية كامل أراضيها المغتصبة غير منقوصة، بما فيها نصيبها من شاطئ بحيرة طبريا ومنخفض (الحمة) في الجولان، كذلك جميع أنصبتها من مصادر المياه في الأراضي السورية المحتلة. وقد تزامن هذا الصمود السوري العتيد مع نهوضِ المقاومة المسلحة الشعبية في لبنان من كبوات العثرات الطارئات العارضات، ووقوفها وجهاً لوجه، ونداً للند، وفي طليعتها مقاتلو (حزب الله)، أمام جبروت الاحتلال الإسرائيلي العسكري للأراضي الجنوبية اللبنانية؛ ومع إرهاصات (الانتفاضة الفلسطينية) البطولية بذراعها

الاستشهادية غير القصيرة، وبنفَسها الطويل المصابر... كذلك تزامن ذلك كله مع ظهور فصيل في الوطن العربي، بل في بعض أقطاره بمعنى أدق، وقد راح يَحُضّ على (التطبيع مع العدو) حتى في المرحلة التي لم تَستكمل خلالها عملية السلام بعد؛ والتي شهدت مزيداً من التلاحم الاستراتيجي بين أمريكا وإسرائيل، ومزيداً من تضخم حجم الوجود العسكري والبريطاني في منطقة شبه الجزيرة العربية والخليج، ومزيداً من المنشآت الاستيطانية الصهيونية في الأراضي الفلسطينية والجولان، وكثيراً من الضغوط السياسية والاقتصادية الأمريكية على مصر، ومزيداً من افتعال تسعير الاضطراب الأمني في السودان، وكثيراً من الاستفزازات والتهديدات الأمريكية ضد سورية، ومزيداً من التحريض الخارجي على قيام عدد قليل من اللبنانيين بمناكفات وتحديات مبرمجة، للوجود السوري في لبنان، وهو وجود محصن مُقنَّن بالشرعيتين اللبنانية والعربية.. وفي ذروة تأزُّم هذه المستجدات كلها، كُسِفَت الشمسُ وخُسِفَ بل وانشقَّ القمر، وشاءت الإرادة الإلهية أن يرحل حافظ الأسد دون أن يوقع على معاهدة سلام مع إسرائيل غير عادلة، ولا صالحة للبقاء، كما فعل غيره من الزعماء العرب الآخرين الذين عضّوا أصابعهم بأنيابهم لا بقواطعهم وحسب، ندماً على تورطهم بتوقيع صفقات معاهدات سلام مع إسرائيل، كانت بلادهم فيها هي الخاسرة، وكانت إسرائيل هي الرابحة، على الرغم من أن التطورات المتعاقبة قد كشفت عن حقيقة أن إسرائيل غير معنية بالسلام كما يفهمه العرب، وأنها ماضية في توسعها بالقوة العسكرية، وبالتحالف مع أمريكا وبريطانيا، إلى أن تجسد حلمها التوراتي القديم المعلن، بإحياء مملكة داوود ومن بعده ابنه سليمان، من النيل إلى الفرات، وبإنشاء دولة إسرائيل الكبرى، بالاغتصاب العسكري، وليس المفاوضات ولا بالمباحثات، فإنّ إسرائيل تسخر منها جميعاً، وهي المرتدة إلى مفاهيم عصور الغاب، حيث القوة هي الشرعية، وهي القانون.

قبل رحيل حافظ الأسد بأسابيع قليلة، استطاعت المقاومة الوطنية اللبنانية الشعبية المسلحة، إرغام قوات الاحتلال الإسرائيلي على الانسحاب من الأراضي الجنوبية اللبنانية انسحاباً بدا أشبه ما يكون بهروب سرب من الفئران من سعير النار... ثم تعاظمت الانتفاضة الفلسطينية، يَمْهرُها كلَّ يوم

دون انقطاع، كتائب الشهداء الفلسطينيين بدمهم الزكي السفيك، يزرع الرعب في قلوب العبرانيين اليهود الصهاينة، المسلولين من أصلاب أجدادهم الغاصبين القادمين إلى أرض فلسطين من وراء البحار؛ بالتنسيق مع بريطانيا، ومع الولايات المتحدة الأمريكية. وفي هذا المناخ الزاخر بالاضطراب والتعقيد، حلت سياسات الفراق محل واجبات الوفاق بين غالبية الأقطار العربية وبعضها الآخر، وتأكد للقاصي والداني، للقريب والبعيد، للغرباء وذوي القربى في آن، أن الثوابت الاستراتيجية للسياسات السورية ومواقفها المعلنة غير الخفيّة، على صعيد قضايا الصراع العربي الإسرائيلي، وهي الخندق الأخير المتبقّي للأمة العربية بكل شعوبها دون أي استثناء، ودونَهُ باطل الأباطيل، وَخَرْطُ القتادْ؛ وأنه ـ في هذا الخندق تحديداً ـ ستحدد معالم هوية المصير العربي برمته؛ فإما البقاء وإما الفناء...

في هذا المناخ العربي والإقليمي والدولي الأكثر اضطراباً، والأشد خطراً، دفعت بمخطوطة كتابي (أسرار سياسية عربية) إلى النشر، وصدر عن (دار الخيال) المصرية في القاهرة؛ فإذا به يحظى باهتمام استثنائي جداً داخل الوطن العربي، وفي أوساط الجاليات العربية في أوروبا وأمريكا، وقد وَضُحَ هذا الاهتمام عبر الصحافة العربية التي نشرت فصولاً منه، في العالم العربي وفي المهاجر الأوروبية والأمريكية، أو التي خصصت مساحات غير ضيقات لنشر (تعقيبات) القراء على ما ورد في بعض فصوله، كذلك عبر الفضائيات العربية، وعبر الكثير من الاتصالات الهاتفية التي أجراها كثيرون جداً ممن لا أعرفهم ولا يعرفونني من قبل، للتحاور الحي معي؛ وكل هذا أكد لي أن القارئ العربي موجود، وأن الكاتب السياسي العربي الجاد الموضوعي المجرب الموهوب هو المفقود، وبذلك يكون العيبُ في الكاتب السياسي العربي، وليس في القارئ العربي كما يزعم الزاعمون.

وفي هذا المناخ العربي والإقليمي والدولي الأكثر اضطراباً، والأشد خطراً، أثارت الصهيونية العالمية وحلفاؤها في أوروبا وأمريكا عاصفة هوجاء رعناء، ضد صدور كتاب (فطير صهيون) لمؤلفه العماد أول مصطفى طلاس نائب القائد العام وزير الدفاع في سورية، في الوقت الذي كانت فيه أمريكا ومانزال، قد صنّفت سورية في قائمة الدول الراعية

للإرهاب، مسلطة نصلة سيف التهديد على الرقبة السورية؛ فلما نشر الكاتب الصحافي السياسي المصري الجسور عادل حمودة في أواخر العام 2001، مقالة ممهورة باسمه، مستقاة من كتاب طلاس عن (فطير صهيون)، جددت الريح الصهيونية عصفها صيف العام 2002، منطلقة هذه المرة من مكانها في فرنسا، مطالبة بإحالة رئيس تحرير جريدة (الأهرام) المصرية التي نشرت مقال عادل حمودة، إلى إحدى المحاكم الباريسية، لمساءلته عما ورد في مقالة حمودة عن (فطير صهيون)، إلا أن القضاء الفرنسي الشهير بعدله وعراقته، تمكن من إخماد لظى نار الحقد الصهيوني الأحمق، بإحالة القضية إلى القضاء المصري... في وقت كان العماد طلاس خلاله قد تقدم إلى إحدى الجامعات الفرنسية العريقة، لمناقشة أطروحة أعدها عن الأبعاد الجيوبوليتيكية ـ الجيوتاريخية، لـ (سورية الطبيعية) الشاملة الأراضي الطبيعية السورية اللبنانية الأردنية الفلسطينية، مجتمعة، وهي الأراضي الطبيعية التاريخية المسماة بـ (الأراضي السورية) التي تمكنت الصهيونية العالمية من اغتصاب جزء منها، هو أرض فلسطين. إلا أن الصهيونية قد أخرجت من خنادقها في فرنسا، شياطينها وعملاءها المتحالفين معها، للحيلولة دون مناقشة الأطروحة في إحدى الجامعات الفرنسية، ومنع صاحبها العماد أول طلاس من الحصول على شهادة الدكتوراه عن أطروحته المعنونة بـ (سورية الطبيعية) التي صدرت عن (دار طلاس) للنشر في دمشق، قبل انصرام العام 2002. إلا أن موقف الصهيونية والصهاينة من قضية كتاب (فطير صهيون)، ثم من مقالة عادل حمودة المنشورة في مصر في العام 2001، ومن أطروحة العماد أول طلاس من ثم عن (سورية الطبيعية) الشاملة الأراضي التي اغتصبتها العصابات الصهيونية بالقوة المسلحة في العام 1948، ومن قضية المسلسل التلفزيوني المصري (فارس بلا جواد) للفنان محمد صبحي؛ كل ذلك قد نبهني كما نبه كثيرين غيري، إلى أن إسرائيل الصهيونية إذاً، لا تقتصر في حروبها ضد الأمة العربية على القوة العسكرية وحسب، بل هي ترتكز في الوقت نفسه أيضاً إلى سلاح (التزوير التاريخي) الذي برعت باستخدامه، منذ أن عمد الصهاينة الأولون إلى تزوير (التوراة) تزويراً جردها من هيبتها الإلهية السماوية، وانخفض بها إلى

المستوى الآدمي البشري العبراني اليهودي الصهيوني الإسرائيلي، ومصالحه الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية الاغتصابيّة الساعية إلى السيطرة، لا على أرض فلسطين والأراضي العربية المحتلة منذ العام 1967 وحسب، ولا على الأراضي التي تتطلع إسرائيل الصهيونية إلى تقيم فوقها ما يسمى بـ (إسرائيل الكبرى) من النيل إلى الفرات وحسب أيضاً، بل على العالم بكل قاراته وأممه ومجتمعاته دون أي استثناء، وحتى يوم ستقوم القيامة وتتفجر الكرة الأرضية بكل ما ومن عليها، شظايا وفتيتاً في الفضاء...

وفي عصر الهوان العربي الأكبر، والجنون الإقليمي والدولي الأعظم هذا، بعد موت الاتحاد السوفييتي بالسكتة القلبية، وانقراض منظومة الدول الاشتراكية في أوروبا الشرقية، وبعد فشل التجربة الناصرية على صعيد مجابهة التطلعات التوسعية الصهيونية الإسرائيلية، وبعد موت جمال عبد الناصر، وعجز الأحزاب العربية القومية عن تحقيق أهدافها المعلنة، وبعد أن كرّس الانقسام العربي ذاته على الوطن العربي بكل أقطاره في آسيا كما في إفريقيا؛ وبعد أن تحولت جامعة الدول العربية مرآة تنعكس على صفحتها الصقيلة شروخ هذا الانقسام... بل وبعد أن برزت إرهاصات تحول هوية الصراع من هوية صراع عربي إسرائيلي، إلى هوية صراع إسلامي يهودي ديني ــ سياسي ــ عسكري ــ ثقافي ــ اقتصادي مختلط، لمع في الكون الأرضي بريق حدث 11 أيلول /سبتمبر الأمريكي، لمعان ألمِ الضرس المنخورة، ليُحول إرهاصات تحوّلِ الصراع من هوية صراع عربي إسرائيلي في منطقة الشرق الأوسط، بعد بروز إرهاصاته، إلى هوية صراع إسلامي ــ يهودي، ديني، بل إلى هوية صراع إسلامي ــ مسيحي، يخفف الأعباء المحتملة الأشد ثقلاً، عن كاهل الصهيونية اليهودية العبرانية، ويزجُّ المسلمين والمسيحيين في شتى بقاع الأرض، في حرب شبيهة بالحرب الصليبية التي كانت استمرت تفاعلاتها مدة مئتي عام متصلة دون هوادة... ذلك ما هدف إليه حدث 11 أيلول /سبتمبر 2001 في واشنطن ونيويورك، وهو هدف كما نرى غير إسلامي، بمقدار ما هو هدف غير مسيحي، لأن ذلك الزلزال الأشد الأعتى، قد أتاح للصهيونية العالمية مزيداً من فرص إحكام السيطرة على الولايات المتحدة الأمريكية، من خلال ما يسمى (باللوبي

الصهيوني) ومن خلال مسيحيّي اليمين الأمريكي المنتمين إلى المذهب المسمى مذهب (الصهيونية المسيحية) أو (إسرائيل المسيحية) أو (المسيحية الإسرائيلية)، وهم يَعُدُّون اليوم سبعين مليون مسلح، منها على سبيل المثال منظمة (شهود يهوه) ومنظمة (ديفيد كورش)، وهما منظمتان سريتان أمريكيتان مسلحتان، شأنهما في ذلك شأن بقية المنظمات السرية الأمريكية المسلحة الأخرى، وعددها كما ذُكر، ألف ومئتا تنظيم، لا أراها مبرأة من دم جون كينيدي، ولا من مسؤولية التخطيط لحدث 11 أيلول /سبتمبر الأمريكي، ولا من توريط (الدولة الأمريكية) باتخاذ مواقف ضارة بمستقبلها الغامض بالمقام الأول، ومنها مواقف انحيازها شبه الدائم للمظالم بل ضد الأمتين العربية والإسلامية...

وفي هذا المناخ العربي والإسلامي والإقليمي والدولي المضطرب المضطرم، أيضاً وأيضاً، كشرت أمريكا عن أنيابها، وأخرجت من خزائنها السرية، أسرارها ومخططاتها الموضوعة منذ العام 1980، ومرفقات هذه المخططات الموضوعة من خرائط تفتيت الوحدة الدستورية لجميع كيانات الدول العربية، واحدة بعد أخرى، بدءاً بالعراق، وعبوراً بسورية ولبنان، ومصر والسودان والمملكة العربية السعودية، والأردن وتركيا وإيران إضافة إلى أفغانستان وباكستان، والجزائر، على سيل الأمثلة لا الحصر؛ فكل دولة من هذه الدول مرشحة للتفكيك إلى مجموعة من الكانتونات العرقية والمذهبية الدينية، كما كان حدث لدول البلقان عقب نهاية الحرب العالمية الأولى...

في هذا المناخ العصيب، اتخذت قراري بدوري النهوض، للخروج من عالم الحزن والاعتكاف والقنوط المثبط للهمة؛ فإن الواجب ليقضي اليوم بأن يتصدى المواطن العربي، أين تكون أرضه، وأين يكون موقعه، لمجابهة هذه المخططات الصهيونية الأمريكية البريطانية الإسرائيلية اليهودية العبرانية الدولية الأوروبية المختلطة، مجابهة لا فرار لأي أحد منها، فهي ستدهمنا غداً وبعد غد وتدهمنا اليوم أجمعين، وآباءً، أو أبناءً وأحفاداً، رجالاً كنا أو نساءً، مثقفين متعلمين كنا أو أميين، حكاماً كنا أو محكومين؛ فإن المقبلات من الرياح الأشد عصفاً وإجراماً، لأشد هولاً من كل مافات منها.. وغريزة البقاء تفرض علينا فَرْضاً أن نصحو من السبات الذي كم طال أمده ومداه...

وما إقدامي على إصدار هذا الكتاب اليوم، إلا خطوة على هذه الطريق التي أراها ماتزال طويلة جداً، عسيرة جداً، غير سالكة أبداً، ورغم ذلك، ليس ثمة من طريقٍ أخرى، أمامنا، سواها... ولا مفرَّ لنا قط منها، وهي طريق ضيقة جداً، تحفها من جانبيها وديان سحيقة جداً، زاخرة قيعانها بحشر من الضباع الجائعة، والذئاب الضارية، والثعالب المراوغة، والنمور القادرة، وعجيجُ الثعابين الفحّاحة، وهي تزحف اليوم على بطونها، صاعدة من قيعان هذه الوديان السحيقة نحونا، ونحن حفاة عُراةٌ متنابذين متفرقين مبعثرين على قارعة هذه الطريق الضيقة الطويلة غير السالكة، نجتر أوهامنا من ضروع ضباب الغيوب، بعد أن فرَّطنا بتوحُّدنا، وهَجْرنا كل المناقب والمثل العليا، وخاصمْنا عقلاءنا، وأحيانا ما سلَّمنا قيادَنا إلى بعض السفهاء منا، وآثرْنا السارق على الأمين، والكاذب على الصادق، والعجز على الاقتدار، والجاهل على العالم، والجبانَ على الجسور، والجنون على الحكمة، والأوهام على الحقائق، والظالم على العادل، وظلمة الليل البهيم على وهج النهار الوضيء، والحرام على الحلال، والخفّاش على الفَراش، وَسائلَ الزرنيخ على الماء الزلال القُراح؛ والنفط على اللبن الحليب، والعاهر الداعر على المعتصم بالأخلاق. نعم هذه هي حالنا التي نخشى أن نراها، ويسوءُنا أن يكشف عنها غيرنا، ويغرينا أن ننكرها آناء كل ليل ونهار؛ وأمة كهذه الأمة التي ننتسب إليها، لا فكاك لها من أن تحصد اليوم ما زرعته يداها، ولا خلاص لها مما هي فيه من الهوان والتخلف والتبعية ــ مباشرةً علنية كانت أو غير مباشرة، خفية ــ إلا بأن تدرك أنها اليوم أمة عليلة مريضة؛ ولا يضيرها أن تفوز بهذا الإدراك الفقيد، ولا أن تعترف به؛ وإنما الذي أضارَها ويُضيرُها اليوم جداً، أن تنكر أنها عليلة مريضة، وأنها في حال من الكساح والعقم والعقر؛ توجب البدء بالمداواة، وإلاَّ، جرفتها السيول العارمة هذه المتفجرة اليوم من ينابيعها في أمريكا وبريطانيا وإسرائيل، سيولاً ترفدها روادف، تحيط بنا اليوم من الجهات الأربع، لا بهدف أن تدمر العراق وحسب، كما يزعم دهاقنة الظلم في واشنطن ولندن وتل أبيب، بل بهدف اتخاذ العراق منطلقاً لها، تتدفع من أرضه وسمائه نحو جميع الأقطار العربية والإسلامية في آسيا وفي إفريقيا وفي آسيا الصغرى وفي أوروبا وفي شبه القارة الهندية، بل أية

منطقة في الأرض، يقيم فوقها العرب والمسلمون الذين أنعم الله عليهم بثروات طبيعية فرطوا بها تفريطاً ذميماً، فسُلِبَتْ منهم سلباً قسرياً، وهم عليها مؤتمنون، وعنها لاهون، فلماذا يكون اليوم النواح والغضب والعويل والاعتراض على كل ما أصابنا ويصيبنا منذ سنين، إن نكن نحن الذين زرعنا ما نحصد غلاله اليوم، وإن نكن نحن الذين فرَّطْنا بثرواتنا الطبيعية التي أنعم الله بها علينا، وإن يكن بعضنا قد استجلب (الاستعمار) من جديد من وراء البحار، لا ليكون هذا (الاستعمارُ العائد) بدعوة من صاحب البيت، شريكاً له وحسب، بل سيداً عليه، يأمره فيطيع وينهاه فيمتثل، ويطلب إليه أن يوقع على معاهدة سلام مع إسرائيل فيوقع، ويناديه إلى التطبيع مع عدو أمته التاريخي الأشرس، فيلبي النداء...

هل فات الأوانُ الآن؟ وهل لم يعد ثمة من بصيص أمل حقاً، للخلاص مما نحن منذ حين فيه؟

هذا هو السؤال العسير الذي لا ولن يجيب عليه غداً أو بعد غد، إلا الذين اشتروا وسيشترون الموت على طريق الاستشهاد، لكي توهب الحياة من جديد إلى أمتهم العربية التي إليها ينتسبون، وهي الأمة المأزومة باعتلال بعض أعضائها الذاتي، وهو تأزم لن ينفرج إلا ببتر هذه الأعضاء عن بقية أجزاء الجسد، بعملية جراحية غير هينة ولا يسيرة... وإذا كانت الأراضي الفلسطينية المحتلة، جزءاً من الأراضي التاريخية الطبيعية لما يسمى ـ (سورية الكبرى) أو (بلاد الشام)؛ وما دامت قضية العرب الأولى المركزية هي (قضية فلسطين) بما فيها قضية الأراضي العربية المحتلة بالاغتصاب العسكري صيف العام 1967، ومنها أراضي الجولان السورية؛ فإن من البدهي إجراء هذه العملية الجراحية التي تَحُضُّ اليوم على إجرائها، في موضع لا يكون خارج حدود بلاد الشام، حيث الخندق الأخير من خنادق الأمة العربية الأخرى التي رُدِمَتْ ردماً، والتي سيسهل ردمها بعد ردم خندق العراق...

حتى تكون دعوتنا هذه واضحة أكثر، فإننا لنطالب بكل العلانية والوضوح؛ أية دولة عربية لها علاقات بإسرائيل بفصْم فوري لهذه العلاقة، وإغلاق المكاتب الإسرائيلية في أية منطقة من الأراضي العربية، خفية كانت أو سافرة، وبتطوير العلاقات العربية الإيرانية والتعميق لتكريسها على صعيد

جميع الدول العربية دون أي استثناء، ورفع الوصاية عن دعاة المجتمع المدني في الوطن العربي كله، وبنزع الفتيل من لغم التضاد الديني المذهبي، وبخاصة بين الشيعة والسنّة، في جميع أرجاء العالمين الإسلامي والعربي، وبالعمل على إغلاق القواعد الأجنبية العسكرية في شبه الجزيرة والخليج ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ووسيلة، وبإنعاش مكتب المقاطعة العربية في دمشق، وهو واحد من مكاتب جامعة الدول العربية، وبإصدار تشريعات أشد ردعاً لظاهرة (الفساد) في دول الوطن العربي، وبإعادة النظر، بالسرعة المستطاعة، ببرامج التعليم في مراحله الثلاث كلها، في جميع الدول العربية؛ وبالتضييق ما أمكن التضييق على ظاهرة تسرب الثقافة الغربية إلينا، عبر الأفلام والأقلام والمسلسلات والأغاني والموسيقى الغربية الشبابية، وبإحياء التراث العربي من الفنون بخاصة؛ وربط أجيالنا الشابة به، وبحماية اللغة العربية الفصيحة من مزيد التآكل الذاتي، منطوقة كانت أو مكتوبة أو مطبوعة، وإحياء قانون (من أين لك هذا؟) في الوطن العربي كله، وخاصة على صعيد المسؤولين الحكوميين في الدول العربية قاطبة، وتشديد العقوبات على كل من غش وطفَّفَ الكيل، والإفراج عن (الديمقراطية) المعتقلة في الزنازين العربية...

كل هذا، وغيره من مثله كثير، شروط واجتياحات تفرضها الدعوة إلى الإصلاح المطلوب، في المرحلة هذه التي فُرِضَ ويُفْرَضُ على الأمة العربية خلالها، أن تواجه هذا المنعطف الأخير الأشد خطراً، المفضي إلى واحد من احتمالين لا ثالث لهما: حياة وبقاء، أو موت وانقراض، وكلاهما متاح ممكن. فإنْ نحن تأخرنا مدة أطول عن البدء بعمليات الإصلاح «اليومَ اليومَ وليس غداً»، عَسُرَ علينا هذا البدء من بعد، وربما استحال علينا بعد فوات أوانه. اللهم كن معنا إن نحن بدأنا السعي الرشيد نحو الخلاص مما نحن منذ حين فيه. اللهم قِنا من الجحيم الأعظم العاتي الآتي. اللهم بك وبعقلائنا وحكمائنا وشهدائنا، نلوذ ونستغيث، فأغثنا وطهِّر وجُودَنا العربي المضطرب الحائر من السفهاء الأذلاء المتاجرين بثرواتنا وأراضينا وخيراتنا وحقنا في تقرير المصير، من حكامنا المسيطرين؛ إنك الرحمن الرحيم، وعلى كل شيء قدير...

ملحق صور الفصل 7

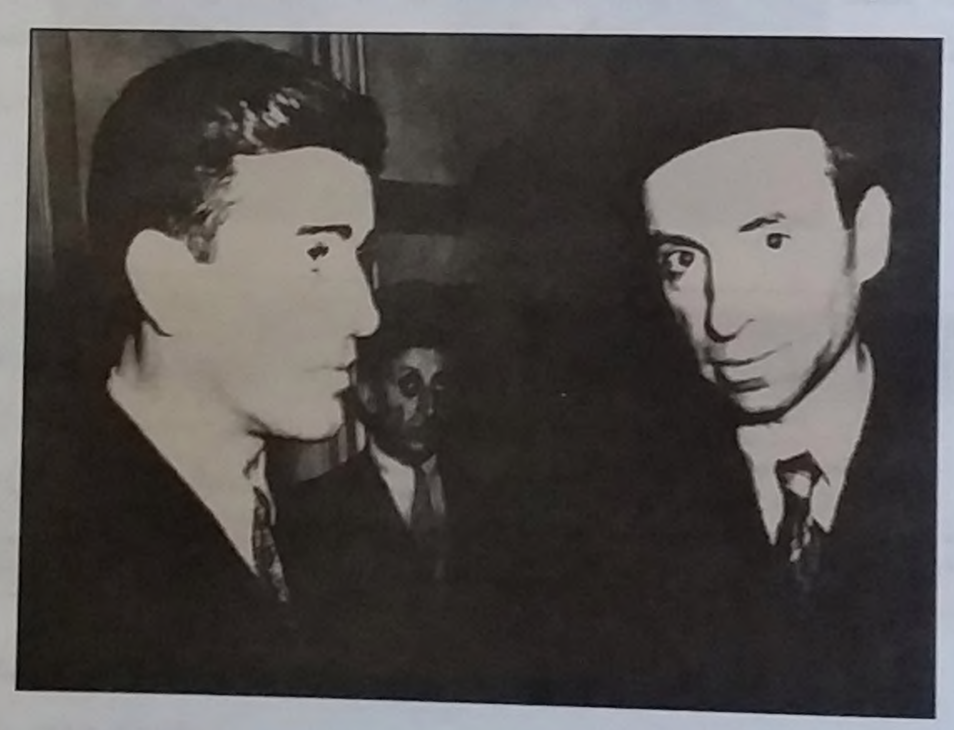




هل أعدموا
عبد الهادى البكار ؟

بيروت ــ وكالات الانباء
ترددت هنا انباء قوية تقول ان موظف الاذاعة السورية الذى اعدمته السلطات السورية اول امس بتهمة تعطيل الاذاعة هو عبد الهادى البكار

عقب فشل حركة 18 تموز/ يوليه 1963 المسلحة بقيادة جاسم علوان في دمشق، عممت وكالات الأنباء العربية والأجنبية خبر إعدام عبد الهادي البكار، كما بثته الإذاعات المصرية ومنها إذاعة (صوت العرب) في نشراتها الإخبارية؛ كذلك نشرته الصحف المصرية في صفحاتها الأولى، وهذه صورة عن الخبر كما نشرته جريدة (الجمهورية) المصرية في صفحتها الأولى بتاريخ 20-7-1963 وهي محفوظة في قسم المعلومات والأبحاث في مؤسسة الأهرام المصرية، في الملف رقم (5588 ــ شخصيات).



ميشيل عفلق (بالطربوش) وأكرم الحوراني، أشهر وأخطر سياسيين كانت لهما بصماتهما في مجرى الوقائع والتطورات السياسية التي عصفت بحقبة من أشد حقب تاريخ سورية الحديث اضطراما واضطرابا خلال سنوات القرن العشرين الذاهب...

الصورة هذه من الأرشيف الخاص بالمرحوم خالد العظم رئيس الوزراء السوري الأسبق **(المذكرات ــ المجلد الثالث)**



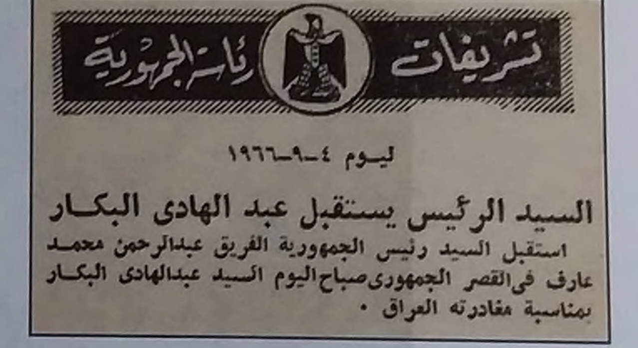
رقم التسجيل ٦٩٥

الاسم الكامل واللقب عبد الهادي البكار
العنوان الكامل مديرية الاذاعة والتلفزيون العامة
المهنة مراقب برامج الاذاعة
دائرة الاصدار مديرية الاذاعة والتلفزيون العامة
تاريخ الاصدار ٢١/١٠/١٩٦٤
توقيع حامل الهوية

تعليمات

١ ـ يجب حمل بطاقة الهوية دوما .
٢ ـ تبرز عند طلب السلطات المسؤولة او من يمثلها .
٣ ـ اخبار دائرة الاصدار او اقرب دائرة شرطة فورا عند فقدانها او تلفها .
٤ ـ صاحب البطاقة مسؤول عن كل تحريف او تزوير فيها .
٥ ـ ثمن بدل الضائع لهذه البطاقة ثلاثة دنانير بالاضافة الى المسؤوليات القانونية التى تترتب عل فقدانها او اتلافها او بطلان استعمالها بسبب التحريف او التزوير فيها .
٦ ـ يجب ان تختم كل بطاقة بختم مقر الحاكم العسكرى العام .

بهذه الصفة الوظيفية في العراق، مارست مهمتي السياسية لشن حملة إعلامية إذاعية يومية ضد نظام (عفلق/ بيطار/ أمين الحافظ/ صلاح جديد) منذ أغسطس/ آب 1964، وحتى أيلول/ سبتمبر 1966، وقد توَّجتها بالتفرد بالإعلان عن وجود الجاسوس الإسرائيلي إيلياهو كوهين في سورية، ومارست ضغوطاً شديدة جدا على النظام العفلقي سنئتذ، وأرغمته على محاكمة إيلياهو كوهين، والحكم عليه بالإعدام، وحولت تلك القضية السورية القطرية، قضية أمنية سياسية عربية قومية.



تشريفات رئاسة الجمهورية

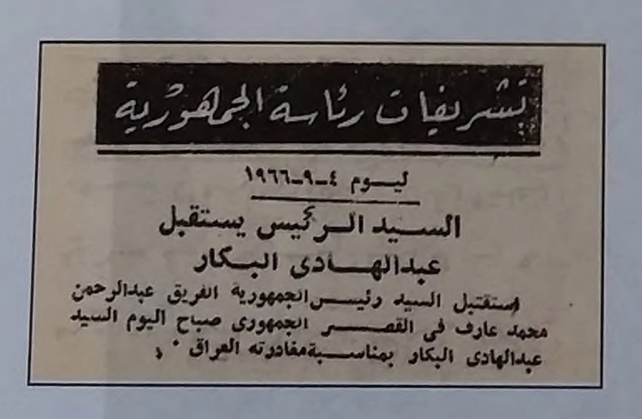
ليوم ٤-٩-١٩٦٦

السيد الرئيس يستقبل عبد الهادى البكار

استقبل السيد رئيس الجمهورية الفريق عبدالرحمن محمد عارف فى القصر الجمهورى صباح اليوم السيد عبدالهادى البكار بمناسبة مغادرته العراق .

جريدة (الجمهورية) الحكومية العراقية

العدد 953/5-9-1966



تشريفات رئاسة الجمهورية

ليوم ٤-٩-١٩٦٦

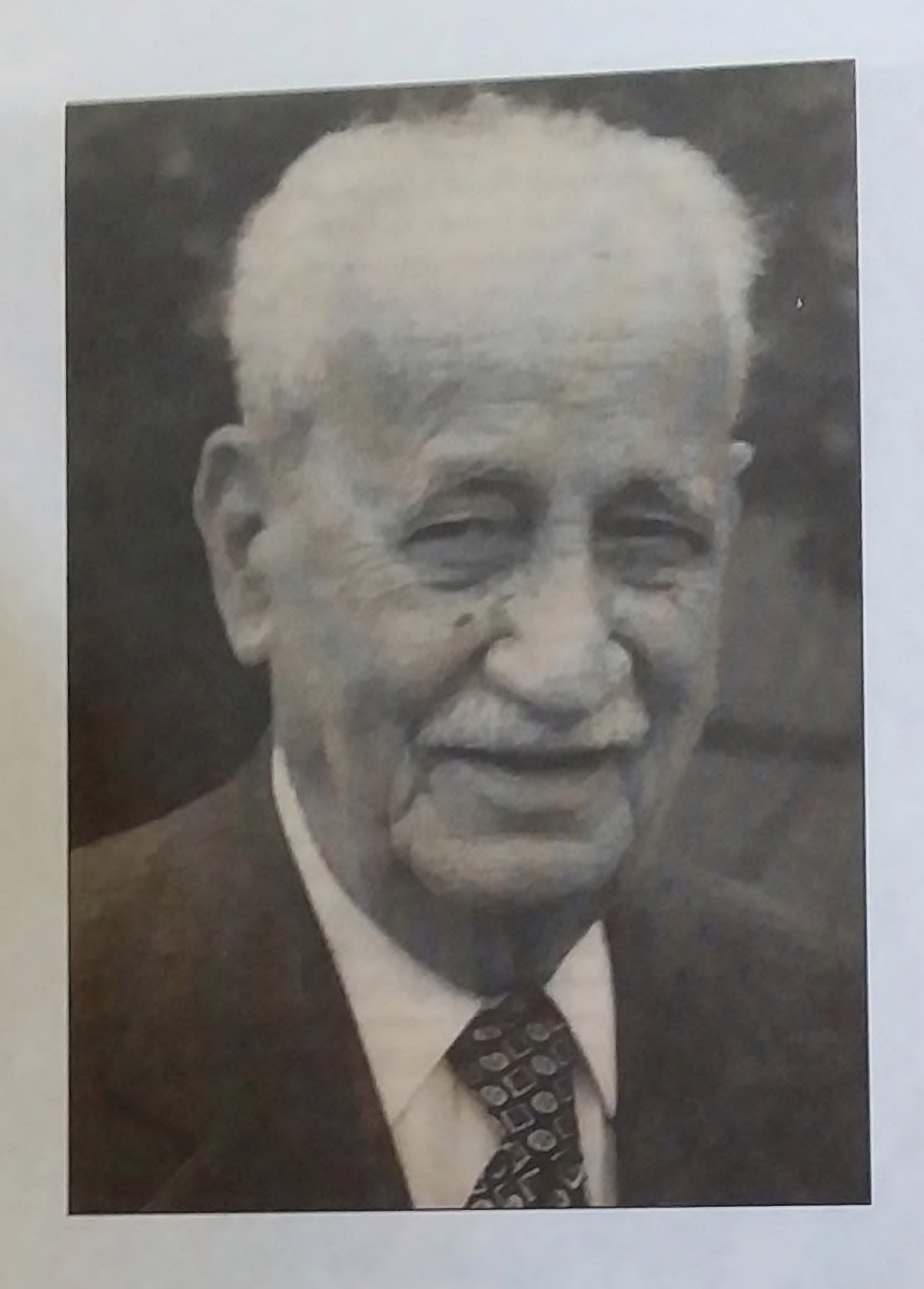
السيد الرئيس يستقبل عبدالهادى البكار

استقبل السيد رئيس الجمهورية الفريق عبدالرحمن محمد عارف فى القصر الجمهورى صباح اليوم السيد عبدالهادى البكار بمناسبة مغادرته العراق .

جريدة (الثورة) الحكومية العراقية

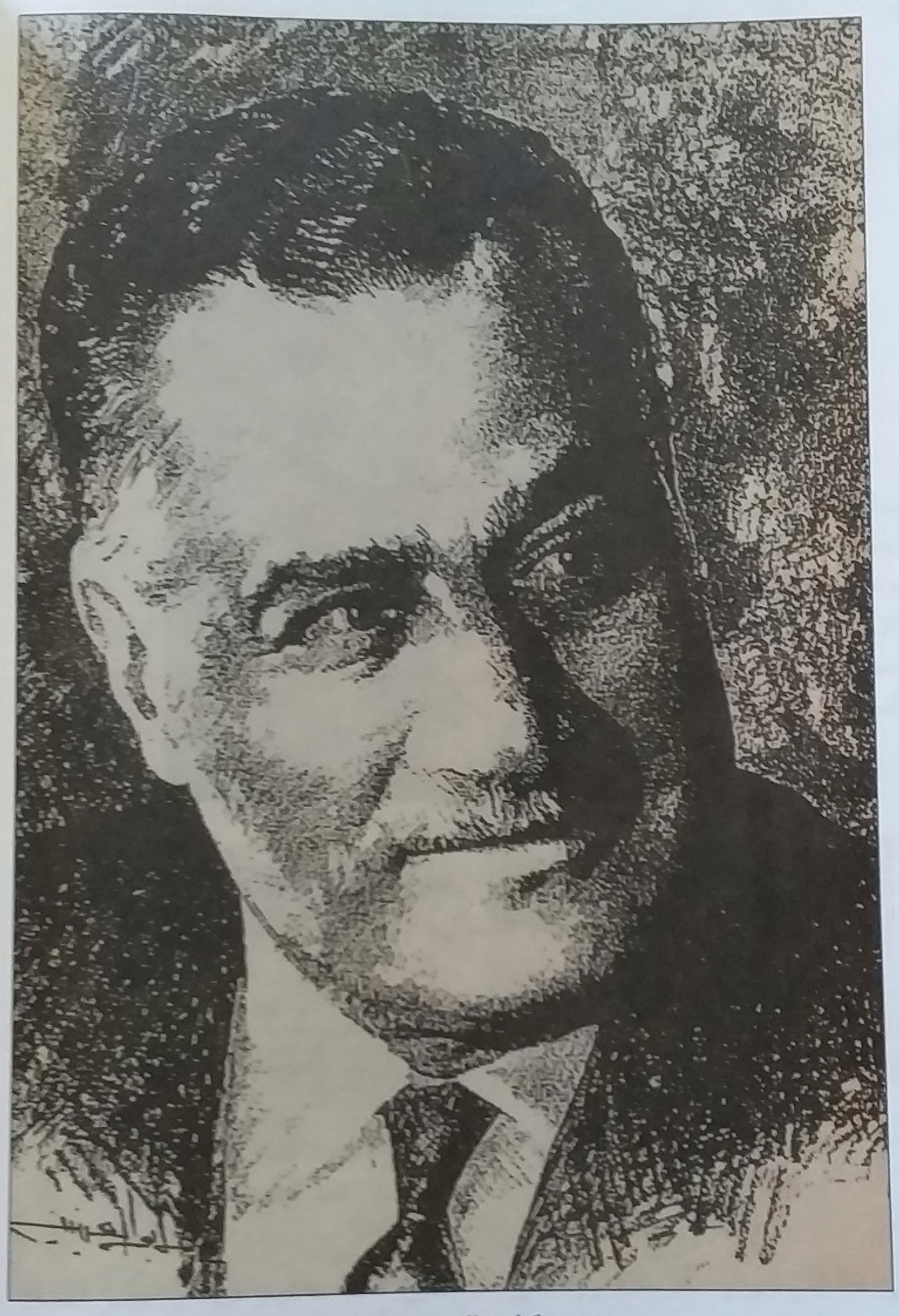
العدد 674/5-9-1966

على هذا المستوى ودعت بغداد وودعتني بعد سنتين أقمت خلالهما فيها، يواجهني احتمال الاغتيال كل يوم ليل نهار، على الرغم من وجود صدام حسين في أحد سجون بغداد، في فترات من سنتيْ إقامتي فيها في عهدي عبد السلام عارف وعبد الرحمن عارف.



الرئيس العراقي الأسبق عبد الرحمن عارف

بعد خمسة وأربعين عاماً من إسقاط عهده صيف 1968



صورة لجمال عبد الناصر

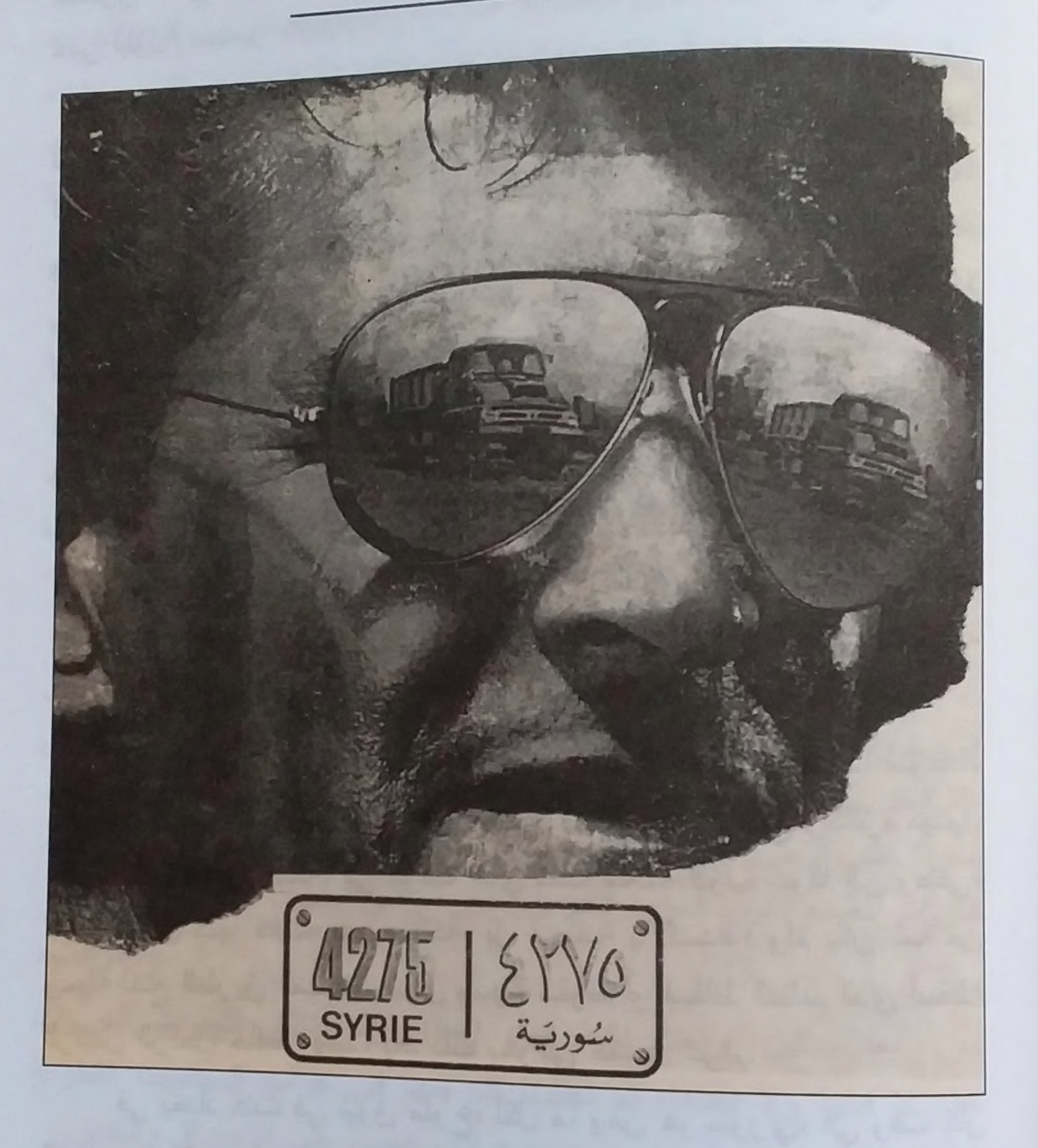
(بريشة أبو العينين)

الفصـــل الثامن 8

❑ هذه القصة تؤرخ لجيل كامل في تاريخ العرب الحزين. جيل ناضل من أجل الوحدة رالحرية والاشتراكية، فانتصر حيناً وانكسر آخر. تحكي كيف يعيش هذا الجيل، بعيداً عن قطره، داخل الوطن العربي الكبير، في حالة اللجوء السياسي، مشرداً على أرض التجزئة، التي لم يرفع بعد علمه على قممها... وحتى لقاء الثورات لتصنع الثورة العربية الكبرى، وتدق أجراس النصر

«الحوادث»

يومْ طاردَ المغتربُ الشاحنةَ الآتيـةَ من «بادية الشام»...



اخترت تخصيص الفصل الثامن والأخير من كتابي المطبوع هذا، لقصة قصيدة كتبتها إذْ أنا مقيم في بغداد، أقود حملة إذاعية سياسية يومية عبر موجات الإذاعة العراقية، بالتنسيق مع قيادة النظام الناصري في مصر، والرئيس عبد السلام عارف في العراق، ضد النظام الذي أقامه في سورية عقب إسقاط عهد الانفصال، فجر الثامن من آذار مارس 1963، ذلك التحالف بين ميشيل عفلق، وصلاح البيطار وأمين الحافظ وصلاح جديد وأنصارهم

في حزب البعث والمؤسسة العسكرية والمؤسسات الحكومية السورية، وقد استغرق أدائي تلك المهمة العسيرة، سنتين ونيف، من آب/ أغسطس 1964 حتى أيلول/ سبتمبر 1966.

وقد كان عليَّ أن أتشدد في تلك الحملة السياسية الإذاعية اليومية، على أمل أن نتمكن من إسقاط ذلك النظام السوري، الذي قوضه الرئيس الراحل حافظ الأسد، بالضربة القاضية، دون أن تطلق خلال عملية التقويض، رصاصة واحدة، في 16 / 11 / 1970، بعد وفاة جمال عبد الناصر بحوالي شهر ونصف؛ ولو أن عمر جمال عبد الناصر امتد حتى قيام الأسد الراحل بالحركة التصحيحية، لباركها وشجع الأسد الراحل على القيام بها، على أمل رأب الشروخ والصدوع التي باعدت ما بين القاهرة ودمشق بوقوع الحركة الانفصالية السورية، ثم ما بينهما بُعيد وقوع ثورة الثامن من آذار/ مارس 1963.

في بغداد وأنا في غمرة احتمال مواجهة الاغتيال كل يوم، اكتشفت أنه لا جدوى للنضال خارج حدود الجغرافية للقضية، أي قضية، فإني كما اكتشفت أن الاغتراب هو الانتحار بعينه، فإن وطن المواطن، هو بالنسبة إليه أبوه الذي يستحيل استبداله بغيره.

كنت أصرخ كل يوم، عبر مايكرفون الإذاعة العراقية، مهدداً متوعداً، محرضاً الشعب السوري على الثورة ضد النظام الذي وضع ركائزه ميشيل عفلق، والمتحالفون معه؛ في الوقت الذي كنت خلاله أذوب شوقاً إلى وطني، لكن الطرق كلها كانت غير سالكة، بل محتقنة بالانسداد؛ ولم يكن ثمة من وسيلة لفتح الطريق المنسدة، سوى وسيلة سقوط أو إسقاط النظام الذي أسقطه الرئيس الراحل حافظ الأسد، بعد ذلك بحوالي خمسة أعوام.

في بغداد كنت في شوق ملوّع، لكل ما ومن هو سوري، في وقت كان المهاجرون السوريون من اللاجئين السياسيين إلى مصر الناصر وعراق عبد السلام عارف، مذلولين، متهمين بممارسة فعل التسوُّل، وقد كنت على يقين من أنهم قد ندموا على تورطهم بالهجرة من وطنهم السوري، وأنا واحد منهم؛ فقد كان السجن في الوطن، أرحم من الإذلال في عالم الاغتراب خارج حدوده، وبخاصة أن المغترب عن وطنه السوري في تلك الحال، أضناه احتمال ألا تتاح له فرصة العودة إلى وطنه، وهذا ما حدث لكثيرين منهم، فقد

ماتوا في عالم الاغتراب دون أن تتاح لهم فرصة العودة إلى الديار في مساقط رؤوسهم رحمهم الله.

في ملحمة تلك الآلام العصبية المدمرة شَخْصَ المغترب وأفرادَ أسرته المشردة معه، وفي ظهيرة يوم قانط بلغ شوقي إلى وطني أقصى مداه؛ خرجت وحيداً من منزلي في حي المسبح في منطقة (كرّادة مريم)، أطوف بشوارع بغداد، متسكعاً في أزقتها وحواريها الشعبية.. وفي لحظة مباغتة كصاعقة، عبرت بي سيارة شحن سورية، محملة بمختلف أنواع الخضار والفواكه، مقبلة من الأراضي السورية...

كان لقائي بالشاحنة وهي تعبر بي دون أي اكتراث، تجربة شعورية انفعالية شديدة الإرهاق... وفي مساء ليلة ذلك اليوم القائظ، سجلت مشهد هذا اللقاء غير المنتظر، في قصة غير قصيرة، غير طويلة، أرسلتها إلى الصحافي الراحل سليم اللوزي، صاحب مجلة (الحوادث) الشهيرة، رئيس تحريرها، فنشرها في مجلته على نحو شديد الإبراز، وقدمها إلى القارئ، بالأسطر الآتية:

هذه القصة تؤرخ لجيل كامل في تاريخ العرب الحزين. جيل ناضل من أجل الوحدة والحرية والاشتراكية، فانتصر حيناً وانكسر حيناً آخر. تحكي كيف يعيش هذا الجيل، بعيداً عن قطره، داخل الوطن العربي الكبير، في حالة اللجوء السياسي، مشرداً على أرض التجزئة، التي لم يرفع بعد علمه على قممها... وحتى لقاء الثورات لتصنع الثورة العربية الكبرى، وتدق أجراس النصر.

«الحوادث»

بعد سنتين، وقعت نكبة العام 1967، ولم تتلاق الثورات العربيات قط، لا قبلها ولا بعدها، ثم تعلّبَتْ كل منها في جراب السياسات القطرية اللا قومية، وهو جراب مصنوع من فولاذ، عصيٌّ على الاختراق والكسر.

ولقد أهديت قصتي هذه، وأنا بطلها، يوم نشرت في مجلة الحوادث صيف العام 1965، إلى «الأصدقاء، وإلى الأعداء. إلى كل إنسان له وطن»، وها أنذا اليوم أجدد هذا الإهداء، بعد مرور ثمانية وثلاثين عاماً على نشره في مجلة «الحوادث»، فإن ما كان قائماً من ظواهر وحقائق الفُرقة العربية

في الوطن العربي، في الزمن العربي قد تجمّدَ تجمُّدَ حبّ الصقيع: لا يتغير شكله ولا لونه هو الجماد بعينه.

وليغفر لي القارئ أنني ابتدعت لهذه القصة الواقعية بكل ما هو وارد فيها، عنوانا آخر غير الذي كان عنوانها يوم نشرت في «الحوادث» في صيف العام 1965.

ع. ب

على الرغم من أنني لست جرادة، ولست في شراهة الجراد، فقد أرهقني شعوري المفاجئ بـ (مسؤوليتي الشخصية) عن (تواجدي العضوي) في بغداد، لاسيما وأن المدينة تعاني منذ أمد بعيد من سرب جراد راحل مثلي عن وطنه، حطّ قبلي في حقول السعف والنخيل. وهو اليوم يمارس لعبة الشقاء اليومي تحت وهج الشمس الحارقة. باحثا عن شيء مجهول لا يجده، ومع ذلك يظل يبحث عنه لاهثا وراءه، مثل مطارد في ليل المطر. قدماه تجوبان في وحل الطين، وعصف الريح يطوقه من كل الجوانب. كنت تعصف مشاعر أصحاب الحقول من حول جراد سورية المشرد. بعضهم يرحب بالمشرد يوما، يومين. شهرا، شهرين، ربما أكثر؛ لكن، سرعان ما يجيء أوان (العُطْل الطارئ)، فإذا برحى الترحيب تتوقف عن الدوران، وإذا بالكلام المعسول وبريق الترحيب في العيون، تتوقف عن (إنتاجه) أيضا رحى الترحيب المعطوبة. بعضهم الآخر منذ البداية لا يرحب، مكتفيا بالسكوت على مضض، بصمت له ملغوم مريب. أما البعض الباقي من أصحاب الحقول المزروعة، فعادة ما ينتظر حلول موعد الظلام. فإن الجراد حاصد للحقول، وإن في الأرض لأصحاب حقول يشتهون أكل حشرات الجراد، مشوية، تحت ضوء القمر.

لو عرف الجراد ما تبيته له الأقدار وبعض أصحاب الحقول في مصر والعراق، لما هاجر من مواطن الفقس، ولكان اختار (الصيام) سلاحا لاتنحدره هناك... هناك في الأرض التي هاجر منها وهي خصيبة بالاخضرار.

غالبا ما تكون الحقول الجديدة التي تحط عليها أسراب الجراد المهاجر، أكثر جدبا، وأشد إنهاكا وإرهاقاً، ومع ذلك فإن الجراد حين يضرب في الهواء جناح الرحيل، يسهل عليه أن يحط فوق حقول جديدة، دون أن تسبقه إليها (فرقة استطلاع). فما يأكل الجراد المنهك من زرع فيها له صلابة الخشب اليابس، ولا يرتوي من ماء في أنهرها غير موجود، ولا ترعاه في مستقبل الأيام فيها رحمة مناخ غير استوائي، لكنه على جميع الأحوال يلتصق بها التصاق الذباب بتيجان الملوك الأفارقة (ولقد يزين الوهم والجهل للذباب المداهم تيجان الملوك السود، أن وقفة منه فوق جواهر التيجان كفيلة بمنحه بعض الحقوق الملكية!)... وهكذا تحلُّ على الجراد من حيث يريد أولا يريد، من حيث يدري أو لا يدري، لعنة العقاب في يوم المفاجأة غير المتوقعة، فلا يملك غير الاستسلام إلى مصيرٍ له محتوم: وهو موت الأسراب المهاجرة، جائعة تالفة فوق صخور الأرض الجدباء، شفاه جرادها المنشارية ــ لحظة الموت ــ تَعُضُّ حفنة من تراب مُمْحِلٍ، لا زرع عليه ولا ماء، بل نمل فوق نمل يفترس في كل المواسم كل المحاصيل.

كانت الشمس عيْناً من وهج ذهبي ساخن دفاق تحت سيول اللهب غير المرئية، أشباح أناس يتحركون عبر أشلاء سيارات كبيرة وصغيرة تعج بركاب وبضائع مختلفة.

على رصيف (حديقة الحيوان) قرب مبنى (المحطة العالمية للقطار) ثمة بائع (لحم مشوي) ناره وبضاعته على عربة من خشب ملون، حولها جمع من الجائعين ينتظرون صامتين، كلاً بدوره وبالتسلسل، أن يأكلوا لحماً طازجاً مشوياً، غير متأففين من سحاب دخان ممزوج بأبخرة دهن ولحم يحترق، مصلوب على (أسياخ) حديدية، متمدد فوق فراش من جمر ورماد. (يقع الدم المتخثر حول فوهة شريان في رقبة الذبيحة المشبوحة على عمود صغير فوق العربة، كانت تثير في المتجمهرين بصمتهم الملغوم، مزيداً من التلمظ، مزيداً من تنشيط شهوة «الانقضاض المدني» على اللحم المشوي الذي تخترقه أسياخ حديدية... وفي لحم الرقبة زهرة قرنفل، وعسلوجا أخضر من نبتة الريحان).

بالضبط، كانت الساعة تشير إلى الثانية... وكنت في طريقي إلى (مبنى الإذاعة) من منزلي المطل على (حديقة شركة المنصور). كان عليّ أن أذيع نشرة الأخبار.

تساءلت وأنا أتحسس رقبتي من الوريد إلى الوريد:

ـ أفلم يكن بالإمكان خروجي من الدار في موعد آخر غير هذا لا يكون الحشر فيه منتشراً على هذا النحو في شوارع بغداد؟

كانت.. مصادفة...

بين أشباح السيارات والعربات والناس المسرعين، كان ثمة جانب من خلفية سيارة شحن كبيرة لاح لي من خلال الازدحام الآلي والبشري كأنما هو هدية مفرحة قدموها إلى طفل يتيم في عيد ميلاده: قطعة مستطيلة من حديد مطلي بلون أحمر داكن، كانت مثبتة فوق الجانب الأيمن من خلفية سيارة شحن كبيرة. كان مخطوطاً على صندوق خشبي مثبت إلى جانبها، بخط رديء مزخرف: (راجعة بإذن الله)... وعلى الزاوية اليمنى من الصندوق رسم كف تتوسط راحتها صورة عين إنسان بأهداب طويلة، وكلمات تقول: (الحسود تبلى عينه بالعمى)... ولم ينسى الرسام أن يفقأ عين الحسود في الكف المبسوطة بسنان رُمْحٍ اخترق البؤبؤ من وسطه، فأدماه... بينما كان مخطوطاً على القطعة المستطيلة بحروف من حديد أو معدن الرصاص: (4275 ــ سورية).

«... ويا سائق السيارة.. كائناً من كنت.. تمهل.. تمهل ولا تسرع.. كن رفيقاً بالضغط على "البنزين".. فاسم الوطن مكتوب على (لوحة معدنية) تزين جسد عروسك الحسناء».

كانت إطارات السيارة كبيرة الحجم، مكتنزة، صلبة، وكانت مخضبة بطين كستنائي، متخثر فوقها... لعله غيمة ترابية من ثرى الوطن البعيد نقلتها الإطارات لتمطر أسى الحنين في نفس المهاجر المتشرد...

«تمهلّ...

يا سائق السيارة تَمَهَّلْ...

وكائناً من كنتَ تمهَّلْ...

تمهّل، وامنحني ذرة طين تخثرت فوق الإطار»...

أفليس هذا الطين من وحل بوادينا الشرقية تلك التي عَبَرَتْها أيضاً أسراب المهاجرين؟

لم يمنح سائق الشاحنة، إلى المهاجر المتشرد، هديةَ التمهّل...

ولحظةً... ثم غاصت الأرقام والكلمة ذات الحروف الخمسة في مستنقع النقيق الآلي وخُطى الناس المسرعين... وحجبتها عن ناظريه شبكة كثيفة من أرقام سيارات عربية وأجنبية... وظلت لوحة الـ (4725 ـ سورية) في عين المهاجر المتشرد شَبَحَ شاشة بانورامية اختلجت فيها الذكريات القديمة، وانساب معها دخانُ الحنين. وشيئاً فشيئاً بدا في العين السحرية أن الماء الحلو مايزال يضم بين ذراعيه المضفورتين من النسيمات المنعشة، الوهدة التي تتفجر فيها بكل اللطف والوداعة مياه (بردى) الرائقة، تنساب رقراقة صافية، في صمت غير موحش، عبر واد مخضلّ خضرته شبه دائمة... حتى إذا ما شارفت على الوصول إلى مدينة الشام، تفرقت وتوزعت، ثم كانت في الوادي وعلى الربوة، ضفائر سبعاً من مياه تطرز المدينة وحواشيها بعشرات السواقي والجداول الفرعية وأعراس الخضرة والعرائس. ورغم أن الماء قد جف من بعض ضروع الينابيع، فأشجار الصفصاف والدُّلب والتين البعل والسّوادي مابرحت على ضفاف الضفائر السبع مطمئنة ساجية، تعطي الثمار يوم تكون قادرة، وتعطي جسدها خشباً أو حطباً لكوانين الشتاء يوم يصيبها عقم أو يوم تشيخ...

هي لعبة (الإدمان على العطاء) على ضفاف الضفائر السبع في الشام إذن، ما تزال مستمرة.

... وبشكل أوضح بدا أيضاً عبر زجاجة العين السحرية التي سكنت عين المشرد، أن أزهار المشمش في غوطة المدينة ذات الضفائر السبع من مياه لمّا تزل تفوح بالأريج، تحقن كل ما حولها بروائح منعشة، وأن العصافير التي خلّفها الراحل في أعشاشها القشية، ذات زغب، قبل سنوات، تزقمها أمهاتها حَبّيتَ القمح والبقول، قد كساه اليوم ريش طويل ملون.. وهي الآن تسافر على شعاع الفجر كل أصيل، من أعشاش لها خبيئة في سامقات أشجار الحور أو شجيرات العليق والزعرور، إلى حيث بيادر القمح، أو

مفارش الفول، لتعود في الضحى أو في الغسق، بمناقيرها المنمنمة بعض الغذاء، تجمعه مخزوناً أو تزقمه لعصافير صغيرة ذات زغب. هو الدم إذن متدفق في كل شريان. لم تتقطع سيول دم الشرايين إذن عن الجريان لمّا غادرت حقول بلادي أسراب المهاجرين من جراد أو سنونو كان يناضل!

شعر قلب الراحل المتعب بالفرح فجأة وهو يجتر هذه التصورات، وأدرك بوضوح أن الحياة في الوطن الذي غادره لن تتوقف عن الخفقان بسبب ارتحال الذين هاجروا منه... وأنها سرعان ما تفرِّخْ أشياءها الجديدة، احتياجاتها الجديدة... أبطالها الجدد، لتملأ بهم كل فراغ. البديل قد ولد في الوطن على الفور إذن، والراحلون جميعاً قد ماتوا.

ــ مات الجراد. ماتت الأسود. ماتت الماعز، مات "السنونو الوطني" الذي انتحر بالرحيل.

ــ أهذا هو (كل الخبر) الذي سوف يكون حيث سنموت في أرض الغربة؟

ــ هذا هو (كل الخبر) الذي سيردده بعض الطيبين، ذات يوم، في أرض الوطن المعبود الذي غادرتموه...

ــ أفلن تتوقف الحياة عن التدفق، ولو لدقيقة واحدة، حداداً علينا، بعد أن نموت قبل العودة بزهو، إلى الوطن؟

ــ لن تتوقف. الأرض والزمان لا يبكيان.

ــ أفلن تجمح الشمس يوماً عن الشروق، ولو مجاملة لنا، بعد أن رحلنا؟

ــ لن تجمح الشمس، ولن يغرب شروق.

ــ أو لن (يموت) الأعداء لأننا رحلنا؟ أو لَنْ (يمرض) الأعداء... بعض الأعداء على أقل تقدير؟ أفلن تصيبهم مسّة من ألمْ الأرقِ والصداع؟

ــ لن يموت الأعداء. لن يصيبهم أرق ولا مرض ولا صداع. يا للمساومة! ويا لسوء التقدير!

ــ أفللعبث وحده إذن كان الرحيل؟

ــ فلماذا إذن رحلتم؟!

ـ لماذا إذن رحلنا؟ لماذا؟ ..لماذا؟

«مات الجراد. ماتت الأسود. ماتت أسراب الماعز وأسراب السنونو الذي رحل... وعلى أرض الغربة مات الراحلون»...

خبر مثير... وقد يكون يوماً مبعثاً للأسى السرّي في نفوس بعض الأحياء الطيبين... مدة يوم... ثلاثة أيام... مدة شهر... غير أن رمال الصباح التالي لن تلبث حتى تهب بالتأكيد حاملة معها حزمة (أخبار جديدة)... وشيئاً فشيئاً سيصبح (الخبر المثير)... خبر موت المهاجرين على الأرض البعيدة، (خبراً قديماً)... وسيتوالد الناس من جديد، ولن يكون لدى الأحياء حينئذ من زمن فائض يصرفونه في تذكر موتى كانوا من الآباء أو الجدود، رحلوا عن وطنهم يوماً اختناقاً بسمّ الشوقِ الزعاف قبل أن يعودوا...

رحل الجراد...

جاع الجراد...

مات الجراد...

أفي الغربة مات الجراد، أو فوق أرض الوطن من بعد... ذلك لن يهز أعطاف الوطن أبداً، ولن يجعل دماء الحياة لا تحرى يومياً في كل العروق. قدرة الوطن على الاستمرار في التوالد لن تتعطل، أعادت إليه يوماً أسراب الراحلين أم لم تعد أبداً.

همس وهو يمضغ شوك المأساة، متابعاً سيره وحيداً نحو مبنى (إذاعة بغداد):

ـ «نرحل نحن ونموت... عصافير كناري كنّا، أو ضباعاً أو أسوداً أو طيور سنونو أو حشرات جراد.

نرحل نحن ونموت، وتبقى أنت وتعيش يا وطناً معبودا كتبوا حـــروف اســـمك على لوحة معدنية خلف شاحنة ترحل عنك وتعـــود... وتبقـــى أنـــت وتعـــيش يا بستان لوز وكرز في سفوح الزبداني... يا مساكب شجر جوز وتين ورمان في غوطة الحب الظليلة... يا ميناء حبيباً غادرته مراكب الراحلين بلا وقود في المحركات، بلا قماش نرفعه أشرعة على صواري زوارق من قش تمخر عباب محيط من التشرد ليس له قاع ولا حدود...

يا وطن...

بالأظافر نحن الآن نجدف.. بدل الشراع...»

وتابع السير..

ورغم تشابك الصراخ وألحان الجاز النحاسي في داخله، رغم تكاثف الضباب أمام عينيه الزائغتين، لم يتوقف.. ظل يسير...

همس في نفسه: «لست جرادة. إنسان أنا رغم الهزيمة، ورغم الدمار الذي سيجيء. لي وطن. لي مدينة. لي نهر. لي بساتين أشجار خير وثمر وفير. من أرض كريمة أنا تعودتْ على أن (تعطي) دائماً، دون مقابل... وذات صباح قبل أكثر من خمسين سنة كان شهداء الشام أول شهداء (الوحدة العربية)، ورائحة الشحم على حبال المشانق لما تزل محشوة في جوف أغصان شجر صارت من بعد أخشاب مشانق، صلبوا عليها ذات فجر في (ساحة الشهداء) قافلة أوائل الشهداء في وطني العنيد».

ــ جرادة أنت. جرادة ثرثارة.. وأصحاب الحقول على ضفاف الأنهر الكبيرة، كدجلة والنيل، لا يستسيغون في العادة مداهمة الجراد لحقول آمنة يحرسها عسس متسلح سراً، بسلاح الإقليمية المتصلبة.

ــ يغزو الجراد حقول الزرع عادة ليلتهمها.. أما أنا فأبحث عن الطريق أعبّدها نحو (الوحدة العربية).

ــ يبقى الغزاة المداهمون في نظر أصحاب الزرع والحقول المترامية الأطراف على ضفاف دجلة والنيل، جراداً، حتى ولو جاؤوا الحقول على الضفاف للبحث عن طريق يعبدونها نحو الوحدة العربية. هناك فقط، فوق أرضك الأم وحدها سيبقى روحك المفقود. فوق أرض غير أرضك الأم لن تجد شيئاً آخر في انتظارك سوى أصبعين: واحدة للرحمة، وأخرى للاتهام. واحدة تعطيك الرغيف باسم اللجوء السياسي، وأخرى تصرخ فيك بصلف قاتل: خذ رغيفك يا متسولاً ثورياً من فصيلة الجراد. ولسوف تصمت. ولسوف تبتلع السكين مع الرغيف، لأن الجراد الثوري، يصير في الغربة جراداً عاجزاً عن النطق، عن الرفض، عن التمرد. السكاكين مع الأرغفة اليومية الممنوحة تسد الحلقوم بصورة نهائية وكلية ليس لك على أصحاب

الحقول على ضفاف دجلة والنيل، وضفاف كل الأنهار والبحار الكبيرة والصغيرة. حق التمجيد، مهما كنت عربياً، مهما كنت وحدوياً.

ـ لست جرادة. لست من غزاة باحثين عن رغيف مغموس بالعفونة، محشو بسكين. يرمونه نفايات على ضفاف الأنهار الكبيرة. كان رغيفي على ضفاف بردى مدهوناً بالسمن والعسل، ولأن الإنسان لا يعيش للرغيف وحده، حتى ولئن كان مدهوناً بالسمن والعسل، فقد هاجرت وحدي، قبل رحلة الأسراب، بحثاً عن طريق أشارك بتعبيده نحو عالم الحلم الزاهي: الوحدة العربية.

ـ كل الأسراب التي تهاجر ترفع على ضفاف الأنهار الكبيرة، مثل نهري دجلة والنيل، راية الإدعاء، والمثالية... بينما هي مدانة جميعاً بدمغة فصيلة الجراد. والآن أجبني: إن لم تكن في الأصل من فصيلة الجراد والقمل المهاجر، فما الذي دعاك إذن، ودعا أسراب الأسود والنمور والسنونو، إلى الرحيل عن الوطن الذي تعرفون جميعاً أن لا بديل له قط. أبداً، أبداً؟!

ـ هي الرياح.. هي الرياح يا عقلاً يقسو إلى حد السحق بالهموم.. هي الرياح ساقتني وساقت من بعدي أسراب سنونو وأسراب كناري وأسراب ماعز وغنم ونمور وأسود وقمل وبراغيث تدعي كذباً وبهتاناً أنها براغيث الثورة العربية الوحدوية!.. ولولا الرياح...

ـ (مقاطعاً) إن الريح، يا خفيف الوزن، لا تسوق سوى حشرات في الفضاء لا أعشاش لها تؤويها.. أما (عصافير الدوري وطيور الخفاش) حتى، ففي عصف الريح تستنجد بأعشاش لها تؤويها، فتؤويها.. وهي في زمان عصف الريح المفاجئ، والرعد المباغت، لا ترحل، ولا تسافر إلى البعيد واللا وطن.

ـ ما كان لنا هناك في الوطن المعبود أعشاش تؤوينا، وتنجينا من عصف الريح الذي جن يوماً ذات صيف من ذات سنة.

ـ هراء. هراء المغامرين. أن في أرضك الأم لجراداً أذكى، من ذات الفصيلة، وما كان له هناك أيضاً من أعشاش تؤويه أيام العصف.. غير أنه صمد وحمل المأساة على أكتافه.. لم يهرب، ولم يرحل في سوق الرياح.. وهو اليوم هناك لما يزل يبحث عن الخلاص.

ـــ لن يجد الخلاص على الأرض التي أكلتها النار.. النار هي الأخرى جراد يأكل بألسنة اللهب.. جراد أسطوري يكون الرعب، وتحل المجاعة، حيث يحل، وحيث يكون. نار وجراد، تلك هي خاتمة المطاف في بلادي.

ـــ مهما يكن، فجراد الرحيل سيبقى مداناً بالجبن والانتهازية. وسيكون أسود المصير.

ـــ الباقيات هناك من أسراب الجراد والسنونو والكناري، وأسراب الغنم والماعز والأسود والنمور والصقور والقطط والثعالب البرية، الباقيات هناك من الأسراب وسرايا الصبر مع الصمت والكآبة العميقة، مصيرها الموت بالاختناق السري البطيء...

ـــ شرف لها أن تموت اختناقاً في أحضان الوطن المعبود، لا فوق أرض غير أرضه، في مآدب النفايات والإذلال اليومي على ضفاف الأنهار الكبيرة. جراد الغزو الخارجي، جراد الرحيل سيقضي فوق ضفاف النيل ودجلة، شنقاً بأحبال الشوق والحنين اليومي إلى الوطن، غير المرئية.. ولحظة الموت سوف يهوي من خشب المشانق نحو الأرض التي اختارها بالمصادفة القدرية قبراً نهائياً لكل أماني أمته وأحلامه القومية، شفاهه المنشارية وهو يلفظ الروح ستعض على التراب المسموم في اللاوطن عضة كزازية أخيرة.. يا للمأساة! فإنه لن يكون ثمة مشيعون يحملون توابيت الجراد الذي سيقضي بعيداً عن أرض الوطن.

ـــ موتنا حنيناً.. موتنا بالشعور بالفجيعة حتى منتهى النزف والتدفق الدموي المجنون.. موتنا فوق تراب اللا وطن في حقول النخيل على ضفاف دجلة أو النيل، تضحية منا أخيرة.

ـــ الموت، كيف كان، انهزام. الموت خسارة. الموت ليس ربحاً أكيداً أبداً. الموت عقم. الموت فشل، الموت انهزام. تذكر ذلك جيداً وتذكر أن الشهداء لا يتوالدون. الأحياء الباقون، وحدهم، هم الذين يتناسلون. فلا تعقم.. فلا تعقم.

ـــ ألم في الصدغين يمزقني.. والاستسلام انهزام.. وإني قد مشيت.. ولن أتراجع...

ـــ أعرف هذا.. وأتساءل بالسخرية التي توجع قلبك: عم ستتراجع؟!! وإلى أين وصلت أنت بالسير الضائع على ضفاف الأنهار الكبيرة؟!! لم يعد أمام الجراد الذي رحل إلى مصر أو رحل إلى بغداد (مسافة) يمكن أن يتخطاها. تجمدت أجنحة الجراد بصقيع الحرارة على ضفاف دجلة والنيل. رحلة كل الجراد، غداً، عمودية. من أعلى إلى أسفل، من فوق إلى تحت. لم يعد أمام أسراب الجراد (أمام). ويا للمأساة التي كانت والتي سوف تكون: فكل عناقيد البلح على ضفاف دجلة والنيل، صارت في عيون الراحلين عن بردى والفرات، بلحاً، وكانت من قبل في الوهم عناقيد الأضواء الثورية. لم يعد ثمة ما يضيء في حقول السعف والنخيل على ضفاف الأنهار الكبيرة. لم يعد ثمة ما يضيء الدروب.. وطريق البحث عن عالم الحلم القومي لن تجدوه في حقول الضباب والعتمة النهارية. لن تجدوه بعيداً عن ضفاف بردى. لن تجدوه ولن يجده غيركم في أرض وطنكم العظيم التي كانت لكم يوماً أماً وأباً، والتي وحدها ستبقى موطن الإبداع والقدرة على القيادة غير التقليدية.

ـــ ههنا أنا الآن، سيزيف القضية: أحمل الأحلام على ظهري المتعب. فإذا ما بلغت القمة ـــ الهدف، تدحرج حملي وتدحرجت معه وتدحرجت معي الأماني والأحلام نحو السفوح لأبدأ من جديد رحلة الصعود، رحلة دوران فوقي وتحتي لا تنتهي.. ويمر الزمان، ويتلبد مذاقي، وتصبح رحلة العبث عندي هي العادة.

تذوق لساني طعم السفوح، وطعم القمم، فاعتادهما أخيراً مختلطين. ما عدت الآن أعرف أين مكاني. أفي السفوح أنا أم فوق القمم؟ اختلطت الفصول، اختلطت.. واختلطت معها عناصر المناخ حتى ضاعت الرؤية. وصار العمى غمامة تظل الجبل بكل قممه وجميع سفوحه.. وسيزيف القضية، سيزيف الشهيد في رحلة العبث ما انفك يحاور: (بقجة) الأحلام على ظهره، وبسمة البَلَه الساخر المدرك على شفتيه. أدرك ذلك... أدرك ذلك. أعرف التفاصيل، كل التفاصيل.. وأعرف أنه مقضي عليّ بممارسة الدوران، وبعبث البحث عن الشيء الذي لن يكون، حتى يجف دم الغضب الوحدوي من كل العناقيد، وتنزف آخر قطرة دم من ملايين الجراح.. ويوم سيعزّ الانتصار، وينتفي احتمال أن يكون، بصفة نهائية، فتصير حبات عناقيد البلح

على ضفاف دجلة والنيل، زبيباً، وتحل الهزيمة، إن حلّت الهزيمة، سأقضي بالاختيار انتحاراً، وستتساقط من شفتي كلمتان، تساقط أوراق الشجر الخريفية، في غمغمة مغموسة بوحل الموت الأخير: سورية.. و.. الوحدة العربية.

ــ مسكين. مسكين أيها المسافر المسرف الفقير. ضاعت الأيام، وتهتك الحلم القومي العتيق.

ــ بالغد أحلم.. بالنصر أحلم.. ولهما وحدهما تتفتح رُؤايْ.

ــ كان لك (الماضي).. واليوم أنت تستهلك كل (الحاضر) بالانتظار العقيم. لم يعد ثمة من (غد) يمكنك به أن تحلم.

ــ بعض الليالي عندي في زمان الحاضر الكسيح تزهر بالتفاؤل...

ــ تحلمون! تظلون تحلمون. تحلمون بالقناديل على ضفاف دجلة والنيل، بالضياء، بالسيوف، وأنتم على فراش الشوك، تنز الدماء من جراحاتكم الغميقة. سكنت إبر الشوك خنادق كل جراحاتكم الدامية، فاستمرأتم حتى طعم الشوك أيها الراحلون عن بردى النبيل. وإن لمن حقك أن تتذكر أنك يوماً على ضفاف (سواقي) بردى السبع، كنت إنساناً.

كنت إنساناً، وعلى فراش الشوك والغربة على ضفاف الأنهار الكبيرة صرنا جراداً. في عيون ملوك الأنهار صرنا جراداً، أعرف هذا. أعرف هذا.

ــ أفلا تغريك عودة إلى (وراء) إلى بساتين ضفاف السواقي التي كنت يوماً فيها من فصيلة البشر؟

ــ لن أعود موشوماً بعار الانهزام...

ــ هي المكابرة يا جرادة تحلم بأوراق الكروم وهي مصلوبة على أسياخ معدودة فوق فراش الجمر والرماد الساخن. وأن على ضفاف الأنهار الكبيرة لجائعين ينوون التهام الجراد، مشوياً! فماذا تنتظر؟!

ــ نحمل عار الوصمة، ودمغة الفصيلة.. نغوص في طين الاغتراب حتى الأعماق، فَجَلَدُنا على الصبر جزء من النضال في سبيل (القضية).

ــ تلك هي (قضية) فوق (القضية)...

ــ ما عدت أفهم يا مكابرة فارغة تتسربل برداء الرمز والغموض.

ــ أغرب عن الوجه يا صوت العقل الذي يكرهه قلبي.

— مثل الغارقين في النزع الأخير!

— قلبي يطفح بالأحزان، ونفسي تشتاق إلى صمتها القديم. فبالصمت قد تذوب كل الجراح التي كانت، والتي سوف تكون. بالصمت أتسلح، بالصمت أحارب. بالصمت أعيش، بالصمت سوف أنتصر، أو أنتحر.

قبل مبنى الإذاعة بأمتار قليلة صحوت على صوت مذيع يتدفق بنشرة أخبار من إحدى الإذاعات الخارجية، من مذياع مقهى رصيفي غصّ بلاعبي الورق والنرد، وبشاربي النراجيل والقهوة التركية. أخبر المذيع عن إنسان أشعل في جسده النار في أحد الشوارع الرئيسية في مدينة نيويورك اعتراضاً على ممارسات السياسة الأمريكية في بلدان الشرق الأقصى، فمات.

قال لاعب النرد متسائلا ببلادة، لرفيق له على الطاولة يتدلى من فمه (نربيج) نارجيله، فوهته مخروطة من معدن عتيق رخيص، متصل بدورق النرجيلة الشرقية، تقرقر فيه فقاعات مياه شبه صفراء:

— ولماذا أحرق نفسه الحمار.

أجاب الآخر، وقد أضحكته صيغة السؤال، فاهتز اهتزازات متتابعة، وكزّ على فوهة النربيج المعدنية بقواطعه الذهبية، وبدأ يُخرجُ من بين شفتيه، كالمتأففين، نفساً من الدخان المتهتك:

— مجنون.. ابن مجنون.. أغاتي.. ما تشوف؟ شيش بيش!..

وعادوا يرمون (الزهر) على (الطاولة) فيما بينهما سجالاً وهما يصوتان بالضحك الساخر على المجنون ابن المجنون داعية السلام الذي انتحر.. بينما شاهد المارة على الرصيف قرب مبنى (إذاعة بغداد) إنساناً ما، شاحب الوجه، مذهولا حتى الأعماق، مهرولاً بقدمين واهنتين تتعثران، متمتماً بكلمات مبهمة خافتة تشبه صلاة الغارقين في النزع الأخير، عيناه الزائغتان تبحثان بوله المجنون عن (شيء ما).. عن (اسم ما) عادة ما يكتبونه في لوحات معدنية معلقة خلف الشاحنات السورية الكبيرة...

بغداد 1965

صـــدر للمؤلــف

1 ـ **شهران في ألمانيا:** عن مطبعة الجمهورية ـ دمشق.

الطبعة الأولى أواخر العام 1960. (نفدت)

الطبعة الثانية أواخر العام 1961. (نفدت)

صدر موجزاً مترجماً إلى الألمانية عن إدارة الاستعلامات في بون ألمانيا 1961.

2 ـ **الحلف الرجعي الجديد في ضوء المشاريع الاستعمارية السابقة..:**

عن الدار القومية الحكومية للنشر ـ القاهرة.

الطبعة الأولى أواخر العام 1962. (نفدت)

3 ـ **المأزق: مصر والعرب الآخرون:** عن دار الموقف العربي للنشر ـ القاهرة.

الطبعة الأولى أواخر العام 1986. (نفدت)

وعن دار طلاس للنشر ـ دمشق

الطبعة الثانية أوائل العام 1987.

4 ـ **أسرار سياسية عربية:** عن (دار الخيّال) المصرية ـ القاهرة.

الطبعة الأولى صيف العام 2000. (نفدت)

5 ـ **صفحات مجهولة من تاريخ سورية الحديث:** عن دار الذاكرة ـ لبنان.

الطبعة الأولى صيف العام 2003.

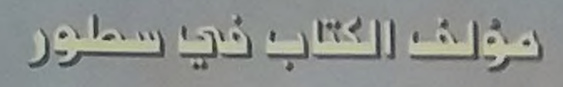
مخطوطات للمؤلف مجهزة للطبع

1 ـ أفكار من الأسفار ـ ثلاثة أجزاء ـ من أدب الرحلات ـ مصور.
2 ـ الثروة والثورة (34 عاماً في ظلاله ـ الشيخ زايد) ـ مصور.
3 ـ قضية الجزر العربية الثلاث ـ موثق ـ مصور.
4 ـ ايلياهو كوهين ـ الجاسوس والقضية ـ موثق ـ مصور.
5 ـ أحداث قفصه التونسية ـ موثق ـ مصور.
6 ـ صور من السجن ـ رواية كتب المؤلف فصولها إذ هو سجين في الزنزانة الانفرادية رقم واحد في سجن القلعة في دمشق في العام 1963.
7 ـ ذات الضفائر السبع ـ مجموعة قصص.
8 ـ زوربا العربي يجلس القرفصاء أمام الباب المغلق ـ مجموعة قصص.
9 ـ عواءٌ سوري في ليل العروبة والنفط ـ قصائد.
10 ـ أفكار مبعثرة ـ مقالات ـ عشرة أجزاء.
11 ـ صهيلُ جواد الشوط الخاسر ـ قصائد.
12 ـ أشجان الأحزان عالم الاغتراب ـ قصائد.
13 ـ أسُدُّ فَمَ جُرْحي، بنصلة خنجر ـ قصائد.
14 ـ عبد الهادي البكار: رسوم ولوحات.

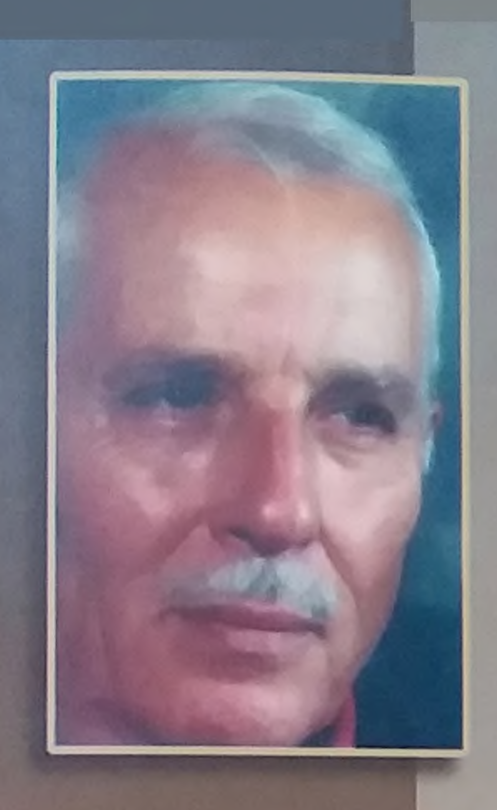
للاتصال بالمؤلف

ـ المستشار عبد الهادي البكار.
22 / شارع أنس بن مالك بالمهندسين ـ عمارة الفؤاد ـ الدور الرابع.
القاهرة / الجيزة / جمهورية مصر العربية.
ـ الهاتف: 7490763 ـ القاهرة.
ـ الفاكس: 7609014 ـ القاهرة.

الفهـــــرس



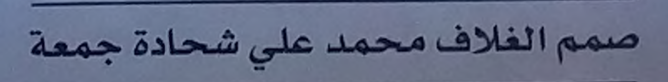
مؤلف الكتاب في سطور



- رجل عصامي، له إنجازات إبداعية بارزة في العديد من المجالات: منها الإخراج الإذاعي والتلفزيوني والسينمائي والتأليف في الأدب والشعر والسياسة والتصوير الزيتي والتحليل والنضال السياسي والكتابة الصحافية التي أوصلته إلى النجومية الإذاعية والتلفزيونية والسياسية والاجتماعية.
- عُين مذيعاً في الإذاعة السورية في 1 / 1 / 1951، قبل أن يتقلد من بعد عدة مناصب إعلامية قيادية مؤثرة في سورية ومصر والعراق وإمارة أبو ظبي.
- كان قريباً جداً من دوائر صنع القرار فترات من مراحل حياته، في كل من سورية ومصر والعراق وإمارة أبو ظبي، وارتبط اسمه بالعديد من الأحداث والوقائع العربية القومية.
- هجر ارتباطه بالمسألة الوطنية القطرية السورية خياراً، إلى رحاب العروبة القومية أربعين عاماً خارج حدود وطن مسقط رأسه ومهده السوري.
- عقب نكسة 1967، هاجر من مصر حيث كان يقيم منذ انسلاخه عن جغرافية وطن مهده السوري، إلى إمارة أبو ظبي، ومع قيام دولة الإمارات العربية المتحدة، اكتسب الجنسية الإماراتية بأمر خاص من رئيسها ومؤسسها التاريخي الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وبهذه الصفة، يقيم في القاهرة إقامة شبه دائمة منذ حوالي عشرين عاماً.
- عاش قضية اغتيال عدنان المالكي وتصفية الحزب القومي السوري التي أعقبت عملية الاغتيال، في ميادينها، وفي كتابه هذا يجيب البكار الإجابة الحاسمة المثيرة للجدل عن هذا التساؤل الحائر المخضرم: من خطط لعملية اغتيال عدنان المالكي؟

دار الذاكرة




صمم الغلاف محمد علي شحادة جمعة